عجائب التّوراة!

متخيلون وحكواتيون وبُحّاث

أورشليم ليست في القدس، ولا في اليمن،
ولا في الحجاز، ولا في الحبشة

هشام العاملي
HISHAM AMILI

دار الإنسان

عجائب التّوراة!

متخيلون وحكواتيون وبُحّاث

"Wonders of the Torah" - Scholars, Storytellers, and Visualizers"
BY: Hisham Amili
© All Rights Reserved to the author
Published by "Humanity House"
All yields of sales are reserved to the author.
ISBN: 978-9953-0-6228-0
First Edition - June 2024
London and Beirut 2024

الطبعة الأولى، بيروت - يونيو ٢٠٢٤
عجائب التوّراة: متخيلون وحكواتيون وبُحّاث
المؤلف: هشام العاملي
الناشر النسخة الورقية: دار الإنسان للنشر، شركة بريطانية مسجلة في إنجلترا
الناشر النسخة الإلكترونية: ekutub.info@gmail.com (تحت رقم ٩-٧٨٠١٧٨٠-٥٨٧٦٩١)
ISBN: 978-9953-0-6228-0
© جميع الحقوق محفوظة للكاتب
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونياً أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة إلى المصدر
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرّض صاحبها إلى المسؤولية القانونية. إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة أخرى غير موقع الناشر أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، بالكتابة إلى الناشر الإلكتروني: ekutub.info@gmail.com
يمكن الكتابة للمؤلف على العنوان التالي: hisham.elamili@gmail.com

عجائب التّوراة!

متخيلون وحكواتيون وبُحّاث

أورشليم ليست في القدس، ولا في اليمن،
ولا في الحجاز، ولا في الحبشة

هشام العاملي

HISHAM AMILI

دار الإنسان

الفهرس

إهداء ١١

مقدمة الكاتب: نشر غسيل! ١٣

حديقة أم متحف؟ ١٥

لكلٍّ مآربه ١٧

الفصل الأول: أشهر من نار ١٩

نمليّة كتب ١٩

مفارق ومحطات! ٢١

حجاب المظلومين! ٢٣

الرأي قبل شجاعة الشجعان ٢٦

غيرها أو قبلها؟ ٢٧

الفصل الثاني: خلفية المشهد ٣١

تفاحة آدم ٣١

أصل الحكاية ٣٤

ما هبّ ودبّ ٣٧

أضواء بلا نور ٤٠

«الخروج» بين الروهينغا وموسى! ٤٢

مطاط ومستور ٤٦

الفصل الثالث: منارة الزمن ٤٩

اِبتكار أم اِحتكار ٤٩

رطانة مقدسة؟ ٥٢

سير على جمر ٥٣

الفصل الرابع: في صميم الموضوع ٦١
الصليبي... وفرسان المواجهة! ٦١
اختبار الأسيد ٦٧
نظريات وملاحظات على مدّ النظر ٦٨
نمرود، سليمان، وسيف الدولة! ٧١
وجدوها وضاعوا فيها؟ ٧٥
«أنا قلبي دليلي»! ٧٧
رحلة الألف ميل ٨٣
الفصل الخامس: رحلة الخلود ٨٥
لا تقل أصلي وفصلي ٨٥
تاريخ من صوّان ٨٧
خرج ولم يعد! ٨٨
كواكب ودابة ٨٩
واشنطن سومرية ٩١
هندوسي أم هندي؟ ٩٤
مجوسي أم فارسي؟ ٩٧
نهر وروافد ٩٩
زاخر ولامع ١٠١
تعددت الأسماء والأصل مجهول ١٠٣
صراع الأجيال ١٠٨
الفصل السادس: مشوار المشاوير ١١٣
الحِمل ثقيل والدرب طويل ١١٣
مسافة بلا عَدّاد ١١٥
بين البر والبحر ١١٧
مصائب مصر عند كنعان فوائد! ١١٩
طوفان أم فيضان؟ ١٢٢

فطرة وطهارة ١٢٤
عادات وأزياء وموضة ١٢٦
إبراهيم ومانديلا ١٢٧
بحماية «أبيمالك» ١٢٨
رحّالة في بلاد الله ١٣٢
أرسل ريحاً فأهلكهم ١٣٤
على الطريق باتجاه تدمر ١٣٥
رجل لكل الناس ١٣٨
في حضن البردى ١٣٩
البكر من الثانية! ١٤١
الثاني من الأولى! ١٤٤
التوأمان وبني إسرائيل ١٤٥
يوسف لكل مكان! ١٤٦
يوسف الملعون! ١٥١
«عماليقوس» ١٥٥
أهل البيت؟ ١٥٨
موسى بعد يوسف - داود قبل سليمان؟ ١٦١
عليك الأمان يا سليمان؟ ١٦٣
عبرانيون وعابرون و... .... ١٦٦
فلاسفة أم أنبياء؟ ١٦٨
أين مصر وأين البطاركة؟ ١٦٩
الفصل السابع: كل الطرق إلى روما ١٧٣
تعطلت لغة الكلام ١٧٣
زدني بيتاً ١٧٥
نجّار وميكانيكي! ١٧٧
من الأسماء ما قتل! ١٧٨

فوضى تراثية! ١٨٣
الغموض شعلة ١٨٨
بين النووي والكربون ١٩٣
٥ مختبرات و٥ قارات ١٩٦
الفصل الثامن: جغرافية قوس قزح ١٩٩
ما كل ما يلمع ذهباً ١٩٩
الفصل التاسع: قرائن وأدلة ٢٠٥
أطلال وأزمان وأعمار؟ ٢٠٥
على المحك وتحت المجهر! ٢٠٩
«شاهد ما شافش حاجة»! ٢١١
رؤوس ورموز وتوحيد ٢١٤
الفصل العاشر: وتمخض الجبل ٢١٩
لكل شيخ طريقته ٢١٩
مصادفات، مبالغات، أم مؤمرات؟ ٢٢١
علماء أم بحّاث؟ ٢٢٢
أسئلة النقّاد وملاحظات النقدة ٢٢٣
١ - كمال الصليبي: «عسيرية بامتياز» ٢٢٧
٢ - فاضل الربيعي - «صناعة يمنية» ٢٣٢
٣ - محمد منصور: «حجازية حبشية» ٢٣٤
٤ - فراس السواح - «تشكيلة من دهريات» ٢٣٧
٥ - خزعل الماجدي - «التوراة سومرية» ٢٤٠
٦ - ديفيد رول - «التاريخ الجديد» ٢٤١
٧ - أشرف عزت - إسكندرانية هيلينية ٢٤٥
٨ - جورج كوسى - «فتش عن اللغة» ٢٤٩
٩ - موريس بوكاي - «التوراة قرآنية» ٢٥٠
١٠ - زياد منى - «توراة دلمونية» ٢٥٣

١١ - فرج الله ديب - «توراة سبئية» ٢٥٥
١٢ - القسّ عيد صلاح - «للترجمة المسيحية نصيبها» ٢٥٧
١٣ - جان أستروك - «توراة بالألوان» ٢٥٩
١٤ - طه باقر - «لولا السومرية»! ٢٦١
١٥ - فاضل عبد الواحد - «سومري آخر» ٢٦٣
١٦ - إسرائيل فنكلشتاين - «ليست فلسطينية» ٢٦٤
١٧ - أحمد داود - «الوجود أصله سوري»! ٢٦٧
١٨ - مصطفى وزيري - «موسى جاء مع الهكسوس - ١» ٢٧١
١٩ - عاطف عزت - «موسى لحق بالهكسوس - ٢» ٢٧٣
٢٠ - رالف إليس - «من أجل عيون المسيح» ٢٧٥
٢١ - يورس زارنيس - «جنة دلمون» ٢٨٧
٢٢ - أحمد سعد الدين - «عماليق وهكسوس» ٢٩٢
٢٣ - أحمد سوسة - تراث «العرب والإسلام» ٢٩٤
٢٤ - سهيل ديب - «وثنية توحيدية» ٢٩٦
٢٥ - غلين فريتز - «خروج من العقبة؟» ٢٩٧
الفصل الحادي عشر: واسطة العقد ٣٠١
ليست مكة ولا بكة ٣٠١
هبطوا عليها من السماء! ٣٠٧
ملحق: كل الاصطلاحات - «خير وبركة» ٣١١
لغز لا حلّ له! ٣١١
من الفروقات ما قتل! ٣١٣
١ - «العبرانيون» ٣١٤
٢ - اليهود ٣١٩
٣ - إسرائيل ٣٢٠
٤ - الصهيونية ٣٢٢
هل التوراة محرّفة؟ ٣٢٤

نظرة موجزة عن الثقافة اليهودية ٣٣١
كتب اليهود ٣٣١
مصطلحات عامة يستعملها اليهود ٣٣٣
ملخص فرضيات أبرز بحّاث التوراة ٣٣٧
تواريخ رمزية (تقديرية) لمقاربة بعض أحداث الكتاب ٣٤١
مَصَادر الكتاب ٣٤٥
نبذة عن المؤلف ٣٤٩

إهـداء

إلى مَن يبحث عن الحقيقة، إلى الحالمين الذين يجرؤون على تتبع مسار النجوم، إلى مَن يجد سكينة بقصص الأولين، إلى الطموحين أصحاب الخيال الواسع، إلى الذين يقدحون جرأتهم بلهيب خوفهم، وإلى أصحاب الصدور الرحبة والقلوب الطيبة والعقول النيّرة...

فلتكن عجائب التوراة وسيرة أبطالها إلهاماً للدهشة وحافزاً للمزيد من التأمل والتعّجب والمثابرة ودرجة أخرى على سلالم المعرفة والارتقاء.

مقدمة الكاتب: نشر غسيل!

قبل الكلام عن أورشليم وقبل البحث عن موقعها، نسأل من أين جاءت التوراة نفسها، وهل يتحمّل زمننا هذا كتاباً آخر عنها؟ عن الجنّة وآدم وسيرة إبراهيم ومسيرته؟ عن سومر وعلومها، عن الهكسوس ويوسف، عن موسى والعماليق وداود وسليمان؟ عن اليهود والسبي، وعن العبرانيين والشتات؟ عشرات الآلاف من الكتب في معظم لغات الأرض كُتبت عن الموضوع، وما زال الجديد منها يدور حول نفسه على بيدر الفضول والبحث.

السؤال: هل تستحق التوراة كل هذا الاهتمام؟

الإجابة ببساطة، نعم! إن الموضوع يحمل المزيد والمزيد رغم استهلاكه وعَلكه منذ مئات السنين. لعل أهم سبب بالمطلق اليوم أن مَن ينكر صدقية النصوص من وجهة النظر الصهيونية يُعتبر عدواً لليهود والساميّة. لا بل يُعتبر عنصرياً وقحاً لا يريد الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، أو بحقها في العيش على أرض فلسطين. من هنا نستوعب مواصلة الاهتمام بها وتجديد البحث عن حقيقتها من خلال المزيد من التدقيق في نصوصها. ربما التكرار نفسه عن رواياتها هو ما يثير الريبة بها والإصرار عليها، أقله لأنها لم تُشبع فضول المهتمين بها بعد. أصبحت ككرة الثلج تغذّي نفسها بنفسها مع كل منعطف ونظرية، خاصة على ضوء مستجدات عصرية تخصّ أرض الميعاد وفلسطين، كحرب غزة (٧ أكتوبر) على سبيل الاستشهاد المحزن!

يكفي للمتابع ملاحظة النسل الإبراهيمي كله - لغاية حقبة سليمان وما بعدها بنيف - ليرى كيف أنه لا يزال ضائعاً عن المنقبين والبحّاث، أو أنه ما زال

مخفياً في سراديب الحضارات التي ظهرت التوراة من ثقوبها! وما يساعد على سرد ملاحظاتي هنا بالجملة، أنه سبق لي وتناولتها بالمفرق خلال أربعة عقود من الزمن تقريباً. كانت لي خلالها صولات وجولات قدحها في رأسي كتاب كمال الصليبي «التوراة جاءت من شبه الجزيرة». كان وقعه يومها عليّ كوقع زيارة السادات إلى القدس!

عديدةٌ هي أسباب استمرار اللغط حول التوراة في دوائر التاريخ والتراث والاعتقاد. المشكلة الكبرى التي يواجهها المهتم أنه كلما تصفّح بحثاً عنها، وجد فيه المزيد من عناصر الظنّ والغموض، سيما أن كاتب البحث يكون عادةً قد انطلق ببحثه بمعزل عن نظريات الآخرين. كلٌ يُدلي بفرضيته وكأن الغرض مجرد عرض لبنات الأفكار وليس البحث عن جوهر المسألة. لذا، لا أدّعي أن كتابي هذا سيقدم شيئاً جديداً أو شافياً باتجاه الحقيقة، أو أنه سيرتي ثقباً أو يُعلّل تناقضاً. جلّ ما أطمح إليه هو استعراض خلاصات أبرز نظريات المفكرين التوراتيين ونشرها معاً على بلكون واحد؛ فمن أراد التمتع بتناقضات أفكارهم، له هنا عليها فرصة جيدة. ومَن أراد مجرد البصبصة على آخر المتاح حولها، فهذه مناسبة تبدّد لهم عناء البحث والمقاربة. ومَن أراد الإشفاق على محاولاتهم تربيع الدائرة، فإنه حتماً سيجد لنفسه حيزاً فسيحاً بين السطور. أما من حدّ نظره وفتح قريحته، فلربما يجد شيئاً جديداً بأمل الوصول إلى محطة أخرى على سكك المعرفة والبحث عن الحقيقة.

ومع أني أكنّ للصليبي كل الاحترام والودّ، لكني «أحمل» عليه أنه نكش وكِر دبابير ولفت انتباهي إلى أشياءٍ لم تخطر على بالي من قبل. ورّطني بالتوراة إلى حدّ الإدمان ونالت هي مني إلى حدّ الهوس. ولطالما شغلتني عن طفولتي ورفاقي، خاصة فيما يتعلق برحلات إبراهيم في كنعان وعبور موسى في مصر وروايات الربط بينهما. لكن على طريقتي في تناول الموضوع، فإني لا أنكشه هنا لأصحاب الشأن والباحثين، ولا أعرضه للخبراء والنخب والأكاديميين، بل أتوجّه به بالأساس لمن لم تسعفه الظروف الاطلاع عليه من أصله، أو لمن

لم يستوعب بعد أسباب تنافس البحّاث على تفنيد التوراة وقد مضى عليها ما يزيد عن ٤٠٠٠ سنة! الأمر الذي دفعني إلى الاتكاء على مقاربات شعبية والاستعانة بأشياء مستهجنة تخفف عن القراء متاهة التعقيد ورتابة التكرار. ولسوف أقتحم الموضوع مستعيناً بتفاصيل غريبة أحياناً ومسلّية في أحيان أخرى رحمة بالقراء الطارئين على الموضوع.

موضوع التوراة معقّد جداً ومُحيّر حتى على أهل الاختصاص أنفسهم. والدهاليز فيها ليست عميقة ومعتمة وحسب، بل ملوثة وخطرة أيضاً. لكن في جميع الأحوال لا ينبغي النظر إلى كتابي هذا على أنه بحث دقيق في الموضوع التوراتي بقدر ما هو إطار عام له. فالفكرة الرئيسية منه هي الإضاءة على أبرز العناصر التي تحكم أبحاث النقاد والآليات العجيبة التي يوظفونها من أجل ذلك. ومع أن هدفي محدد وواضح، فقد لا تشفع لي عند البعض طبوغرافية السرد التي انتهجتها لتحقيق المنشود. لكني آمل في نهاية المطاف أن يجدوها «بعثرة ثقافية حميدة» على حساب عنجهية المؤرخين التوارتيين وغرورهم!

حديقة أم متحف؟

وهكذا تعمّدت للكتاب أن يكون رحباً على شاكلة «الحديقة العامة». حديقة تشبه «لوكسمبورغ» في باريس، و«هايد بارك» في لندن، مثلاً، بحيث يتمع الزائر بما يشاء بدون تحفظ أو قيود. كل الفصول في الكتاب جزء متماسك من مشهد واحد على مسرح الموضوع. لا يهم كيف تنظر إليه أو أين تنظر فيه لأن عناصر الرؤية معروضة بتحرر ووضوح بغرض الرد على سؤال محوري يتيم: هل التوراة حقيقة أم تركيبة؟ وسواء بدأت من آخر الكتاب أو منتصفه أو البداية، فإنك لن تفلت من إلحاح السؤال عليك ولا من متعة الحيرة في أمره!

لا أدري صراحة إن كان هناك أسلوب علمي أو أدبي معين لهذا النوع من الكتابات المتأرجحة بين الحقيقة والخيال، بين التاريخ والجغرافيا، أو بين الإيمان والظن؟ لكن ما أعرفه يقيناً أن نصوص التوراة نفسها مكتوبة بأساليب

مشاكسة لكل المألوف، وهي تعصى على اللغويين أنفسهم ولا تخضع لأسلوب موحّد أو سياق محدّد! مَن يدري فلربما هذه الفوضى السردية في التوراة هي التي تعطيها عناصر الإثارة والتشويق؛ فالسرد المرن عن القصص فيها والكتابة المتعرجة حولها يُخلّصان الكاتب الموضوعي من قيود الكهنة وكمائن المتخصصين من ناحية، ويُحرران القرّاء من رتابة العرض وسماجة المصطلحات من الناحية المقابلة. هنا، ربما تصبح القراءة أكثر متعة وأقرب إلى التجوّل في حديقة مفتوحة منعشة منها إلى التجوّل في أروقة متاحف محصورة.

هذه النماذج من «الكتابات الحدائقية المتمردة» تأخذ عادة طرقاً استكشافية عفوية لتسهّل على قراء العصر التعامل السريع مع الأفكار المركبة والروايات المتنوعة بطرق مرنة. ربما «تسخر» أحياناً من حرّاس المتاحف وتعليماتهم الصارمة (مناهج الأكاديميا ومصطلحاتها). ولعل أهم الأمثلة على هذا النوع من السرد المعقد كتاب «التاريخ المختصر للوقت» بقلم العالم الفيزيائي الكسيح ستيفن هوكينغ؛ فعلى الرغم من أن موضوع «الزمن» هو الأكثر تعقيداً على الإطلاق، إلّا أن المؤلف تناول المفاهيم العلمية المعقدة حوله بطريقة مبسّطة ومفهومة نسبياً للقارئ العام. وقد شرح النظريات الكبرى كـ«الانفجار الكبير» و«الثقوب السوداء» و«الوقت وطبيعة الكون» بمقاربات سهلة، ما جعل الوصول إلى أفكاره المعقدة أمراً ممكناً للكثيرين وممتعاً على حد سواء..

من هنا، فقد يكون من العسير لغير المختصين أن يتفهموا شكوك الباحثين بأحداث التوراة ما لم تُشرح لهم بمقاربات شعبية أو عصرية.. وقبل المخاطرة في الانطلاق بوجه «المؤسسة»، دعوني أوضّح من البداية أني سأتجنب الغوص في نقاط الاتفاق المشتركة بين معظم الكُتّاب المشككين، وسأستعرض عوضاً عنها أبرز نقاط الاختلاف في استنتاجاتهم. ليس من باب النقد أو التأييد، إنما من باب تمكين تناقضاتهم للظهور على الملأ. لذلك، قسّمت فصول الكتاب وفقراته من أجل طرح خيارات متعددة حسب ميول القارئ واهتمامه. فكما

أوضحت آنفاً، ليس كل عناصر الموضوع تهم كل القراء، بمن فيهم المتخصصين أنفسهم، ولم يكن بالإمكان التحايل على هذه الإشكالية إلّا من خلال تجزئة العناوين وتوريتها بما يخفف من التشابك والتعقيد! إذ إن عناصر التوراة - من غزارتها وغموضها - تأبى التوافق تحت عناوين عريضة أو التوحّد ضمن تسلسل معين، وهي تتمرد في دهائها حتى على أنقى العقول التوراتية.

لكلٍّ مآربه

المسألة التوراتية كما آنفت ليست سهلة. زيدٌ من العلماء ينتقدها ليصيب منها كل الأديان السماوية مواربة. عمرٌ من المنقبين يتناول نصوصها لنصرة دينه على دين اليهود. غيرهما يطرقها فقط لإظهار إبداعه الفكري في التأويل والتحليل. فيما يريد آخر خدمة مشروعه السياسي أو الاستشراقي أو الثقافي. كلٌ له من تشريحها مقصد وغاية. والدليل على ذلك أنهم يعلمون، مثلاً، أين في القرآن وردت كلمة «فرعون» تحديداً، وكم مرة، وما إذا وردت بصيغة العلم أو النكرة أو المفرد أو الجمع! ومع ذلك تراهم يستنتجون منها أشياءً مختلفة تماماً، كلٌ يحدد «فرعونه» منها بطريقته الخاصة حسب ما يرسمه من أهدف!

وعليه، فأي مرجعية أوردها عن الموضوع في السياق لن تكون مقبولة وحدها، ولا كافية وحدها، ولا صحيحة وحدها. الأمر الذي يبعد عنها الصدقية خارج الإجماع العلمي الموثق - وهو ما زال بعيد المنال. هذه بحد ذاتها ليست نقيصة، لأن العالم الذي نعيشه عموماً لا يكون مثيراً إذا كان خالياً من الظنون والتناقضات، ولا يكون جديراً بالعيش إذا كانت الإجابات كلها معلّبة جاهزة عند الطلب بدون بحث أو عناء أو شك.

الأصل في الوجود، الغموض! وبما أن كل الشاغلين بالتوراة بحثوا باسم العلم عن نظرياتهم فيها، فغايتي أن أبحث انا أيضاً باسمهم عن نظريتي بشأنها! ولسوف أودعها «توريةً» بين السطور، سيما أن الموضوع حَمّال أوجه لا عتب فيه ولا عتاب. أرجو أن يتحلّى أصحاب الخبرة بالصبر على البديهي

فيه، وتتسع صدور الغيارى لسماع المألوف منه، وأن تتحمل عقول الحيارى المستهجن حوله. ويبقى التحدّي أن تسعفني رغبتي على تحقيق التوازن بين ضجر العارفين وحمية الغيارى لتحقيق الهدف المنشود.

الفصل الأول: أشهر من نار

نمليّة كتب

لا بد بدايةً أن أوضّح ما هو المقصود بـ«الكتابات التوراتية» المقدسة. هي بمجموعها على بعضها البعض تشبه نملية عتيقة فيها جلود عطنة ولفائف ممزقة ومخطوطات متلفة عن مسيرة اليهود عبر التاريخ. وعندما قرر الحاخامات بعد السبي البابلي نفض النملية من غبار الزمن وتوضيبها بما يناسب العصر بعد عمر سابق على تركيبها، جمعوا كل الوثائق المتاحة في حينه ونظّموها في **٣٩** كتاباً. لكل من هذه الكتب مؤلف أو مجموعة مؤلفين أخذوا عن ثقاة أقدمين واقتبسوا من ناسخين ومحدثين. كل منهم كان يعكس ثقافة عصره ومنطقته، وكان قد اطّلع سلفاً على ما كتبه غيره قبله؛ فخطّ خواطره على الهوامش حسبما رأى ضرورة تعديله من ظروف عصره. وقد شارك في الإضافات إليها عشرات المصححين والمترجمين والنسّاخ والمفسّرين. منهم مَن أصاب ومنهم من أخطأ.. لكن رغم ذلك وفي جميع الحالات، بقيت الصورة الأساس ثابتة في صميم المخيلة الوجدانية الجماعية عند كل الناس. وهي القصة الكلاسيكية المعروفة عن الجنّة وآدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى والتيه ومصر وفلسطين إلخ. وما إن ندرك أن النمليّة كلها قد ترجمت إلى أكثر من **٢٠٠٠** لغة حيّة حول العالم حتى يزول العجب عن تماسك مضمون الروايات في الأذهان واستمرار صلاحيتها رغم التناقضات ورغم أنف المشككين.

وعند نفض النمليّة، وضع الحاخامات والكهنة هذه الفصول جميعها في كتاب كبير واحد أُطلق عليه لاحقاً اسم «العهد القديم». هذا ما عُرف فيما بعد

بالنصّ المحقق. هناك نصّ آخر يُعرف بالنصّ السامري، يحتوي فقط على الأسفار الخمسة الأولى (٥ من ٣٩)، أي فصول موسى فقط، وتعرف تقليدياً بالتوراة. هناك أيضاً ما يعرف بالنصّ «السبعوي» (السبعيني)، وهو ما تُرجم من أهم أجزاء «العهد القديم» من العبرية إلى اليونانية. وقد قيل إن مَن قام بترتيب ترجمة النصّ «السبعوي»، هم ٧٠ (أو ٧٢) كاهناً (وربما بعض المترجمين أيضاً) من أفقه العقول اليهودية التي تصدّت للترجمة خلال عصر بطليموس الثاني (٢٤٦- ٢٨٣ ق.م).

هناك بالقرب من الإسكندرية «قعدوا» ٧٠ يوماً ونقّحوا الترجمة اليونانية بغرض عرضها أمام جلالته، سيما أن بطليموس كان حاكماً عالماً ومثقفاً مغرماً بجمع الكتب لمكتبة الإسكندرية الشهيرة. أهميتها أنها كانت فعلاً بمثابة «فهرس» كامل للشرق والغرب معاً. لم يكن فيهما فكر أو علم لم تضمه رفوفها. كان الكهنة اليهود السبعون قد نهلوا منها ما أرادوا، وأخذوا بعين الاعتبار أيضاً ملاحظات الهوامش والحواشي المتراكمة عن مسيرة اليهود من مبعثراتهم المجمّعة عبر الزمن، وعدّلوا فيها على ضوء تجربتهم في مصر (الإسكندرية)، وقرروا إقفال باب التعديل نهائياً منذ ذلك الحين. لكن إقفال الباب على المزيد من التأليف لم يمنع ظهور ترجمات متعددة على الموجود لاحقاً، أهمها الترجمة اللاتينية المعروفة بـ«الفولكاتا» والترجمة الآرامية المشهورة باسم «الترجوم». أما بعد ظهور المسيح، فقد أُضيفت لـ «العهد القديم» أربعة أناجيل قانونية عن سيرته ودعوته، فأصبح المجموع كتاباً موحداً جامعاً يعرف بـ«الكتاب المقدس».

وبالنظر إلى أن موضوعنا أساساً يمتد فقط من حقبة إبراهيم إلى حقبة السبي، فإني لن أتطرق إلّا إلى عناصر «التوراة» حيث الكتب الخمسة الأولى - وتسمى أيضاً أسفار «الشريعة»، وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية. هذه نصوص ملهمة ومثيرة للخيال والجدل، ليس فقط لأنها تخبرنا عن «بدء» الكون والجنّة وآدم، بل أيضاً عن قصص الطوفان وخروج

إبراهيم من بلاد النهرين، وعن إسحاق ويعقوب ويوسف وخروج موسى من مصر ووصوله إلى أرض الميعاد، والوصايا العشر، فضلاً عن تثبيت حكم اليهود في بلاد كنعان (أو شبه الجزيرة؟) من خلال سلطة داود ومملكة سليمان!

وإذا كانت أسفار موسى هي الأقدم على الرفّ الأول من النملية، فالرفّ الأخير فيها هو الأحدث حيث توجد عليه الأناجيل المسيحية الأربعة. ولأنها جاءت بعد «العهد القديم»، سميت تلقائياً بـ«العهد الجديد». وقد ضُم العهدان، القديم والجديد فيما بعد بكتاب واحد سُمي جملةً وتصرفاً بـ«الكتاب المقدس» كما ذكرت. ولكي نقطع الشك باليقين لمصلحة البعض، أوضّح أن التوراة (٥ كتب) + العهد القديم (**٣٤** كتاباً) + العهد الجديد (٤ أناجيل، فيها **٢٧** كتاباً) = «الكتاب المقدس». أو بعبارة أخرى، **٣٩** كتاباً للعهد القديم +**٢٧** للأناجيل الأربعة في العهد الجديد = **٦٦** كتاباً[(١)].

مفارق ومحطات!

لتبسيط «العهد القديم» (كتاب اليهود) على الحيارى، قُسّم لقرائه إلى أربعة أجزاء مرحلية، الأولى هي فترة التوراة، أي ابتداء من حِقبة الخليقة وآدم مروراً بالطوفان ونوح وأولاده، إلى إبراهيم وأولاده، إلى موسى وهارون، وصولاً إلى أرض الميعاد بعد النزوح الافتراضي والتيه في سِيناء.

المرحلة الثانية هي الفترة الممتدة افتراضاً منذ حقبة ما بعد وصول اليهود من مصر إلى فلسطين وترتيب الشأن الداخلي والحكم الذاتي، ابتداء من حكم

(١) هناك كتب إضافية سواء للتوارة أو للأناجيل عند بعض الطوائف، لكن لا إجماع عليها أو أنها تعتبر ممنوعة أو محرّمة من قبل المرجعية اليهودية أو الفاتيكان وتسمى أيضاً الكتب الأبوكريفية أو «أبوكريفا» أو الأناجيل المنحولة، ومنها عند اليهود على سبيل المثال كتاب «أخنوخ» وقصة «ملكي صادق». وعند المسيحيين أناجيل «الحق» و«توما» و«فيليبس». أما إنجيل «برنابا» الشهير، فلا يُعتبر من الأناجيل المنحولة والكتب الأبوكريفية، لأنه كتب أصلاً بعد فترة تصنيف الكتب الممنوعية بقرون عديدة وتحديداً في القرن الخامس عشر ميلادي.

شاول وداود إلى إنقسام مملكة سليمان لغاية تأسيس مملكتي «يهوذا» و«إسرائيل». ثم إلى خراب المعبد الأول في «أورشليم» ودخول المحتل الأشوري أولاً، ثم البابلي وابتداء السَبْي الكبير.

الحقبة الثالثة هي الممتدة من فترة عيزرا إلى نحْميّا. وهي استعادة تاريخية وفكرية لحقبة التوراة مع إضافات جديدة عن سقوط «أورشليم»، وعن وقائع السبي البابلي في العام ٥٨٧ ق.م وانتهائه لاحقاً أمام ظهور ملك الفرس العظيم كورش (قوروش). وقد نُسب إليه إطلاق سراح اليهود من السبي وأمر التسامح معهم والسماح لهم بإعادة نشر تعاليم موسى للعامة، ومن ثم مساعدتهم على إعادة بناء الهيكل في «أورشليم» بمعونات حكومية[١].

أمّا المرحلة الأخيرة من الكتاب، فهي للملمة الفِرقة وتضميد الجراح وتوضيب المُبعثر في المسيرة الطويلة، خاصة تلك التي قام بها كتبة كبار أمثال هوشع وعاموس وميخا. وقد عمل هؤلاء على رتق الثقوب وترقيع الممزق واجتهدوا في تلوين الباهت وتجديد القديم مستعينين بتجارب الماضي وآمال المستقبل. وهذه مرحلة كثرت فيها الكتابات المقاربة لتاريخ الحقبة المتأخرة من مسيرة الشعب اليهودي. إلّا أنها شهدت أيضاً إبداعات فكرية لاهوتية حول الأحداث السابقة في التوراة، فأسهبت في أوصافها وفي تفسير معانيها أو في سرد جديد لتفاصيلها. وقد تم ذلك بذكاء شديد، إمّا بواسطة تدوينات «مجهولة» كسفر «أخنوخ» الممنوع في توصيف السماوات والمراتب والجنّة والنار، أو نسبة إلى وقائع «معلومة» مرّ عليها مئات السنوات كخروج موسى، أو من خلال كتابات مقتبسة من تأريخات مانيتون المصري في القرن الثالث ق.م، التي ربما أثرّت جدياً على النسخة المنقحة السبعوية الجارية.

وبالنظر إلى أن «العهد القديم» فيه مفارق محيرة، وهو ممتد على محطات

(١) الواقع أن كورش أبقى على ممارسة كل الأديان لمعتقداتها وشعائرها ولم يفرض زرادشتية بلاده على البلدان التي فتحها أو المستعمرات التي أسسها.

كثيرة، فإنه لأسباب بديهية ينطوي على أساليب كِتابة متعدّدة وتقاليد متنوّعة. بمعنى أنك قد تجد في الأسفار الخمسة الأولى، مثلاً، ما يحمل أسلوب كتابات لم تكن من نسيج العصر المعني وإنما لاحقة له. وقد عرّفوا الفروقات بينها على سبيل المثال بـ«التقليد الكهنوتي» بصفته التعليمية، أو بـ«التقليد الإلهي» بصفته العقائدية، أو بـ«التقليد الجامع» بصفته الربّانية. ناهيك عن هفوات الناقلين والموضّبين والحافظين وغيرها. لذا، فإن «العهد القديم»، بمجمله، مُصنّف (موسوعة) بَشريّ، يضم شواهد متناثرة واقتباسات من هنا ومن هناك منسوبة إلى ربّ عظيم، وقد نُسِج على مدَى ٨٠٠ سنة تقريباً؛ «من الناحية الدِينية، مثلاً، ليس كلّه بمقدس حتى لدى اليهود أنفسهم، إلّا بالمعنى الشعبي بوصفه مأثوراً تراثيّاً عزيزاً عليهم؛ فهم (اليهود) يدركون جيداً أن «العهد القديم» تجميع تراثي كأي مصنّفٍ تراثي آخر، مع ما يحمل من شذرات موسوية، تأتي بين حين وآخر في محيط زاخر من الأسفار القصصيّة» -حسب تعبير الباحث السعودي عبدالله بن أحمد الفيفي-. أما من الناحية التاريخية، فهو لا يصلح بالمعنى العِلْمي حتى وإن كانت فيه وقائع تاريخية واقعية. ذلك نظراً للظروف المتناقضة التي أحاطت به وبكَتَبَته على امتداد مئات السنين. باختصار، إنه وكر ثعابين لأنه يلدغ من يقربه بمسحة الظن والريبة كلعنة وادي الملوك في مصر! لكنه بلسم لليهود المؤمنين البسطاء!

حجاب المظلومين!

اليهودي العادي يرى في «العهد القديم» خلاصاً من قيود الظالم، والخالق (يهوه) أراد منه توصيل رسالته مباشرة إلى شعبه. الأمر من هذا المنطق فيه عبرة واضحة وقوية للجميع. هذه الميزّة الفريدة لم تكن متوفرة للإنسان العادي قبل هبوط الوحي واكتمال الوصايا. ويكفي أن خالق السماوات والأرض وأقوى الأقوياء قد مكّن إبراهيم من التحدث إليه، وبالتالي خوّل ذريته من بعده حق الاتصال المباشر بالربّ دون حواجز أو مقدمات. وقد منح هذا (العبور) الحصري اليهود أملاً بحياة أفضل وعيش أرحم. لا سيما أن الاحترام قبل

ظهور التوراة كان يُكَن للإمبراطورية بكيانها وليس للفرد فيها. فإذا بالتوراة تأتي ليس فقط لفرض الاحترام لليهودي كفرد، بل لجعله فرداً من شعب مختار بعين الربّ....

ثم إن «العهد القديم» ليس دليل اتصال مباشر لهم مع «يهوه» وحسب، وإنما مكّنهم أيضاً من تخيّله بصورة مقرّبة لفهمهم البسيط وإدراكهم المحدود. فاليهودي المسكين أصبح لديه بالتوراة خيال أبعد من حدود الظالمين وسلاح أقوى من مآسي المِحَنْ. وهنا يَكمن مربط الفرس بالنسبة لأهمية نصوص التوراة وقصص «العهد القديم» عند اليهود. صاروا «يعبرون» من الأرض إلى السماء بأولوية مميزة قبل غيرهم، ومن ثم إلى الربّ مباشرة، بدون تأشيرة مرور من حراس المعابد. باتوا في عين «يهوه» صفوة الشعوب وأمسى العهد القديم صكاً حصرياً للدلالة على صحة اصطفائه لهم. وما دامت التوراة تسمح، بل وتشجّع على الحوار المباشر مع «يهوه»، وذلك من خلال سرد الأخبار والنبوءات كما يرويها يهوه لأتباعه بنفسه عبر الأسفار والنصوص، فما المانع أن يحاججه المشككون عن بعض الأمور التي تحيّرهم في حكمه أو تقلقهم من أحكامه أو لا تعجبهم! واستطراداً لِمَ لا يفحصون هوية البطاركة ويمتحنون سِيرهم على وقائع التاريخ واللغة والجغرافيا؟ وما دام الأمر كذلك، فلِمَ لا يستجوبون أيضاً جامعي التوراة عن مصداقية المصادر فيها؟

هذا هو لسان حال كبار الكتّاب حول النصوص التوراتية، والكثير منهم - للمناسبة - من اليهود. هم يقولون إن لديهم الكثير من الأسئلة التي يودون طرحها على الكهنة لاستيضاح الغاية المطلقة من كل هذه الأسرار ومن الرموز والمزامير وغيرها ممّا تجمّع على حوائط التوراة منذ **٣٣٠٠** سنة تقريباً! وإذا كان أهل مَكة أدرى بشعابها، فإن اليهود أنفسهم هم أكثر مَنْ تناول النصوص بأقسى أفعال التشريح والتحليل والنقض. لم يتركوا ثقباً إلّا وعملوا على توسيعه أو ستراً إلّا ورفعوا الغطاء عنه! لِمَ لا، وهو - برأيهم - كتاب مؤهل أصلاً للتشريح والمعالجة لما فيه من تناقضات يشيب لها الشايب مرات. لِمَ

لا، وفيه مِن تشابه الأسماء والمواقع أو الأحداث والادّعاءات والعِبَر، ما يعجز الفهم عنه أو يناله الاستدراك. لِمَ لا، وفي التوراة ما يفوق المخيلة والمنطق والبرهان والواقع مُجتمعة؟

وإذا لم تكن هذه العناصر كلها مدعاة لاستجلاب الاهتمام، فما الذي يستدعي من الموضوعات الأخرى عبر تاريخ البشرية؟ لعل الاقتران النسبي بين مضامين قصص التوراة وتدوين التاريخ منذ أيام السومريين هو ما يزيد شعلة الانتباه إليها والاهتمام بها من قبل العديد من كبار المفكرين والبحّاثة والمؤرخين. لكن مَنْ هم هؤلاء الكبار الذين تناولوا التوراة بالنقض والفحص والتقريع، ولأي غرض؟

باستثناء ثلة من بعض التنويريين التي تتطرق إلى التوراة لأسباب فكرية لاهوتية بحتة، نجد هنالك مَن يطرقها لتثبيت أمر ونقض آخر، أو لاحتساب تاريخ ورسم شجرة لسلالة ما، أو لتحديد سعر ووحدة قياس، أو لتحديد تقنية أو غيرها مما قد يُستنبط من نصوص الكتاب. إلّا أن التوراة رغم كل المحاولات ما زالت عصية على الفك. فحتى اليوم لا توجد هناك نسَخ أصلية منها، أو بالأحرى نسخة أصلية واحدة (يقال هناك توراة يمنية أصيلة؟). لدينا «عوائل» من النسخ التي وصلتنا، وهي لا تخلو من مغالطات هجائية أو لغوية أو ترجمية، ناهيك عن مُقارناتها مع «لفائف البحر الميت»![(١)]

أما لماذا هذه المُشكلة في طبيعة «العهد القديم»، فلأن حُمَاة الشعب اليهودي أصابهم إسهال التدوين لتراثهم في حروبهم وترحالهم وسَبْيهم وأغانيهم على فترة امتدت - حسب التقليد المتعارف عليه - منذ خروج موسى الافتراضي في العام ١٢٥٠ ق.م تقريباً إلى فترة ما بعد رجوعهم من السَبي البابلي بحدود العام ٥٥٠ ق.م، أي على مدى ٧٠٠ سنة تقريباً. وهي فترة

---

(١) لفائف توراتية وُجدت في بداية خمسينيات القرن الماضي بظروف مشبوهة في مغاور قمران في الأردن. ولعل ظهورها بعد النكبة مباشرة يوحي بطبخة تزويرية ضخمة، سيما أنها أُخفيت لمدة طويلة بذريعة الفحص والاختبار، وقد أحيطت بسرية تامة.

مخاض أدبي ملحمي طويلة تداخلت فيها أفراح النصر بمآسي الهزيمة والتّهجير على مضض الانقسام وإرهاق التنافس. كما تمازج فيها حنين العودة إلى الوطن بشعور الانتقام من المُحتل، واختلطت خلالها آمال الاستقرار برغبة بناء المستقبل. فكان لهم في تاريخهم الطويل رمز لكل حقبة أو نبي أو قائد أو نبوءة. كلٌ كان يُدَوِّن في الكتاب بلهجته، أو يُدَوَّن له فيه من موقعه المتأخر تمجيداً لعناوين كبيرة ومحطات متعدّدة. ومن جملة الكتابات أحلام وعِبَر، أو أعياد واشتياق، أو وصايا، أو تحليلات وتحريمات إلى درجة يُخيل للقارئ أن ليس في «العهد القديم» أمر واحد لم يطرقه الكتبة. فأضحت السيرة اليهودية حتى بعد صقلها على صورتها النهائية تجّميعاً عشوائياً، كان في معظمه من قبل تراثاً شفهياً تناقلته عشائرهم في تِرحالها وطوّرته حسب محطاتِها وأوقاتها. وقد تأثرت بثقافات حكامها واعتقاداتهم وطقوسهم. فكان - كما أسلفت - أن اختلط اليهود عبر ترحالهم بالديانات والفلسفات المجاورة لهم، فتولدت لهم في الشتات نظرة جديدة فيها تشكيلة من ثقافات سومرية، وبابلية، وفارسية، وكنعانية، ودلمونية، وحِثية، وجزيرية ومصرية وسبئية وحبشية.

الرأي قبل شجاعة الشجعان

بعد هذا السرد المستفاض عن خلفية التوراة، ما يهمنا من أمرها للدخول في صميم الموضوع أولئك المفكرين والبحّاث المعاصرين الذين يتناولونها. نحن هنا لا نتحدث عن أي مفكر عادي ولا عن أي مؤرخ، إنما عن كتّاب الصف الأول، أيّ علماء النخبة، وهم متفوقون في علومهم ومقارعون في أبحاثهم يغوصون في أعماق التوراة لبحث الممنوع في مناطق الضغط الشديد. ليس واضحاً تماماً ما إذا كانوا يغوصون في متاهاتها لغرض محدد لديهم، أم أن المعرفة بذاتها هي الأمل والنجّوى.

إلّا أن الأمر في نهاية المطاف سَيان، عفوياً كان أو تقصداً. وحتى مَن لم تسعفه رغبته من الذين اطلعوا سريعاً على التوراة، فلا بد أن أسئلة كثيرة قد

ساورتهم وأثارت فضولهم، لكن البوح بها يبقى للشجعان فقط لأن البحث بصدقية الكتب السماوية بنظر المجتمع ليس من شيم المؤمنين! لكن لا شك أن غرض الشجعان، مهما كان، يستأهل المشقة في سبيله أقله من أجل توضيح المبهم وكشف المستور، أو لترسيخ العقيدة وتحصّين الإيمان.

غيرها أو قبلها؟

ليس من السهل تخيّل أعداد «العهد القديم» الورقية التي طُبعت ووُزّعت على مستوى العالم، ناهيك عن نُسخ الإنترنت؛ فهو الأكثر انتشاراً وقراءة على الكوكب بما قدّره المجلس التوراتي العالمي بأكثر من ٧ مليارات نسخة. أسباب انتشاره لا تعود فقط إلى عمره عما يزيد عن ٢٥٠٠ سنة، ولا إلى الإيمان العميق باليهودية[١]، بل تحديداً إلى القصص البديعة والروايات الملهمة الواردة في الأسفار الخمسة الأولى. إذ إنها لا تتحدث فقط عن بداية الخلق، بل إنها تحتكر تفاصيله أيضاً. معظم ثقافات الأرض تتناقل البداية (البدء) كما وردت في التوراة وتكررها وعياً أو خِلداً إلى درجة أن كل عنصر من عناصرها صار مفهوماً تراثياً ثابتاً ومضرب مثل واصطلاحاً يومياً مألوفاً في العالم أجمع، مثل: تفاحة آدم، كبش الفداء، سلم يعقوب، بئر يوسف، شريعة موسى، مزامير داود، تابوت العهد، حكمة سليمان، عرش سبأ، صبر أيوب، نقطة في بحر، الرماد عالرماد، الفاكهة الممنوعة، العين بالعين والسن بالسن، لا جديد تحت الشمس، ملح الأرض، مَن يعش بالسيف يُقتل به، عصفور باليد ولا إثنين بالبرية، لا تدع يدك اليسرى تعرف ما تفعله اليمنى، لا يمكنك أن تخدم سيدين معاً، ترى القذى فِي عينِ أَخيك ولا تراه في عينك... وغيرها المئات من التعابير الشعبية التي لا يعرف الكثيرون أن «الكتاب المقدس» مصدرها. لكن هل حقاً هو مصدرها الأصلي؟ هناك تجارب «دهرية» خالدة مرّت على الناس وردّدوا العبر منها شفهياً قبل اختراع الكتابة. وقد بقيت

(١) أعداد اليهود في العالم لا تتجاوز ٢٠ مليوناً أو ٢,٥ ٪ من سكان العالم.

حبيسة الألسن والتداول مع غيرها من الخرافات والأساطير إلى أن نُقرت على الطين وظهرت الكتابات البديلة عن السومرية والأكادية والهيروغليفية، فتوسّعت بها أمثال «الدهريات» ومسائل الفطرة مع تطور الكتابة الكنعانية الأوغارتية والآرامية.

بالعودة إلى السؤال: لماذا تنال التوراة مثل هذا الاهتمام على محيط الأرض رغم عدم وجود أدلة قاطعة عليها؟ هي حتماً ليست أعتق الكتب، لكن لتقدير مضمونها شمولياً ينبغي النظر إليها بخلفية النظر إلى واحدة من أهم وأعتق المدونات البشرية، أي «أسطوانات كيش» مثلاً. تلك التحف الأثرية، التي يعود تاريخها إلى حوالي **٣٥٠٠** قبل الميلاد. من أبرز معالم أهميتها أنها واحدة من أقدم الأمثلة على الكتابة القصصية الأخلاقية المسمارية وتعتبر سجلاً تاريخياً حقيقياً ملموساً يقدم مشاهد متنوعة حول ثقافة العصر ولغته وأخلاقه. ثم إنه (السجل) يحتوي على نقوش تتعلق بالملوك والهيكل السياسي السائد والآلهة والمعجزات وأحداث تلك العصور. وفيه أيضاً دلالات دامغة على نظام الكتابة المبكر لأقدم الأنظمة المعروفة في التاريخ.

كما أن اللقى في المتاحف ساهمت كثيراً في فهمنا لتطور المسيرة البشرية وتدرج مراحل الكتابة وبعض الأساطير. من أهم مؤشرات هذه الأسطوانات أنها أعطتنا فكرة جيدة عن «التشريع الاستراتيجي» بالمفهوم السومري للمُلكية الخاصة (التملك) وعن الملكية العامة (الملوك) وعن الملكية المطلقة (الآلهة)، فضلاً عن الثواب والعقاب.. وفي السياق الأثري، فهي تسلّط الضوء على مدينة «كيش» القديمة كنموذج حيّ عن قدسية المكان (قدس السومريين) وعن نظام «ممالك المدن» في المحيط والزمان ما يعطي معلومات قيّمة عن تاريخ المنطقة برمتها. أما في جانبها الثقافي، فـ«أسطوانات كيش» ساعدت العلماء والمؤرخين المعاصرين على فهم المعتقدات الثقافية والدينية للسومريين بشكل أوضح.

ومثلما هي ليست أقدم من «أسطوانات كيش»، فإن التوراة ليست أعرق من

«أقراص جيمدت نصر» (جمدة نصر) الطينية، (البعض يلفظها «يهدت نصر»). هي كناية عن موقع أثري مهم في العراق يعود تاريخه إلى فترة أوروك حوالي (٣١٠٠-٢٩٠٠ ق.م). الأقراص بمثابة الدليل القاطع على تقدم البشر وأخلاقية الإنسان وتحضّره المبكر. فبالإضافة إلى نظام الكتابة كواحد من أقدم الأمثلة، هناك أدلة على وجود أنظمة أخلاقية وإدارية مبيّنة بوضوح على الألواح الطينية ذات النقوش العددية والأختام المستخدمة في حفظ السجلات وشؤون الحوكمة والعبادة. ومثل أسطوانات «كيش»، توفر الأقراص صوراً حول تنظيم «دول الممالك» وحكمها في تلك العصور المبكرة وحول التجارة الدولية ومواد الاستيراد والتصدير وطرق التنقل والإبحار والقوافل. إنها أدلة عضوية في غاية الأهمية تعطي لمحة حيوية مفصّلة تقريباً عن المراحل المبكرة من الحضارة الإنسانية. وقد ساهمت في فهمنا لأسس مجتمعات بلاد ما بين النهرين القديمة، التي أرست بعض المفاهيم العامة للعديد من جوانب الحضارة الإنسانية.

ثم إن التوراة ليست تراثية بالعمق كمسلة «أور نانش»، هي الأخرى، لوحة طينية عتيقة تعود إلى ٢٦٠٠ ق.م. تعتبر في غاية الأهمية لأنها تصف إنجازات عصور ملوك سومر وتحديداً الملك «أور نانشي». أهميتها هذه لا تقتصر فقط على كشف النقاب عن حكم أعظم ملوك سومر وتأسيسه لمدينة «لاغاش»، وهي واحدة من المراكز الحضرية المبكرة في بلاد ما بين النهرين القديمة، بل لأن مسلته أعطتنا أيضاً فكرة وافية عن نظام «ممالك المدن» (دول المدن)، الذي أصبح فيما بعد هيكلاً سياسياً واجتماعياً أساسياً في كل الشرق الأدنى باستثناء مصر. ثم إن المسلة - والأهم - كشفت النقاب عن أول مدونة قانونية أخلاقية منذ ٤٦٠٠ سنة، والمعروفة باسم «قوانين أور- نانش». وهي عبارة عن قواعد صارمة تطرق الفضائل والرذائل وتحكم جوانب مختلفة من الحياة الشخصية للفرد، مثل أمور الملكية الخاصة والزواج والطهارة والإرث والتجارة والاستعباد وغيرها. إنها بلا شك قيمة رفيعة في فهم المعايير القانونية

والاجتماعية عن ذلك الوقت الغابر. وكأن هذه وحدها ليست مبهرة وتستحق التقدير والتبجيل الثقافي، هناك من نقوش الملك «أور نانش» وتحفه ما يُذهل العقل حقاً، كسجلات أثرية قيّمة قدمت رؤى حول ثقافة سومر القديمة ودينها قبل ظهور إبراهيم بقرون. كما أنها أبحرت أيضاً في مسائل الخلق والوجود والآلهات من خلال تصويرات مجازية وأسطورية تعود بجذورها إلى قعر التاريخ!

رغم هذا السياق وهذا العمق، فإن التوراة وإن لم تمثل أقدم النصوص القدسية أو الإدارية أو الاجتماعية، فإنها بلا شك تتميز عن سجلات الأسبقين بأنها تختصر سيرة الكون وظواهره والبشرية جمعاء على لسان إله واحد. قبلها كانت هناك آلهات متعددة لشؤون وظواهر متنوعة. ثم إنها تلخص سيرة جماعة معينة من الناس (اليهود) لم يرَ العالم مثيلاً لمعاناتها على طول التاريخ. ناس كثيرون تألموا وعانوا وشعوب اندثرت وتهجرت لكن ليس مثل اليهود على الدوام والاستمرار في كل الأمكنة. فلنشد الأحزمة إذن ونستكشف مواقع الحيرة فيها والاستهجان. قد نجد - فضلاً عن خصوصية اليهود وأسرارهم - ما يمتّع الجميع بروايات الزمن الغابر. زمن يأخذنا إلى سومر وبابل، وإلى دجلة والفرات والهلال الخصيب. إلى عبادات القدامى وثقافات الأقوام. إلى أزياء وموسيقى وفلوكلور وشرائع، وإلى دابة وجمال وإلى ملوك وحكام وفراعنة. إلى حقائق ووقائع وخرافات وأساطير، وإلى أكاذيب ومزاعم وتلفيقات. إن الموضوع عميق وعريض يخفي في باطنه أشياءً لا يصلها ضوء ولا تشدها جاذبية، أقله بما ظهر عنها من نتائج البحّاث حتى اليوم. ومع أن هذه الفرضيات كلها معذورة بسبب جدلية نصوص التوراة وشهية البوح بما ضاقت الصدور به، لكنها ما فتئت تطرح نفس الأسئلة تقريباً وتكرر نفس الشكوك وتدور على نفس البيدر!

الفصل الثاني: خلفية المشهد

تفاحة آدم

في أيلول العام ٢٠٠١م زرت العراق في رحلة عمل رسمية. يومها كان خاضعاً لعقوبات أميركية صارمة وموضوعاً تحت الرقابة الدولية. الزيارة كانت بدعوة من وزارة النقل والمواصلات مع فريق عمل بريطاني. وقد تيسّر لنا القيام بجولة بين العديد من المناطق السياحية والتراثية المهمة. في الطريق إلى البصرة في أحد الأيام توقفنا عند ملتقى نهري دجلة والفرات، وكان منظراً مهيباً كما لو كان من مشاهد الجنّة في المخيلة. أخذتني روعة المشهد، بأصوات دفق الماء، إلى حيث أحب وأعشق. إلى «البدء»، وإلى الرافدين والحضارة السومرية والأكادية، وإلى أمور الزراعة الأولى والكتابة والحساب والفضاء. حملتني إلى عرش الملك سرجون العظيم ونارام سين وشمشي أداد، وإلى إرشيم وشلمنصر وسنحاريب ومعبد مردوخ، وإلى حمورابي ونبوخذ نصّر، وإلى اليهود!

في «المزوية»، وهي زاوية المكان المطلّ على ملتقى النهرين المخصص للزوار والسيّاح وتسمى أحياناً بـ «القرنة» (الزاوية)، كانت هناك على الضفة اليمنى لنهر دجلة شجرة يابسة عارية منطوية على نفسها؛ فأشار إليها أحد زملائي في الرحلة (براين)، وهو مهندس إيرلندي كاثوليكي مؤمن، وقال لي ممازحاً: «انظر! إنها شجرة المعرفة». ضحكت من سعة خياله الواسع وعرفت لحظتها أنه كان مثلي قد شطح بخاطره من جمال المنظر وهيبته إلى روعة الجنّة وحكاياتها. من غرابة الموقف أن مراهقين عراقيين كانوا يتجمعون حولنا قالوا

لنا إنها فعلاً شجرة التفاح التي أكلت حواء منها، فيبست من يومها. في حين قال لنا عجائز أكل الدهرعليهم وشرب إنها شجرة الحياة التي تلخص معاني الخير والشر. وما كان ملفتاً مما قالوه أيضاً إن نسوة القرى والبلدات يزرن «المزوية» من وقت لآخر للتبرك والدعاء ومسح الحِنّة حول جذعها على خطى أمهاتهن وجداتهن جيلاً بعد جيل. هنا، وأمام هذه الأسطورة اللطيفة، تمالكت نفسي ومعي زميلي، ولم نجرؤ على الاستهزاء أو الاستفسار احتراماً لعادات وتقاليد مرت على ضبطها قرون طويلة وغذّتها أهداف ومآرب. فالاعتقاد - وإن بالخرافات والأساطير - شأن ليس فيه مزاح، والإيمان بالاستمرار والتوارث أمر في غاية الجدّ، لا سيما أنه اختلف حوله ومات بسببه ملايين المؤمنين. لكن لا الحيز هنا ولا السياق يسمحان بالتعرّج إلى أنهار الدماء التي فاضت بسبب اختلاف العقائد الإيمانية والتراث الديني عبر التاريخ.

الأمر لم ينته بانتهاء زيارتنا للمكان، إذ إن «تفاحة حواء» أثارت شهية زميلي وأطلقت العنان لحشريته خاصة أنه مؤمن ملتزم. فما إن عدنا إلى لندن حتى كاتب مجلة «ناشونال جيوغرافيك» العالمية ليسألها تحديداً إذا كان لديها ما تقوله عن تلك «الزاوية» المطلة على ملتقى النهرين بالقرب من الخليج ومدينة «أور».. كم كانت دهشتي عظيمة فعلاً عندما ردت المجلة الرصينة برسالة مقتضبة أعادت له فيها عِبرة القصة التوراتية دون الدخول في التفاصيل. وقد أنهت كلامها بالتأكيد على عدم معرفتها بأي تراث محلي عن شجرة تفاح أو عن موقع للجنة بالقرب من البصرة. الملفت فعلاً أن المجلة سارعت وخصصت لقرائها حول العالم تقريراً كاملاً خاصاً عن الموضوع من خلال إعادة نشر قصة التوراة انطلاقاً من مشوار إبرهيم. وأفردت للتفاصيل المثيرة العدد كله تقريباً، فضلاً عن الغلاف[١]. لا بد أن هذه المسارعة من قِبل المجلة كانت تأكيداً

(١) راجع «ناشونال جيوغرافيك» عدد ديسمبر ٢٠٠١ م. ربما كان الموضوع جاهزاً لديها بمناسبة عيد الميلاد في آخر السنة!

للمرة المليون على أن الموضوع فيه من متعة التاريخ والثقافة على مستوى العالم ما يوازي غموض الحضارات وروعة الأمكنة وتشابك العلاقات. إلّا أن المجلة العتيدة لم تتعمق في بحثها، واكتفت بمحاكاة نصوص التوراة عن مجاري الأنهار الأربعة التي قد تكون انطلقت من موقع الجنة المزعوم. وكما لم تأتِ من الحاضر على ذكر عمر الشجرة ونوعها وعن أول توثيق لها، لم تذكر من التاريخ بذور الأساطير السومرية عن بعض مغازي شجر الإيمان والاعتقاد، وتحديداً عن شجرة الحياة «الخولبو» (هولوبو) ذات الأغصان الأربعة التي يشهد تراث السومريين عليها! فللشجرة في بلاد النهرين تاريخ عريق ربما مثّل معاني الديمومة والعرش الأبدي الذي يسيطر على عناصر الحياة الأربعة: الهواء والنار والتراب والماء. وربما كانت الأغصان تدل أيضاً على المواسم الأربعة، فضلاً عن الاتجاهات. وما نضح من تغطية المجلة على صفحات كثيرة هو تركيزها على رحلة إبراهيم من «سومر» والأهداف الكبرى من تبشيره في بلاد كنعان ومصر.

ومن أهمية التوراة وتأثيرها العريض على متابعيها، أن عناصرها تتغير بتطور أدوات البحث وتعدد المنقبين. وقد تبين من انفتاح السعودية مؤخراً أنه أتاح فرصةً ذهبية للعديد من الهيئات التنقيبية وعلماء الآثار والحضارات. وبالفعل ظهرت مزاعم وتقارير حديثة عن اكتشافات أثرية مهمة يعتقد بعض الأركيولوجيين أنها قد تكون ذات صلة وثيقة بأحداث التوراة. ولعل الاقتراح الحديث (٢٠١٩ م) بأن موقع «العلا» الأثري، شمال غرب المملكة، يحتوي على بقايا استيطانية تعود إلى نحو ٤٠٠٠ عام، هو أحد أشهر هذه الادعاءات حتى اليوم.. يضاف إلى ذلك، أن هنالك مواقع في الجوار يرجّح البعض أن تكون جديرة أيضاً بالبحث والتنقيب عن تراث إنساني عريق. ولربما تحمل البوادي العربية والبراري الحجازية ما قد يرتبط مباشرة برحلة إبراهيم أو بأحداث «الخروج» أو باكتشاف موقع بديل لجبل سيناء - حسب أماني المتحمسين. لكن من الضروري الانتباه هنا إلى أن هذه المزاعم والترجيحات،

مع أنها مشجعة وموعودة، فإنها مثيرة للجدل والتحدي معاً. هي الآن في خضم مناقشات أكاديمية حادة ونقاش تاريخي عميق بين جهات الاختصاص وهيئات التنقيب والبحّاث التوراتيين.. ذلك أن مجال علم الآثار التوراتي معقد جداً، ويمكن أن تختلف تفسيرات النتائج حوله على نطاق واسع مثلما هو واضح من تعدد الفرضيات كما سنرى لاحقاً. وهذه الفرضيات - العربية منها خاصة - بدأت في الآونة الأخيرة تفرّخ كالأرانب وتتكاثر كالفئران، لا سيما رداً على مقولة كمال الصليبي الشهيرة أو إضافة لها وتأكيدها.

أصل الحكاية

ومثلما جرّني إبراهيم إلى موسى، سحبتني الرواية التوراتية إلى ما بعد سليمان، وتحديداً إلى ما يسمى تقنياً بفترة «السبي من فلسطين»؛ فوجدت سجلات وافية عن سبيَين إثنين وليس عن سبي واحد كما في التقليد: الأول كان في عهد سرجون الثاني في الفترة الأشورية **٧٢٢** ق.م، والثاني في الفترة البابلية، وهي المقصودة بالسبي التقليدي الشهير الذي أمره نبوخذ نصر **٥٨٦** ق.م ودام قرابة **٥٠** سنة. بين الفترتين كانت الحقبة الأشورية تعرف بحقبة «نينوى» الذهبية. من معالمها الخالدة قصر أشوربنيبال (**٦٦٩ - ٦٣١** ق.م)، وكان له هيكل عظيم وفيه ساحات عريضة وقاعات فخمة ومكتبات وصروحات لعامة الشعب وميادين للاحتفالات العامة. كان الملك أشوربنيبال يُعرف عنه شغفه بالعلوم والطبيعة والفلك، وكانت عنده عنها مجموعات قيّمة من الألواح المسمارية والنصوص الدينية. كان أحياناً يعرضها على الوجهاء والزوار الأجانب وعلى المثقفين من الشعب. وقد اطّلعنا من سجلات المتاحف والتحف التاريخية على أجواء المعيشة الرغدة التي كانت سائدة، وعلى ضخامة المطابخ الكبرى، وأوصاف الولائم الأسطورية، والعناصر الفاخرة المرتبطة بفترة القصر وازدهاره، فضلاً عن فخامة المراسم واستقبالات حكام الأقاليم والحلفاء. ومن أراد الوقوف على تفاصيل البذخ والإفراط والبطر وأنماط

العيش في قصر أشوربنيبال، ما عليه إلّا أن يقرأ ما تسرّب عنها إلى نصوص التوراة فيما بعد لكن إسقاطاً على عظمة قصر سليمان؟ ففيها عن الأبهة والإسراف (الملوك: ١٠:٢١)، وعن فخامة موائده وتفاصيل أثاثه المزخرف والمرصّع ما يشبه الوصف الدقيق والنقل الحرفي عما كان يجري في أروقة قصر أشور نفسه. بعض المؤرخين زعم أن المَسبيين اليهود في تلك الفترة الأشورية - أو حتى في الفترة البابلية اللاحقة - ربما عملوا مداورة في قصور الحكام (على طريقة المماليك أسرى الفاطميين)، وشاهدوا بأنفسهم فخامة قصر الملك أشوربنيبال، أو سمعوا مباشرة من دواوينه واجتماعاته مع رؤساء الأقوام التي أخضعها لسلطته، فاقتبسوا الكثير من ذكرياتهم عنها بعد رجوعهم إلى أورشليم. هناك ألبسوا أوصافها لملك افتراضي اخترعوه من خيالهم وسمّوه سليمان ثم أرجعوا تاريخه المتخيل إلى نحو قرابة ثلاثة قرون قبل سبيهم ليستمروا بوجدانهم عنه ويتباهوا بأصولهم على أطلاله. وعلى هذا المنوال، هناك العديد من روايات الذاكرة المحاكة للتخيلات والأوهام التي تسرّبت من بابل إلى نصوص التوراة لتعطي انطباعات خادعة أو مُشوّهة أو مضخمة!

لا بدّ للمتابع الانتباه إلى بعض الأشياء الجوهرية عن مسألة السبي كأداة للتطويع والاخضاع. كان عرفاً دارجاً بين ٩٠٠ إلى ٥٨٠ ق.م، مارسه تحديداً الأشوريون والبابليون على سادة الأقوام المنكسرة والمعارضين. كما لو كنا نتحدث اليوم عن معسكرات الاعتقال في جزيرة «روبن» في جنوب أفريقيا، وخليج «غوانتانامو» الأميركي في كوبا، أو جزيرة «الشيطان» في غينيا الفرنسية، أو جزيرة «القديسة هيلانة» البريطانية في جنوب المحيط الأطلسي وغيرها وغيرها. بيد أن نظام السبي هذا لم يستمر لاحقاً خلال حقبة الفرس، (وإن مارسه بعض اليونانيين فيما بعد). هؤلاء الفرس كانت لديهم طرق إدارية محلية لا تعتمد على الترحيل الجماعي والنفي بالجملة، وإنما فقط لبعض الرموز المعارضة والحكام المناوئين. ثم إن النفي الأشوري والبابلي لم يقتصرا فقط على اليهود والمناوئين السياسيين وطبقة الإنتليجنسيا (الصفوة)، بل شمل

أيضاً حكام الأقوام في الشرق الأدنى الذين رفضوا دفع الضرائب أو أبدوا اعتراضاً على دفعها. ومن هؤلاء المتمردين رؤساء حكم وكهنة وصفوة جيء بهم من نواحي سنجار وأرمينيا وصور وعسقلان وصيدا وعقرون ومصر، وحتى من مأرب وبعض أطراف الجزيرة.

صحيح أنه ليست هناك سجلات تاريخية تدل على سيطرة أشورية أو بابلية مباشرة لمناطق عمق الجزيرة العربية، لكن هناك من النقوش ما يشير بوضوح إلى وجود حملات عسكرية خاطفة لهما على خطوط البحر الأحمر من إيلات إلى ضواحي يثرب حتى حدود اليمن، لا سيما بسبب مسائل الهيمنة على طرق قوافل التجارة. كما لو كنا نتكلم اليوم عن نشاطات سيطرة أميركا (وقبلها بريطانيا) على باب المندب وقناة السويس ومضيق هرمز وبنما على سبيل المقاربة.

السجلات المتوفرة تشير إلى حملات خاطفة لأشوربانيبال إلى أجزاء من جنوب الجزيرة العربية وإن لم ترتقِ إلى حد توثيق السيطرة المباشرة أو تدوين سلطة الأشوريين على تلك المناطق. هناك في المنفى الأشوري والبابلي كانت النخب وأسياد الأقوام تتوحّد وجدانياً بآلام التنكيل وتغتسل بدموع البعد عن الوطن وتشترك بشكاويها من الذلّ والمهانة وتعزّي أنفسها بقصص أسلافها؛ فيتباهي كل قوم بأمجاده أمام غيره ويُرجع نَسبه إلى مدن عريقة وراقية. ويمكن للمراقب العصري أن يتخيل حواراً وجدانياً بين قيداري مَسبي وأرميني، أو بين يمني وفينيقي، أو بين كنعاني (يهودي) وفارسي. كلٌ كان يُصوّر للآخر مسقط رأسه كأجمل البقاع قاطبة، وقصوره كأبهى المباني، ومراكبه كأسرع السفن وأزياءه أزهاها، وصبغاته أندرها، وآلهاته أقوى الأرباب وأعدلها! لم يكن بينهم آنذاك مَن كان يستطيع تكذيب أو تأييد تلك المبالغات والتضخيمات.

ما هبّ ودبّ

صحيح أن الغربة عند ضفاف الفرات جمعت أشكالاً متنوعة من الأقوام والثقافات والعبادات، لكن اليهود كانوا أكثرهم عدداً وأطولهم نفياً[1]. إن وضعهم هذا جعل سبيهم أحد أهم الأحداث التي مروا بها في تاريخهم، ليس فقط لأن البابليين دمروا هيكلهم في «أورشليم» لأول مرة، بل لأن تجربة السبي على طولها أعطتهم تراثاً ضخماً سيكون له فيما بعد التأثير الكبير على العالم أجمع. وهنا ينبغي أن نذكّر بنوعية المنفيين اليهود ولو على حساب الإعادة والتكرار. كانوا خيرة القوم من كهنة وعلماء واختصاصيين وإداريين ونخب؛ فكان لاختلاطهم مع بقية كبار أقوام المُبعدين من كل أنحاء الإمبراطورية البابلية أثر رهيب ومبهر على بناء ثقافتهم وعقيدتهم فيما بعد. اختلطوا بالعرب والكرد والأرمن والفرس والمؤآبيين والشوام والصوريين والصيداويين والسبئيين والأحباش.

كلٌ منهم كان عنده من تراثه العريق أسطورة تُحكى أو معجزة تُروى أو خراب يُبكى عليه! من خلال امتزاج آهات الوجع ونهدات الحسرة في هذا التفاعل اليومي، امتص اليهود تقاليد دخيلة واكتسبوا لهجات عديدة. لا بل تعلّموا مصطلاحات متنوّعة كانت دارجة ضمن اللغة الآرامية السائدة في الشرق الأدنى آنذاك، تماماً كما تستعمل اليوم المصطلاحات الأميركية في المنطقة عموماً. فالتركي واللبناني والسوري والإيراني والمصري والأرميني والمغربي، على سبيل المثال، يرددون اليوم نفس التعابير الأميركية في يومياتهم مثل: «أوك» و«ويك أند» و«ياس» و«نو - بروبلم» و«همبرغر» و«سينما» و«شوكولاتة» و«فوتبول» و«كمبيوتر» و«بلكون» و«جيينز» إلخ. وبالإضافة إلى مثل هذه الإدخالات اللسانية والتسريبات اللغوية، اطلع اليهود أيضاً على طقوس وتقاليد

(١) لا أحد يعرف أعداد اليهود المسبيين لأن التوراة نفسها لم تذكر الأرقام. إلّا أن بعض أهم المراجع المتخصصة وضعتهم بحدود بضعة آلاف.

وعادات كثيرة. قرأوا في بابل نقوشاً مسمارية عن معالم سومر وتاريخ أكاد، فضلاً عن خربشات ثمودية أو أوغارتية أو غيرها مما كان في أرشيف السلطة. ثم ليس مستبعداً أن يكون اليهود قد حفظوا أسماء مواقع بابلية عهدوها خلال المنفى واعتادوا عليها، فأطلقوها بعد السبي على المواقع الجديدة التي سكنوها. الأمثلة من التاريخ المعاصر لا تحصى؛ فالإنجليز، مثلاً، أطلقوا في القرن الثامن عشر أسماءً هندية وفُراتية ومصرية على بعض طرقاتهم ومواقعهم الجديدة سواء في إنجلترا نفسها أو في مستعمراتها والعالم الجديد. وعليه، فمسألة تشابه الأسماء والمواقع واللهجات لا تعني الكثير إلّا في المناطق المعزولة، ولا يعوّل عليها وحدها خارج سياقها وجغرافيتها وتاريخها معاً. (وسيكون لنا عنها في فصل «اللغة» بعض التوضيح، لا سيما أن الكثير من الباحثين التوراتيين العرب يلجأون إلى تقليب الأحرف أو تبديلها ليستنتجوا منها مبتغاهم).

لذا، ليس مستبعداً أيضاً ولا مستحيلاً أن يكون هؤلاء اليهود المثقفون قد نهلوا ما هبّ ودبّ من المصطلحات والتعابير والأفكار والمعتقدات. هم تشبعوا بقصص الأوّلين وروايات الإلهام عند هؤلاء الأقوام المنفية المتنوعة. وحتى بعد دخول الملك الفارسي كورش العظيم إلى بابل وتحريرهم من الأسر (٥٣٩ ق.م) لم يعودوا كلهم إلى أوطانهم، ولا عادوا نوبة واحدة، إلى أورشليم! منهم مَن استقر في العراق بدون انقطاع حتى تاريخ النكبة (٤٨) أو النكسة (٦٧) في فلسطين. منهم مَن عمل في وِزَرات كورش وارتحل إلى بلاد فارس وما يزال في إيران. منهم مَن توجّه إلى مناطق جنوب وغرب الجزيرة إلى أن طرودا من معظمها باستثناء اليمن (في العصر الإسلامي). ومنهم من اتجه إلى الهلال الخصيب وفلسطين. وعلى هذا التفرّق بالاتجاهات الأربعة، صارت كل مجموعة يهودية تستعيد ذكرياتها عن السبي على مسامع سكان البلدات الجديدة التي استوطنتها، كلٌ حسب ظروفه المستجدة. والواضح أن نسبة كبيرة من المَسبيين عادت إلى أورشليم، لكن ليس على نفس الطريق الذي جُرجرت

عليه في درب الذهاب إلى النفي، بل عبر طرق قوافل كان المنتصر الفارسي قد استحدثها لأغراض فتوحاته باتجاه مصر. هؤلاء العائدون اليهود اكتسبوا - فوق مكتسباتهم في المنفى - عادات وتقاليد إضافية مختلفة من الأقوام التي اختلطوا بها أو مروا عليها بطريق العودة! وبوصولهم إلى ديارهم المنتشرة كانوا قد ادّخروا قواميس ضخمة ومعارف كثيرة والعديد من الطقوس والشعائر إن لجهة أمور العبادات القديمة، كالصوم والطهارة ورمزية النار، أو لناحية الأخلاق والأعراف في أمور الحياة والموت والزواج والطلاق والتملك والتوريث وغيرها. هنا يقول بعض البحّاث والعلماء إن اليهود كتبوا ملاحظاتهم - فضلاً عن قوانينهم - أثناء فترة الأسر وانكبوا على ترتيبها بعد عودتهم منه مباشرة. هناك مَن يقول إن تجميع النصوص والذكريات وتوضيبها وإجراء التعديلات عليها مع كل حدث لاحق استغرق معهم نحو ٣ قرون أخرى قبل ظهور التوراة على شكلها الحالي تقريباً بعد وقف أعمال التأليف.

ولأن المشاهد اليهودية محكومة بعوامل مختلفة من الترحال وعناصر معقدة من نفوذ الكهنة وحكام الزمن، فليس مهماً كيف نُصنّف معلومات المفكرين والمنقبين حول نصوص التوراة، سواء كُتبت في المنفى أو جُمّعت بعده مباشرة أو نُقّحت في عصر متأخر. كما ليس مهماً أيضاً كيف نسرد عناصر الرواية ما دام المعنيون منها، ثقاة وخبراء، أنفسهم لا يعرفون الغثّ فيها من السمين، ولا الصحيح من الخطأ بالنظر إلى انعدام الأدلة الدامغة. كل ما اتفقوا عليه حول النصوص التوراتية حتى الآن أنها ليست منطقية كلها، ولا تاريخية كلها، ولا جغرافية مطابقة للواقع كلها. الملفت في جانب من المسألة أن باحثين كثيرين حول العالم نذروا أعمارهم في البحث عن فروع الرواية التوراتية وليس عن أصلها. فإذا كانت الأهرامات بشموخها وفخامتها - على سبيل المقارنة - ماثلة أمام العالم منذ آلاف السنين يحرسها أبو الهول بنفسه ولم تقنع البحّاث بعد بهوية بُناتها أو تاريخها، فكيف يقتنعون بقامات توراتية لا بنيان لها ولا مكان ولا أثر؟

أضواء بلا نور

في سياق نظرية «الضوء الأسود»، هناك أشياء لا تراها العين إلّا بالأشعة فوق البنفسجية. لكن مع ذلك، لا يمكن لأي أشعة أن تُظهر ما هو غير موجود أصلاً، أو ما هو موجود في مكان آخر!! لقد بحثوا عن إسحاق ويعقوب وإسماعيل ويوسف وموسى إلخ، وافترضوا سلفاً أن هؤلاء الآباء جاءوا من نسل إبراهيم حسب النصوص. ماذا لو أن إبراهيم نفسه لم يكن موجوداً في تاريخه وسياق جغرافيته حسب الرواية؟ هذا ليس سؤالي، إنما طرحه العديد من المفكرين والعلماء والفلاسفة بالنظر لانعدام الأدلة. لكن استناداً إلى ما ذكره العالم العراقي العتيد أحمد سوسة في كتابه الضخم «مفصل العرب واليهود في التاريخ»، نقلاً بدوره عن كتاب الباحث والمنقب المعروف هاري سان جون فيلبي «خلفية الإسلام»، فإن إبراهيم كان فعلاً شخصية حقيقية واقعية مدعوماً بسجلات كثيرة. غير أنه صراحة لا إجماع بين علماء التوراة على مصدر فيلبي واستنتاجه المبهم. إذ يبدو أنه استند إلى ما وصفه بـ«كتابات عمورية» قال إنها وُجدت في أطلال مدينة «ماري». وقد استنبط منها أن يكون إبراهيم هو الملك الثالث الغامض من أسرة حكمت بابل قرناً من الزمن ابتداءً من ١٧٢٥ ق.م. وضع فيلبي ترتيب إبراهيم مباشرة بعد الملكين «إيلوم مايللي» و«إيتي إيللي نبي». هذا مع العلم أن الملك الثالث (الملتبس الهوية «إبراهيم») لم يرد لا ترتيباً ولا اسماً في لوائح مؤرخي الملوك البابليين وأُسرهم. ومرة أخرى ليس واضحاً كيف توصّل فيلبي، أو وافقه سوسه الرأي، ليس فقط على هوية الملك الثالث المجهول، بل على أن اسمه «ياثع - إيل» *Yathil* كناية عن إبراهيم؟ ثم إن تاريخ إبراهيم الافتراضي هذا (١٧٢٥ ق.م.) لا يتوافق مع تاريخ الملك الغامض إن وُجد أصلاً بالترتيب الثالث بعد الملكين قبله. لكن للإنصاف استعان أحمد سوسه أيضاً بباحث فرنسي اسمه «دي فو» ليستشهد بدراسة قام بها عام ١٩٦٥م عن تاريخية إبراهيم، فوضعته في القرن التاسع

عشر ق.م، أي في أوائل عصر المملكة البابلية القديمة ١٨٥٠-١٥٩٥ ق.م - وهذا بدوره يضع إبراهيم بعد عصره الافتراضي بقرن من الزمن على أقل تقدير![١]

وعلى هذا النهج التخميني، فإن كل ما لدى البحّاث والمفكرين عضوياً عن التوراة حتى الآن مجرد طلل أثري عبارة عن لوحة من حجر الجرانيت الأسود، قيل إن عالماً فرنسياً اكتشفها في مصر عام ١٨٩٦ م. وقد تردد في دوائر المصريات أنها وُجدت في خرائب معبد الملك «مرنبتاح» بمدينة طيبة (الأقصر). أطلق عليها (زوراً) اسم «لوحة إسرائيل» لأنه زُعم أنها حملت في سطر من سطورها كلمة «إسرائيل». وقد فُسّرت الكلمة (كيفما اتفق) على أنها تعبير واضح عن خروج بني إسرائيل من مصر، وذلك في معرض تمجيد الملك «مرنبتاح» (١٢٢٤- ١٢١٤ ق.م) عن انتصاراته في بلاد كنعان، وهي تمجيدات نُقشت على خلف اللوحة! أما الكتابة الأصلية على وجهها، فتعود إلى عهد سابق لمرنبتاح، وتحديداً إلى والد أخناتون، الملك أمنحوتب الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م). وكان قد أمر بنقشها، هو الآخر، تمجيداً لانتصاراته آنذاك ضد الليبيين...

لكن ماذا نُقش بالضبط على خلف اللوحة؟ في الجزء المعني منها هناك إشارة إلى جماعة تدعى «إسرائيل» استطاع الملك المصري «مرنبتاح» القضاء عليها في أرض كنعان. لذلك يعتبرها مؤيدو النصوص التوراتية من أبكر الأدلة وأشدها وضوحاً على وجود مجموعة تعرف باسم «إسرائيل» في بلاد كنعان آنذاك، ما يؤكد مصداقية السياق التاريخي - حسب استنتاجهم! لكن الكثير من المسؤولين المصريين وعلماء المصريات، ومنهم عبد الرحيم ريحان، مسؤول

(١) الإبراهيم الوحيد الذي وجدته بين لوائح السومريين اسمه «إبرانوم»، لكن من فترة أواخر الألفية الثالثة قبل الميلاد. أي قبل إبراهيمنا بقرون. وكان هو الحاكم الجوتاني الرابع عشر لسلالة جوتيان المذكورة في «قائمة الملوك السومريين». ووفقاً للقائمة، كان إبرانوم خليفة لملك اسمه إيراروم، أي ليس لوالده تارح؟

في هيئة المجلس الأعلى للثقافة المصرية والعضو في لجنة التاريخ، أوضحوا أن كلمة «إسرائيل» في سياق سردها لم تعنِ إسرائيل الشعب كما تصوّر البعض، وإنما أشارت إلى إسرائيل كعشيرة أو قبيلة عُرفت بهذا الاسم من خلال المعنى المقصود. ودليله على صحّة تفسيره هذا أن لوحات التاريخ المصري القديم هي تسجيلات عظيمة لأمجاد وانتصارات الحكام المصريين، وليس لندب مآسي ضحاياهم كما يحلو للبعض أن يزعم من خلال ورود الكلمة في اللوحة، لا سيما في غياب أدلة أخرى. ومع أهمية هذه اللوحة اليتيمة لمؤيدي الرواية التوراتية، فهي لا تعدو كونها مجرد قشة طارئة لا يُعمل بيدرٌ منها - حسب قناعة النقاد!

«الخروج» بين الروهينغا وموسى!

مصادر المؤيدين للنصوص التوراتية تقول إن هناك أسباباً منطقية كثيرة لعدم وجود أدلة حسيّة كافية عن حقيقة الواقع التوراتي. أهمها أن التاريخ لم يُسجل مآثر الأنبياء لأنهم كانوا بالتعريف المنطقي ضد الظلم وضد الحكام. أي إنه لا حاكم في تلك العصور كان سيسمح لنبي بتمجيد دعوته، أو لشعب بتخليد مأساته مع الحكم. هناك ما لا يحصى من الأمثلة عن قياديين أو رجال دين ومبشرين تم إسقاطهم عمداً من تاريخ البشرية، أو شُوّهت سِيرهم لأسباب سياسية بمجرد سقوطهم من النعمة أو مواجهة «المؤسسة». وهنا لا أقصد أمثلة بعض سلاطين الدولة العثمانية، كما لا أعني إخفاء أدلة علماء تحدّت اكتشافاتهم وجهة نظر «المؤسسة» مثلما حدث مع العالم الشهير «غاليليو». ولا أقصد أيضاً أمثال الملك المصري «أخناتون» الذي قامت «المؤسسة» ضده ونبذت أفكاره وحطّمت آثاره. بل أقصد رجالاً من نوع آخر... شخصيات أهملها التاريخ أو غيّبها لغايات معينة، أمثال واضعي بعض خرائط الجغرافيا، كالإيطالي ميركو فيسبوتشي (أميركا)، أو العُماني أحمد بن ماجد (رأس الرجاء الصالح)، أو مثل الداعية اللبناني موسى الصدر، أو النقابي الأميركي العتيد

جيمي هوفا. هذا فضلاً عن حكماء وكتّاب أمثال مؤلفي «الألياذة» و«حِكم لقمان» أو «كليلة ودمنة» أو «سطوة ذي القرنين». ليس مستبعداً أن يواجه رجال عظماء تعتيماً محكماً ممن يأتي بعدهم ويمحو إرثهم أو يشوّه سمعتهم. لا بل قد يُواجه الزعماء الشعبيون، الذين يفضحون الفساد ويتعارضون مع مصالح «المؤسسة»، باغتيال اعتباري لشخصياتهم، وبالتالي بتقويض مصداقيتهم. وهذه الظاهرة تحدث في كل الأزمان ومختلف المجالات، ابتداء من السياسة والعلوم إلى الفنون والعبادة.

هذه مجرد أمثلة عن احتمال غياب الأدلة عن الوقائع. هناك أحداث من العصر الحديث يمكن تخيّل انعدام الشواهد عليها بعد فترة من الزمن. فلدينا اليوم مثال حيّ عن قصة خروج موسى من خلال مأساة نزوح الروهينغا على سبيل المقاربة. ففي عام ٢٠١٧ م نزح عدد هائل من المضطهدين من ميانمار وهربوا «قطعاناً» إلى بنغلاديش المجاورة حيث تجاوزت أعدادهم ٧٠٠,٠٠٠ لاجئ. وقد سعت الأغلبية منهم إلى التوقف المبدئي في مناطق مختلفة على الطريق إلى أن خيّم بعضهم في معسكر «كوكس بازار» بالقرب من الحدود مع ميانمار، وهو أكبر المخيمات البشرية على الكوكب. ورغم أن الحدث جذب الاهتمام الدولي إليه بسبب حجم النزوح والمآسي الإنسانية التي طرحها، فإن الكتابات الغزيرة التي صدرت عن النزوح في عصرنا الرقمي والتواصل الاجتماعي والأقمار الاصطناعية لن يكون لها أثر في زواريب البلدات بعد قرن واحد من الزمن، ناهيك عن عشرات القرون. لن يبقى منها سوى تراث متناقل وأشعار ولطم وبقايا شعر وبكاء ونحيب. الأزمة ما زالت مستمرة منذ ٢٠١٧م والتيه الروهينغي لا يزال يطول أمده وتتعقد حكاياته كل يوم، ومَن يدري، فقد يستمر ٤٠ عاماً على فترة تيه موسى!

صحيح أن المقاربة هنا ليست دقيقة أو مثالية للخروج الأسطوري لموسى، لكنها مطابقة مع ما ينطوي عليه النزوح القسري ومعاناة البوساء في الأراضي الخالية من عناصر العيش الكريم؛ فمن الضروري أن ننتبه للسياق التاريخي

والثقافي والجيوسياسي الفريد لكل حدث من أحداث النزوح. فنزوح الروهينغا في ٢٠١٧م يختلف عن نزوح الأرمينيين أثناء الحرب العالمية الأولى من وجه محمد طلعت باشا، أو نزوح الأكراد من درب صدام حسين في العام ١٩٨٨م، أو نزوح قبائل «التوتسي» من بطش قبائل «الهوتو» في العام ١٩٩٤م أو نزوح المسيحيين في سوراقيا من داعش، أو الغزاويين من وحشية نتنياهو في العام ٢٠٢٤م. هذه النزوحات البشرية لها أسباب مختلفة ومتميزة، لكنها تسلط الضوء على المآسي والمصائب والنكسات التي يواجهها النازحون في العراء وأثناء التنقل حتى الوصول إلى أرض موعودة. لكن رغم ذلك، تؤدي مثل هذه الإبادات إلى شتات رهيب ومتواصل في كل بلدان العالم. فكما توَزّع اليهود في الشتات، تفرّق الأرمن والسوريون والأكراد والروهينغا والدارفوريون والصوماليون والفلسطينيون بحثاً عن اللجوء في مناطق بعيدة وآمنة. لا ريب أن العديد من المؤرخين والعلماء والصحفيين وثقّوا هذه الأزمات وأعطوا آراءهم حول سياقها التاريخي وأسبابها ومحن شعوبها، لكن على مَن تقرع مزاميرك يا داود؟ فالتاريخ يكتبه المنتصرون، وبالكاد ستحتفظ السجلات بكتابات بعض المتحمسين لحقوق الإنسان ولن يبقى لنا منها إلّا تملقات المطبلين الأمميين على طريقة هنري كيسنجر والمؤرخ يوسفوس(١).

أما عن حقيقة خروج موسى، فإن حقبته الافتراضية خلال الإطار الزمني التقليدي ١٥٠٠-١٣٥٠ ق.م لم تشهد أي تدوينات يهودية مثبتة، ليس فقط لأن الشعب اليهودي كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب، بل لأن الكتابة السائدة آنذاك كانت هيروغلوفية في مصر وأكادية في بلاد النهرين وآرامية بدائية في كنعان. كانت الكتابة مقتصرة فقط على نسّاك المعابد والدبلوماسيين وكبار موظفي الحكم، وفيها تعقيدات تقنية معملية لم تكن مُيسّرة حتى لمن كان يتقنها خارج دوائر «المؤسسة». لذا، فالكتابات أيام موسى لم تكن تُدوّن لأي شيء خارج

(١) راجع فقرة «يوسف الملعون» لاحقاً في السياق.

نطاق الأنشطة التي افتخر الحكام بها، أو كانت تخصّ أرباحهم وسمعتهم وانتصاراتهم. ومع ذلك، غالباً ما كانت الروايات التاريخية المصرية تتشابك مع النقوش الدينية أو الملكية الضخمة. من هذه النصوص البارزة من تلك الفترة على سبيل المثال «حوليات تحتمس الثالث»، وهي سلسلة من نقوش واضحة فَصّلت حملاته العسكرية وإنجازاته على أهوائه (١٤٦٠ ق.م). كانت أقرب إلى الوجدانيات النرجسية منها إلى التسجيلات التاريخية الحديثة. هناك أيضاً «حجر بَاليرمو»، وهو مدونة ملكية (موجود في إيطاليا) يعود بقدمه إلى الأسرة المصرية الخامسة (حوالي ٢٤٠٠ ق.م) ويحتوي على نقوش عن وقائع مختلفة، بما في ذلك عهد الملوك والأحداث التي عاصروها واعتبروها مهمة من وجهات نظرهم آنذاك.

هكذا - والحديث ما زال للمدافعين عن صحّة النصوص التوراتية - فإن السجلات التاريخية حول إبراهيم ويوسف وموسى وغيرهم في حاران وفلسطين ومصر محدودة للغاية للأسباب أعلاه. وغالباً ما كان الموجود منها مجزأً أو مشوهاً أو غير مكتمل. ثم إن التسلسل الزمني للأحداث قد لا يكون دقيقاً في التوراة ما يجعل البحث عن آثارها أمراً عسيراً. وفي معظم الأحيان نجد الروايات التوراتية تفتقد حتى إلى نقوش تلميحية عن الجوار وسجلات الجيران، لكن قد يكون ذلك لأسباب تتعلق بدمار بيئي وتغيير وبائي واضطهاد ومجاعة أو تهجير. وهذا - برأيهم - ما يفسر وجود مزيج معقد من تخمينات في النصوص الدينية والأدبية والتاريخية المتناثرة لملئ النواقص وحشوها بما يجاري المراحل والمواقع المختلفة. وهذا بدوره أيضاً ما يجعل الرواية التوراتية تلحد عن قيمتها التفصيلية كتدوينات تاريخية حرفية يُعتمد عليها..

صحيح أن أجزاءً كثيرة من نصوص التوراة تحتوي على عناصر حقيقية، لكن القيمة الفعلية تبقى بالعناصر الدلالية أو الرمزية أو حتى الدعائية. وعلى الرغم من أن بعض الوقائع والأحداث والشخصيات المتأخرة قد وُجد لها أثر حقيقي وقرائن حسيّة، فإن سلسلة من الأحداث والشخصيات الأسبق لا يزال

موضوعها مضمار جدل علمي حاد مستمر. ورغم استمرار البحث عنها آلاف المرات كما فعل توماس أديسون قبل أن يرى ضوء اللمبة، إلّا أن الجهود العظمى حتى الآن لم تفضِ إلى شيء مشجع.. المسألة مع المتحمسين لصحة النصوص تشبه كاريكاتورياً محاولاتهم إقناع الناس أن سمكة صغيرة في علبة سردين في سوبر ماركت في مصر قد اصطادها لبناني من سكان صيدا عند إبحاره في المحيط الهندي بعد ٤٥٠٠ سنة من طوفان نوح!. إنه شوط خيالي طويل طويل ورومانسي بعيد ومعقد. ربما مواصلة البحث في المستقبل تقودنا إلى المزيد حول هويات البطاركة وأحداث التوراة، لكن إلى أن تحسم المسألة يبقى السؤال قائماً: من أين جاءت التوراة؟

مطاط ومستور

على ما تقدم، سنرى تباعاً كيف أن عناصر الغموض بمسيرة اليهود تبرّر إثارة الخلاف معهم، لا بل والإعجاب بهم أيضاً بسبب تطويرهم الخلّاق لمكانة إلاههم «يهوه». فمن إله عادي بين آلهة كثيرة، مكّنوه على كل الآلهة، ورفعوه على كل الوجود، وأخضعوا أنفسهم لسلطته. وعلى هذا الأساس تكون التوراة نتاج التطوّر الطبيعي للوجدانيات الدينية في نفوس اليهود عبر نقاشاتهم المباشرة مع «يهوه»، كما في حواراته مع إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى بدون تدخل الوحي عن طريق الملائكة. وبحسب التدوين التوراتي، فإن موسى هو أول من ذكر «يهوه» بالاسم في سفر الخروج (٣: ١٤-١٥)، أي في نواحي العام ١٣٥٠ ق.م. لكن معظم الباحثين رغم تناقضاتهم المتشعبة أجمعوا على رفض فكرة وجود إله باسم «يهوه» قبل العام ٨٥٠ ق.م. الأمر الذي قد يعني أن «يهوه» المتأخر هذا هو غير الإله «يهوه» الذي ورد في أسفار موسى وكلّم الآباء البطاركة الأوائل. وعليه، فإن هذا الالتباس يعرّض النصوص لضرورة الاستمرار بالغربلة، وإن من خلال تفنيد مزاعم وادعاءات نقاد التوراة أنفسهم. فلا بد من الرجوع إلى التاريخ العميق وإلى الأسس الأصلية.

باستطاعتهم أن يمطّوا التاريخ كما يحلو لهم. أن يحوّروا الكلام كما يريدون. لكنهم لا يستطيعون تطويع ما هو غير موجود أساساً لصبه في قالب تاريخي أو ديني بذاته دون أن تفضحهم التناقضات. فالمحاولات الكثيرة التي يقوم بها البعض لإخراج الوليد بعمليات قيصرية - خاصة من خلال تقليب الأحرف واختزال معاني الكلمات وتغيير نطقها، وإنْ أثمرت في مواقع محدودة معينة - فهي غالباً ما تترك تشويهات واضحة في معظم المواقع الأخرى. كما أنه لا يمكن اعتماد التبديل والتعديل وسيلة ناجعة مضمونة لمعرفة طبيعة الأصول الحقيقية القديمة جداً. حتى الروايات الحديثة نسبياً، كـ«علي بابا والأربعون حرامي» ما زال المؤرّخون مختلفين على أصلها؛ فبين قائل إنها من أصل رواية «ألف ليلة وليلة» إلى آخر يرى أنها أُلحقت إليها في القرن الثامن عشر عن طريق مستشرق فرنسي (انطوان غالاند) سمعها من حَكواتي في مدينة حلب. بل هناك من المؤرخين الأدباء مَن يدّعي أن أصل الرواية مأخوذ من أساطير الفايكنغ عن طريق تجاراتهم مع العثمانيين في القرن التاسع ميلادي، ومن خلالهم تسربت ووَجدت طريقها إلى التراث العربي في منتصف القرون الوسطى، بعد أن تعرّبت إلى «علي بابا» وأخيه «قاسم».

لكن المسألة الكبرى في أمر التوراة لا تتعلق بعلي وقاسم، ولا فقط بعيسو ويعقوب، أو موسى وهارون، ولا بقايين وهابيل، بل تكمن في أساس الرواية من أصلها، سيما أن قصص التوراة لم تأتِ من عدم كما ألمحت آنفاً، بل تراكمت طبقاتها من أيام الكهف وتطورت تفاصيلها مع تجارب البشر في تواريخ متعددة لمآرب وأهداف. لكن أين هي مفاصل المطّ والالتباس ومواقع التخفّي والتمويه في نصوص التوراة؟

الفصل الثالث: منارة الزمن

اِبتكار أم اِحتكار

هكذا هو الاهتمام الأسطوري بالتوراة، لأنها أول كتاب سُجل عن خالق واحد وعن إبراهيم وقومه. وقد مَشت معهم ورعتهم خطوة بخطوة إلى أن استولوا على السلطة المدنية (١٠٠٠ ق.م) لأول مرّة في فلسطين تحت عرش الملك شاول. عند ذلك المفترق المفصلي، تمكن أحفاد إبراهيم من حسم المواجهة مع جزء كبير من الوثنيين وإخضاع السلطة لرغبتهم. وبذلك استطاعوا أن يفتحوا «مؤسسة» توحيدية على حسابهم الخاص ولصالحهم لحماية سطوتهم وطموحهم؛ فصار للعالم بهم أول «مؤسسة» أممية تجمع في طياتها الأرض والسماء والدين والدنيا معاً. وعليه، فإن «العهد القديم»، عندما أُنجز، بات الدستور التوّحيدي الذي أجاز لهم التحدّث إلى خالق واحد دون إذن من أحد أو مِنة! ثم إنه أول كتاب أخبر الناس عن بداياتهم ونهاياتهم بلغة مألوفة يفهمونها بعيداً عن لغة نسّاك المعابد وكهنتها.

لكن هل هذه هي فعلاً الخبرية الحقيقة أم أن للقصة وجوهاً أخرى؟ قبل الإجابة علينا أن نغوص أكثر في «خطورة» نصوص التوراة والعهد القديم انطلاقاً من فكرة الجنّة الأولى كما انطبعت في أذهان الناس، بصرف النظر عما إذا كانت مجرد محطة من عمر الذاكرة البشرية عند ادراك الزراعة! هل الجنّة مضمون حقيقي كان قائماً فعلاً في مكان ما، أم أنها مجازية في معانيها وأهدافها؟ هل هي آخر ما يصبو الإنسان إليه ليخلد فيها، أو أنها بداية لخلاص الإنسان من عذاب الدنيا؟

هذه الأسئلة المُحيّرة شغلت عقول الكبار والصغار على حد سواء منذ وردت أوصاف النعيم لأول مرة في أقدم التسجيلات البشريّة. وهي لا تزال تردنا في الملاحم والأشعار والتمنيات، بل إنها تردنا أحياناً أيضاً في المعاهدات والمواثيق السياسية العصرية. ولعل ألغاز الجنّة كانت دائماً ملقى الفلاسفة ورجال الدين والمؤرخين والملوك والعبيد والعُلَماء. كل منهم أطلق العنان لمخيلته في سبيلها، ومنهم من مات لأجلها. فهي «القاعدة» الكبرى التي يتكئ عليها رُوّاد التقصّي والاجتهاد. ذلك أن الوصول إلى الجنّة عن طريق العلم والفلسفة، أو عن طريق الإيمان، يعتبر الغاية المطلقة والهدف الأسمى لأنها تحمل في أشجارها ثمار السعادة الأبدية وتحرّر الفكر من عبء التفكّر ومن «الخيار» والمسؤولية. والواقع أن البحث في موضوعات التوراة عن إبراهيم أسهل بكثير على المفكرين من البحث عن الجنّة فيها. إذ انه بحث متشعب بتعدّد المشارب ومتنوع باختلاف النوايا. وبالتالي، لا يمكن لكاتب في حيَز ضيّق أن يستعرض إلّا العناصر الجغرافية التي وردت عن الجنة في «العهد القديم».

وقبل التطرق إلى أهم المقولات في أمرها، دعونا نراجع جغرافيتها حسب الموقع الذي حددته التوراة بالحرف: «وغرس الربّ الإله جنة في عدن شرقاً. وأسكن هناك آدم الذي جلبه. وأنبت الربّ الإله من الأرض كل شجرة حسنة المنظر طيبة المأكل، وكانت شجرة الحياة معرفة الخير والشّر وسط الجنّة. وكان يخرج من عدن نهر، فيسقي الجنّة، ويتشعب من هناك فيصير أربعة أنهار، أحدها اسمه فيشون، ويحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهبُ تلك الأرض جيد. وهناك اللؤلؤ وحجر العقيق. واسم النهر الثاني جيحون ويحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث دِجلة ويجري في شرقي أشور. والنهر الرابع هو الفرات» (تك: ٢: ١٤).

إذا كان نهرا دجلة والفرات معروفين بوضوح الشمس، فإن نهري فيشون وجيحون مجهولان تماماً. وقد اجتهد المؤرخون والفلاسفة واللاهوت عبر

العصور في محاولات تحديد موقعهما، إلّا أن أحداً لم يوفق بعد. وقد يكون ذلك إمّا لضعف الحجة أو لانعدام الأثر. هناك - كما سنرى لاحقاً - كثيرون ممَن ادّعوا أنهم وجدوا الجنّة في أحضان الأناضول، أو على متن جبل في منغوليا، أو وسط أفريقيا، أو أنها بالقرب من الحبشة! بيد أن الإجماع مازال يرجّح المواقع التقليدية، سواء بالقرب من جبال آرارات على ناحية أرمينيا، أو جنوب الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين. وهذه المواقع الكلاسيكية، وإن تقاربت مع نصوص التوراة، تبقى متباعدة عن بعضها البعض بآلاف الكيلومترات ما يُبقي الشك على حاله بصحة أي منها، خاصة بغياب الآثار والسجلات.

وما الجنّة إلّا مجرد عنصر أولي من مئات عناصر الجدل والخلاف بين المفكرين في مستهل التوراة من الصفحة الأولى، فكيف لو أضيفت للخلاف المناقشات البيزنطية حول رحلة إبراهيم وخروج موسى وبطولات داود وحكم سليمان؟ لكن رغم كل الخناجر الأدبية والتحديات التراثية والعداوة التقليدية لبني إسرائيل، يبقى العهد القديم (التوراة) أقوى على الوجدان العالمي من قياسات المختبرات وأطلال الحضارات.. لماذا؟

ربما أولاً لأن الرواية التوراتية قد أتممت على بني إسرائيل مضمونها بـ«أنهم شعب الله المختار». ثانياً، لأنها أحكمت ربط الديانة اليهودية بـ«الأرض الموعودة». وأخيراً لأنها ربطت اليهود بأعرق حضارات الزمن من كل الأبواب. استطراداً، لا غرابة أن يكون أصحاب المقولات العالمية المرادفة والروايات الإيمانية والثقافية قد انطلقوا بمعظمها من شخصية إبراهيم نفسه على أنها حلقة الوصل العضوي الأولى بين السماء والأرض، وعلى أن أحفاده وذريته من بعده، هم شهود الحضارة المثلى وشعلة الإيمان السماوي... بكلام آخر، فإن البطريرك إبراهيم - في ذلك التاريخ والمكان - يُعتبر بنظرهم المبتكِر الأول، أو المحتكِر الأول، أو حجر الزاوية الأخلاقي، قبل تشريعات «حمورابي» وتعاليم «زرداشت» وإرشادات «أخناتون» بمئات السنين. هو لذلك يُعتبر 'أبا الأنبياء'

لأن رسالته - برأيهم - لها أساسات أخلاقية دهرية خالدة... بنوا عليها ما بنوا، وضحّوا من أجل تمتينها عبر الزمن بذبائح كثيرة وقدموا لها 'أكباش فداء' لا تحصى. وتبقى حقيقة مهمات إبراهيم وتنقلاته المكوكية، بين العراق وتركيا ومصر والأردن والجزيرة، محطّ تدقيق عند الكثيرين من الباحثين لأن المسافات التي قطعها ذهاباً وإياباً وتكراراً لا تستوي منطقياً على وسائل نقل ذلك الزمن، وإن عاش مائة وخمساً وسبعين سنة. وسنأتي لاحقاً على فلسفة الأعمار المديدة في التوراة.

رطانة مقدسة؟

باستثناء بعض النصوص القليلة المكتوبة باللغة الآرامية، تسود اللغة العِبرية معظم أسفار التوراة الأصلية وتسمّى النصّ الماصوري (الماسوري)، وهو النصّ المبعثر الذي استُخْدِمَ فيما بعد لاعتماد الترجمة اليونانية أيام بطليموس الثاني. وهي الترجمة الأولى التي منها انطلقت الترجمات المتعددة على مدى أكثر من ٢٥٠٠ سنة. واللغة العبرية آنذاك كانت - حسب بعض اللغويين الكبار - مجرد لهجة يمنية لمنطقة من مناطق في مملكة سبأ وحمير، أشبه ما نقول اليوم باللهجات المختلفة جداً من نفس اللغة الهندية أو الإنجليزية كما بين لهجة «الكوكني» في لندن و«الجوردي» في نيوكاسل، أو لهجة «سكوز» في ليفربول إلخ. وهي كلها لهجات عامية مناطقية تحمل كلمات وتعابير مختلفة في نفس إنجلترا. ولتقريب المعنى لأذهان البعض أوضّح أن العربية والعبرية كانتا على هذا النسق تقريباً أيام اليمن القديم وجزءً من كتابة المسند. وقد نبت هذا الخطّ أصلاً عن الكنعانية البدائية، وما زالت اشتقاقات منه تستعمل إلى اليوم في إثيوبيا وإريتريا. والكلمات المشتركة بين مختلف الثقافات جنوب الجزيرة العربية أكثر من أن تحصى في هذا الحيز، ومنها على سبيل الاستشهاد السريع ما زال حياً يستعمل بأريحية رغم التحديث والتنوع. فكلمة «شردنا» (من ديارنا)، مثلاً، مازالت تستعمل في معظم المواقع وإن تدرج معناها ليصبح

هربنا وخلعنا ونزحنا وتشتتنا. وكلمة «صلا» كانت تستعمل في الماضي كما يستعملها البعض اليوم بمعنى «صلا له» أو «كمن له» أو حضّر له مكيدة. وكذلك كلمة «خرط» بمعنى «دجل» أو نفاق أو كذب. وكلمة «سكوتة» بمعنى السكوت أو الهدوء أو السرّ... وهكذا دواليك! وأقول هذا فقط لأبين سهولة الاجتهاد في تفسير الكلمات القديمة بما يناسب المُفسّر. وإذا كان من وصف نستعيره من أدموند جاكوب - صاحب أبرز دراسة مسهبة دقيقة عن لغة العهد القديم - فهو: «إن هذا الكتاب المُقدّس يعطينا رؤية شاملة عن مشكلة اللغة والفونولوجيا[١] والمصداقية فيه». إذ إن تعدد مصادره والألسن فيه خلال مئات السنين شوّهته أو قضت على الأصل منه أو أفسدت ترجمته الصحيحة. ومشكلة تعدد الترجمات لا تخفي على أحد، ليس فقط لأن ترجمة تختلف عن أخرى، أو أن إحداهما أكثر دقة، بل أيضاً لأنهما يخدمان أغراضاً وسياقات مختلفة لا نعرف التمييز بينها. وإذا أخذنا «مخطوطات البحر الميت»، على سبيل المثال، سنجدها بأغلبية نصوص عبرية وأقلية آرامية من «العهد القديم». لكن بمقارنة المقاطع المتشابهة بينهما إلى الترجمة اليونانية (السبعوية)، سنجد اختلافات أدبية ولغوية وقصصية فارقة في السياق التاريخي. فهل نركن في هذه الحالة إلى النسخة «السبعوية» اليونانية باعتبارها الأقدم تاريخاً، أم نتبنى اللفائف القمرانية المتأخرة بالنظر إلى أنها استعملت اللغة العبرية، لغة اليهود أنفسهم؟

سير على جمر

قبل الغطس في أعماق السرد التوراتي، لا بد أولاً من تسليط الضوء على بعض الذين عملوا به، خاصة منذ ظهور المسيحية. وهذا التذكير دليل قاطع على أن لا جديد تحت الشمس، وإنما الجديد فقط فيما استجد علينا من أدوات البحث والتعبير ومعايير الجرأة والإقدام. لكن مع ذلك، بقي الشك دفيناً

(١) الفونولوجيا اصطلاح غربي يعني علوم مقاربة اللهجات واللكنات والنطق.

في صدور الحيارى رغم تنوّع أساليب البحّاث والعلماء في عرض قناعاتهم أو ظنونهم بمصداقية التوراة.

المسألة كما ورد آنفاً معقدة جداً لأكثر من سبب. فإذا قبل المفكرون والبحّاث والأركيولوجيون بالقصة التوراتية على علّاتها، يكون قبولهم بمثابة تحقير لعقولهم وإلغاء لدراساتهم وإهانة لما يهدفون إليه في البحث عن الحقيقة. أما إذا تحدّوا أوجه التناقض في النصوص وعرّضوها للنقد والبحث والتدقيق، وقعوا في دائرة الاتهام بالكفر والإلحاد وما شابه من تعابير عصيان الربّ والخروج على التعاليم. الملفت أن كثيرين من الملتزمين من كل الأديان السماوية، يبحثون في النصوص ليس لغربلتها وتنقيتها من الشوائب على خلفية التاريخ الفعلي المدوّن، بل لتبريرها ورتق «عيوبها»، حتى وإن استدعى الأمر غضّ النظر في مكان هنا أو مطّ تاريخ هناك، أو تحريف ترجمة أو إضافة. كل ذلك يقومون به لغرض تأكيد وقائع النصوص لأنهم بالسريرة والفطرة يؤمنون بصدقيتها. كأن تبنّي المنطق عند هؤلاء المتدينين يلغي الإيمان، في حين أن هناك العديد من المفكرين العظماء الملحدين اهتدوا إلى الله عن طريق المنطق نفسه، أو لجأوا إلى العقل لاثبات وجود الله أو ادراك ملكوته...

من هؤلاء المفكرين الكبار توماس الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م)، الفيلسوف اللاهوتي من العصور الوسطى. اشتهر بآرائه الجريئة من خلال دمج الفلسفة الأرسطية باللاهوت وبحججه الخمس لإثبات وجود الله. وقد استخدم لها مزيجاً من المنطق والفلسفة والميتافيزيقيا؛ فطالت مناقشاته المستفيضة مراتب متقدمة من الظنون والسكينة معاً. ومن أشهر المتصدّين للتوراة من النواحي الشمولية العقلانية والنظرة الدينية العامة، بعيداً عن التخصص العلمي، كان القديس العظيم أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م). كان معروفاً بكتاباته اللاهوتية التفسيرية والتحليلية للكتاب المقدس أشبه ما يكون بالطبري شيخ المفسرين عند المسلمين. ثم هناك أيضاً البابا بنديكتوس السادس عشر (١٩٢٧- ٢٠٠٥م) الذي كتب مسهباً عن السيرة الإبراهيمية وبشّر بالمضمون العام للتوراة كحقيقة

سرمدية. هناك أيضاً الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني غوتفريد فيلهلم لايبنتز، وكان مجادلاً في التوراة ومشهوراً بظنه بوجود الله، ثم باستنتاجه الفطري اللاحق أن مظاهر الكون ومبادئ المنطق والعقلانية تشير إلى حتمية وجود خالق عظيم. وهناك أيضاً الفيلسوف الشهير رينيه ديكارت؛ فعلى الرغم من أنه معروف في المقام الأول بمقولته الإلحادية الشهيرة «أنا أفكر، فأنا موجود»، إلّا أنه قدم لاحقاً حججاً عقلانية لوجود الله، مؤكداً على فكرة الوجود المثالي كوجود ضروري لخالق. وصارت لفكرته المتوازنة بين الإلحاد والإيمان مدرسة تعرف بـ«المنهج الديكارتي». وعلى أمثالهم، هناك ويليام لين كريغ، وهو لاهوتي مسيحي معاصر، متفرغ في مجال فلسفة الدين، وقد دافع عن وجود الله من خلال الحجج الفلسفية والمنطقية المختلفة، بما في ذلك الطروحات الأخلاقية رغم تناقضات التوراة!

هؤلاء وغيرهم تناولوا مسألة وجود الله ليس فقط من خلال التطرق إلى قصص التوراة، بل أيضاً بالوسائل العلمية المنطقية والفلسفية. ولا تزال كتاباتهم مؤثرة في المناقشات حول تقاطع الإيمان والروح والعلم. وهم، وإن انتقدوا بشدة بعض نصوص التوراة، لكنهم لم ينطلقوا منها بالأساس ولم يريدوا تلبيد أفكارهم بها أو التقيد بحدودها.

أما على الجانب النقدي الفجّ لوجود الله، هناك حالات كان المفكرون فيها ملحدين طوال أعمارهم حتى اللحظة الأخيرة. فتحولوا بين ليلة وضحاها إلى الإيمان، وهذه حالة توصف أحيانا بأنها «تحوّل سكرة الموت». هنا تجدر الإشارة إلى أن مثل هذه الصحوات المتأخرة في الوجدان إنما هي «موجات كهربائية» تضرب الدماغ وتعتبر حالات شخصية للغاية، وقد تكون مدفوعة بعوامل مختلفة، منها الخوف من المجهول المرتقب بعد الموت، أو القناعة الفعلية الصافية بوجود الله. ولطالما مثّلت الوفاة قمة الجزع للمفكرين المُلحدين والفلاسفة، فرأيناهم يخضعون للإرادة العليا على أسِرّة الموت واحداً تلو الآخر. من أبرز هؤلاء المتحولين، الفيلسوف أنطوني جيرارد نيوتن فليو، وكان

«شيخ» الملحدين، بارزاً معروفاً بمناصرته للإنسانية والعلمانية. ومثله الأديب الروائي العظيم ليو تولستوي. وقد اختبر تجربة روحية صعبة في سنواته الأخيرة، وانتقل فيها من حياة الحيرة والظن إلى استكشاف عميق للإيمان والمبادئ المسيحية. ثم كان هناك أدباء ومفكرون أمثال كارل ماركس، وتوماس باين، ونيتشه، وهيغل، وفولتير، وشوبنهاور، ومارك توين، وغيرهم الكثير ممن قيل إنهم رفعوا العشرة للسرّ العظيم وسلّموا رمقهم الأخير بحشرجة موتهم إلى خالق عادل رحيم...

أما على الجانب العربي، فهناك أسماء صادمة من العلماء والمفكرين في التاريخ قيل إنها ألحدت عن سياق الإيمان وأخفت قناعاتها على طريقة «إخوان الصفا» و«خِلّان الوفا»، أمثال الرازي والحلّاج وبن حيّان والمعرّي وابن الرشد وغيرهم الكثير. وليس معروفاً كيف تحولوا من إيمانهم بالله أو قضوا على إلحادهم عنه. لكن من رجالات العصر، لعل مصطفى محمود أحد أهم هؤلاء المتحولين كما شرح هو نفسه في كتابه الشهير «رحلتي من الشك إلى اليقين». ثم كان هناك الأديب الكبير طه حسين، وقد أُخذت عليه أشياء كثيرة منها دعوته للتحرر من طقوس السلف والتقليد، والانفتاح المنطقي العقلي، وزعمه الشهير بانعدام توفر الأدلة على وجود النبيين إبراهيم وإسماعيل، فضلاً عن شكوكه الجريئة حول «حقيقة» زيارتهما الحجاز ورفعهما الكعبة.. وورد عنه في هذا الصدد قوله: «(للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما، ولكن هذا لا يكفي لصحة وجودهما التاريخي)». الواقع أن لائحة المفكرين من كل الجنسيات والمقامات والتخصصات تطول، وفيها من الشخصيات المتحوّلة بالاتجاهين ما يُعطي للبحث حياة مستمرة، كبئر لا تنضب!

هناك من أراد تصفية ماء البئر وتنقيتها على طريقته، فقارب «العهد القديم» من زاوية النقد الأدبي فقط، فتفحّص أنواعه ومواضيعه وهيكله السردي والأجهزة البلاغية فيه. وهو نهج يؤدي إلى فهم الصفات الأدبية للنصّ وتأثيره

المقصود على المؤمنين. ومن أبرز الطليعيين في هذا الحقل روبرت ألتر، وهو ناقد أدبي مشهور ركّز بنطاق واسع على الصفات النثرية والأدبية فقط. وهنالك أيضاً فرانك كيرمود، ناقد أدبي آخر، قام بتحليل البنية الثقافية السردية للتوراة. وهذا المنحى الأدبي ساهم في كشف اختلافات النصوص من حيث اللغة والأسلوب والتعبير. وعليه، اُستنبطت نظرية «الفرضية الوثائقية» التي أكدت وجود مصادر متعددة للكتب الخمسة الأولى من التوراة. أي إن للتوراة مؤلفين متعددين وليس مؤلف واحد اسمه موسى حسب الاعتقاد الدارج.

هناك أيضاً مَن قام بتحليل النصوص لكن من خلال تفسيرات كهنية صرفة، كالتركيز على البحث عن المحتوى اللاهوتي للتحرّي عن التعاليم الأخلاقية. ومن هؤلاء كارل بارث، لاهوتي إصلاحي سويسري أصرّ على ترفيع الجانب الإيماني فوق الجانب التاريخي. وهناك أيضاً رودولف بولتمان، وهو عالم لاهوت آخر معروف بعمله على معالجة أساطير العهد القديم واستكشاف التفسيرات الوجودية فيه. وهناك أيضاً وأيضاً، (وللمفارقة) مَن تعرّض للتوارة بـ«النقد النسوي»، كفيليس تريبل، وهي عالمة لاهوت معروفة بتركيزها على التفسير الأنثوي لكل الكتاب المقدس. ثم هناك مثلها إليزابيث شوسلر فيورنزا، عالمة لاهوتية نسوية أخرى بارزة، كتبت عن التأويل الحريمي للنصوص التوراتية. والغرض المعلن لمثل هذا «المنهج الناعم» هو التحرّي عن العلاقة بين الرجل والمرأة من منظور بطريركي أبوي ذكوري ريادي وجنسي وسلطوي، فضلاً عن تحليل مصادر نظرة الرجل للمرأة بشكل عام.

وهكذا تكرّ لائحة الغطاسين في بئر التوراة. بعض يرمي أحجاره فيها ليبني حساباته على أصداء ارتطامها. بعض آخر يهبط عليها بحبال أدبية نثرية قصصية. آخرون بسلال تفنيدية مقاربية عصرية، أو بأسلوب بوليسي استقصائي تفكيكي للنصوص. وكأن هذه الأنماط والأساليب النخبوية لم تكفِ، فطلعت علينا مناهج ما يسمى بالتحليل الوجداني النفسي - كما في دراسات الطبيب «النفساني» السويسري كارل يونغ، الذي طبق مفاهيم نفسية بحتة على دراسة

الشخصيات والعناصر التوراتية والأساطير. وعلى خطاه، مشى إريك نيومان، تلميذ يونغ، الذي أسقط أيضاً رؤى التحليل النفسي على الروايات التوراتية. وهذا النهج يُستخدم عادة لتحليل الشخصيات القيادية كما وُصفت في القصص التوراتية، وذلك من خلال اختبار دوافعهم واستكشاف نواياهم وفحص تجاربهم العاطفية.

لكن من المهم في هذا السياق الانتباه إلى أن الأبحاث التي تتحدى السرد التوراتي تختلف في أخذ العِبر من الملاحم وفي تفسيراتها اختلافاً كبيراً. فهناك ما يمكن وصفه بالكتابة «الجريئة» إلى حد الوقاحة الذي يعتمد على وجهات نظر فردية محدودة. ومع ذلك، فإن بعض الأعمال البارزة التي تحدّت جوانب السرد التوراتي لاقت قبولاً عريضاً مثل «عصر العقل» لتوماس باين في القرن الثامن عشر. انتقد فيه «المؤسسة» الدينية، بما فيها المسيحية نفسها، وشكك في صحّة الكتاب المقدس برمته وصدقيته. وفي كتاب «نهاية الإيمان» للباحث الأميركي الشهير سام هاريس، أنتقد فكرة الإيمان الديني نفسها ودافع بشراسة عن العلمانية وعن ضرورة فصل الدين عن الحياة العامة. وكذلك فعل ريتشارد دوكينز في كتابه الشهير «وهم الله»، إذ تحدّى فيه المعتقدات الدينية وهزأ بها على طريقته الساخرة، بما في ذلك نصوص التوراة نفسها. ما تقدم هو بعض أبرز الكتابات التي تعاملت مع السرد التوراتي من منظور نقدي مشكك. ولعل أقوى ما قرأت عن وصف تطرف هؤلاء العلمانيين واستكبارهم، هو ما جاء من الفيلسوفة الرصينة كارن أرمسترونغ بقولها: «إن تطرف الملحدين لإلحادهم يشبه تماماً تزمت المتدينين لأديانهم».

بصرف النظر عن عواطفنا أو مواقفنا تجاه هؤلاء العلماء وغيرهم، فقد قدموا مساهمات قيّمة في مجال الدراسات التوراتية. كلٌ من وجهة نظره ومنهجيته الفريدة، الأمر الذي أثرى فهمنا لـ«العهد القديم» من زوايا مختلفة وأتاح لنا الفرص لاستكمال البحث. هؤلاء العلماء بوجهيهم الإيماني والإلحادي عاشوا في فترات تاريخية مختلفة، ومشوا خلالها على جمر

الظنون، وتقلبوا على نار الفضول، وتعذبوا بوخزات الضمير. لا ريب أنه كان لعملهم تأثير دائم على دراسة العهد وعلى أجيال المعنيين الجدد. لذا، من الصعب تحديد عالم واحد منهم أبرز من غيره في نقد الرواية التوارتية أو في تأييدها. فكما رأينا (وسنرى) أن النصوص المقدسة بمثابة محيطات عميقة فيها أمواج عاتية لا يقوى على ركوبها إلّا المتخصصون. وقد انطلق البحّارة من موانئ مختلفة، كلٌ من موقعه وثقافة محيطه، سواء لدعم صدقية الكتاب المقدس أو لتعريته التاريخية أو لغرض في نفس يعقوب!

الفصل الرابع: في صميم الموضوع

الصليبي... وفرسان المواجهة!

هناك كما رأينا الكثير من العلماء الذين درسوا السرد التوراتي في الغرب منذ القدم ونذروا أعمارهم للبحث والتدقيق. كانوا بمعظمهم ينقبون من منظور نقدي ويشككون في دقة الرواية التاريخية. حاولوا التعليل والتبرير واستكشاف التفسيرات البديلة بيد أنهم لم يطلعوا بشيء مبرم جامع واحد بعد.

لكن ماذا عن جيل البحّاث الجدد؟

لعل كمال الصليبي أشهر هؤلاء المفكرين من خلال كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب». وقد حظي بصيت دولي يُحسد عليه لأسباب كثيرة. أبرزها أن نظريته «الإنقلابية» جاءت في توقيت كادت موضوعات التوراة تغيب فيه عن رادارات دوائر الاختصاص في العالم. فظهرت النظرية وكأن الغرض منها كان لشد همم الأكاديميا وإعطاء التوراة زخماً إضافياً للتأكيد على مصداقية وقائعها، وإن جرت في جغرافيا أخرى حسب مقولته. ومع أن الصليبي بريء من وِزر هذا التأويل، إلّا أن الاهتمام بالتوراة كان قد خفّ كثيراً بعد أن تم تشريحها آلاف المرات بحيث بهتت النقاشات واستُهلكت الحجج على مستوى الكوكب.

وإذا كان الصليبي هو الباحث التوراتي الأشهر في الزمن المعاصر، ففقط لأنه كان أول من تجرّأ من المفكرين العرب على طرق الموضوع رسمياً وعلناً بنهج مختلف عن المألوف. هو حتماً لم يكن الأول الذي راودته فكرة مجيء اليهود من الجزيرة العربية، أو أنهم لم يكونوا يوماً في مصر ولم يأتوا منها؛

فالفكرة نفسها عَنّت على بال قدامى كثيرين وخطرت على رؤوس أكاديميين من كل الهويات والأهواء لكن لم يتمكنوا من البوح بها أو نشرها كما يجب. لقد سبقه إليها رسمياً عالم الآثار والمؤرخ الأميركي الشهير جيمس هنري بريستد في مطلع القرن العشرين. ومع أن بريستد لم يخصص لها كتاباً، أو يشر إليها في أهم كتبه «فجر الضمير»، إلّا أن خواطره وآراءه عن أصول اليهود في الجزيرة العربية وخروج موسى من مصر معروفة وموثقة لدى تلامِذته وكتاباتهم. ثم هناك أيضاً المفكر العتيد البريطاني - الأميركي برنارد لويس، وله آراء مثيرة للجدل ومشاكسة حول هوية موسى وأصله وخروجه مع أنه من أشد المؤيدين لإسرائيل والصهاينة(١).

هناك باحثون ورجال دين عرب بارزون كتبوا على نطاق واسع في هذا الصدد وحلّلوا الكثير من التفاصيل في التوراة. غالباً ما كانت كتاباتهم تظهر من منظور الدين المقارن والتحليل الفقهي أو الأدبي أو من خلال نقد نظريات الآخرين. ومن أبرزهم في هذا المجال: المفكر المصري العلامة محمد عبده، ومحمود أيوب، الباحث اللبناني الأمريكي في الدراسات الإسلامية، والباحث الفلسطيني أحمد الدبش، والباحث اليمني فكري الهير، والناقد العراقي علاء اللامي، والباحثة المغربية المعروفة كريمة نور عيساوي، فضلاً عن المؤرخين المميزين الكبار أمثال فيليب حتي، وجواد علي، وهشام جعيط. هؤلاء وغيرهم ساهموا بتقديم أعمال تحليلية أو نقدية في السياق التاريخي والتفسيرات التي تسلط الضوء على القواسم المشتركة والاختلافات بين الروايات التوراتية والتقاليد الإسلامية. الملفت حقاً أن كثيراً من المفكرين والعلماء اليهود البارزين هم أساساً - كما أسلفت - مَن شك أكثر من غيرهم بالرواية التوراتية، ومنهم على سبيل الاستشهاد الفيلسوف العظيم باروخ سبينوزا (١٦٣٢-

(١) هنا لا بد من التنويه جانباً إلى أن الأديب المستشرق الفلسطيني - الأميركي إدوار سعيد تصدّى للويس، لكن من باب الرد على عنصريته وشراسة الإستشراق لديه، وليس تحديداً من باب الرد على تفاصيل الرواية التوراتية.

١٦٧٧م)، الذي ما كان بالإمكان أن تفلت التوراة من تشريحاته وتعليقاته لولا تفرغه لها. كان فيلسوفاً ميتافزيقياً لامعاً وعقلانياً، عُرف في زمنه وبلده هولندا بآرائه النقدية حول الدين والتوراة. لا بل إنه تحدّى في «الأطروحة اللاهوتية والسياسية»، التي نشرت له في عام ١٦٧٠م، كل التفسيرات الدينية التقليدية البالية. والواقع أنه لم يكن يجرؤ على ذلك لو لم يسبقه إلى نقد التوراة ابن حزم الأندلسي بمئات السنين. وعلى خطى سبينوزا تماماً مشى يهودي عتيد آخر، العالم فرويد، (١٨٥٦-١٩٣٩م) وشكك بكل الأديان عموماً وبالتوراة خاصة، وذلك من خلال تخصصه في مسائل العقل والجوانب النفسانية. كتب عدة كتب، لعل أشهرها لغرض التوراة، كان «مستقبل الوهم» (١٩٢٧م) و«موسى والتوحيد» (١٩٣٩م) حيث عرض نقده فيهما بوضوح صارخ إلى حد الفضيحة. هناك أيضاً اليهودي العبقري الفذ ألبرت آنشطين (أنشتاين)، وكان معجباً بسبينوزا ومتأثراً بقناعاته حول القصص التوراتية. ومن طرائف ما نقل عنه أنه عندما كان يُحرج في السؤال عن إيمانه اليهودي بالربّ، كان يجيب بفطنة العبقري أنه يؤمن «بربّ سبينوزا»!

أما من المعاصرين، فهناك الآثاريان الشهيران إسرائيل فنكلشتاين ونيل سيلبرمان، وقد كتبا معاً «التوراة على حقيقتها»، وفيه هزا عرشي داود وسليمان، وفنّدا الجغرافيا والتاريخ بما يدحض سياق أحداثهما في التوراة كلياً. ثم واكبهما زئيف هيرتسوغ، عالم آثار إسرائيلي آخر، وأحد أبرز علماء الأكاديميا وأستاذ محاضر في جامعة تل أبيب، فأصدر نظريته الشهيرة بعدم صحة الرواية التاريخية، واعتُبر بحثه يومها بمثابة إقرار أكاديمي بالظلم والتجنّي اللذين تعرض الفلسطينيون لهما عبر عقود. ثم هناك الأكاديمي اليهودي المخضرم شلومو ساند، الذي قارب في كتابه «اختراع الشعب اليهودي» المسألة من خلال التركيز على الهوية اليهودية. وقد ذهب إلى القول بوجه الدعاية العالمية إن اليهود لم يوجدوا يوماً كأمة قومية أو من أصل عرقي مشترك. بمعنى أنهم لطالما كانوا خليطاً من جماعات مختلفة وأقواماً متنوعة

لكن اعتنقت ديانة واحدة. وفي السياق، نستذكر أن وجود المجتمعات اليهودية الحديثة كان أعرقه تاريخياً في خاقانة الخزر في القوقاز وأوروبا الشرقية بين القرنين السابع والعاشر ميلادي. ويمكن أن تعزى أسباب وجودهم هناك إلى حيوية طرق التجارة والهجرة التي كانت عصرئذٍ تتقاطع بين أوروبا وآسيا. ولربما كان التسامح الديني، والخلطة المسيحية الإسلامية الشامية، وغيرها من السِمات والمسَاحات لدى حكام الخزر، ربما كانت من الأسباب التي شجعت اليهود على الاستقرار هناك، حيث وفرّت الخزر لهم بيئة مثالية آمنة. وقد كان من عصارتها إنتاج الكثير من الكتابات اللاهوتية والإسرائيليات على خلفية التبادل الثقافي مع أقوام المحيط من تعدد الأعراق والاعتقادات لدى الكازاخ والأوزبك والترك. ومع أن اليهود لم يحكموا في الخزر، لكن كان لنخبهم وحاخاماتهم دور مهم ومؤثر في إدارة الشؤون العامة إلى درجة أن حكام البلاد اعتنقوا اليهودية، فأصبح الناس - كما يقال - على دين ملوكهم. فتحوّل الكثير منهم عن الديانة التنغرية واعتنقوا اليهودية بديلاً عنها. ومنهم من درس العبرية القديمة و«اليديش» الحديثة معاً (وهي نوع مصطنع ومركب من العبرية القديمة). ولا ريب أن للخزر تاريخاً معقداً ورائعاً، ولكن ندرة المصادر الأصلية دفعت بالمؤرخين الاعتماد على مصادر أجنبية منحازة، مثل الكتابات العربية والبيزنطية واليهودية، ولا يزال هناك العديد من الثغرات والشكوك في فهمنا لتلك البيئة المميزة والحقبة المثيرة. وبلاد الخزر جغرافيا شاسعة تمتد من جنوب روسيا الحديثة وشمال القوقاز إلى بعض أوكرانيا، بما في ذلك شبه جزيرة القرم والمنطقة المحيطة ببحر آزوف، فضلاً عن كازاخستان من جهة، وجورجيا وأرمينيا وأذربيجان الحديثة من الجهة الأخرى.

ولعل أبرز الذين كتبوا نقداً عن يهود الخزر وعلاقتهم المشبوهة بالامتداد اليهودي، المفكر آرثر كوستلر في كتابه الشهير «القبيلة الثالثة عشرة»؛ ففيه اقترح نظرية مثيرة للجدل تقول إن اليهود الأشكيناز (الغربيين) ينحدرون إلى حد كبير من الخزر. وقد تمت مناقشة هذه النظرية على نطاق واسع وانتُقدت

داخل المجتمعات الأكاديمية واليهودية على حد سواء بالنظر إلى ما فيها من إيحاء عن اختلاط الأصول والأعراق. أما ديفيد ماكريتشي دنلوب، فقد عرض في كتابه «تاريخ الخزر اليهود» (١٩٥٤م) دراسة متعمقة جريئة عن تحوّل ناس الخزر إلى اليهودية. ومثلهما ظهر الكثير من المفكرين التوارتيين بنظريات متشابهة عن اختلاط أصول اليهود، أمثال كيفن آلان بروك، وميلجان بريتساك، المؤرخ اللغوي الأوكراني، ونورمان غولب وغيرهم. وكلهم كتبوا بإسهاب واستفاضة عن المسألة الاِلتباسية حول أصول اليهود في أوروبا، وقدموا اختبارات مفصّلة لتاريخ الخزر وعلاقتهم بالشتات اليهودي.

وبالرجوع إلى الجوانب الاِلتباسية الكثيرة الأخرى في القصة التوراتية، هناك ديفيد رول، المؤرخ البريطاني المعروف بكتاباتة عن «التاريخ البديل» وتفاصيله الدقيقة. وقد اختار - مثل الصليبي - أن يبدأ بحثه في كتابه «العهد المفقود» من الأرض الخزرية القوقازية التي وُجد آدم عليها - أي من الجنّة! مشى معه خطوة بخطوة متدحرجاً من أعالي موقعها في ضواحي أرمينيا إلى عصر موسى على شط البحر الأحمر. في معرض بحثه الشيق اقترح لمصر من عندياته تاريخاً مختلفاً تماماً عن التاريخ التقليدي، فقط ليربطه بالأحداث والكوارث الكبرى التي ضربت الشرق الأدنى. أي أنه عَصَر التاريخ وزَمّه فقط ليمكّن موسى من الهروب من مصر في زمن معين. وعلى طريقته في التخيل، ذهب الباحث اليهودي الكبير جون فان سيترز وطرق المسألة التوراتية من باب غزو الهكسوس لمصر. طعن بالعمق في إجماع المعنيين حول هوية غزاة مصر في منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد. وفي كتابه «إبراهيم في التاريخ والتقليد» (١٩٧٥م)، أطلق سيترز فرقعات أكاديمية كثيرة بكل الاتجاهات، فأصابت الاعتذاريين (المجاملين) والمشككين والمؤمنين معاً، وتركت خميرة جيدة للمهتمين. ومما قاله إن أصول الهكسوس ليست حورنية (أناضولية) ولا ميتانية كنعانية ولا آرية - هندية، بل هي أمورية قحّ تعود بجذورها إلى البلاد الباردة من محيط خزاريا والقوقاز. ومثله قال اللاهوتي العتيد توماس ل. طومسون، والمؤرخ الرصين ريتشارد إليوت فريدمان. والأغلب أن هذا الأخير أكثرهم ظناً

وأوضحهم شكاً كما بدا من كتابه الشهير «الخروج». إذ فنّد فيه تناقضات النصّ التوراتي بالتفاصيل المملة وأوحى أن لها مصادر زمنية متعددة وطبقات متشعبة من تقاليد متنوعة هو لا يثق بها!

هؤلاء المفكرون وغيرهم من البحّاث الغربيين لم يتركوا مطرحاً في التوراة إلّا ونقروه، ولم يجدوا شيئاً مثيراً إلّا وعرّضوه للفحص إلى درجة يخيل للمتابع أن المسألة بينهم وبين التوراة تكاد تكون شخصية وليست أكاديمية أو دينية. أما على الجانب العربي تحديداً، فهناك كما ذكرت آنفاً القدير كمال الصليبي، وهو أول من حمل مِشرط تشريح التوراة بلا صور مغناطيسية أو مسوحات رنينية، وكان جريئاً مقداماً. وقد مشى على خطاه مفكرون عرب ومهتمون كثيرون قبلوا متابعة المواجهة وحملوا عبء الانتقاد والسخرية أحياناً. منهم من اقتحم التوراة كيداً فقط لأنها لم تأتِ على ذكر العرب بوضوح. فأثارت فيهم نخوة العروبة وحمية الانتماء! ومعروف أن سفرَ «التكوين» هو سفر البدايات لكن ليس فيه ذكر لبداية العرب ولا بقية الأسفار تحدّثت عنهم أو نقلت منهم. وهذه ملاحظة قلما يلتفت إليها (أو التفت إليها مؤخراً) المفسرون العرب. لكنها حفزّت القليلين منهم على الكتابة بالرغم من ندرة المراجع. وليس مستهجناً في هذا السياق أن ربط بعض المفسرين العرب الكبار بين شخصية «عابر» وشخصية «هود» - كما سنرى تباعاً.

أما أبرز مَن تصدّى من البحّاث العرب للموضوع من كل جوانبه، أو كتب مشككاً بالرواية التوراتية بالإضافة إلى كمال الصليبي (بدون ترتيب معين) هم: محمود أبو طالب، فاضل الربيعي، خزعل الماجدي، فراس السواح، حسين مروة، جواد علي، محمود القمني، محمد منصور، أشرف عزت، أحمد سوسة، مصطفى زهّار، أحمد سعد الدين وغيرهم. وهؤلاء ليسوا سوى نماذج مشهورة من طائفة نقاد كبيرة، مع اعتذراي الشديد عن عدم تمكني من سرد أسماء كل الشاغلين بالموضوع أو ذكر كل مَن كان لمساهمته الفضل الكبير في فرضيات غيره. هذا عدا عن عشرات المترجمين الفطاحل العرب الذين أدلوا

بدلوهم من زاوية الهوامش والتعليقات، أو من خلال الإضافات الملفتة في كعوب الصفحات والحواشي على طريقة «لن ادعها تمر من المؤلف دون تصويبها». وسيكون لنا في معرض البحث موجز عن بعض نظريات هؤلاء البحّاث العرب، أقله بلسانهم وحسب تعبيرهم.

لكن رغم اختلافات هؤلاء المشككين بالرواية التقليدية، فهم بالعموم تقريباً انطلقوا من الطرح الاستشراقي الكلاسيكي. أي إن معظمهم تبنّى ظاهرياً وجود الشخصيات التوراتية الرئيسية سلفاً، كنوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى، وإن اختلفوا حول أدوارهم وسِير حياتهم ومواطنهم... كلهم بحثوا في «تاريخية الروايات» وفنّدوها واستعرضوا تواريخ القصص وأماكنها من منظور نقدي بحت واقترحوا تفسيرات ومواقع جغرافية بديلة. لكن من الناحية العلمية البحتة، لا تتوفر أدلة دامغة على وجود أي من البطاركة والرجال اليهود الكبار. وربما أول الأدلة العضوية على وجود شخصيات يهودية كبيرة معتبرة وجدناها تبدأ في التوراة مع زربابيل، أحد الشخصيات اليهودية الرئيسية بعد المنفى البابلي. فله أدلة أثرية ملموسة أجمع التوراتيون على صحتها تعود إلى ٥١٠ ق.م. عُين بعد السبي حاكماً لمقاطعة يهوذا نيابة عن الفرس، وهو سليل بيت الملك داود. لعب دوراً مهماً بعد المنفى في الإسراع إلى استعادة أورشليم ووضع أساسات المعبد الثاني. ووفقاً للنصوص الموجودة في كتاب عزرا وكتاب حجي، فإن «زربابيل» هو من قاد عودة أول مجموعة من المنفيين اليهود إلى أورشليم، (عزرا قاد آخرهم) بموجب مرسوم كورش الكبير[١].

اختبار الأسيد

هناك العديد من النظريات والتكهنات البديلة فيما يتعلق بمواقع الأحداث الموصوفة في قصة الخروج، لكن هذه النظريات غير مقبولة بعد على نطاق

(١) المرسوم الذي أثيرت الظنون حول صحته رغم وجوده في المتحف البريطاني. (راجع تفاصيله لاحقاً).

واسع في المناهج الدراسية أو الدوائر الأكاديمية السائدة في العالم. فالفهم التقليدي العالمي ما زال قائماً على السرد التوراتي عن الخروج من «مصر الفرعونية» (مصر الأفريقية). لكن - وعلى حساب التكرار - هناك نظريات كثيرة تقترح سياق بديل، ومنها ما هو مثير وعجيب، كالقول بالخروج من البلقان مثلاً، أو من منطقة إلى أخرى في بلاد السند، أو بلاد نوبية، أو زيمبابوي ما يضع أورشليم بالاستطراد في أماكن عجيبة. وغالباً ما تستند هذه النظريات إلى أوجه التشابه اللغوي والتاريخي بين أسماء الأماكن والسرد التوراتي. ومع ذلك، تفتقر هذه النظريات إلى أدلة أثرية وتاريخية دامغة ومبرمة. صحيح أن الخروج موضوع دراسة ونقاش مستمر بين العلماء، غير أن غالبية البحوث الأكاديمية (والميزانيات التنقيبية) ما زالت تدعم السرد القائم عن طريق سيناء. لكن ما هي خلاصة نظريات المعترضين الكبار على رواية سيناء، وكيف نفسّرها؟ ثم كيف نفسّر التناقض الفظيع بين نظرياتهم أنفسهم؟ هذا التناقض، إن دلّ على شيء، فعلى أن المسألة، من كثرة تداولها، تكاد تلامس حدود التخريف التراثي. إذ لم يعد هناك فرق بارز بين المجتهد والكسول، وبين الجدّي والمازح، وبين المخلص والمتآمر، وبين المؤمن والملحد..

وفيما يلي قائمة عشوائية بأبرز ملاحظات الكبار ونظرياتهم التي استثمروا أوقاتهم في استنباطها، وسنأتي لاحقاً على ربط كل منها بصاحبها لاكتمال الانطباع العام واستمرار النقاش. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه ليست إلّا عينات بسيطة ونماذج قليلة عن المتوفر والمطروح:

نظريات وملاحظات على مدّ النظر

❋ اليهود كانوا في مصر وعبروا إلى فلسطين بعد أن تاهوا في سيناء.

❋ موسى لم يعبر من سيناء بل من العقبة إلى الجزيرة ومنها إلى فلسطين.

❋ كانوا في أكسوم وتاهوا فيها، ثم عبروا إلى الحجاز من باب المندب.

❋ كانوا في اليمن وضاعوا فيه ولم يأتوا من خارجه أو يخرجوا منه.

*** كانوا في عسير وضاعوا فيها، ولم يأتوا من غيرها أو يخرجوا منها.**

*** كانوا بشرق جنوب الجزيرة: عُمان وحضرموت ونزحوا للحجاز واليمن.**

*** كانوا في زيمباوي وضاعوا في الطريق منها شمالاً إلى إثيوبيا.**

*** كانوا أنصاراً للهكسوس، وهربوا من مصر معهم، لكن اختلفوا عند البحر.**

*** كانوا جماعة أكادية نزحت من الرافدين لرفضها الوثنية والإله دمّوز.**

*** كانوا في البلقان وضاعوا في «هيلاس» (اليونان) وتشردوا منها شرقاً.**

*** لا موسى دخل مصر ولا «فرعون التوراة» حكمها!**

*** إبراهيم مَلَك على مصر في عصر الهكسوس ولا علاقة له بـ«أور»**

*** أخناتون هو هارون، أخو موسى، والإثنان هربا وأتباعهما من مصر.**

*** لم يكن هناك يهود في مصر أيام الهكسوس ولا عابيرو ولا خابيرو.**

*** وردت مصادفات وتكرارات بالتوراة تعدت الصدف وحدود المنطق.**

*** التوراة لا تذكر أهرامات مصر بتاتاً رغم دهشة المنظر ومركزية الرواية.**

*** التوراة لا تذكر النيل رغم شهرته في كل أفريقيا.**

*** النسخة الأولى المكتملة من التوراة كتبت باليونانية وليس بالعبرية ما يجعل فوارق التبعثر عاملاً مقلقاً.**

*** الألف باء الأوغاريتية لم تكن في عصر موسى، فكيف تكون العبرية المتفرّعة منها قد ظهرت قبلها ليكتب موسى أسفاره بها؟**

*** هناك بلدات يمنية وعُمانية وحجازية كثيرة أسماؤها تشبه أورشليم وقدش وحلب وحماة وأرواد وعمون ودمشق وصيدا وصور وجبيل، فضلاً عن أسماء متطابقة لتلال وخربات وآبار، ما يعني أن الملعب التوراتي يتسع للكثير من اللاعبين والحكام والمتفرجين معاً بدون حواجز فاصلة!**

هذا فقط عن مسألة شتات اليهود وشؤونهم. أما بخصوص أصولهم، فحدث ولا حرج. لكن رغم الاختلافات في وجهات النظر وتعدد الآراء، فقد أجمعت أغلبية النظريات على أن اليهود هم ذرية إبراهيم من زوجته سارة حصراً..

واستنتاجهم هذا جاء أصلاً من منظار السرد التقليدي للرواية. لكن السؤال هو كيف يشكك البعض بعنصر أساسي من تفاصيل سرد التوراة من جهة، أي برواية الخروج مثلاً، ويأخذون ببعض عناصرها من جهة أخرى - أي بذرية إبراهيم؟ المنطق يقول إن الحقيقة لا يمكن أن تتضمن عناصر ملفقة أو متناقضة!

لا أعتقد أن أحداً من المفكرين التوراتيين يستطيع الجزم بصحة فرضيته بغياب الإجماع حولها. وهنا أتكلم عن إجماع ثقافي، وليس عن إجماع علمي مخبري، أي إني أتحدث عن أشياءٍ غير موجودة لكن تبقى مقبولة من الجميع، كالإجماع على مفهوم الروح، مثلاً، والوجدان، والفراسة، والحظّ، وأمثالها. هذه أشياءٌ ليست مبرهنة علمياً بالمرة لكن مضامينها مقبولة نسبياً في أذهان المؤمنين والملحدين على حد سواء. ولعل السبيل المبدئي لمحاولة فهم التوراة على حقيقتها هو وضع التناقضات بين هذه الفرضيات جانباً والنظر فقط إلى المتفق عليه فيها. إذ إن البحث عن نقاط الاتفاق أسهل لنا من إظهار نقاط الاختلاف، وهي لا تحصى. فإذا جاءت عناصر الاتفاق كثيرة ومعتبرة، نبني عليها ونستنتج منها. وإذا كانت معدومة أو قليلة نواصل البحث مع الباحثين. بمعنى أنه ما دامت أغلبية النظريات قد أجمعت مثلاً على وجود شخص اسمه سرجون - من خلال آثاره وموقعه والنقوش باسمه والتقليد به والنصوص عنه والتراث حوله - فهذا يعني أنه تجاوز فعلاً «فحص الأسيد» وتبين معدنه كحقيقة واقعة حتى وإن لم نجد مرقداً له.. وإذا أجمع العلماء النقاد على «لفائف قمران» - وتاريخ اكتشافها وموقعها ومحتواها وتاريخ أحداثها - فهي أيضاً تكون حقيقة دامغة (بصرف النظر عن نسبة السليم فيها من المزور)![1] وإذا أجمعوا بنفس المعطيات والأدلة على سدوم وعمورة وطروادة وإبلا، فلا ريب أنها كانت مواقع موجودة فعلاً في العصور الغابرة. ذلك أن كل باحث من

(١) راجع مقولتي في لفائف القمران في كتاب «كلام ممنوع» ٢٠٠٠.

النقّاد والمفكرين يكون قد امتحن وجود هذه العناصر وحقيقتها من باب اختصاصه، سواء عن طريق التاريخ أو الأدب أو الأثر أو الجغرافيا أو اللغة أو الدين أو السياق العام والجيرة وغيرها من عناصر التحقق والمقاربة. من الصعب جداً أن تتطابق آراء الجميع ما لم تستقم معاً على قياس قناعات مشتركة واختبارات مقبولة عبر الزمن. أما إذا اختلفوا على شخصية إبراهيم وتعثروا بقصص الترحال حوله، مثلاً، ولم يجدوا سجلات عنه في الطرق الكثيرة التي عبرها والمدن العديدة التي سكنها وبتاريخ عصره الافتراضي، فكيف يتفقون على تواريخ أجداده وسيرة سلالته أو تفاصيل هجراتهم؟ كيف يكون إبراهيم قد نجح باختبار الأسيد وهم لا يملكون أدلة موحّدة عن سيرته وأدائه رغم مئات آلاف الدراسات؟

نمرود، سليمان، وسيف الدولة!

طبعاً أنا لم أضرب إبراهيم مثلاً إلّا لأقول إن لا إجماع بين المعنيين في دوائر الأكاديميا على شخصه وتاريخه؛ فبعد **٢٠٠** محاولة علمية رصينة حول العالم ورغم توفر التكنولوجيا، فقد فضّل العلماء والمؤرخون التآمر والكذب على أن يستنبطوا الحقيقة. فقرروا التغاضي عن تناقض التواريخ وارتأوا الاتفاق على أن فترة إبراهيم تمتد من **٢٢٠٠** ق.م إلى **١٨٠٠** ق.م. الأغرب من ذلك أنهم عادوا وتهادنوا في نهاية المطاف على أن يكون عام **١٩٤٨** ق.م عاماً وسطياً، لا لشيء سوى لأنه يُشبه عام النكبة وتأسيس دولة إسرائيل من جهة، ثم لحشر زمن إبراهيم ووضعه قبل زمن «حمورابي» بحيث تُبعَد عن إبراهيم ريبة الاقتباس من شريعته المشهورة. قرروا اعتماد التاريخ الوسطي لحقبته الافتراضية فقط لوقف الخلاف بين بعضهم البعض من جهة، ولتبني حدود الانطلاق لرواياتهم واستنتاجاتهم من الجهة الأخرى. اكتفوا بالتوافق «الارتجالي» على منتصف الطريق بين أقصى التاريخين. والأمر من هذه الزاوية يبدو كأن الإبقاء على وحدة الصف التوراتي أهم من استمرار البحث عن إبراهيم نفسه، هذا فيما لو صحّ وجوده أصلاً حسب الوصف المقدس له.

أمام هذا التباين الدائم، يلجأ المؤرخون العقلانيون إلى المنطق الآخر، أي إلى «علم الجهل»، فيضعون كل التواريخ جانباً ويناقشون مسائل التاريخ الكبرى من باب الأقرب والأبعد، والأطول والأقصر، والجامد والسائل إلخ. فيقولون، مثلاً، إن نوحاً جاء قبل إبراهيم، وإن موسى ظهر بعد إسحاق وقبل داود. وبذلك يتجنّبون «بعلم الجهل» تحديد التواريخ وفترات الحكم والأعمار دون الوقوع في فخ الريبة أو التناقض؟ ومع أن هذا المنطق سليم بآليته البديهية، لكنه لا ينفع إذا لم يكن هناك أصل حقيقي ينطلقون منه! بمعنى أنه، وإن وضعوا تورايخ البطاركة جانباً، فقد افترضوا سلفاً أن هذه الشخصيات موجودة أصلاً؟ وهنا يصبح الكلام عنهم من آلية باب «علم الجهل» جهلاً بذاته. فلو قالوا، مثلاً، إن حمورابي نقش شريعته بعد مدونة «أور- نامو»، أو إن رمسيس الثاني حكم بعد أخناتون، لكنّا صدقناهم بالنظر إلى أن لهؤلاء أدلة وآثارات تؤيد «ما قبلهم» و«ما بعدهم». وهذا شرط غير متوفر مع نوح وإبراهيم وإسحاق وموسى وداود! وعلى هذا القياس تكون ملكة تدمر زنوبيا، مثلاً، قد ظهرت على المسرح قبل يوليوس قيصر. ويكون نبوخذ نصر البابلي نفى اليهود قبل وصول كورش الفارسي إلى الحكم. واستطراداً لمنطق «علم الجهل» هذا، وجدنا آثارات فارقة عن نساء حقيقيات بارزات أمثال حتشبسوت ونفرتيتي وزبيبة وزنوبيا وكليوباترا. فإذا تحدثنا عن هذه الشخصيات والوقائع التاريخية من منظار التاريخ والجغرافيا، لقلنا إن ترتيبهن هنا سليم حسبما ورد في السجلات على مبدأ الأقرب والأبعد بالنظر إلى وجود أدلة جارية تدعم وجودهن وتحظى بإجماع المعنيين.

هناك شخصيات أشهر وألمع من هؤلاء النسوة على مستوى العالم القديم لكن لم نعثر لهن على ذكر واحد ولم نجد لهن أثراً يتيماً، أمثال سارا وهاجر وأوروبا وآسيا وسميرا ميس وزيبورا وقطورة وصفورة ورحمة وأموش[١]،

(١) «أموش» هو اسم زوجة لموسى كما ورد في كتب التراث اليهودي، و«تربيت» اسمها كما ورد في كتاب «بهاء الملوك» عند الأحباش.

وكلهن تقريباً من حقبات متقاربة أو من الجيرة القريبة من حضارات الشرق الأدنى. قمن بأدوار هامة في أحداث مزلزلة، أو كنّ شاهدات عليها. وهؤلاء النساء لم ينفع في البحث عنهن علم أو جهل رغم سهولة أماكهن وتواريخ حقبهن الافتراضية ومرجعية ارتباطاتهن. لا بل وجدنا مئات الآثارات عن نساء أقل شهرة في معظم الحضارات والضواحي إلّا عن هؤلاء النسوة؟.. لكن على الرغم من ذلك، فإن عقول الحريصين على نقاء العهد التوراتي أبداً جاهزة لتقديم الدليل على وجود أطلال لهن. جلّ ما ينبغي على المشككين فعله - بوجهة نظر الحريصين - هو المقاربة الصحيحة والنظر إلى المسألة الظنية من خارج نظرة المألوف! أي على مبدأ «أن لا دخان بلا نار». فيتبيّن أن عناصر الشك والتعجب والاستهجان في التوراة لم تأتِ سفسطة من عبث. وخروج موسى من مصر، مثلاً، قد يصعب تخيله على البعض بالطريقة الموصوفة في الكتاب المقدس، لكن لا بد أن له بذرة حقيقية في الأساس والأصل - حسب تأكيد المؤمنين.

وهكذا، وانطلاقاً من تواريخ «أخناتون» المتناقضة، حدد لنا الاعتذاريون - بآلاف الروايات الأكاديمية الرصينة والشيّقة - تاريخاً مثالياً لـ «خروج» اليهود من مصر. توصلوا إليه بعد مرجعية توراتية وحِسبة ضياع اليهود أربعين سنة في صحراء سيناء قبل وصولهم إلى «أرض الميعاد». ومن 'طرائف' البحث الأكاديمي أن حِسبتهم هذه جاءت لتتطابق تقريباً مع رواية التوراة التقليدية وحكم الملك سليمان بين ٩٧٠ إلى ٩٣٠ ق.م... وفي التفاصيل، فإن بعضهم انطلق لحِسبة تاريخ خروج موسى من سنوات محددة وضعتها التوراة كبوصلة إرشاد. قالوا إذا أخذنا بسفر (الملوك: ٦: ١)، يكون سليمان قد باشر بناء المعبد بعد ٤٨٠ سنة على خروج اليهود من مصر. وعلى هذا الأساس وضعوا تاريخ البدء بالمعبد بين ٩٦٧ و٩٦٦ ق.م. واستنتاجاً من هذه الحِسبة، قدّروا (بمن فيهم الصليبي نفسه) تاريخ خروج موسى من مصر بين ١٤٤٦-١٤٥٧ ق.م. لكن كيف يصح انتاج معلوم أكيد واحد من مجهولين إثنين؟ تاريخ سليمان

الحقيقي مجهول، وإشارة التوراة إلى **٤٨٠** سنة هي أيضاً لا أساس لها تستند إليه. حددوا تاريخ معبد سليمان على مرجعية التوراة وحددوا مرجعية التوراة على معبد سليمان؟ وبما أن الاثنين مبهمان، لا أساس لهما، فلا يمكن أن يكون هناك رابط محدد يربطهما! هناك أيضاً من لجأ إلى مرجعية وسطية أخرى، كتواريخ «رسائل تل العمارنة» (**١٣٣٦-١٣٥٠** ق.م)، فتوصل منها إلى تاريخ مختلف لخروج موسى، لكن رغم قرن من الفرق تقريباً بين موسى والرسائل، فقد التقيا بقدرة قادر عند تاريخ سليمان؟ وإذا دلّ هذا التخبط على شيء، فعلى أن لكل باحث نقطة تاريخية ينطلق منها رغم غموضها من الأساس؟

صحيح أن كثيرين اتفقوا أن سليمان حكم على مملكةٍ اِمتدت من البحر إلى النهر وجلبت إليه ملكة سبأ، بلقيس، لكن أحداً من كل الرواة والباحثين والأكاديميين لم يجد لهما، ولا لداود قبلهما، أثراً واحداً لا في فلسطين نفسها ولا في اليمن؟ وربما في هذا ما يتماهى مع التوراة والقرآن كونهما لم يذكرا بلقيس بالاسم ولا شيئاً عن مصيرها. وما لم تكن هناك قدس أخرى، وأورشليم ثانية، أو سليمان وبلقيس غيرهما، أو «أورشاميم» مختلفة، فإن هذه الرواية تبقى منصوصة كحقيقة مبرمة في أذهان المؤمنين رغم انعدام الأدلة[١].

لا ريب أن الأمر يُمثّل تحدياً كبيراً لانطباعاتنا عن التاريخ، ومشكلتنا في الواقع هي مع المؤرخين والمستشرقين عموماً والتوارتيين تحديداً، فهم، مثلاً، ينقبون عادة في أماكن مفترضة سلفاً لوجود سليمان أو لما يبحثون عنه، كأنهم يفتشون عن المفقود في مواقع معينة لمجرد أنها مضاءة، ولا يتحرّون عنها في كل الاتجاهات حيث ينبغي التحرّي. أحياناً كثيرة يطلعون علينا باكتشاف بضعة

(١) التوراة والقرآن لم يذكرا بلقيس بالاسم وإنما ذكرا ملكة سبأ، فمن إين جاء اسمها هذا؟ الواضح أن من سمّاها بلقيس يعرف عن رواياتها الكثير (راجع كتاب «بلقيس إن حكت» - هشام العاملي - **٢٠١٣** م. والواضح من تركيبة اسمها السبئي العبري اليوناني أنها شخصية مركبة في عصر متأخر ربما يعود إلى الحقبة اليونانية الوسطى، أي القرن الثالث قبل الميلاد..

أحجار في ضواحي القدس، فيعلنون أنها آثارات قيّمة من بقايا هيكل سليمان نفسه. وهم، بهذه الاِكتشافات المفبركة أو الممطوطة، كمثل الذي يعثر على بضعة رؤوس سِهام في بادية حلب، فيدّعي أنها من رماح سيف الدولة الحمداني. أو كمثل الذي يجد أسطوانة فخارية بالقرب من «بابل»، فيقول إنها شُويت في أفران «نمرود» على أيام إبراهيم! إنها دعايات خادعة أو أماني واهمة كلٌ يصقلها ويروّجها لتحقيق مآربه المادية أو الاعتبارية.... إنهم يصنعون القالب ويعجنون التاريخ على مقاسه وشكله.

وجدوها وضاعوا فيها؟

بيد أننا في العقدين الأخيرين بدأنا نرى محاولات جادة لكسر القالب السائد. وذلك تحديداً من خلال محاولات متوالية لمفكرين جُدد أخذوا على عاتقهم النقر في الرواية التقليدية، وبدأوا يُعرّونها من كل جانب ويرجعون أصولها (مثل الصليبي) إلى الجزيرة العربية بدل مصر وفلسطين. لكن الإشكالية القائمة حتى الآن أنهم، وإن وجدوا الجزيرة العربية مرتعاً مثالياً لدوران اليهود حول أنفسهم فيه، ضاعوا في صحراء الجزيرة أنفسهم كما ضاع اليهود فيها من قبل. لم يجمعوا على الجغرافيا المحددة التي يُفترض أن اليهود راموا فيها وسكنوها، لكنهم أجمعوا على استبعاد مصر من تاريخ اليهود كلياً. هؤلاء النقاد رفضوا الفكرة الكلاسيكية القائلة إن اسم «مصر» في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى جاء نسبة إلى «مصرايم» بن حام بن نوح. وأرض النيل - برأيهم - لم تكن أصلاً تعرف باسمها «مصر» قبل ظهور الإسلام. هناك عشرات الفرضيات عن مصدر الاسم، لكن ما يَلفت الانتباه فعلاً أن اسم «مصر» (وربما اليابان) لا يرد بلغات الأرض كاسم مصر العربية أو مشتقاتها، بل كـ «إيجبت» ومشتقاتها. ما يعني أن التسمية العربية لمصر جاءت فعلاً متأخرة جداً ولا يصح أخذها قرينة لقصص التوراة أقله من حيث التعليل المنطقي. وكما رفض هؤلاء النقاد تسمية البلد بمصر، رفضوا أيضاً تسمية ملوكه

بالفراعنة. ودليلهم على ذلك أن سجلات مصر بالعموم لم تصف حكام مصر بالفراعنة، وإنما وصفتهم بالملوك. لذا، ليس لموسى علاقة بـ «مصر» المعروفة ولا بـ«فرعون» مصر. ناهيكم أن أسماء المدن والأنهر والبوادي الحالية - إلّا القليل منها - لم تحافظ على أصولها تماماً كما كانت منذ ٣٥٠٠ سنة، عهد موسى!

ولقد لفتتني فرضية أحد الباحثين العرب التي حاول التوفيق فيها بين الرواية التوارتية وبين نقادها العرب الجدد، وذلك على طريقة المختار أو «الوسيط المتفهم». فدفع بموسى للتواجد في الحبشة (أكسوم) بدل «أجيبت»، تحت إمرة حاكم اسمه «فرعون» (أنظر الفرضيات لاحقاً). فتمرد موسى عليه وهرب من طريقه مع مناصريه إلى منطقة «رأس سيان» في اليمن، (ليس سيناء)، ومنها إلى الجزيرة العربية من خلال باب المندب. كان المضيق يومها في جزءٍ منه زاخراً بالصخور المتلاصقة والجزيرات المتقاربة والشعاب المرجانية والمياه الضحلة وأضيق بكثير مما هو عليه الآن. ولربما توحي هذه التضاريس السهلة، وموقع جزيرة ميون (بريم) الواقعة وسط الممر الضيق أصلاً، 'بتفسير مقبول أو معقول' لانحسار ماء البحر بالجزر أمام موسى من جهة، وبالمدّ على الحاكم «فرعون» ومُتعقّبيه في مضيق صغير من الجهة المقابلة. أما باقي القصة فمعروف حيث تُستكمل برواية التيه الجديدة ليجعلوه في رحاب اليمن ثم عسير، وليس في صحراء سيناء المصرية إلخ. هذا مجرد نموذج مبتكر عن محاولات تذليل التناقض في الأسماء وتفسير الربط بين «فرعون» وموسى، ثم بين بلقيس الحبشة وسليمان الحجاز، فضلاً عن اليهود السُمر «الفلاشا». وعلى هذا النوع من التحليل الافتراضي والبحث بالأثر الرجعي لربط الأحداث اعتماداً على تقليب الأحرف وزمّ التاريخ ومطّ الجغرافيا، يُطلب منا أن نقتنع بالاستنتاجات العصرية بلا أدلة علمية أو حتى بدون قرائن جامعة!

«أنا قلبي دليلي»!

لكن في المقلب العضوي الحسّي الآخر، تردد أن الأركيولوجيين وجدوا في النقوش المصرية، مثلاً، رواية عن امرأة اسمها «ميرمة باته» كأول فيزيائية دوّنها التاريخ منذ أكثر من ٤٧٠٠ سنة. وكذا «عثروا» على امرأة أخرى تدعى «أمسانهوي» حملت حقيبة العدل وكانت أول وزيرة له منذ ٣٧٠٠ ق.م. ثم قرأنا عن طبيبة فى مصر القديمة اسمها «بسشت» أعادوا تاريخ سجلها إلى ٦٠٠ عام قبل الميلاد تقريباً. هذا فضلاً عن الكثير من الآثارات الحسيّة القديمة جداً المعروضة في المتاحف في جميع أنحاء العالم. أما أكثرها زخماً، فيوجد اليوم في متحف اللوفر في باريس، حيث تعرض كبريات وأشهر القطع الأثرية ومنها شريعة حمورابي الشهيرة. وفي متحف بغداد، هناك «مزهرية الوركاء»، تعرف أيضاً باسم «مزهرية أوروك»، وهي عبارة عن وعاء حجري منحوت من المرمر يصوّر مشاهد مختلفة من الحياة السومرية اليومية. وفي المتحفين البريطاني وجامعة بنسلفانيا توجد قطع تاريخية فارقة يعود بعضها إلى ٢٦٠٠ ق.م، وهي تعكس نموذجاً عن ثروة الكنوز السومرية، بما في ذلك مجوهرات وأختام أسطوانية وأشياء متنوعة خاصة بالقبور وطقوس العزاء والدفن. ومتاحف الغرب عموماً، والألمانية خاصة، تضم الكثير من الألواح المسمارية لنصوص إدراية ودينية لا تقدر بأثمان ولا تقايض بأشياء! أما لماذا أحشر هذه الآثارات الفارقة في سياق خروج إبراهيم من «أور» وعبور موسى من مصر، فلأنها ليست سوى أمثلة قليلة عن وقائع كانت حيّة في عصور التوراة وجيرتها فيما الآثارات عن وقائع التوراة نفسها معدومة ولم يظهر منها شيئاً إلّا متأخراً بعد عودة اليهود من السبي؟

لا ريب أن هذه المعالم الأثرية تساهم في فهمنا الأوسع للحضارات القديمة وتدفعنا إلى التفاعل معها وتصديقها، خاصة عند رؤية لوحات شهيرة مثل لوحة «كيش» و«أسطوانة كوشيم» وعمرهما قرابة ٥٥٠٠ عام. كما لدينا بالمحسوس والملموس سجلات وبرديات ونقوش عن شخصيات قديمة ووقائع مغروسة

بعمق التاريخ، وهي معروضة بمدى النظر للعامة في المتاحف والأطلال والخربات، أو بمتناول اليد في الصخور والأماكن الأزلية. ومن هذه النقوشات الكثيرة ما هو ظاهر على صخور ومعابد مصر وسومر ونهر الكلب ورأس شمرا وقصر ماري ومجمعات إريدو وزقورات بابل ومعابد نيبور والبتراء وجرش وجبيل وصور ونينوى وأكاد وإبلا وخرائب تخت الجمشيد وتشوغا زنبيل وإشنونا وكركميش وغيرها مئات المواقع. بل هناك منها ما يعود إلى أقدم من عمر الأهرامات الافتراضي بآلاف السنين، مثل موقع «غوبكلي تيبه» في تركيا على سبيل الاستشهاد العابر. ثم إن هناك ملايين اللقى والبرديات والفخاريات من كل الشرق الأدنى تعود إلى تواريخ متقاربة. وقد دُوّن لنا فيها سجل فخم عن وقائع ضخمة ومهمة وأحياناً تفاصيل حيوية وملفتة عن أمور صغيرة وثانوية، كسعر ثور وقيمة عبد ومبادلة تجارية بين مزارع وتاجر إلخ. ويكفي أن نضرب مثلاً عن آثارات مصر وحدها ونقول إنه لم يَبقَ فيها اليوم سوى ٢٠ ٪ فقط مما كانت عليه بالماضي (باستثناء ثوابت الصخور). غني عن القول إن الآثار المتبقية في مصر لم توجد كلها في أمكنتها الأصلية بفعل السرقات المنظمة داخل مصر نفسها وعلى أيدي أهلها أنفسهم! فكم من صخور الجيزة وُجدت في طنطا والإسكندرية والمنوفية؟.. وكم من قرصنة استعمارية غربية تعرضت لها مصر منذ أيام الإسكندر لم تستطع نقل كل المنبوش، فاضطرت إلى تركه للصوص وقطاع الطرق في مُنتصف الطريق بين وادي الملوك والموانئ؟ أو أنها غرقت بالسفن التي حملتها قبل وصولها إلى متاحف الغرب وميادينه؟ وللدلالة فقط على فظاعة السرقة المنظمة التي تعرضت لها مصر، نذكر على سبيل المثال، أنه في العام ١٩٠٨م وحده، كانت الآثار تنقل من مصر بمعدل حمولة ١٠٠ جمل في اليوم الواحد! وإذا كان من عَزاء في شيء، فهو أن مصر لم يكن فيها فيلة كثيرة في ذاك الزمن، وإلّا لكانوا نقلوا كل المومياوات والسرديات والبرديات والبصمات الأصلية.

الأمر ليس بأفضل من ذلك في حضارات الشرق الأدنى الباقية، سواء في

العراق وسوريا أو في لبنان وفلسطين وتركيا. ولو كان باستطاعة الغرب، لحمل أبراج بابل والأهرامات على ظهور أبنائها إلى احضان أوطانه! لكان نابليون قد نقل النيل إلى باريس، ولكان غيرهم نقل ملويات العراق ومعبد باخوس وأوغاريت وسدّ مأرب ومحرم بلقيس، ولكانوا كلهم قد سَرقوا شمس الشرق لتسطع لهم على ذكريات المجد والتحضّر. صحيح أنهم لم يستطيعوا عمل كل شيء أرادوه، لكنهم تركوا وراءهم جغرافية مغتصبة مشوّهة لا تعبّر عن كل شيء حقيقي إلّا بالملامِح العامة وبعض الرموز السّامة.

ورغم كل ما تقدم، ما زلنا نجد أطناناً من الآثارات عن الحياة قبل قرون مضت، لكن أليس مستهجناً ألا نجد فيها نتفاً عن أميرات عظيمات قيل لنا أنهن حكمن في نفس القرون والظروف؟ أو عن بطاركة عظماء راموا في البلاد من وادي الفرات إلى وادي النيل على وزن إبراهيم وأولاده، أو على عمالقة أمثال «عابر» و«هود»؟ بعض المعنيين يفسر ذلك بأن هذه الشخصيات ربما كانت يوماً ما رمزية افتراضية أسطورية كناية عن شخصيات حقيقية تناقل الناس أخبارها منذ فترة ما قبل الطوفان. فلما ظهرت الكتابة، نقش حراس المعابد شيئاً من ذاكرتهم الجماعية وتراثهم عنها بصور مجازية، ثم تناقلوها مضخمة، كلٌ تبعاً لترجماته وفهمه وحسب غاياته وطموحه.

ومَن يلقِ نظرة فاحصة يرى أن كثيراً من القصص والروايات التوراتية قد أقتبس من الأدب الأكادي والسومري. إذ إن العناصر المشتركة بينها أكثر من أن تبرّر المصادفة! ولعل قصة الفيضان في الملحمتين الأكاديتين، الأولى «أتراهاسيس»، واللاحقة «جلجامش»، هما من أقدم روايات الفيضانات قاطبة، ويُرجح تاريخ نقشهما إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وتشترك هذه الروايات الملهمة، مع سفينة نوح المفترضة، في كثير من أوجه التشابه. إذ إنه في كلا السردين ترسل الآلهة طوفاناً لتدمير البشرية بسبب تجاوزات الناس حدود الأخلاق. فيتولى الملك «أتراهاسيس» مهمة إنقاذ البشرية من خلال بناء فلك عظيم لإنقاذ عشيرته والحيوانات لضمان الاستمرار. أما في جلجامش،

فيتولى ملك آخر اسمه «أوتنابشتيم» نفس المهمة كما تولاها نوح في التوراة. وبالإضافة إلى الطوفان، هناك في أدب ما بين النهرين (إينوما إليش) ما يشير بتفاصيل ووضوح إلى قصة خلق الكون وصعود «مردوخ» إلى السماء كإله أوحد على كل شيء.

وعلى الرغم من أن ارتقاءه (مردوخ) لا يشبه قصة الخلق التوراتي في سفر التكوين، إلّا أنه يتضمن مفهوم الخلق الإلهي وترتيب الكون، وهو موضوع مشترك تقريباً في أساطير الخلق. وهذه القصص السومرية والأكادية تسبق تاريخ ظهور العهد القديم بمئات السنين. ومن المحتمل أن تكون قد تحورت بمرور الزمن ووصلت إلى مسامع اليهود المسبيين على ضفاف دجلة بأنماط متنوعة. وبالتالي، ربما تكون قد أثّرت على تطور التفاصيل التوراتية. وعلى ما تقدم، يكون من الضروري استدراك العلاقة (أو المقاربات) بين نصوص التوراة وتاريخ بلاد سومر ما قبل الفيضان. ذلك أن الربط بينهما جدير بالاهتمام على خلفية اختلاط الثقافات بالقصص، وامتزاج الأفكار بالاعتقادات، وتكيفها حسب مناطق وصولها أو جمعها بمرور الوقت.

في خضم تشريح نصوص التوراة ينزلق الباحث إلى استهجان عدم «الترتيب المنطقي» أو الزمني في مواقع كثيرة. هناك أشياء لا يعقلها عاقل ولا تجلس على أريكة منطق. لكن بعض المقاربات العلمية المعاصرة قد تُجدي نفعاً في توضيح الالتباس لأصحاب الخيال الواسع والفطنة المرنة؛ فعلى سبيل المثال والتكرار، لا ضرورة إطلاقاً للتركيز على أبناء إبراهيم إذا لم يكن إبراهيم نفسه قد وُجد من الأساس. وعليه، فالتركيز ينبغي أن يصبّ على شخصية إبراهيم نفسه، وأي تفصيل أو أثر عن حياته قد يخدم نظرية حقيقة وجوده من عدمه. وعندما نعلم من نصوص التوراة أنه عاش ١٧٥ عاماً، تصبح المعلومة مستهجنة لدى البعض ومضخّمة مقارنة بأعمار التجّار المعاصرين والملوك الذين عاش إبراهيم بكنفهم وجيرتهم. لكن من الناحية المقابلة، لدينا في العصور الجارية بشر كثيرون عمّروا ما يزيد عن ١٢٣ سنة. ومنهم على سبيل المثال الفرنسية

جين كالمنت (جالمنت)، وقد عاشت **١٢٢** عاماً و**١٦٤** يوماً وتوفيت عام **١٩٩٧**م. هناك أفراد آخرون على مرّ التاريخ عاشوا حياة طويلة بشكل استثنائي مقارنة بمتوسط العمر العالمي. ومنهم أيضاً جيرومون كيمورا، وهو ياباني عاش **١١٦** عاماً و**٥٤** يوماً. والأميركية سارة كناوس عاشت **١١٩** سنة و**٩٧** يوماً. واليابانية ميساو أوكاوا وحملت لقب أقدم شخص حي في العالم لبعض الوقت، وقد عاشت **١١٧** عاماً و**٢٧** يوماً.

ومثلما يوجد استثناء في أعمار الناس يوجد أيضاً في طول قاماتهم. إذ لدينا في العصور الجارية أمثلة عن رجال «عمالقة» (عماليق) منهم على سبيل التأكيد الأميركي روبرت وادلو، وقد عرف أيضاً باسم «عملاق ألتون» أو «عملاق إلينوي»، وهو أطول شخص في التاريخ المسجل، إذ وصل طوله إلى **٢٧٥** سم، أي ضعفي متوسط طول امرأة عادية. ثم هناك جون روغان، وكان طوله **٢٦٧** سم وغالباً ما أشير إليه باسم «العملاق الزنجي». ومثله المعاصر التركي سلطان كوسن، ويبلغ طوله **٢٥١** سم، وهو أطول رجل حيّ في العالم حتى تاريخ كتابة هذه السطور في ربيع **٢٠٢٤**م. وفي جميع الحالات لن يجد المنقبون قبراً يتيماً لعملاق واحد بين ملايين الموتى الطبعيين إلّا إذا كان العملاق نفسه ملكاً على أمة!! هناك الكثير من هذه الأمثلة العمرية والطولية الاستثنائية ضمن مرتبة الـ **١٤٠** سنة أو **١٤٠** سم، لكن مَن يدري فقد ينتج قادم الأيام أطول من هؤلاء العمالقة وأكثر تعميراً من إبراهيم!

ومثل استثناء العمر والطول، هناك استثناءات في بعض نوعيات بشرات النساء أو جمالهن وأعمارهن المتقدمة ما قد يجعل رواية سارة مع الفرعون وأبيمالك مقبولة نسبياً، سيما وأن نساء الحضارات القديمة كن، منذ زمن قال وتولّى، يزين أنفسهن ويَصبغن شعورهن بالحِنّة (الحناء) أو ببعض الأعشاب النيلية التي تنبت عادة على ضفاف الأنهر، سواء في الهند والسند أو بلاد النهرين أو حوض النيل. وكما أن هناك نساءً لا تفلت وجوهن من تجاعيد العمر، هناك نساءٌ يخدعن الزمن والبيولوجيا ويظهرن أصغر من أعمارهن

بكثير... نظرة خاطفة على الإنترنت اليوم تظهر العديد من النساء «العجائز» اللواتي كبرن بدون تجاعيد كثيرة أو واضحة. منهن من يتمتعن بوراثة جينية جيدة. منهن من اعتنين ببشراتهن من خلال العناية الطبيعية والأعشاب وخيارات أنماط عيش آمنة، أو راعين عواقب أشعة الشمس وتغير المناخ الفجائي. هؤلاء، حافظن على بشراتهن بصورة جيدة مما ساهم في الإبقاء على جمالهن.

إذا أضفنا فكرة زواج كبار القوم من أقربائهم وأخواتهم في تلك العصور، فقد لا نستهجن أن تكون سارة زوجةً لإبراهيم وأخته في نفس الوقت! فيصبح الأمر مؤكداً على لسان إبراهيم نفسه عندما قال في التوراة إن سارة شقيقته من أمه (تك: ٢٠: ١٢). وقد كان ذلك قبل أن تحرّم التوراة العلاقات الجنسية مع الأخت غير الشقيقة في وقت لاحق (لاويين ١٨: ١١). ضف إلى ذلك أن عادة الزواج من الأقارب، سواء لحفظ نقاء الدم الملوكي أو لإبعاد الحكم عن الغرباء أو لأسباب تتعلق بالحفاظ على السلطة أو التحالفات أو الخلافة الأسرية، إنما تقليد مألوف في أوساط الحكم في التاريخ. فقد كانت هناك حالات كثيرة تزوج أمراء وملوك فيها من أخواتهم. ومع أن مثل هذه الزيجات كانت نادرة بين العامة وتعتبر من المحرمات ثقافياً في العديد من المجتمعات بسبب المخاوف البيولوجية والأخلاقية، إلّا أن الناس آنذاك كانوا يتفهمون دواعيها. ومن أشهر هؤلاء كان بطليموس الثاني، فيلادلفوس، الذي تزوج من أخته من نفس أبويه.. وهناك تشارلز الثاني آخر حكام هابسبورغ في إسبانيا وملكها، وسُمّي الملك المسحور بسبب الزيجات العديدة التي كان يرتبها للحفاظ على أراضي عائلته هابسبورغ. وحتى في التاريخ الحديث هناك المحدّث شولالونغكورن (راما الخامس) ملك تايلاند الذي أجرى العديد من الإصلاحات الهامة، بما في ذلك إلغاء العبودية. لكن فيما يتعلق بحياته الأسرية، كان مزواجاً وعاشقاً وسيداً على محظيات كثيرات، وقيل إنه تزوج من إحدى أخواته رغم عدم وجود أدلة شرعية أو قانونية. لكن الناس كانوا يعرفون بارتباطه معرفتهم بأنوفهم على وجوههم..

على هذه الأمثلة والمقاربات المبعثرة، يستطيع البحّاث أن يتصوروا «عقلانية» الاستثناء حول عمر إبراهيم، ومكانته المميزة، وجولاته العريضة، وزواجه من شقيقته، وجمالها، وإعجاب فرعون بها، وطول العماليق وقامتهم الاستثنائية... لكن ما لا يمكن لعاقل أن يتصوّره أن تجتمع هذه الاستثناءات كلها في عائلة واحدة وحقبة واحدة أو قوم وحده... لكن منطق الأمور أيضاً يقول إن الروايات لا تكون جديرة بالقصّ إلّا إذا كانت إستثنائية. فملك يعيش كما يعيش شعبه ويتزوج كما يتزوجون ويبقى في بيته كما يبقون إلخ، لا يستأهل الرواية لأن ليس فيها ما يختلف عن المألوف والعادي والدارج....

رحلة الألف ميل

من هنا، لا بد أن نبدأ المشوار مع بداية رواية إبراهيم، ونتحسس المشاهدات كما وردت في التوراة على أبرز تعليقات البحّاث بشأنها. وبالتالي لا بد من إلقاء الضوء على الاختلافات في نظرياتهم حولها. وبذلك تكون الخلفية التاريخية والتراثية العريضة عن عصر إبراهيم مساعدة على فهم الاستثناءات وتركيب أحجار المنطق والبناء بها. لا بد أيضاً عند هذا المفترق من التذكير بما يقوله المدافعون عن صحّة تاريخية النصوص من خلال استشهادهم برواية طروادة؛ فقد كانت وأحداثها وحصانها مجرد أسطورة حسبما ظهرت بكتابات هوميروس في الألياذة والأوديسة، وقد تناولتا دقائق حروبها على مدى ٤٠ سنة. ورغم عناصر القِدم والغموض والظنون التي أحيطت بطروادة، إلّا أن اثنين من المنقبين الألمان، هنريك شيلمان وويلهام دوربفلد استطاعا مع منقب أميركي آخر، كارل بليجين، أن يجدوها بعد عمر طويل من البحث المضني، فتحولت فجأة بين صبح ومساء من أسطورة رومانسية إلى حقيقة واقعية. وطروادة - للعلم - ليست المثال الوحيد على ظهور آثارات جبّارة فضحت الزمن وعرّت المشككين وصحّحت الاستنتاجات

الخاطئة وأكدت الاستثناءات. كثيرة هي الآثارات الضخمة التي تنتظر خطوتها الأولى أو اللحظة المثالية للافصاح عن هويتها على مبدأ «ستظهر ولو بعد حين»....

الفصل الخامس: رحلة الخلود

لا تقل أصلي وفصلي

بدايةً، لا بد من ذكر نسب إبراهيم كما ورد في التوراة. ليس لتأييد وجوده أو إنكاره، سيما أن لا أحد يقدر على ذلك، إنما فقط للإشارة إليه كمنصة انطلاق بحيث نتعرّف منه على هوية أجداده ومسيرة أحفاده ونطّلع منهما على مواقف الباحثين عنهم جميعاً.

ورد أنه «ابن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان (يقطان) بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن هنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قاين بن أنوش بن شيث بن آدم». أما أمه، فهي «نونا بنت كرنبا بن كوثا من بني أرفخشد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن هنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قاين بن أنوش بن شيث بن آدم». ومثلما لا نعرف كيف أُعدّت شهادات الميلاد هذه وعلى أي أساس رُتبت، سيما أن منهم مَن وُلد قبل الطوفان، لا ندري أيضاً لماذا خُصص «سام» منهم وجُعل هو واسطة العقد بين اخوته، سواء في المرجعية التاريخية أو الثقافية أو الدينية. السؤال لم يكن ليكون مهماً لولا أنه لم يصبح بالتناسل بوصلة التحضّر واللسان وماسورة الأعراق في العالم. صار سام بالتزاوج والإنجاب الغزير أباً لكل شعب ولكل شيء آخر نُسب إليه بعده! كلهم، رغم الشتات والفرقة، تكلموا بلغة أبيهم «السامية» لفترة من الزمن؛ فصارت شعوبهم المنحدرة منه في المنطقة سامية، واللغات سامية، والاعتقادات سامية، والطباع سامية، إلخ. لكن حقيقة الأمر أن متخصصاً ألمانياً لغوياً من القرن التاسع عشر، ميشال

بريال، هو الذي أطلق هذه التسمية «السامية» على لغات المنطقة وشعوبها وطباعها فقط لتمييزها عن العناصر الهندية الآراية - ليس إلّا. وعليه، فإن تسميته التصنيفية هذه، تشبه تماماً تسمية غيره لمنطقة الشرق الأدنى بـ«الهلال الخصيب» لتمييز أراضيه الخضراء عن غيرها من أراضي شبه الجزيرة الجرداء.

ولما أضحت لأحفاد سام روابط كثيرة ومتعددة ومتنافسة، امتزجت القرابة بالعداوة والحب بالكراهية؛ فذهب كلٌ بطريق في الاتجاهات الأربعة، وتأقلمت مخارج الهواء لديه بالتضاريس الجديدة وحرّر لسانه بلهجته المحلية. لا بل انفصل بعضهم عن بعض وأسس قبائل واعتقادات مستقلة على حسابه الخاص. هنا جاء المفسرون فيما بعد وغربلوا التشابكات بين هذه المتاهات العقائدية السلفية النسلية، كلٌ حسب مرجعيته وانتمائه وعنصريته، أو حسب التراث السائد في منطقته. أضحى «عابر»، مثلاً، اسماً محوراً - عند البعض - لزعيم يُدعى «عرب»، أو صار هو نفسه - عند بعض آخر - النبي «هود»، الذي لم تعترف التوراة بوجوده، فيما يعتبره العرب مرسلاً إلى قوم «عاد». وفي جميع حالات تقليب الأحرف يبقى معنى «عابر» مشابهاً لمعنى «عرب» (عبر) من حيث التنقل والبداوة. ويبقى أيضاً اسم «هود» مشابهاً لكلمة «يهود»، أي العابرين العرب. هذا التحليل يقود بالاستدلال الافتراضي إلى أن «هود» رجل عربي وأن بلاد العرب مسقط رأسه. لا بل ذهب الصليبي إلى أبعد من ذلك وحدد أصل «هود» من منطقة الأحقاف في شمال عدن. ومن دلالة أصله العربي أيضاً - حسب اعتقاد جملة المؤيدين - أنه أنجب «قحطان»، أصل العرب العاربة. وقحطان بدوره أنجب «يعرب» وعاش أساساً في حضرموت وأنجب فيها فالخ، جدّ العرب العدنانيين. وهكذا، فإن المشهد الأول من هذا التحليل لدى بعض كبار المفسرين يربط العرب بيقطان (قحطان) وبعابر الذي سيأتي إبراهيم من نسله. و«بالاستنتاج العربي»، وُلد إبراهيم والعرب من نفس الجدّ، أي من عابر، وهو من نسل سام. وبهذه الهوية وجواز السفر انطلق إبراهيم ليكون بدوره أباً للأنبياء والأمم حسب وصف الكتب السماوية له.

تاريخ من صوّان

مع أن البداية البشرية المطلقة في المفهوم التوراتي العام تبدأ من الجنة وآدم، إلّا أني - لغرض موضوعنا - سأقفز مبدئياً عنهما وعن زمن طوفان نوح إلى عصر «أبرام» حسب التسمية الأولى له في التقليد الشائع. ولسوف استعمل هذا الاسم الأصلي «أبرام» كما ورد في سيرته الأولى إلى أن غيّر الربّ اسمه إلى «إبراهيم» لاحقاً في منتصف الرواية.

كل ما نعرفه عن أبرام إذن جاءنا فقط من الكتب السماوية. وقد عرفنا عصره من التقليد الدارج حوالي ٢١٠٠ - ١٨٠٠ ق.م .كانت حقبة غزيرة بالتطورات التاريخية والثقافية الهامة في الشرق الأدنى القديم. أما مدينة «أور»، المسرح الأول لظهور أبرام، فكانت من ضمن ما يسمى بـ«ممالك المدن» المتنافسة الممتدة على ضفاف دجلة والفرات. لكن من الناحية العريضة الأوسع، فإن البلاد في زمن أبرام كانت ضمن مواقع الإمبراطوريات السومرية والأكادية والبابلية، وإن كانت الأولى في طور الانهيار والوسطى في عز التألق والأخيرة في صدد النمو. وكما شهدت تلك الحقبة تنافساً متساوياً على الكتابة على ألواح الطين حول الإدارة والحساب والتجارة والعلوم والاعتقاد، كذلك كان التنافس حامياً بين الأكاديين الأقوياء والبابلبين الطموحين على إرث السومريين. صحيح أن الحضارات الثلاث تتألف من ثقافات مطوية على بعضها البعض، لكن تنوّعها كان ذات سِمة متسلسلة متماسكة من أجيال صافية، كالولد والأب والجد في العائلة الرافدية.

من قماشة تلك البيئة الحضارية، وُصف أبرام وقومه في النصوص بأنهم من كبار الرعاة. كانوا يتنقّلون مع قطعانهم ويعملون بموجب القوانين والعادات الحضارية التي كانت سائدة آنذاك. وقد أوحت الكتابات التوارتية أن «الشعب العبري» وُلد من رحم تلك البيئة، وكانت رحلة أبرام من «أور» إلى بلاد كنعان بداية السرد التاريخي للعهد القديم. لكن من المهم عند هذا المفترق أن نقدّر أن ما لدينا عن تلك الفترة هو مجرد انطباعات تجريدية، وإن كان بعضها

مُستَمداً من أدلة اعتبارية وآثارات ونصوص توراتية. لكن رغم ذلك، لا توجد لدينا تفاصيل تاريخية حسيّة أو (حقيقية) عن سيرة أبرام ومسيرته. ولا زالت هذه العناصر موضوع نقاش عميق وجدال حاد بين الجيولوجيين والمفكرين ورجال الدين. كل ما وصلنا عنها متقارب أو متشابه من حيث تَدرّج سلالة أبرام وتقدير عصره وطريق هجرته.

خرج ولم يعد!

سنفترض سلفاً أن حياة أبرام تتطابق تماماً مع أوصاف التوراة. سننطلق معه من وادي الرافدين عبر الهلال الخصيب إلى مصر، ثم إلى بلاد كنعان. على هذا الأساس تكون مغادرته قد تمت من «أور» بأمر من الوحي الإلهي الذي جاءه هنالك في المدينة لأول مرة (تك: ١٢: ١-٣). وبينما نصّ الأمر على أن يترك أبرام عائلته وبيته وكل شيء خلفه ويرحل، نجد في نصّ آخر من نفس السفر (تك: ١١: ٣١) أنه غادر «أور» ومعه زوجته ساراي وأبيه تارح وابن أخيه لوط وزوجته[١]. نفهم من هذا السياق أنه حمل معه أيضاً أشياءه ومتاعه والجواري والعبيد والقطعان إلخ. الأمر الذي يدلّ على أنه كان «بُرْجُوازياً» بامتياز، أو تاجراً عتيداً، أو ذا شأنٍ عظيم وجاهٍ كثير. وهنا يجد النقّاد من أول الطريق إشكاليةً في مصداقية التوراة وريبة جوهرية في هذا الِالتباس حول تعليمات الربّ له بترك المدينة وحده، بينما نراه يخالف التعليمات ويحمل عائلته وأغراضه معه.. لكن مؤيدي النصوص يبسّطون الأمر على أنه غادر «أور» وحده زاهداً متصوّفاً كما أمره الربّ فعلاً، لكنه لم يقوَ طويلاً ولم يمشِ بعيداً أمام صراعه مع وجدانه على ترك أبيه العجوز خلفه؛ فعاد أدراجه إلى «أور» وانطلق بهم هذه المرة براحة ضمير وسكينة. ولو لم يوافق الله على وخز ضمير أبرام وعودته لأراد له أن يستمر غريباً وحده.

---

(١) هنا نجد في القرآن ما يشير إلى إيمان لوط بدعوة عمه إبراهيم من البداية: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

بصرف النظر عن نوايا أبرام، لا بد أن صُنّاع التوراة كانت لهم مآرب مرصودة لإخفاء حقيقة المسألة ودواعي الرحيل وهوية أبرام وقومه. وقد فسّر بعض اللاهوتيين الغاية المطلقة من ذلك تمكين أبرام من الحكم في بلاد جديدة، باعتقاد جديد، وسياسة جديدة، تصلح لكل وقت وتحت كل ظرف وفي أي مكان. وإلّا فكيف لهذا الراعي الدرويش (إبراهيم) أن يجيّش فيما بعد أكثر من ٣١٨ من أشد القادة الذين تربّوا في بيته لتحرير ابن أخيه لوط في سدوم؟ عملية حسابية بسيطة تبين للبحّاث والمهتمين أنه لو كان لكل قائد من قواده مجرد ٣٠ تحت امرته، لكان جيش إبراهيم قد زاد عن عشرة آلاف مقاتل في عصر كان مجموع سكان الرافدين أو مصر لا يزيد عن مليوني نسمة؟ المسألة فيها تفخيم وتضخيم لا ينسجمان مع طبيعة الرعاة....

كواكب ودابة

الطريق من «أور» إلى كنعان طويل ومتعرّج، وسيُعرضنا لمطبات الظنّ والتساؤل على قواعد المسلمات والمنطق. سنقف مع أبرام عند أبرز المحطات ونستهجن بعينيه ما كان يدور حوله ويجول بفكره بما يُحاكي ما طرحه المشككون وأصحاب الفرضيات المعاكسة. وفي هذا السياق، على سبيل المثال، ننقل عن أحد المفكرين التوراتيين، رالف إليس، قوله: (إن إبراهيم كان واحداً من كبار القادة في التاريخ القديم. مثقفاً وملِماً بلغات عصره وبشؤون الحوكمة والإدارة. كان على دراية واسعة بقراءة التشكيلات الفلكية التي كانت تصله بانتظام من معابد الكهنة. من هذه التشكيلات ما كان يرتبط باكتمال دورة كوكبات الفلك كلها ضمن ظاهرة تعرف بـ(التحوّل الفلكي العظيم). وإليس، بهذا التصريح، إنما يشير تحديداً إلى اكتمال دورة التغيير الفلكي في عهد أبرام. وهذا التغيير التدريجي المخروطي، الذي يتتبع اتجاه محور الأرض، يستغرق لاكتمال دورته نحو ٢٥,٧٧٠ عاماً. ونتيجة لذلك، تتحول خلفية النجوم ببطء للانتقال من برج فلكي إلى آخر؛ فيؤدي هذا الانتقال

إلى بعثرة الركود الوجودي وقلب المألوف وتغيير الأقدار - حسب اعتقاد الكثير من الفلكيين والمنجمين.

هنا يبدو أن أبرام قد استشف حُدوث تغيرات فلكية جمّة، مثّلها له الانتقال من برج الثور إلى برج الحمل. وكانت للثور خلال تلك العصور في الميادين والمعابد تماثيل ومجسمات منتشرة في ساحات الإمبراطوريات. إذ إن اكتمال الكوكبة البرجية والانتقال بين الأبراج في ذاك الزمن كان يمثل رمزاً خطيراً من رموز البعثرة والتغيير. من هذا التغيير ما كان يصيب القداسة والسلطة أشبه اليوم بالتحوّل من نظام عسكري إلى نظام مدني، أو من نظام شيوعي إلى رأسمالي، أو الانتقال من مملكة إلى نظام جمهوري، أو العكس - على سبيل التقريب.

ولربما تكريماً لوداعة الحمل (الكبش) واستقباله، نُحتت في مصر ومستعمراتها تماثيل الكبوش في جميع أنحاء البلاد. فتلك الفترة كانت تفرض تغيرات جوهرية وتستدعي إجراء تعديلات مصيرية على مستوى الحكم والبشر والطبيعة معاً. فكان إبانها أن اختلف أبرام - حسب نظرية إليس - مع حكام بلده (أي حكام مصر وليس حكام أور) على تفسير ألغاز الانتقال الفلكي. فبدأ رحلة تنقلاته مَنفياً من مصر نفسها وليس من خارجها. وإلّا - والسؤال هنا للكاتب البريطاني - كيف كان يمكنه الذهاب من مدينة «أور» في العراق، عبر حاران وحلب ودمشق والنقب، ليقابل الفِرعون في أقصى جنوب مصر في ذاك الزمن؟ ثم كيف كان له أن يدّعي أمام الفرعون أن زوجته سارة هي أخته، وما إلى ذلك من تفاصيل القصة التوراتية؟

هكذا استنتج إليس أن (إبراهيم) نفسه لا بد أنه كان حاكماً، لكن ليس في «أور» السومرية، بل في الدلتا حيث حكمها بنفسه أو كان مستشاراً لحاكمها. وما رحلته التقليدية التوراتية سوى كناية عن مشوار محفوف بالمخاطر قام به من شمال مصر إلى صعيدها. وإذا كان هذا القدر من الرواية لا يثير الاستهجان

بعد، فإليكم سبب مهمته حسب استنتاج إليس: (لا بد أن إبراهيم كان يتجسّس على حاكم مصر في الجنوب متخفياً بصفته تاجراً ورجل أعمال)..

هكذا تذهب نظريته لتوضح أن إبراهيم خرج من مصر بعد أن اكتشف «فرعون الصعيد» أن سارة لم تكن أخته كما أدّعى بل زوجته، فعاتبه وسامحه وتركه لحاله بعد أن أعطاه الكثير من الهدايا والخدم والقطعان، وجارية اسمها هاجر! السؤال هنا: هل لرجل أن يحظى بلقاء فرعون مصر في ذلك الزمن الجبّار ما لم يكن نداً فعلاً أو ذا شأن ومكانة، دعك عن تكريمه ببذخ وتوديعه بحفاوة؟ بيد أن إبراهيم رغم ذلك تحسّب للعواقب وفضّل مغادرة مصر معززاً مكرماً. باقي الرواية معروف، وخلاصته أنه سرعان ما وقع خلاف بينه وبين ابن أخيه لوط محوره ذلك النزاع الأبدي بين الرُعيان والمزارعين. ذهب كلاهما بطريق مختلف قبل الِالتقاء من جديد بعد خراب سدوم (أو بسببه)!

واشنطن سومرية

بالرجوع إلى «أور» ومسار الرواية، لا بد من العودة إلى أصل القصة التقليدية لنستكمل المشوار كما ورد في العهد القديم: «وخرج معهم من (أور) الكلدانيين ليذهبوا أرض كنعان فجاؤوا إلى حاران» (تك: ١١ : ٣١). هنا نلاحظ أن معظم المفسّرين التقليديين أجمعوا على أن «أور» هذه هي نفس «أور» الموقع الأثري لمدينة سومرية تقع في «تل المقير» جنوب العراق. الملفت في الموضوع استناداً إلى اتفاق (تواطئ) هؤلاء «الخبراء» أنهم حددوا حقبة أبرام بين ٢١٠٠ - ١٨٠٠ ق.م حسبما ورد آنفاً. والمنطقة السومرية في حينه لم تكن موقعاً عادياً، بل كانت بين الأمم آنذاك كما واشنطن هي اليوم في زمننا الراهن. مدينة العصر والسلطة ومدينة العلم والاقتصاد والجاه والسياسة والموضة. كانت مهد استعمال الأرقام في حِسبة المحاصيل وطرق توزيعها وفي النظام العشري وعمليات الحساب، بما فيها حِسبة الأحجام وجذر المكعب، فضلاً عن الطريقة الستينية التي ما زالت تستعمل حتى الآن. بل ورد في بعض

السجلات أن الرقم «الباي» (ط) أيضاً ربما كان معروفاً بالتقدير والأهمية في تلك الحقبة مثلما كان معروفاً أيضاً عند المصريين آنئذٍ. لكن رجال الحساب يومها لم يكونوا على دراية تامة بقيمته التفصيلية الدقيقة كما شرحها لنا أرخميدس بعد عصر أبرام بـ ٢٠٠٠ عام تقريباً.

هناك مفارقات علمية عجيبة من الزمن البائد. فبينما كان المصريون يعرفون أشياءً كثيرة عن بناء الأهرامات والفلك والمواسم، فإنهم لم يعرفوا أن الأرض نفسها كروية! وبالمعيار نفسه كان السومريون ضليعين بالحساب والفلك والزرع والشد والبناء، لكن لم يعرفوا شيئاً عن الفيزياء والجاذبية وقوانين الحركة. ويكفي أن نتذكر أن السومريين كانوا أول من قسّم السماء إلى مقاطع وخطوط وأبراج، ورمّزوها بهيئات وأسماء حيوانات من بيئتهم، وهي لا تزال تستعمل كما هي تقريباً إلى اليوم. الملفت أنه لم يكن فيها، مثلاً، «برج الجمل» ولا «برج الحصان» ولا «برج التمساح»! وما يحير المحتار فعلاً أن للجمل والإبل في اللغة الأكادية أسماءً موصوفة لكن ربما بصفتها البرية المتوحشة. أغلب الظن أن هذه الحيوانات لم تكن موجودة أصلاً في بلاد النهرين خلال عصر أبرام، خاصة إذا ما قورنت بالأبراج المستمدة من البيئة آنذاك، كالقوس والحمل والثور والبيداء (الجوزاء) والسمك (الحوت) والعقرب والسرطان والعذراء والدلو والميزان والجدي والأسد. المعروف أن كل حضارة تقريباً تأخذ من بعض أبرز حيواناتها المحلية رموزاً برجية لمنظومتها الفلكية. نرى عند بعض الحضارات الأخرى ما يشبه الضِباع أو الصقور أو الدببة أو الثعابين أو الفيلة والقردة. لكن حسب كتاب «مفصل العرب واليهود في التاريخ» لأحمد سوسة، هناك مَن عثر على نقش لجمل ذي سنم واحد يشبه جِمال الجزيرة العربية عند الحدود الجنوبية الشرقية للأردن. ومع أنهم استطاعوا تقدير تاريخه وإرجاعه إلى العصر الحجري، فإنهم لم يعرفوا إن كان الجمل مستئنساً يومئذٍ؟

بالإضافة إلى هذه التقسيمات من الأبراج الفلكية المستعملة حتى أيامنا هذه، فقد نجد الأمر ملفتاً أيضاً أننا ما زلنا نُفسّر الأحلام اليوم كما فسّرها

كهنة سومر منذ آلاف السنين تقريباً، لكن مع فوارق الاصطلاحات والمحليات! فأحلام الحيوانات والماء والتحليق والهبوط والعوم والنار والرعد وغيرها، لها اليوم نفس معانيها كما فسروها منذ القدم.

كان عدد سكان مدينة «أور» آنذاك يُقدَر بين **٥٠ - ٧٥** ألف نسمة حسب إجماع علماء السومريات. كانوا يُعظمّون الإله «دمّوز»، و«إنانا»، وإله القمر «سين»، بالإضافة إلى «أنليل» و«جلجامش». كانت المدينة سوقاً عاماً للرّق والسلع (بورصة) ومركزاً لختم الأوشام على العبيد والقطعان، وإجراء المزايدات، والمناقصات والمضاربات. كانت أيضاً مرتعاً للأزياء والأناقة والجمال، مزينةً بالأبنية البرجية ومشيدةً بالقصور ومطرزةً بالمعابد التي كانت تخدم عشرات الآلهة. كانت فيها محاكم وميادين وتماثيل وأضرحة وحدائق ونقوش وآثار. وكانت المدينة مقسّمة إلى حارات مستطيلة بواسطة شوارع مرصوفة تعلو على جانبيها منازل تتكون للميسورين من طابقين وشبابيك عريضة، وللمستورين من طابق واحد وشباك صغير. كان للمدينة ممر مائي يربطها بالميناء البحري القريب (لم يكن اسمه الخليج العربي، إنما خليج الدلمون)، ويربطها بقنوات اصطناعية تربط بدورها حقولهم بالنهر، وتتيح لهم الوصول إلى الخليج البحري بسهولة، ومنه إلى المحيط الهندي وماليزيا شرقاً، وإلى اليمن والجزيرة غرباً، وأفريقيا جنوباً. كانت المدينة متصلة حيوياً بالعالم القديم ومنفتحة بأسواقها على أجناس البشر والبحّارة والتجّار من كل المناطق. هناك أدلة كثيرة ملموسة في متحف بغداد والمتاحف الأوروبية عن ضرائب كانت تفرض على السفن الواردة إلى المكان (راجع حكم سرجون وسفن الدلمون **٢٣٣٤** ق.م). وإذا غربلنا تواريخ حكام بلاد ما بين النهرين في تلك الحقبة، فسنجد أن «أور» كانت جزءً من إمبراطورية تحكمها شرائع عريقة ومواد قانونية وبنود أخلاقية وضعها أجداد حمورابي بالمفرق وأخذ هو شهرته من جمعها جملة واحدة!

هندوسي أم هندي؟

قبل تتبع مغادرة أبرام مدينة «أور»، لا بد أولاً من إلقاء نظرة عامة على خلفية عصره في ذاك الشرق الحضاري الممتد من الصين حتى مصر. أقله لبناء مخيلة عريضة في أذهاننا قريبة للمشهد العام، الذي قالت التوراة إن أبرام كان عنصراً وجيهاً في ظلاله. وخير الانطلاق للغاية هو من تفكيك اسمه عبر الجغرافيا.

بدايةً، هناك عشرات النظريات حول تركيبة اسمه، ومنها ما تضعه في سياق تاريخي وثقافي مختلف تماماً عما ورد عنه في التوراة. فبالإضافة إلى اسميه أبرام وإبراهيم، هناك مَن قاربه مع «براهما» (أو راما) الهندي. وبراهما، في العرف الثقافي الهندي، هو أول مشرّع أخلاقي للهندوس. وحسب الباحث توماس طومسون في ملاحظاته على «البهاغافادغيتا»، ليس هناك أدنى شك في أن أصل التسمية كان اسماً للشمس عند الهنود، بمثابة «رع» عند المصريين. وهذه الكلمة «*Ra*»، التي تعني «مشرق»، موجودة أيضاً بجانب أسماء جميع أبطال الشمس من جميع اللغات الهندية الآرية، تماماً كما تظهر الكلمة المشابه «*El*» وتعني «المشرقة» بنفس الطريقة في أسماء أبطال الشمس الساميين، كشمش وآمون وإندرا، أي بملامح وانطباعات متقاربة، كالإله الساطع والفجر البازغ والوهج الظاهر إلخ....

ولعل أشهر من كتب عن هذه المقاربة اللفظية بين «براهما» و«إبراهيم» مؤلف كتاب «الأنبياء المشتركون لليهود والمسيحيين والمسلمين والهندوس»، المفكر بهارات جونجنوالا عام ٢٠١٨ م؛ فلقد زَعم أن شخصية إبراهيم التوراتي رُكّبت لاحقاً لتعكس الشخصية الأصلية كنبي هندي في الأساس، لا سيما أن أوجه التشابه بين الشخصيتين ملفتة للغاية، وتتمحور تقريباً بنفس حقبة تألق الحضارتين الرافدية والمصرية بين ١٩٠٠ - ٢٦٠٠ ق.م. وهو، إذ يزعم أن بعض الأنبياء الموحدين الأوائل هم أنفسهم ذات الأشخاص الذين عاشوا في وادي السند قبل العصر السومري، إنما يوحي أن الأوصاف الجغرافية الواردة

في العهد القديم والقرآن تتطابق مع النصوص الهندوسية المقدسة عن طبوغرافية وادي السند. هناك - برأيه - تحديداً عاش آدم وذريته وإبراهيم وموسى، لكن باسمائهم الهندية الأصلية. فآدم هو كناية عن «سوايامبو مانو»، وقايين كناية عن «إندرا»، ونوح عن «فايفاسوات مانو»، وإبراهيم عن «راما»، وموسى عن «كريشنا.» وكما قاد «كريشنا» جماعته «اليادافز» (*Yadavas*) من وادي السند إلى الخلاص، قاد موسى جماعته اليهود (*Yahodis*) إلى أرض الميعاد في فلسطين. (لكن رغم التشابه اللفظي بين الجماعتين لا يوجد أي ترابط بينهما وإن تشابهت الظروف).

واستطراداً لهذه الفرضية الملفتة، يدّعي بهارات جونجنوالا أن مدينة «أور» التوراتية هي نفسها في الأصل مدينة «أنو بكره» الحالية الواقعة شمال غرب راجستان، حيث وُلد «راما» (إبراهيم) من أبيه آذار/آزر/تارح/دشارتا. ومنها ارتحلت العائلة وتغرّبت.. وبذلك ينضم بهارات إلى عديد من باحثين آخرين في رصد بلاد السند كموقع رئيسي للمعتقدات الملحمية العريقة. لعل ما يثير اللعاب في نظريته هذه أنه يفترض أيضاً أن ما يعرف بـ«أمّ المعارك» بين الخير والشرّ، وقد وقعت بين رمسيس الثاني ملك مصر ومواتللي ملك الحثيين (حوالي العام ١٢٧٤ ق.م)، لم تقع في «قادش» المعروفة لدينا على الضفة الغربية لنهر العاصي حسب التداوال التقليدي، إنما دارت رحاها وخيضت ملحمتها في منطقة «رون كوتش» الهندية، وعرفت هناك بـ«حرب لانكا»، وذكرها «رامايانا» في ملحمته باسم «فران». وبمعنى أدق، فإن معركة «قادش» عند العاصي أُقتبس لها وصف «أم المعارك» بسبب شراسة المعركة الأصلية الهندية وشُبّهت ضراوتها على وطيس «حرب لانكا».

وبعد هذه القنبلة التراثية، ينتقل بهارات ليذكّر قراءه بما يصفه بأوجه التشابه بين إبراهيم وبرامان، منها مثالاً وليس حصراً: تشابه معاني الأسماء البادئة باللفظة الأبوية، أي التي تبدأ بحرفي الألف والباء، «أب»، وإن كانت الكلمة في الهند تعني مكانة رصينة مختلفة كالجديد أو الجريء أو المنتصر. ثم هناك

توافق ملفت في الفترة الزمنية بين الإبراهيمَين، الهندي والسومري. إذ إن كليهما يعودان تقريباً إلى نفس الزمن التاريخي، أي إلى فترة ٢١٠٠ - ١٨٠٠ ق.م. هناك أيضاً تطابق عدد الزوجات الأربع بينهما، وهن حسب استنتاجه، [سارة وهاجر وقنطورة وحجون (لئية)]. بل هناك أيضاً وأيضاً التشابه مع رواية استلطاف ساراسواتي «سيتا» (المحوّرة إلى رواية سارة مع الفرعون) وانقاذها في اللحظة الحرجة. هذا فضلاً عن رواية انفصال الأخ الهندي عن أخيه كما في افتراق إسحاق عن إسماعيل أو عيصو عن يعقوب. ويدّعي بهارات أنه يمكن العثور أيضاً على تشابه في هجرة بعض القادة غرباً... ما يعني أن إبراهيم وذريته كانوا ينتمون إلى روايات وسياقات تاريخية متدرجة مختلفة. حقبات تعود إلى بلاد الهند والسند نظراً لأن سكان الرافدين كانوا أصلاً من الذين هاجروا من الهند ورحلوا غرباً إلى العراق على مدى مئات السنين؛ وعند وصولهم إلى حوض الرافدين، من الممكن أنهم أعطوا آلهتهم الجديدة في الرافدين نفس أسماء آلهات آبائهم وأجدادهم الأصلية في الهندوس.

لكن من أبرز العناصر إثارة للاهتمام في فرضية بهارات، تلميحه اللافت إلى موقع «كبش الفداء» بالقرب من معبد «بوشكار» في بلاد السند. هناك، ربما، كان إبراهيم بنسخته الهندية الأصلية يؤدي طقوسه ويمارس شعائره الإيمانية. وهو في هذا الصدد قد يكون حدّد بالأسماء بعض الصخور الكبيرة على منصات مرتفعة كأماكن محتملة لذبح الأضاحي عليها. ويضيف بهارات: إن إبراهيم الأصلي ربما حاول التضحية بابنه في أحد هذه الأماكن المقدسة التي لأبراما علاقة تراثية واضحة بها. وحتى زيارة إبراهيم إلى «بكة»، كان لبهارات رأي فيها، هي الأخرى، على أنها ربما كانت بمثابة واحدة من زيارات «براهما» الهندي إلى مدينة بوشكار المقدسة (بوكارو؟).

الباحث بهارات ليس وحده مَن ذهب مؤخراً إلى الربط بين الإبراهيمَين. ففي الزمن الغابر أو ما يُسمى بعصر «ما قبل حجر الرشيد»، (للدلالة على الزمن الغامض)، كان البحث عند المفكرين يعصى على ربط الأمور بعضها ببعض

بسبب تباعد الأمكنة ورطانة اللغة ومحدودية الاعتقاد وانعدام الوسائل. أما «بعد تاريخ الإسكندر أو تاريخ حجر الرشيد» (١٩٦ ق.م)، وتحديداً منذ أواخر القرن التاسع عشر حوالي ١٨٧٠م إلى الوقت الحاضر، فقد أصبح من الواضح للكثير من بحّاث التوراة أن إبراهيم السومري «الأوري» نُزع من قماشة «براهما» الهندي وتم استنساخهما (ميتافيزيقياً) مع أجدادهما، ووُظفا منفصلين من قبل كهنة المعابد عقب الفيضان. من هنا، قام لاهوتيون فيما بعد بشحذ الذاكرة وأخذ الإلهام الاعتباري من «براهما» الهندي. صاغوا منه لأنفسهم إبراهيم التوارتي على قدوته وفصلّوا مسيرته على مآربهم. جنّسوه وأعطوه أصولاً حضارية وقدراً طبقياً من خلال إطلاقه من «أور» المتحضرة وألبسوه ثوب الريادة والأبوة. بعد ذلك أدخلوه إلى مصر العظيمة ومدّوا من عمره ليعاصر حدود السومريين والأكاديين والبابليين والمصريين معاً. والبعض تمادى بجّر البراهامة إلى بلاد سومر وأعطى شجرة آدم عند ملتقى دجلة والفرات صفة «البراهامة الخيّرة» التي يقصدها الزوّار من كل مكان للدعاء والتبرك.

مجوسي أم فارسي؟

الملفت في هذا الصدد (تشابه الإبراهيمَين) أنه نُقل عن أرسطو قوله على سبيل الاستشهاد (إن إبراهيم وُلد يهودياً، ولكنه جاء من «سيليزيا» في أوروبا الوسطى، وهو ينحدر من اليهود الفلاسفة الهنود). أما غيوم بوستل، أحد أشهر لسانيي القرن السادس عشر، فقد ربط بين إبراهيم وبراهما ربطاً لغوياً عضوياً، فيما زعم الكاتب الشهير الفيلسوف فولتير أن الهند، وليست بلاد الرافدين، هي مهد الحضارة. وعلى زعم بهارات تقريباً، اعتبر فولتير أن إبراهيم وبراهما نموذجان لشخص واحد. وتوضيحاً لهذه الشخصية الإبراهيمية المزدوجة، ذكر المفكر توماس دوريست (١٩٩٨م) «أن إبراهيم كان شخصاً حقيقياً فعلاً انحدر من بعض الكهنة الذين تركوا الهند غرباً ليبشروا بتعاليمهم التوحيدية»، أشبه ما يكون اليوم بالمبشر البوذي التيبتي دالاي لاما، أو الهندي ديباك تشوبرا عن

الروحانية الكونية. وعلى طريقة مؤيدي هذه الفرضية ودعماً لأطروحته، ضرب توماس أمثلة على قناعته، ومنها تشابه الأسماء بين الشخصيتين الإبراهيميتين وموقع «أور» بالوسط بين بلاد فارس والهند. والفرس جيران الهنود، وكانوا أصلاً قد أطلقوا على دينهم الأقدم قبل ظهور زرادشت، دين أبرهم. بل حتى زرادشت نفسه، قيل إنه وصف إيمانه بالاعتقاد «الأبرهامي». ثم إن هناك وجوداً واضحاً لعدد من الكلمات الفارسية الأخلاقية متداخلة في اللغة القديمة للهند، وهي تؤكد التواصل الوثيق الذي كان قائماً بين البلدين من الناحية الاعتقادية. وعليه، فلا عجب إذا كان اسم «أبرهم»، نبي بلاد فارس، قد تم تبنيه بالمثل لاحقاً في بلاد ما بين النهرين بصفة إله. وتُجمع مزاعم أصحاب هذه الفرضية على أن الاسم الكلداني للنار المقدسة، التي تُعَد عبادتها واحدة من العناصر الرئيسية لدين زرادشت، يُظهر الأصل البدائي للدين المشترك بين بلاد فارس والهند. وبالنظر إلى أن الحروف الهجائية الهندية (السنسكريتية) كلها مقطعية ساكنة ليست فيها حروف علّة، فلا يستبعد أن يكون اسم إبراهيم الأصلي قد تحوّل إلى «براهما» ككلمة فارسية، ومنها انتقلت إلى سومر. وهكذا تحتوي النصوص الفيدية الأولى، مثل ريجفيدا، على بعض الإشارات المبكرة إلى مفهوم «براهما» (الفراهندي)[١]. وقد تطورت فكرة «براهما» فيما بعد بشكل أكبر ومنفصل من قِبل المدارس الفلسفية المختلفة في فارس والهند. المفارقة هنا، أن الباحثين الأوروبيين الأوائل عرفوا هذه السلسلة من الترابط الأسمي العقائدي بين الشخصيتين، لكن لأسباب تمويهية قرروا طمس جميع الأدلة التي كانت تشير إلى حضارة «هارابان» العظيمة ما قبل الطوفان (٣٣٠٠ ق.م) الواقعة بين بلاد السند وفارس القديمة.

وفي سياق الفلسفة الروحانية الهندية، يحمل مصطلح «براهمان» (بنهاية حرف النون) معنى «المطلق في كل الكل»، ويمثل الواقع النهائي والشكل غير

(١) مصطلح مركب لدمج كلمة «فارسي» بكلمة «هندي»).

المتغير أو المصدر الإلهي للكون. وغالباً ما يوصف بأنه الواقع الجوهري الكامن وراء كل الأشياء وموحّدها. فيما «براهما» (بنهاية حرف الألف فقط)، يُعتبر رافداً من براهمان ويمثل وقائع الأرض فقط، ومنها التوسط للبشر مع إله السماء. من هنا يعتقد البعض أن «براهما» هو مجرد مفهوم ميتافيزقي فلسفي ولاهوتي داخل الهندوسية، وليس اسماً حقيقياً لشخصية واقعية، سواء جاء بلفظة «أبرام» أو «اءيرام» أو«برم» أو «براهما» أو «برهان» أو «براهمان». (هذه تسميات غير تسميات «البراهمة الخمسة» التي فنّد شخصياتها التوراتية كمال الصليبي. (راجع خلاصة نظريته لاحقاً).

ولأنه شخصية قيادية وقدوة أخلاقية افتراضية جامعة، فقد تيمّنت باسم براهما جماعات كثيرة عبر التاريخ من حدود الصين حتى مصر. وكان لاسمه المتحوّر ارتباط واضح أيضاً بالثقافات الإثيوبية والجنوبية العربية. من المعروف تاريخياً في هذا السياق شخصية «أبرهة» الأشرم، الحاكم المسيحي الإثيوبي الذي ورد ذكره في التقاليد الإسلامية والسجلات البيزنطية من خلال محاولته التوجّه إلى الكعبة بغرض تهديمها. وعُرف زمنه تقليدياً بـ«عام الفيل» (عام ولادة محمد) بالنظر إلى استعماله الفيل في حملته. لكن أبرهة هذا لا علاقة له بإبراهيم التوراة أو براماان الهند أو أبرهم فارس إلّا من خلال التيمّن بدور التقوى والقيادة والأبوّة.

نهر وروافد

لكي نفهم طبيعة السياق القصصي عن أبرام التوراة، لا بد من فهم عالم ذلك الوقت من العصر البرونزي؟ بلاد ما بين النهرين كانت - كما سبق ذكره - موطناً للعديد مما يسمى بـ«دول ممالك المدن». وهو نظام حكم كان دارجاً في كل المنطقة، بما فيها مدن اليونان والأناضول والساحل السوري، كما لو كنا نتحدث اليوم عن موضة أنظمة الجمهوريات على سبيل المقاربة. ولعل «أور» في أوجّها كانت واحدة من أغنى هذه المدن، بل ربما أغناها قاطبة بأمارة ما

وُجد فيها من قبور ملكية وذهب ومعادن وأحجار كريمة. وعندما أخضعها الأكاديون (جيرانها) إلى حكمهم مع المدن الأخرى تحت لواء سرجون العظيم (٢٣٢٠ ق.م)، وكان من جلال عظمته يُعرف بملك الجهات الأربع، تحولت «أور» ومحيطها، فضلاً عن مكانتها الاقتصادية، إلى منارة تراثية ثقافية. أضافت بهجةً على قلب سرجون، وأضاف هو بريقاً إليها، فصار هو هي، وهي هو، مثل محمد بن زايد اليوم بالنسبة للإمارات العربية المتحدة على سبيل المقاربة.

سلالة سرجون اكتسبت من بعده نفس المكانة الرصينة والهيبة، ومنها الملك الحكيم نارام - سين. ولا غرابة أن توسعت إمبراطوريتهم الأكادية ووصلت في ذروتها إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط. بيد أنها أخذت بالتضعضع لاحقاً (١٩٤٠ ق.م) على أيدي قبائل همجية كوتية أمورية نزلت عليهم من جبال زاكروس القريبة[١]. الطريف فعلاً أن محققين كثيرين ربطوا لاحقاً بين هذه القبائل الأمورية الزاكروسية وبين أصول الهكسوس. وقد اعتُبر هجومها المباغت على سومر بداية انطلاق مشروع توسعي أوصل أحفادها إلى مصر بعد قرنين ونصف القرن؟

كان الأموريون في نظر سكان بلاد ما بين النهرين أقواماً بدوية همجية تتصف بالغلاظة وخشونة الطباع لا يحلو لها الاستقرار في مكان ثابت أشبه بالغجر. وقد وصفتهم مدونة سومرية «بأنهم أصحاب سلاح وعُنُد لا يركعون لغريب ولا يأكلون اللحم إلّا مشوياً أو مطبوخاً ولا تهمهم المدافن ولا المراقد بعد الموت». ما يعني أن الاعتقاد بالآخرة عندهم كان من أواخر همومهم! والواقع أن أمرهم اختلط عند الإخباريين مرة باسم «العماليق»، ومرة باسم «الهكسوس»، ومرة باسم «القيداريين»، اعتماداً على ما ورد في مصادر متنوعة.

أما أسطورة سرجون العظيم، فقد ورد في السجلات أنها تنطوي على رواية طفل وضعته أمه البتول في سلة وتركته يطفو لمصيره على مجرى الفرات. هي

(١) قارن مع هجمات البرابرة والقبائل الجرمانية على روما.

سردية مألوفة وجدناها تتكرر في أساطير ثقافات مختلفة من الشرق إلى الغرب. وبعد العثور عليه وانتشاله، أخذوه ليُربى تربية كريمة في مزرعة أحد الاقطاعيين، فتدرج على تلال المسؤولية وتسلق على حبال الإدارة وأصبح في النهاية ملكاً قوياً[١]. الرواية نفسها تقريباً تكررت مع العظيم «كارنا»، أحد أبطال الملحمة الهندية «مهابهاراتا». وفي التفاصيل، وُضع كارنا على غير هدى في سلة على نهر الغانج إلى أن وَجدت طريقها إلى مَن انتشلها واعتنى به وربّاه.

وحتى في العصور الأقرب، ورد شبيه مركب لهذه الرواية عن التوأم رومولوس وراموس اللذين وجدتهما ذئبة في سلة عائمة على نهر التيبر في إيطاليا قبل أن يلتقطهما فاعل خير ليكبرا بكنفه ويؤسسا روما العظيمة.

وهكذا، فإن فكرة إنقاذ رضيع من جريان نهر جارف، أمه عذراء تخاف عليه من افتضاح أمرها، إنما هو تداول شائع لدى الشعوب القديمة والتراث والفولكلور، ومألوف عند كل البحّاث والمفكرين الجديين.

زاخر ولامع

وبهجمات القبائل الكوتية التي نزلت على الأكاديين من جبال زاكروس، تيسّر للسومريين النهوض قليلاً والتفلّت من حكم الأكاديين والتملّص أيضاً من حكم المحتلين الهمج بقيادة الملك السومري العظيم «أوتشيكال» وأسرته. وفي العام ٢١١٢ ق.م تحت حكم حفيده أور - نامو (السلالة الثالثة)، تم إنشاء أحد أقدم النقوش القانونية المعروفة باسمه، أي «مدونة أور- نامو»، وقد سبقت شريعة حمورابي بمئات السنين. وكانت فترة السلالة الثالثة بمجملها، وخاصة عهد شولجي العظيم (٢٠٢٩-١٩٨٢ ق.م)، فترة مهمة في تاريخ بلاد ما بين النهرين لأنها شهدت - كما أسلفنا - صدّ الغزاة الهمج، وامتازت ببسط السلطة السومرية ونهضة حيوية من جديد لإعادة الإعمار وترميم المدن، ومنها رأس

(١) يذهب البعض في اتجاه آخر ويقارن سرجون وسلالته مع إبراهيم وأولاده!

مسقط أبرام نفسه «أور». ذلك العمران الفخم أُنجز تباعاً على أيدي أحفاد أوتشيكال وهم: نارام - سين، وأور- نامو، وشولجي، وعمار- سين، وشو- سين، وأبي - سين. وقد امتدت الحقبة بمجموع فترات حكمهم نحو قرن من الزمن. وإذا كان من دلالة على شيء ملفت خلال عهودهم، فعلى أن أعمارهم كانت طبيعية كأعمارنا، وفترات حكمهم لم تتجاوز ٢٠ سنة بالمعدل لكل منهم. ومع أبي - سين، آخر حكام أور (١٩٦٤ ق.م - ١٩٤٠ ق.م)، يكون عصر السومريين قد اندثر إلى غير رجعة بوجه هجمات الأموريين. وإذا نظرنا إلى الامتداد الجغرافي بين سومر ومصر آنذاك، نجد أنه كانت هنالك على الطريق ممالك صغيرة مهمة كثيرة، ومنها مملكتا «إبلا» و«ماري»، وهما غنيتان بالآثار وبالشواهد على فترات السومريين وبلاد الرافدين عموماً. وكذلك إلى الغرب منهما ظهرت لاحقاً حضارة «أوغاريت» العظيمة الشهيرة بأبجديتها، والمعروفة اليوم باسم «رأس شمرة» في سوريا. وهي، رغم اندثارها بالكامل لأسباب غير مفهومة بعد، تركت لنا أرشيفاً زاخراً بأسماء بعض مَن حكموا بلاد الرافدين، فضلاً عن أسماء ملوكها هي ابتداءً من القرن الرابع عشر ق.م. ومنهم على سبيل الاستشهاد: أمستمرو الأول وأمستمرو الثاني ونكمبا. وقد تم توثيق عهودهم بالتفاصيل في نصوص مختلفة موجودة في الموقع نفسه والمواقع المجاورة. وقبل بروزها كحضارة فارقة متينة، لم تكن أوغاريت على أيام إبراهيم قد نمت ونضجت بعد، لكنها كانت حبلى ببذور التألق وتنبئ بنمو حضاري قيد الارتقاء، أشبه بما كانت عليه سنغافورة ودبي وشنغهاي قبل تألقها بعقود. كانت أوغاريت «مدينة دولة» مهمة في العالم القديم، ورغم دمارها بسبب عوامل غامضة، قد تكون منها غزوات وهجرات وزلازل ومجاعة بين ١٢٠٠-١١٨٠ ق.م، فقد تركت وراءها ثروة من السجلات المكتوبة عن تفاصيل أحداث الشرق الأدنى في شكل ألواح مسمارية وأسطوانات وطينيات.

عند هذا المفترق، لا بد من التذكير إلى أن المتاحف الأوروبية تزخر

بتماثيل الملوك السومريين ومجسمات رؤوسهم وتصويرات دقيقة عن مشاهد حياتهم اليومية بأدق التفاصيل، بما في ذلك شؤون الطهي والطهارة وممارسة الجنس والتجارة والعبادة والتداول والمقايضة والأزياء وكل معالم العيش على قياس تلك العصور. أما مصر، فكانت أصلاً حضارة عريقة قائمة بملوكها وأهراماتها. وعلى الجهة الشرقية لبلاد سومر كان هناك وادي السند وما يعرف الآن بباكستان وشمال غرب الهند، وكانت حضارة مزدهرة متألقة بكل معنى الكلمة من مدن مخططة جيداً وأنظمة صرف صحي متطورة على قياس ذلك العصر. وحتى في الشرق الأبعد، كانت الصين تحكمها سلالة عريقة من أقدم سلالات السلطة، وكانت ثقافتها بارزة في وادي النهر الأصفر.

هكذا هو كان العالم الذي عاش البطريرك أبرام في أجوائه، وهكذا كانت الخلفية الحضارية لامعة ناضرة زاخرة بالحياة..

تعددت الأسماء والأصل مجهول

قبل متابعة خطوات أبرام بعد مغادرته «أور»، دعوني أستشهد بما قاله أحد أصحاب النظريات المشككة (فاضل الربيعي) عن المدينة نفسها؛ الربيعي لم يرَ في عبارة «أور الكلدانيين» الواردة في التوراة (تك: ١١:٣١) ما يمكن الاعتماد عليه والأخذ به لأنها مضللة تاريخياً. فالكلدانيون - حسب توضيحه - لم يظهروا كشعب، أو يكونوا موجودين، قبل القرن التاسع قبل الميلاد، فكيف يكون أبرام كلدانياً وقد عاش قبلهم بألف سنة؟ فإما إن الترجمة التوراتية أخطأت بنقل الكلمة الأصلية (وهي «كسديم» برأي الربيعي)، أو إنها أخطأت بنسخ كلمة (أور)، أو أن أبرام نفسه عاش في زمن آخر.

وإذا فنّدنا الأمر وتعمقنا به - حسب استطراد الربيعي - سنجد أن هنالك اليوم جبلاً اسمه «الكسديم» أو «كساد» شامخاً في اليمن ليس بعيداً عن مكان يمني آخر اسمه «حران». وهذه - برأي الربيعي - واحدة من أبرز الدلالات على يمنية التوراة بما لا يقبل اللبس! وفي استنتاجه الحازم هذا دليل واضح كيف

أن الكثير من المفكرين والبحّاث أمثاله يختصرون عناصر التناقض أو يقتضبون نقاط التشابه للادعاء بإصابة الهدف بالطريقة المنهجية!

لكن إذا نظرنا إلى اسم «أور» نفسه على طريقتي البدائية (وهي طويلة)، فلربما يكون لمدينة مختلفة كلياً عن «أور» وعن «الكلدانيين» معاً، أو حتى عن كل مدن المحيط البابلي المألوف (أور، أورك، أوراك، أريدو، وأوما). ربما يعود اسم «أور» حسب اجتهادي إلى مدينة أخرى اسمها «المدينة» بالنظر إلى أن كلمة «أور» نفسها بالسومرية تعني «المدينة» ببساطة. أو ربما يكون الاسم قد تشكل وصفاً لشيء ما على طريقة مدينة «جبيل» في لبنان ومدينة «الجبيل» في السعودية ومدينة «جبلة» في اليمن، (وكانت هذه أيضاً تقع بين نهرين). أو ربما يكون الاسم ملتبساً على طريقة «طرابلس» لبنان و«طرابلس» ليبيا و«طرابلس» اليونان. أو على طريقة «بيت لحم» في الضفة الغربية و«بيت لحم» في الجليل الأعلى شمال فلسطين و«بيت لحم» في جنوب أفريقيا و«بيت لحم» في نيوزيلندا أو «بيت لحم في الولايات المتحدة؟

هنالك أيضاً مدينة أخرى باسم مملكة «أور- أرتو» (أوراتو) الشهيرة، وكانت تقع عند الهضبة الأرمينية جنوب شرق البحر الأسود إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين. صحيح أن أقدم ذكر لها جاء بعد تاريخ إبراهيم الافتراضي بنحو ٦٠٠ سنة (١٢٦٠ ق.م)، لكن أوجّ تألقها وعصرها الذهبي كان قريباً جداً من تاريخ اليهود خلال فترة سبيهم. كانت «أورارتو» يومها لا تزال حديث الناس بالنظر إلى ذكرياتهم القريبة عن أخبارها وعن صيت ملوكها وفخرها. كما لو كنا نتحدث اليوم عن الأندلس على سبيل المقاربة الزمنية. ضف إلى ذلك أن اسم «أورارتو» ورد فعلاً في «التناخ»[1] على شكل كلمة «أورارات» الغامضة. كان ناس «أورارتو» يشبهون جيرانهم في وادي النهرين ويصنعون مثلهم تماثيل

(١) وهو اسم آخر للكتاب المقدس اليهودي (العهد القديم) ومن أكثر أسماء الكتب العبرية شيوعاً في الأوساط العلمية.

مجنّحة ويشتركون معهم بقصص وأساطير عن الخلق والطوفان وعن آلهات المنطقة من شرق الهلال الخصيب وشماله. لا بل إن منطقة «أورارتو» بالمفهوم المحلي أقرب إلى المكان الذي قيل إن سفينة نوح رست على قمة جبل فيه - (أرارات)! هناك أيضاً مدينة «أور- فة» التركية، على مرمى حجر من «حاران» (٤٠ كلم)، وكانت أيام إبراهيم غنية بعلف الرعي والقمح والشعير. أما اسمها القديم قبل «أورفة»، فكان «أور - هاي»، وقد غيّره السلوقيون (ورثة الإسكندر) وجعلوه على نسق بلداتهم فسموها «او- ديسّة».

وكأن هذا الِالتباس اللغوي الملفت لا يكفي، فجاء اسم «أور» القديم أيضاً بالمعنى الحديث لكلمة «كفر» كما في مدن «كفر الزيات» و«كفر ذبيان» و«كفر الشيخ» إلخ. وقد تكون كلمة «أور» اقتضاباً شعبياً عن «مضمون» محدد لموقع «عيش» كما في كلمة «دار» كناية عن المكان نفسه، كـ«الدار البيضاء» عند المغاربة أو «دار السلام» عند التانزانيين. و«أور» تأتي أيضاً بمعنى «مدينة» مخصصة لشيء ما ومن نوع آخر، وليس اسماً لمدينة، كـ«مدينة الإنترنت» في دبي أو «مدينة الملاهي» أو «مدينة الأشباح»! أو قد تأتي بمعنى «أرض»، كأرض السلام (أور- شليم). أو بمعنى «مقر» كالدار الآخرة، أو مثل مدينة قصر كـ«قصر الحصن» في الإمارات أو «قصر عمرا» في الأردن أو مدينة «القصر الكبير» في المغرب. أو ربما تأتي بمعنى «كزا» (كاسا) الإسبانية بمعنى «بيت» أو «موطن» كما في (كازابلانكا عن الدار البيضاء) أو (كازاخستان)؟ أو ربما تأتي بأي معنى آخر عن «زنكة» أو «زقاق» أو «خندق» أو «حماة» أو «حِلة» أو «حوطة» أو «حارة» كما في «حارن» و«حوران» و«حماة»، أو «حائل» (موطن الإله الأعظم الأعلى - إيل).

وعلى هذا المنوال تقريباً هناك مدن تُعرف بأبوابها فقط كـ«باب أيل» (بابل)، و«باب المندب»، و«باب الهوى» (الهواء)، و«الباب العالي»، ومدينة «الباب» القديمة بالقرب من حلب، وغيرها الكثير من بلدات الأبواب، فضلاً عن البوابات داخل المدن نفسها كما في بوابات القاهرة وصنعاء والقدس والبحرين

والمغرب وطرابلس وغيرها من بنيان الحضارات. هناك من اجتهد وترجم اسم «أور» على أنه يعني بالسومرية «النور» أيضاً أو «الضوء» أو «الجيدة» أو «الحسنة» أو «المثمرة» أو «الطيبة»، ما يعني أن أبرام ترعرع في مدينة منوّرة طيبة! وإذا راجعنا خارطة الشرق الأدنى سنجد - فضلاً عن المدينة المنوّرة في المملكة السعودية - عشرات البلدات باسم «الطيبة» أو «طيبة» منتشرة بين مصر وعُمان، بما فيها «طيبات» فلسطين وسوريا ولبنان والحجاز واليمن.

وإذا أردنا أن نرمي في حلبة النقاش المزيد من عناصر الالتباس والتشويق من باب المنطق واستفزاز الخيال وإزعاج اللسانيين، فسنلاحظ أن المدن العريقة التي تدوم كثيراً وتتطور بسرعة وتمتلئ بالسكان، خاصة في محيط لا يتألق غيرها فيه، تتوسع لتبني ملحقات جديدة على اسمها، كما في «مصر الجديدة» أو «دلهي الجديدة» أو «بغداد الجديدة» إلخ. وبالتطور الطبيعي للأشياء قد تختصر فيما بعد الأسماء القديمة والجديدة معاً تحت اسم شهرة مقتضب واحد كما في «لؤلؤة الشرق» كناية عن هونغ كونغ، أو «مدينة الحب والأضواء» كناية عن باريس أو «مدن السلام» في القاهرة وشرم الشيخ والباكستان، فضلاً عن دار السلام نفسها!

معظم اللسانيين لديهم إلمام فظيع بهذه الربطات والكنايات والتحويرات والاشتقاقات، وأنا أذكرها ليس من باب العلم والخبرة أو اليقين، إنما لاستفسر لماذا يعتمد المفكرون على احتمال واحد حولها ويهملون فحص بقية الاحتمالات؟ ثم أني أذكرها أيضاً من باب الاستهجان والدهشة لمطاطية التفسيرات والتقليبات اللغوية، خاصة بعد مرور مئات السنين على النطق بها بلهجات متعددة حسب تنوع الجغرافيا، الأمر الذي يعرّض أصل هذه الأسماء للاختفاء أو التشويه أو الظنون. ومع أن القرآن ذكر بضع مدن عريقة مثل سبأ، وإرم، ومكة، والأحقاف، والمدينة، وسدوم وعمورة، فإنه لم يذكر إلّا «بابل» من بلاد الرافدين في معرض الحديث عن اليهود والملك سليمان (البقرة:

١٠٢). لم يأتِ على ذكر «أور» مطلقاً أو يعطها اسماً آخر. حتى التوراة نفسها، لم تقل إن «أور» تقع في العراق، بل جلّ ما قالته إنها «أور الكلدانيين».

في معرض النقاش والجدل بين الباحثين عن مساقط رؤوس الأنبياء، نجد أن أحد المساهمين العرب، محمد منصور، يشرح أن أبحاثه «الجغرافية اللغوية» تؤكد أن أبرام وُلد في مكان اسمه «حاير الخالديين» وليس في «أور الكلدانيين». ومنطقة «وادي الحاير» هذه تقع - بتحديده - عند أطراف مدينة الرياض، فيما قرية «الحاير» نفسها (حرّان) تقع شمال حوطة سدير. بمعنى أن رحلة أبرام لم تكن من «أور الكلدان» السومرية إلى «حران» الآرامية، ثم إلى الأردن ومصر ففلسطين، إنما كان «عبوره» على الطريق «العربي» من اليمامة إلى خيران في وادي الدواسر، وذلك قبل أن يتوجه حاجاً إلى مكة حيث رمم بيتها العتيق وسوّى كعبتها مع ابنه إسماعيل!

وهكذا، نجد الكل يفسر الأسماء والطرق كما يستسهل أو يحلو له. هناك من قال (ابن مسعود)، مثلاً، إن «بابل» أرض الكوفة بالتحديد مع العلم أن الكوفة لم تكن موجودة قبل القرن الثالث الميلادي، أو قبل ظهور المناذرة.. وستكون لنا لاحقاً ثمة اقتباسات عن ألسنة باحثين آخرين في السياق عن ضواحي «أور» و«أور- ارتو» و«أور- فة»، و«مكة» و«بكة»، و«أورشليم» و«أورشاميم» وغيرها.

وبالعودة إلى الرواية الكلاسكية ومواصلة الأخذ بموطن أبرام على أنه من «أور» العراقية، وعلى أن تاريخه تبعاً لإجماع التوراتيين كان فعلاً بين ٢١٠٠ - ١٨٠٠ ق.م، فلربما يكون أبرام قد اضطر وقومه إلى الرحيل عن «أور» بسبب هجوم الأموريين عليها، سيما أنها كانت تنعم قبل ذلك بالرخاء والعمران بدون توقف على مدى ٢٥٠ سنة. لكن حتى هذا الاحتمال يبقى ضعيفاً برأي بعض المدققين كسبب لرحيل أبرام عن مسقط رأسه. ذلك أن الأموريين لم يحكموا «أور» أو سومر فقط، بل حكموا على كل بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين لغاية ١٦٠٠ ق.م. فما الجدوى من هروب أبرام من طريق ملك أموري ظالم يحكم

على كل مواقع العبور والملاذ من الشرق إلى الغرب؟[١] أما إذا نظرنا إلى «حقيقة» سبب خروج أبرام من «أور» - حسب العهد القديم - فنجد أن الربّ قال له بالحرف: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ» (تك: ١٢: ١). الأمر الذي يعني، إما أن «أبرام» هذا كان شخصاً آخر غير الذي أخذ أباه وعشيرته معه! أو أنه كانت هناك وجدانيات عميقة دفعته للرحيل على خلفية خلاف عقائدي مع أبيه - حسبما يدلل البعض على ذلك من خلال ما ورد في القرآن: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

صراع الأجيال

وعلى هذه الآية التوضيحية القرآنية، فإن أبرام ربما كان قد ملّ وسأم عِبادة عشرات الآلهة الجامدة، أو أنه لم يعبدها قطّ، أو أنه استدرك زيفها وخيبتها. إذ إنها في ثقافة عصره كانت مشابهة لصورة الإنسان من حيث الغرائز ورغبات العيش والحب والكره والغيرة والمنافسة والتصارع إلخ. ومن نقاشاته مع أبيه وسلطة عصره عن مسائل البعث والخلود وعن شروق الشمس ومغيبها، استنتج أبرام ضرورة التعبّد لإله واحد يُحي ويميت... إله يكون فوق النزعات والغرائز الإنسانية، وأكبر من الكون الذي يضم كل النجوم والكواكب، وأعمق من المحيطات وأعلى من سقف الفلك والفضاء معاً؛ فاختلف مع أبيه على وثنيته وعبث التعبّد الأعمى على معتقدات الأجداد والسلف .﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ (٥٢) ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾ (٥٣) ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء]. ثم إنه وجد أبيه مطيعاً لنمرود، ملك الزمان، بدون مسوغ أخلاقي أو فطري. (هذا مع العلم أن القرآن لم يذكر نمرود بالإسم)...

(١) وهذا سؤال سيتكرر مع خروج موسى من مصر لأن حاكم مصر كان أيضاً حاكماً للمناطق الكنعانية التي هرب موسى اليها ما يجعل الرواية ضعيفة على ماسورة المنطق.

وباستثناء روايات التراث الديني وقائمة الأمم في العهد القديم التي أوردت «نمرود» ملكاً في عصر أبرام (البدء ١٠:٨-١٢)، لم نجد في السجلات الرافدية ملكاً آخر يشبهه أو باسمه أو بجيرته أو بعصره. لم نعثرعلى حاكم بهذا الاسم من ضمن لائحة الأُسر وتاريخ السلالات التي حكمت سومر وأكاد وبابل والجوار(١). وإذا أخذنا فعلاً بتاريخ إبراهيم التقليدي، فلا بد أن يكون قد سمع عن الملك الأكادي العظيم سرجون، خاصة أن تاريخ الملك كان قبل عصره بقرون قليلة، ونقوشه وسمعته وذكرياته ما تزال حاضرة ناضرة بارزة في أذهان الناس وفي البيئة والجوار، كما لو كنا نتحدث اليوم عن تاريخ محمد الفاتح، مثلاً، أو سليمان القانوني، على سبيل التقريب.

أما مَن كان حاكماً على «أور» في زمن أبرام الافتراضي، فالأرجح أنه «أبي سين» آخر ملوك سلالة «أور» الثالثة، (المفارقة أن اسمه يبدأ أيضاً بـ «أبي» كناية عن الأبوة!). وحسب علماء السومريات، انتهى عهده بانتهاء الإمبراطورية عندما تعرضت للهجوم الشرس من قِبل الأموريين. فسقطت المدن السومرية تباعاً ولم يبقَ له منها بنهاية مُلكه سوى مدينة «أور». لكنها هي أيضاً سرعان ما سقطت بأيدي قبائل جبال زاغروس التي خربتها ونهبتها ونقلته أسيراً مسبياً إلى منطقة عيلام المجاورة حيث توفي في تاريخ غير معروف. لذلك لا يمكن لـ «أبي سين» هذا أن يكون هو نفسه الملك «نمرود» الذي عاصره أبرام وحاوره في فلسفة الخلق. وعلى افتراض أن أسطورة «نمرود» تحمل بذور واقع من شيء قديم، فأغلب الظن أنه كان في مكان أو زمان آخرين غير مكان وزمن إبراهيم، وهو ما ينسحب بالاستنتاج على أسطورة أبرام أيضاً كونهما اسمين لشخص واحد (أبرام وإبراهيم). وسواء ظهر أبرام في عصر النقوش القانونية

(١) ورد اسم «نمروت» لأول مرة كإبن لملك مصر «شيشنق» بعد ألف سنة من عصر إبراهيم. لكن لا نعرف كل السجلات المطمورة بعد؟ إنما الملفت في وجود إسم «نمروت» في السجلات المصرية وليس السومرية أو البابلية أن المؤرخ الشهير «مونتيه» أخبرنا أن أسرة الفرعون شيشنق تعود إلى أصل بابلي دون أن يقدم أي دليل علمي!

المعروفة باسم مدونة «أور- نامو» آنفة الذكر (٢٠٥٠ ق.م) أو بعد مدونة حمورابي (١٧٥٠ ق.م)، فيكون في الحالتين قد اطّلع على أحكام الشرائع الأخلاقية واستوعب قوانين العدل والحكم والإدارة والفرائض.

وإذا صحّ السياق عن سبب نزوح أبرام من «أور» بسبب الاختلاف العقائدي مع أبيه، فهو حتماً لم يكن الأول الذي اختلف مع والده وخالف أوامره، وليس الأخير الذي خاصم والده على اعتقاده أو إلحاده عن المألوف. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٧٤). مفسرون كثيرون قالوا إن اسم والد أبرام «آزر» هو «تارح» بالسريانية (مع العلم أن السريانية لم تكن قد ظهرت بعد أيام أبرام)، وهذا ما يظهر التباين حول الاسم بين التوراة والقرآن.

أما صراع العظماء والفلاسفة مع آبائهم، فأمر مألوف في مواقع كثيرة من التاريخ. الاختلافات بين آراء الأجيال ونظراتهم إلى أمور الحياة تؤدي إلى توتر عائلي وحتى إلى صراع مفتوح. والأمثلة في التاريخ لا تحصى، لكن أبرزها مثال المؤرخ هيرودوت (هيرودتس) الذي كانت له خلافات مكشوفة وعويصة مع والده «لايكس» حول ميول هيرودتس ومعتقداته واهتماماته العلمية. الإسكندر أيضاً كانت له علاقة معقدة جداً مع والده فيليب الثاني ملك مقدونيا. وقد زعم البعض أنه احتل العالم تنفيساً عن غضبه الدفين وغيظه من والده. سقراط أيضاً كانت له علاقة متوترة جداً مع ابنه «لامبروكليس»، حسبما ورد في حوار له مع أفلاطون. أما أرسطو، فقد كانت له، هو الآخر، علاقة معقدة مع والده «نيكوماخوس». كذلك وجدنا أرخميدس يعانى من علاقة صعبة ومربكة مع أبيه «فيدياس». وقد تكون - بزعم البعض - هي التي دفعته للهروب إلى تجاربه النائية الخلّاقة في الرياضيات والفيزياء. ديكارت أيضاً كانت له مع والده «يواكيم» علاقة مضطربة طويلة ومؤلمة. أراد الأب لابنه أن يتابع مهنة المحاماة لكن ديكارت فضّل الرياضيات والفلسفة عليها؛ فغادرة المنزل مكسور الخاطر ومضطرب العقل بسبب اختلال التوازن بين إرضاء أبيه وإرضاء نفسه.

المفكر العظيم كانط، كان أبوه «يوهان» استبدادياً، هو الآخر، صارماً في تنشئته. تسببت اختلافاتهما في المزاج والنظرة إلى الحياة بصراع مرير وطويل دفعت كانط إلى هجر مسقط رأسه والبحث عن رأس جديد يفكر به! نيتشه أيضاً لم يسلم هو الآخر من علاقة مرتبكة ومهزوزة مع والده «كارل لودفيغ»، خاصة بسبب معتقدات والده التقليدية، ما أدى إلى القطيعة المؤلمة بينهما والإلحاد.

هذه مجرد نماذج واقعية سريعة تسلط الضوء على أنه حتى الحكماء والفلاسفة والعظماء واجهوا تحديات وصراعات داخل أسرهم، غالباً بسبب الاختلافات في القيم والمعتقدات والطموحات الشخصية رغم تنوع نشاطاتهم وحقبهم. صحيح أنني لم أعثر على تفاصيل محددة حول الحياة الشخصية وصراعات حكام سومر مع ذويهم من فترة أبرام، إلّا إني وجدت بعض المعلومات حول حكام كبار لحضارات لاحقة مثل علاقة أشوربانيبال التعيسة بأبيه «نابوبولاسار» (٦٦٨ ق.م). ونبوخذ نصّر (٥٥٠ ق.م)، وكان معروفاً بسوء العلاقة مع والده «نبوبو لصّر» حول آفاق الطموح بينهما وحول أساليب السيطرة وتطبيقات سياسة «الغاية تبرّر الوسيلة»[1].

(١) هي سياسة تعود إلى كعب التاريخ ولم تظهر قوة إلّا وكانت قد كرستها في ممارستها لتحقيق السيطرة وتأمين السيادة، ولم يكن لميكافيللي سوى الإضاءة عليها وإعجابه بها.

الفصل السادس: مشوار المشاوير

الحِمل ثقيل والدرب طويل

بالرجوع إلى الرواية الكلاسكية مرّة أخرى، وبصرف النظر مبدئياً عن الأسباب الحقيقية لنزوح أبرام، فإن مشواره من «أور» إلى «طيبة» عن طريق «حاران» كان بعيداً وعسيراً. إنها «لفة» طويلة تفصل بينهما مسافات شاسعة وتضاريس صعبة. لم تكن هناك في زمنه طرق بريّة بسيطة مباشرة تربط بين هاتين المدينتين القديمتين. كان السفر بين المواقع البعيدة في العصور القديمة ينطوي على صعاب حياتية جمّة، ومخاطر لصوصية جدّية، ومواجهات ثقافية مختلفة، فضلاً عن العقبات الطبيعية. أغلب الظن أن أبرام لم يستعمل طرقاً جانبية أو طرق البدو الرحّل، بل سار باتجاه امتداد نهر الفرات، وكان يحمي نفسه بالمشي على طول طريق التجارة الرئيسي عبر الهلال الخصيب. كان ذلك هو الممر المألوف المعمول به آنذاك، والذي ينتهي بالسواحل السورية - الفلسطينية على المتوسط. ومع أن الطرق لم تكن مُسوّية جيداً في تلك العصور، لكن نقاط الحراسة ومحطات الاستراحة عليها كانت كفيلة بتخفيف العناء لاستعادة الأنفاس والتزود بالماء والطعام. نقاط لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى أكثر من سويعات في الطقس المعتدل، وهو ما لم يتوفر بين الواحات في الطرق الصحراوية.

قد يستهجن البعض أن تلك الطرق الزراعية منذ ٤٠٠٠ سنة كانت مجهزة بـ«إشارات مرور» رسومية ومعالم واضحة لتحديد الوجهات الرئيسية والمسافات والاتجاهات عند مفترقات طرق القوافل. كان التنظيم كافياً ليساعد التجّار سلفاً

على أخذ الحيطة والحذر. والواضح من معالم ذاك العصر (من خلال النقوشات والرسومات ومعروضات المتاحف) أن وسائل التنقل كانت بدائية تعتمد أساساً على السير على الأقدام والحمير. وليس واضحاً - كما أسلفنا - ما إذا كان السومريون والأكاديون قد دجنوا الجِمال في تلك الحقبة أم بعد، خاصة أن نقوشات النحّاة لغاية ١٩٠٠ ق.م كانت تشير فقط إلى المواشي والدواب. هذه طبعاً بالإضافة إلى الكلاب التي كانت مروّضة في سومر من قبل ذلك الوقت بـ ٣٠٠٠ سنة على أقل تقدير.

صحيح أن الإبل ذُكرت في العهد القديم في سياق سيرة (إبراهيم) وعصره، إلّا أن المسألة لا تزال موضوع نقاش شديد بين الأركيولوجيين والعلماء والتوراتيين. بعض العلماء يعتقد أن كلمة «الإبل» في التوراة قد تكون استعيرت لحقبة (إبراهيم) بأثر رجعي من حقبات لاحقة، مما يعني أن الرواية الإبراهيمية في «العهد القديم» كتبت في وقت لاحق لحياته. والأرجح أن كلمة «إبل» أدخلت على النصوص حين صار الجمل مستئنساً مألوفاً في عصر الكتبة والنّساخ، ربما بعد السبي. أما من الناحية التاريخية العلمية، فيُعتقد إجماعاً أن تدجين الإبل حدث متأخراً في القرن التاسع قبل الميلاد لكن في منطقة نجد الجافة، وليس في بلاد ما بين النهرين الخصبة. والأغلب أن أبرام لم يكن صاحب جِمال ونوق، وإن كان ميسوراً، بل ربما كانت عنده بضع عربات تجرّها ثيران أو بغال أو حمير. والعربات في ذلك الزمن كانت ذات عجلتين يشاكسهما فصل الشتاء بالوحل والطين، فتعيق التجّار وتجهدهم. أما الخيول، فكانت في عصر إبراهيم توها حديثة الاستئناس وحكراً على المحظيين والعسكر والحكام فقط. وفي جميع الحالات ليس لدينا بحث علمي واحد بإجماع مؤكد يشير إلى تاريخ استئناس الحصان والجمل أو مواقع بدء استعمالهما في الشرق الأدنى. هذا مع العلم أن العربات العسكرية المجرورة بالخيل ظهرت لأول مرّة في مصر مع هجوم الهكسوس قرابة ١٦٥٠ ق.م، أي بعد قرنين ونيف من زمن إبراهيم وعرباته - على افتراض أن تاريخه التقليدي صحيح؟

معظم الأشياء مع جماعات التنقيب والبحث مقبول ومرفوض في نفس الوقت! ليس منا، بل من أنفسهم وذواتهم ودوائرهم. فمن مطلع الصفحات الأولى ذكرت - على سبيل الاستشهاد - أن البُحّاث لم يستطيعوا تحديد أعمار أشياء كثيرة ماثلة حية أمامهم منذ أن شُيّدت وقامت، كمجسم أبي الهول، مثلاً، فكيف لهم أن يحددوا تواريخ عجلات مبعثرة وأعمار عظام رميمة لحيوانات الجرّ والطاقة، كالجمل والحصان والثور؟ أما الاعتماد على النقوش الرافدية والجدرانيات وحدها، فلا يكفي لتحديد وجود الإبل من عدمه لأنها لم تصوّر كل الحيوانات من جهة، ولم تكن كل الحيوانات مدجّنة في نفس الوقت من الجهة المقابلة. أغلب الظن أن هذه الحيوانات لم تكن متوفرة أو منتشرة في ذلك العصر بأمارة عدم ذكر الفلكيين السومريين برج الجمل والحصان، ربما لأنهما لم يكونا قد ظهرا على نحو تجاري بعد.

مسافة بلا عَدّاد

في طريقه إلى حاران، ومن أواسط الفرات، كان أبرام يعرج إلى الواحات المجاورة لأيام معدودة، ويتوقف في المدن القديمة على الطريق لأسابيع طويلة. كانت المناطق بين «أور» و«طيبة» بمثابة أراضي «اللا أحد» (العدم) الفاصلة بين حضارتين متميزتين وقويتين: الأولى مسمارية قمرية والثانية هيروغليفية شمسية. وكما عزز دجلة والفرات مكانة التجارة والنقل في بلاد ما بين النهرين، لعب النيل أيضاً دوراً مركزياً في تألق مصر القديمة على جنب المتوسط. كانت ثقافة القوارب جامعةً عند الطرفين، والسفن كانت عندهما وسيلة قديمة وشائعة للتنقل والتجارة في الحضارتين. وقد ورد في الكثير من المصادر ما مفاده أنه كانت هناك خطوط بحرية عريقة، ليس فقط في المحيط المحلي لكل من الحضارتين مثل الخط البحري بين ساحل كنعان ومصر، أو بين ساحل بلاد سومر ومجان، بل أيضاً كانت هنالك خطوط بحرية قديمة ومباشرة بين سومر ومصر تعود إلى زمن ما قبل الطوفان وإلى مرحلة القوارب

القشية والقصبية. كانت قعور هاتيك المراكب الداخلية تُحمى من البلل بدهون الحيوانات وبقايا التمور والقار الطبيعي.

ومع تطوّر النجارة والحدادة وخلطة والقار والزفت وتمتين الحبال القصبية، أبحرت الفلائك والمراكب والقوارب والسفن من مرسى أوراك وأخذت طريقها إلى المرافئ الربانية التي شكلتها الطبيعة بمعزل عن جهد البشر، أبرزها: الدلمون - رأس الخيمة - مضيق هرمز - خرفكان - صحار - مسقط - قريات - صور- مصيرة - خور روري - صلالة وباب المندب. وعبر هذا المضيق اليمني كانت السفن تبحر في البحر الأحمر باتجاه الرياح شمالاً بثقة ومهارة إلى ميناء «القصير» على الساحل «الإكيبتي» (إيجبت). ومنه، كانت المسافة إلى صعيد مصر (طيبة) هي الأقصر بأمارة اسم الميناء نفسه. والأكيد أن ميناء «القصير» لم يكن معروفاً آنذاك باسمه العربي المعبّر عن قصر المسافة هذا، كما لم يكن قد طُوّر جيداً قبل عصر الملكة حتشبسوت (١٥٠٨-١٤٥٨ ق.م)، لكن اختياره دون غيره من الموانئ كان بالتأكيد بسبب تمثيله لأقصر المسافات بين البحر الأحمر وصعيد مصر. لذا كان الميناء حيوياً للحركة الملاحية في البحر الأحمر منذ زمن «قام وقعد»، بالأخص منذ أيام الأسرة الحادية عشر في عصر منتوحوتب الثاني ومنتوحوتب الثالث، وكانت عاصمتهما يومئذٍ مدينة «طيبة» في صعيد مصر. ذلك العصر تحديداً، بين الملكين (**٢١٣٤ إلى ١٩٩١ ق.م**)، كان أقرب فترة واقعية وجدتها لحقبة أبرام الافتراضية عند أقصر طريق للوصول من «أور» السومرية إلى «طيبة» المصرية فيما لو كان السفر قد تم عن طريق البحر.

هنالك دراسات عديدة ووافية بينّت بإسهاب أن ذاك الإبحار لم يكن فقط سهلاً ومريحاً من طرفي الرحلة، أي في الخليج العربي والبحر الأحمر، بالنظر إلى وجود موانئ ومحطات للراحة والتزود، بل كان الإبحار أيضاً منتظماً ودورياً باستثناء مواسم الأعاصير الهندية والرياح الخماسية. فقط في جنوب الجزيرة (بين صور العُمانية وباب المندب) كان العوم مجازفة في المواسم

الأعاصيرية بسبب أرياحه العاتية وخطره الداهم وقلة المحطات السهلة للاحتماء بها. ورغم ذلك، فالرحلة على صعوبتها في منتصف الطريق الموسمي، كانت تستغرق نحو ٣ أشهر بدون توقف أو ٤ أشهر مع بعض التوقف. وكانت على دفع الرياح المُساعِدة تصل أحياناً إلى مصر بغضون شهرين ونصف الشهر تقريباً. الملفت في أمر تلك السفن أنها رغم الزمن البالي كانت تحمل ما زنته ١١ طناً من السلع والمواد، فضلاً عن عشرات الركاب بما يجاوز المئة راكب عدا الطاقم. أما المسافة من الأهواز (مرمى حجر من أريدو وأور وميناء البصرة في العصور المتأخرة) إلى باب المندب بحراً، فتقدر بنحو ١٠٥٠ ميلاً بحرياً، ومنه إلى ميناء القصير ٨٨٠ ميلاً، أي ما مجموعه بالكيلومتر أرضي (١٩٣٠ × ١,٨٥٢) = ٣٥٧٥ كلم. وهذه حِسبة واقعية لا تدخل فيها مسافات التيه والتعرج بالنظر إلى تراكم خبرات الإبحار...

بين البر والبحر

ما يتضح من السجلات في عهد أبرام أنه كانت هناك تفاعلات حيوية واضحة بين الحضارة الهندية والرافدية والمصرية بسبب تجارة الأصباغ و«الطابوق» والنحاس والتوابل والبخور والزخارف، فضلاً عن أسباب الهجرة التقليدية. ورغم التكهنات التي نحن بصددها ونتصوّرها عن الطريق المحدّد الذي سلكه أبرام، فإنه ما زال موضوع تأويل وتفسير ديني وتاريخي وثقافي، إذ ليس هناك بعد ما يدلّل عليه من خلال التوثيق الدامغ. ومع ذلك، فإن الانطباع الجماعي العام لدى الكثير من التوراتيين والبحّاث أن أبرام قطع من «أور» نحو ١٢٥٠ كلم إلى حاران، ونحو ١٣٢٠ كلم منها متعرجاً إلى عمق سوريا، ونحو ١٣٧٠ كلم أخرى إلى مصر على الطريق الداخلي. ثم عاد من مصر إلى فلسطين بنحو ٣٥٠ كلم. أي إنه قطع ما مجموعه بالتعرجات والوصلات نحو ٤٣٠٠ كلم. وهذه المسافة لا ريب أنها تمثل مشواراً شاقاً على قياس ذلك الزمن. لربما استغرق الطريق ما لا يقل عن ٣ - ٥ سنوات مضنية من الجهد والقلق والجزع.

لكن أبرام لم يكن حاجاً بسيطاً أو عادياً، بل كان على ما يبدو عنيداً ومصّراً على تنفيذ مهمة اختاره الربّ لها وهيأه من أجلها رغم طول الطرق ومشقاتها. البعض يزعم أن إبراهيم كان استثنائياً من جماعة «العماليق» التي تعددت الأقوال فيها شكلاً وخلقاً واختلف العلماء حول نسبها وأصلها، ومنهم من صنّفها من أولاد «عمليق» بن يلمع بن عابر![1] لكن هذا التقدير يبقى ضمن التأويلات الثقافية، والالتباسات التراثية، والتنبؤات الأدبية، التي تستحيل برهنتها. الواضح اليوم أن العديد من المدن التي عرفها أبرام ومقابرها اندثر فيها إلى غير رجعة أي أثر لأي جنس بشري عمليقي خارج المألوف، أو أصبحت الجبّانات مجرد أطلال وخِربات بأسماء مركبة أو مشوّهة. لكن تبقى الطريق من مدينة «أور» إلى مدينة الخليل أيقونة وجدانية وروحية لأتباع الديانات التوحيدية بأشكالها المتنوعة (بما فيها الصابئة) حتى اليوم.

بعد هذا العناء كله والتمادي بالخيال، قد يسأل سائل لماذا لم يركب أبرام إحدى السفن من الميناء المجاور له في آخر الأهواز ويتوجّه مباشرة إلى صعيد مصر، خاصة أن الرحلة قصيرة نسبياً ولا تمثل مخاطر المشوار البري؟ الإجابة قد تكمن في أن الربّ لم يأمره بزيارة مصر عندما أمره بمغادرة «أور»، ولا أبرام قرر زيارتها خلافاً لأمر ربه... ربما خطر على باله في كعب الطريق أن يلجأ إلى أرض الكنانة فقط عندما هبّ الجفاف وانتشرت المجاعة التي قالت التوراة إنها ضربت بلاد كنعان آنذاك. وإن صحّ هذا الافتراض، فتكون الوجهة إلى مصر غرباً بديهية انطلاقاً من بلاد كنعان الجافة. لكن ليس في التوراة ما يشير فعلاً إلى أن المجاعة ضربت أيضاً بلاد الرافدين في نفس الفترة، ما يبقي مشوار أبرام إلى مصر محيراً مقارنة بقصر المسافة فيما لو أراد الرجوع إلى

(١) الكثير من التوراتيين يرجعون نسب العماليق إلى ما بعد إبراهيم وتحديداً إلى ذرية عيصو شقيق يعقوب (إسرائيل)، وكان له مع أخيه عيصو علاقات متوترة. وهذا - بنظر البعض - ما يعلل أوصاف النقمة والحقد والكراهية التي توردها التوراة والإسرائيليون بحق العماليق وبأنعات حط شأنهم وتشويه سمعتهم.

مسقط رأسه عن طريق إبلا. الأرجح ضمن هذا التحليل أنه لم تكن هناك مجاعة في بلاد كنعان عندما وصل إلى حاران، ما كان يبرر مواصلته السفر إلى سوريا بلا احتراز أو عواقب.

وفي جميع الحالات تبدو فكرة المجاعة في بلاد كنعان كأنها كانت الحبكة القصصية التي خيطت على أيدي مؤلفي التوراة. ويبدو أن الغرض من هذه التوليفة كان لدفع إبراهيم للذهاب إلى مصر والربط بين وادي النيل وبين مسقط رأسه في وادي الرافدين، كما لو أن كتبة التوراة أرادوا الإيحاء بالأصول الحضارية العريقة لإبراهيم في مصر وسومر معاً. يكفي، مثلاً، أن تسأل اليوم المسافرين العابرين الغرباء عن مساقط رؤوسهم، فيدعون لك انتمائهم إلى أعرق الأماكن التي سمعوا عنها في أوطانهم، أو من انطباعاتهم عن أماكن أخرى من الجيرة للتباهي بأصولهم من جهة، وأملاً في معاملة معتبرة تجنّبهم الخطر أو الاحتقار من الجهة الأخرى. لكن هناك فريقاً من المؤرخين يدّعي أن زيارة إبراهيم إلى مصر كانت «مهمة رسمية» مدفوعة الأجر من أجداد الهكسوس (أموريين) الذين كانوا قد قضوا على «أور» وأخذوا يتوسعون منها غرباً. فكانت مهمته - نيابة عنهم - التجسس على مصر الجنوبية والوقوف من ملكها (الفرعون) على أوضاع انقسامها بين الشمال والجنوب تحضيراً لغزوها. الأمر الذي يفسّر جولات إبراهيم - برأي البعض - ومهماته المكوكية كسفير دولة عظمى أكثر منه كراعي غنم أو مبشر بإله اسمه «يهوه». لكن كيف نغربل الأماني ونصنّف الأهواء ونرسو على ميناء هادئ وسط هذا المحيط من الرجاء والغموض والأوهام؟

مصائب مصر عند كنعان فوائد!

أساطير التاريخ القديم حافلة بأحداث جيولوجية وكوارث طبيعية وزلازل وأمراض ومجاعات. أما علمياً، فالسجلات التاريخية الكوارثية المتوفرة عن الشرق الأدنى في عصر إبراهيم المفترض، لا تُوحي بأحداث أو مصائب رهيبة إطلاقاً. كل ما لدينا عن كوارث وخضّات كبرى في المنطقة يعود إلى فترة موثقة

لاحقة، وتحديداً إلى بركان «ثيرا» الأسطوري في جزيرة كريت (سانتوريني) ١٦٠٠ ق.م. وغالباً ما يربط بعض المؤرخين ثوران البركان الأسطوري هذا بمصائب مصر التوراتية رغم عدم توافق التواريخ.. الانفجار كان من الهول والروعة بحيث أن آثاره تعدّت منطقة بحر إيجه ووصلت إلى قلب مصر وتسببت بعواقب بيئية وخيمة. من أشكالها المتعددة سقوط «أمطار رماد وغبار» سامة واضطرابات مناخية وبيولوجية على شاكلة ما سببته كارثة «تشيرنوبل» في ربيع عام ١٩٨٦م!

صحيح أن تاريخ ثورة البركان ما زال موضع بحث مستمر ونقاش علمي حاد، لكن حدوثه قُدّر بشكل عام في القرن السابع عشر قبل الميلاد بالنظر إلى قرائنه وآثاره الحسّية، سيما عند الحضارة المينوية المجاورة. كان هناك أيضاً خراب سدوم وعمورة، لكن لأسباب «عقابية ربانية» وليس بسبب جفاف أو مجاعة أو بركان - كما ورد في التوراة. ومع أن الكثيرين من العلماء والجيولوجيين والمهتمين التوارتيين نقبوا في محيط البحر الميت طويلاً وعميقاً، لكنهم لم يُجمعوا على شيء مبرم يُبنى عليه. بل رغم لجوء بعضهم إلى صور الأقمار الاصطناعية والمسّاحات الإلكترونية كما في حالة الباحث البريطاني ديفيد رول، مثلاً، فإنهم زادوا الطين بلة ووضع بعضهم خراب سدوم وعمورة بحدود ١٨٣٠ ق.م بدلاً من زمن ثيرة ١٦٠٠ ق.م. فبينما يخدم التاريخ الأول رواية إبراهيم ويضعه في مكان قريب من سدوم بحيث يتسنى له إنقاذ ابن أخيه لوط، يخدم التاريخ الثاني رواية الكوارث (الضربات) التي تعرضت لها مصر في زمن موسى[1]. لكن في الحالتين يتطلب الأمر من المؤرخين تسوية الحِسبة الزمنية وتجليسها على منطق الأحداث لأن الفرق بين عصر إبرهيم وعصر موسى يجاوز ٥٠٠ سنة على أقل تقدير؟

---

(١) هي الضربات المذكورة في سفر الخروج - الأصحاحات ٧ إلى ١٠ - من أجل إقناع الفرعون السماح لبني إسرائيل مغادرة مصر مع موسى، وهي مذكورة أيضاً باختصار في القرآن.

من الجيولوجيين أيضاً من أرجع خراب المدينتين إلى عصر آخر كلياً وإلى نيزك قضى عليهما أو زلزال ضرب عمق البحر الميت في زمن حشروه عملياً مع فترة مجهولة غامضة من تاريخ الحضارات المجاورة. وربما - حسب البعض - قورب تاريخ الدمار مع فترة خروج موسى الافتراضي من مصر (١٢٥٠ ق.م) ومع تاريخ خراب طروادة المفترض، فضلاً أيضاً عن التاريخ الافتراضي لزحف 'شعوب البحر' (فلستينيين- بيليستيين؟) من جزر إيجة والمتوسط مثل قبرص وكريت وسكسوس ووابية وليسفوس ورودس إلى شواطئ الساحل الكنعاني واختفاء أوغاريت وأخواتها. الملفت أن هذه «الحقبة السوداء» وافقت أيضاً زمن الصدام الحاد بين البابليين والأشوريين من جهة الشرق، وانعزال الحثيين وتقوقع المصريين من الجهة الأخرى.

حقيقة الأمر أن تلك الحقبة غامضة جداً بإجماع المؤرخين لأسباب لم يُعرف منها بعد سوى أن الكلّ كان منشغلاً عن التاريخ بأزماته وصراعاته الداخلية. كانت فترة مثالية للهروب من أعين الكل ومن تسجيلات الزمن، فيما كان الكل منشغلاً بحاله وبعزلته! هناك من المؤرخين المعاصرين مَن وصف غموض تلك الحقبة بـ «الثقب الأسود». إلّا أن مفكرين توراتيين رأوا فيها مرمى مثالياً لتسديد أهدافهم على نقادهم. وهنا نرى الدليل الصارخ كيف يمّطون التواريخ أو يزمّونها ليطابقوها حسب الأهواء والمآرب. لعل الدليل العلمي الأمتن لدى دوائر الأختصاص عن كوارث فظيعة في المنطقة هو ما يتعلق بحدوث جفاف طويل هائل ضرب معظم بلاد الشرق الأدني وسُمّي علمياً عصر «٤,٢ كيلو» أو «الجفاف الشديد» في التغير المناخي الكبير. وقد شهد هذا الحدث انتقالا من مناخ أكثر رطوبة نسبياً إلى أكثر جفافاً في مناطق مختلفة حول العالم، بما في ذلك أجزاء من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط وشرق آسيا. أدى ذلك المناخ إلى حالات جفاف طويلة الأمد، وتلف كبير في المحاصيل، واضطرابات في مختلف الحضارات القديمة، مما يكون قد ساهم في التغيرات المجتمعية والهجرات الشهيرة خلال

ذلك الزمن. تلك الفترة كانت كناية عن زمن قَدْرُه **٤٢٠٠** سنة من وقتنا المعاصر. أي ما يضعه بحدود **٢٢٠٠** ق.م، وهو تاريخ سابق لزمن إبراهيم وسدوم وبركان «ثيرا» معاً، حتى ولو تصورنا استمرار الجفاف بضعة قرون بلا انقطاع. بعض العلماء افترض جدلاً أن هذا الجفاف الحقيقي تسبب في انهيار المملكة القديمة في مصر والإمبراطورية الأكادية في بلاد ما بين النهرين، وأثّر سلباً على حضارة وادي السند، وربما قضى عليها بسبب انهيار التجارة معها. لكن حتى هذه النظرية العلمية العريضة لا تجذب إليها إجماعاً بين العلماء، بعضهم مستشهداً بأدلة على أن الحدث، كالطوفان، لم يكن عالمياً ولم يحدث في جدولٍ زمنيٍ محدد أو واضح.

طوفان أم فيضان؟

من المحتمل جداً حسب إجماع الروايات أن تكون فيضانات عديدة قد حصلت في مواقع تجري فيها الأنهار أو تحدّها البحار. السُومريون تحدثوا عن حدوث طوفان عظيم. كان ذلك واضحاً من مراجعات الأرشيف المكتشف في «إبلا»، المدينة السُورَاقية، حيث يعود تاريخه فيها إلى **٢٣٠٠** سنة ق.م، أي إلى أكثر من ألف سنة قبل ظهور التوراة أو نزوح موسى. وإذا كان طوفان السومريين أقدم ما ذُكر كتابةً عن الفيضانات، فإن أشهرها بلا منازع «طوفان نوح». قيل إنه حدث في حقبة **٢٧٠٠** سنة ق.م بسبب تدفق الأمواج العاتية وارتفاع مياه الأنهر المفاجئة وانفجارات الينابيع الشديدة وهطول الأمطار الغزيرة مرّة واحدة. وقد أُعيدت مضامين هذا الفيضان المرعب في طوفانات متعدّدة بعد ذلك، سواء في الصين كما جاء في «كتاب التاريخ» عندهم في العام **٥٠٠** ق.م، أو في غيرها من البلدان. وهنا، الرواية الصينية شبيهة من حيث إن إمبراطوراً عظيماً اسمه «ياو» أنذرته الآلهة أيضاً بطوفان عظيم يصل ماؤه إلى السماء. لكن إرادة الحامي الأعظم المتمثلة بقوة الإمبراطور حالت دون هلاكه، فقام بتأسيس أول إمبراطورية على وجه الأرض قرابة العام **٢٣٤٨** ق.م.

وهكذا، فإننا نرى المياه تفيض من حضارة فانية إلى أخرى نامية، ومن نهر إلى آخر. ففي إندونيسيا، حيث العُرف الشعبي فيها أن الأرض ترقد على ظهر أفعى يُسمّونها «فاغا بادوها»، تنفض الأفعى الأرض وترميها إلى البحر. لكن الإله «باتارا غورو» يُنقذ البشرية المُمثلة ببنت له من خلال بناء جبل ضخم وسط البحر لينتشل الإنسان منه ويُنقذه إلخ! وكموضوع الإجماع على وجود جَنّة من نوع ما، فإن الأمثلة المُشابهة للطوفان سواء في الشكل أو المضمون أو السياق، تتعدّد باختلاف الحضارات القديمة وتنتقل على وجه الأرض كانتقال مفهوم الجنّة من نيوزيلندا إلى ماليزيا إلى جزر هاواي وحتى إلى شعوب المايا وإلى قبائل الإسكيمو. كل لديه جنّته!

أغلب الظن أن مُتحجرات الأسماك والآثار البحرية والصفدية المكتشفة على اليابسة في أعالي الجبال هي التي ألهمت هذه الشعوب على استنباط فكرة الطوفان العظيم، فحيكت القصص حوله تفسيراً أو تبريراً لاستمرار الوجود. بل لعَلّ الشُهب والنيازك التي تم اكتشاف حدوثها منذ آلاف السنين، أدّت إلى ارتفاع أمواج البحار والتسبّب في تسونامات ضخمة كان لتناقل أخبارها عند الناجين فعل المبالغة الأسطوري. وهنالك من العلماء مَن يُروّج لفكرة حدوث تسونامي عظيم في البحر الأبيض المتوسط قديماً سبّبه اندلاع بركان «ثيرا» في العام ١٦٠٠ ق.م كما سبق وذكرنا. إلّا أن الوقائع الجيولوجية والطبوغرافية لا تثبت ذلك بالإجماع، كما لم يؤثر البركان على سكان اليونان المجاورة، ناهيك عن بلاد ما بين النهرين الأبعد.

هناك مَنْ يزعم أن ثمة نيازك ضخمة هَوَت في المحيط الهندي نحو ٢٨٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م. وقد أحدثت فجوة عظيمة قطرها ٣٠ كلم، وقيل إنها أدّت إلى ارتدادات جبّارة تسببت في طوفان عظيم على سواحل المحيط الهندي. ولا بد لذاك التسونامي العظيم أن نقر في ذاكرة الشعوب إلى أن ترسخت آثاره لدى أقدم الحضارات فيما بعد، يُقال إنها تعود إلى بناء أول مُستعمرة زراعية إسمها «إرضو» في جنوب العراق (٦٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق.م). ومع تطوّر اللغة

والكتابة في حقبة السومريين، حُفظت الرواية مع البشر الأوائل وأخذت أسطورة الطوفان تتسرب إلى سيكولوجية الشعوب اللاحقة وتؤثر على ذهنياتها كما رأينا في نصوص جلجامش. وهي أدبيات عامة كانت تُؤرّخ أساساً لأساطير سبقتها بنحو ٥ آلاف سنة على أقل تقدير، لكن لم يُذكر فيها شيء خاص عن أطلال طوفان وقمم معينة في جزيرة سُوقطرة أو صنعاء أو كردستان، ولا في أرمينيا أو سريلانكا أو نجد أو الحجاز - على صعيد الملاحظة العابرة

هذه الدورة البيئة الجيولوجية حشروها لنا وأقحموها علينا فقط ليقال من خلالها إن إبراهيم لم يترك «أور» بسبب الجفاف الفظيع لأنه لم يكن قد وُلد خلاله أساساً. ثم إنه لم يغادرها بسبب مجاعة أو قحط لأن الله طلب منه المغادرة قبل حدوث أي منهما أصلاً، كما رأينا، ناهيكم أن سدوم وعمورة لم تخربا بسبب مجاعة، بل لكارثة ربّانية - تبعاً للراوية التوراتية.

فطرة وطهارة

ما تقدم كان مجرد لمحة سريعة عن المشهد البيئي واللوجستي لغرض تنشيط المخيلة وتحفيز الهمة على متابعة رحلة (إبراهيم). أما الخلفية الاجتماعية والثقافية، فهي لا تقل إثارة ومتعة؛ عندما غادر أبرام «أور» فجأة، غادرها مع أبيه (تك ١١ : ٣١) وعائلته باتجاه الأرض الموعودة، وكان عمره يومها ٧٥ سنة، وعمر والده ٢٠٠ سنة - حسب الرواية الرسمية. ومن نصوصها الملفتة أيضاً أن أبرام لم يحب (أو يعشق) طيلة حياته الطويلة سوى امرأته سارة. لكن ينبغي الانتباه هنا إلى أن الزواج من امراة واحدة كان العرف الدارج في تلك الأيام. الاستثناء كان ينطوي فقط على «أسباب قاهرة» تعيق استمرار النسل في حالات عدم قدرة الزوجة على الإنجاب، أو سوء أخلاقها، أو الإخلال بإطاعة زوجها إلخ. وهنا نرى اختلافاً جوهرياً عن قول القرآن في أمر المغادرة، حيث ورد فيه أن تارَح (آزر) هو الذي طلب من ابنه أبرام أن يغرب

عن وجهه بسبب رفضه عبادة آلهة أجداده. ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم: ٤٥).

كان تارَح - استطراداً لنشأته ونسبه - ينتمي إلى عرق من الساميين يرجعون بأسلافهم إلى فجر الوجود البشري بعد الطوفان، ولديهم طقوسهم في عبادة الأوثان. كانوا قد استقروا في مدينة «أور» ألفيةً كاملةً قبل عصر أبرام - وربما عاصروا الطوفان أو كانوا من الناجين منه. وقد فهمنا من التفاسير الإسلامية عدم اقتناع أبرام بأي من العبادات السومرية منذ كان صبياً. بل الأرجح أنه كان أول من نبذ عبادة الأصنام ودعا لرب واحد عظيم. وحسب التقليد، لم يكن أبرام ممسوحاً بأي من معتقدات بلاد النهرين الكثيرة، ومنها ديانة لأقلية انفردت باحتقار الوثنية وبرزت في نبذ المجسمات والأصنام وانتشرت بالوسط الجغرافي بين «أور» والأهواز. والملفت أنها نادت بإله واحد وعرفت بجماعة «الصابئة» أو الصابئة الحارنية ولاحقاً بـ«الصابئة المندائية». وكانت لها طقوس طهارة صارمة وصلاة وصوم وصدقة وحجّ. وكانوا يعظمون النجوم ويراقبون سيرها والتغيرات التي تطرأ على ألوانها. ولهم مع هرمس الهرامسة علاقة اعتقاد مميز، وكتب الكثيرون عنها، ومنهم من أرجع أصول الصابئة إلى «المعلم الأول» إدريس (هرمس)(١) كأول إيمان توحيدي ودين فطرة وطهارة. ومع أن البعض يدّعي أن اسمهم ارتبط حصرياً بأبرام، أو أن أبرام اقتبس من الصابئة ميلهم للتوحيد، إلّا أن هذه كلها - كغيرها من تفاصيل التاريخ العتيق - تبقى مجرد أقاويل لا قرائن عليها ولا أدلة خارج التقليد والفلوكلور والتراث. لكن من حيث منطق «علم الجهل»، وعلى افتراض أن أبرام كان شخصاً حقيقياً في زمنه ومكانه المفترضين، فهو حتماً لم يكن يهودياً أو نصرانياً لأنه كان

(١) يعتقد البعض أن هرمس هذا هو «هرمس تريسمجست» الذي يعرف عند الدروز بشخصية «إيمكوبية»، الأب الروحي للطائفة، وهو الذي يقال إنه بنى أول هرم مدرج في سقارة مصر قبل خوفو وخفرع ومنقرع بعشرات العقود.

سابقاً لهما، كما لم يكن من المشركين فيما لو كانت الصابئة قد عاصرت نزعته التوحيدية قبل حواره مع الرب ومغادرة «أور»[١].

عادات وأزياء وموضة

هذا عن «ديانة» أبرام، لكن ماذا عن موضة عصره والمظاهر؟ إن ألبسة النساء والرجال آنذاك كانت فضفاضة ومتشابهة تصل إلى ما دون الركبة وحدود الكعب أحياناً. وقد يشاء كلاهما شدّ الحزام على خصره للملمة اللباس وضبّه لجسده، لا سيما أثناء السير والترحال والرياح. كانت المتزوجات إذا خرجن من البيت تحجبن بأوشحة شفافة لإخفاء شعورهن. كما كان لهن الحق شرعياً بارتداء العِبي كعلامة فارقة تميزهن عن الرقيق والبغايا. ومن تقاليد نسوة العصر في المآتم والتقاليع التي كانت دراجة أيضاً في حوض الرافدين، أنهن كن يلطمن على وجوههن بشدة وينحبن بطرق معبّرة جداً، كتمزيق أرديتهن عند الصدور ونتف شعورهن إلى حدود الإدماء والأذية. كان الميسورون من أهالي الميت يستحضرون كهنة وموسيقيين جنائزيين لمراسم الوداع والدفن في توابيت مصنوعة من فخار أو جرار. فيما أموات الشعب كانت تُلف بالحصر القصبية وترمى في مدافن عادية بخراج البلدات بعيداً عن أسوارها. كانت التعازي تتم بلهجة العصر السومرية - الأكادية.

شؤون المرأة عموماً في عصر أبرام كانت متقدمة جداً، إن لجهة الحريات أو لناحية الحقوق، لكن فقط بالنسبة للنساء الحرائر وليس للإماء والجواري ولنساء العبيد. وقد ورد في السجلات أن الصبايا العازبات كانت لهن حقوق الرجس، بمفهوم العهر والعيب والحرام والعربدة وممارسة الجنس، لكن فقط بالمناسبات الدينية أو الوطنية وبمعرفة الكهنة، وربما بممارسة البغاء معهم في زوايا المعابد حيث كان الفحش يجري كنوع من الدعارة المقدسة؛ فالعربدة

(١) من الواضح أن لمدينة حاران خصوصية على صعيد الاعتقاد الصابئي. فهي كانت منذ القدم مركزاً مهماً بمثابة حج إلى اعتقاد توحيدي حنفي معين!

الجنسية للمرأة البالغة الحرّة قبل الزواج كانت تكريماً مشرفاً لها من أجل الإلهة عشتار[١]. وربما في مثل هذا السلوك ما كان قد أثار استفزاز أبرام وحفّز نظرته الأممية حول ضرورة التعقل المميز عن سلوك الحيوان وعن ضرورة الاستكان إلى الفطرة والعفة وكرامة الإنسان. لكن حقيقة الأمر، وبمعزل عن بعض الممارسات المتخلّفة، كان الرافديون في عصر أبرام خلوقين بمعيار تلك العصور، إذ كانت لديهم مقدرة واضحة على التمييز بين الغريزة، وبين العادة، وبين الضمير، كما بدا واضحاً من نقوشهم وقوانينهم وشرائعهم.

إبراهيم ومانديلا

أما بخصوص لسان أبرام نفسه، فلا يمكننا إلّا أن نتكهن لغته لأن أحداً من الباحثين والثقاة لم يحددها على وجه الدقة - هذا على افتراض وجوده من الأساس. الأكيد من إيحاءات التوراة أن إبراهيم كان على الأقل طليقاً بلغة موطنه السومرية، والأرجح أيضاً أنه كان ملماً بالأكادية، لغة الجيرة والاحتلال، فضلاً عن لغة سامية مركبة أخرى (عيلامية؟). وعلى ما يُروّج من التوراتيين، فربما كان ضليعاً بخمس لغات مرة واحدة، منها الآرامية والعبرية! لكن هذه مبالغة لأن هاتين اللغتين لم تكونا قد تطورتا في عصره بعد، وإن نطقت ذريته بهما لاحقاً. ثم إن الكتابة المسمارية معقدة جداً وكانت تقريباً حكراً على نُسّاك المعابد والفلكيين والمنجمين، ولم تكن تتحقق إلّا بالتفاني الشغوف والتمرين المستمر والمراجعة الدؤوبة. ثم إن المسمارية في عهد أبرام (إبراهيم) الافتراضي كانت تحتوي على ما يزيد عن ٥٠٠ إشارة (رسم)، فكيف يكون قد تمكن من حفظ استعمالاتها وهو مشغول بالتبشير والترحال ما لم يكن أساساً نابغة عصره ولامعاً نبيهاً سابقاً لزمانه؟ ومما رشح أيضاً عن مزايا أبرام أنه كان صياداً ماهراً ومقاتلاً شجاعاً وقائداً ملهماً. كان صاحب إرادة فولاذية

(١) تلك الممارسة غير المألوفة لم تكن روتينية ولا مقبولة للمرأة الحرة إلّا مرة واحدة في العمر مشروطة بالإعلان عن الزواج.

وشخصية حديدية وذا نزعة استقلالية نرجسية. كان مفاوضاً بارعاً حتى إنه - حسب التوراة - فاوض الربّ «أدوناي يهوه» في رواية «كبش الفداء»، وفاوض فرعون مصر في مسألة زوجته، وفاوض زوجته سارة في غيرتها من هاجر، وفاوض جاره عفرون بن صوحر الحثي في جبل الكرمل على أرض المكفيلة في الخليل. هذا بالإضافة إلى تفاوضه الماكر على معاهدة سلام مع «أبي ملكي» الكنعاني! وإذا كان لي أن أعطي مقاربة عصرية عن شخصية إبراهيم، مما كُتب عنه من حيث «الكريزما» والحكمة والثقافة والقيادة والدهاء، فقد يكون مانديلا أو غاندي أو مارتن لوثر كنيغ أقرب إليه من أي شخصيات عالمية أخرى حسب انطباعي. بهذه الشخصية الفذة تنقّل إبراهيم من «حاران» إلى بلاد كنعان وأقام شبكة علاقات واسعة مع كبار القوم وحكام المناطق. أجرى اتفاقات مع وجهاء البلدات الرئيسية إلى درجة أن المتابع يستهجن كيف تسنّى له أن يتعبّد ويبشّر ويساوم ويتاجر في نفس الوقت، لا سيما بدون الاستناد إلى كتاب شريعة محدد أو أي شيء غير ما كان عنده من فطرة وإيمان بتوجيهات الربّ.

بحماية «أبيمالك»

للمتابع أيضاً أن يتوقف برهة مع شخصية رجل عتيد آخر التقاه إبراهيم في ترحاله. كان «أبيمالك» من الرجالات الفارقة في حياة إبراهيم. هنا ينبغي ألّا نشتبه به على أنه شخص آخر تكرر في التوراة باسم «ملكيصادق». فالأول ورد اسمه في الفصل ٢٠ من سِفر «التكوين»، وفي الفصلين ٩ و١٠ من سِفر «القضاة» على أنه ملك عظيم لموقع يُسمى «جرار» في أرض النقب. هناك في حضرته ادّعى إبراهيم لأسبابه الخاصة - وللمرة الثانية بعد الفرعون - أن زوجته سارة، هي أخته! والملفت في أمر أبيمالك أنه من القلائل الذين صمتت التوراة عن أصولهم وفصولهم رغم مكانته الرصينة ودوره المحوري مع إبراهيم! أما الثاني ملكيصادق، فورد اسمه ككاهن وحاكم على بلدة اسمها

«شليم» (تك: ٢٠: ١٤-١٨) في معرض مباركته لإبراهيم على فوزه في إحدى معاركه. وكان ذلك قبل أن يتعرف إبراهيم على أبيمالك بفترة وجيزة. والملفت المتناقض هنا أن «شليم» هذه لم تكن قد ظهرت أصلاً في زمن إبراهيم، سواء بإضافة «أور» إلى اسمها أو بقي الاسم «حافاً» على حاله.

المفارقة لا تنتهي هنا لأن ملكاً آخر باسمه (أبيمالك) سيظهر لنا بعد عصر إبراهيم بنحو خمسة قرون في عصر الملك أخناتون، وسنعود لتفسيره لاحقاً! والملاحظ من الحالتين، اللتين ادّعى إبراهيم فيهما أن سارة كانت أخته، أنه ربما كان مأزوماً أو مضطراً لإخفاء هويته لتجنّب ضرر محتمل في الأراضي الأجنبية التي كان يزورها. الأولى كانت مع فرعون مصر كما ورد في (تك: ١٢). والثانية كانت عندما ترك مصر والتقى أبيمالك ملك جرار (تك: ٢٠)؛ «فأخذها إلى مخدعه»، وهو، كالفرعون قبله، وجد سارة جميلة رغم كبرها، إلّا أن الله تدخل في منام أبيمالك ووضّح له حقيقة سارة من زوجها إبراهيم. فقام الملك من صبحه وواجه البطريرك، لكنه سرعان ما تفهّم دواعي خوف إبراهيم بسبب جمال سارة؛ فردها إليه وعوّض عليه ألم التجربة بالكثير من الغنم والبقر والعبيد والجواري على طريقة فرعون مصر. وبعد سوء تفاهم من نوع آخر على الأرض وعلى الماء والمصالح في وقت لاحق (تك: ٢١)، اتفق الرجلان على تسوية خلافهما على «بئر سبع»، الذي كان قد حفره أساساً جند إبراهيم وعبيده. وبموجب اتفاق الصلح تنازل أبيمالك عن البئر لإبراهيم بصورة قطعية وتعاهدا بعدها على السلام والوِدّ والوفاق. العجيب الغريب أن نفس القصة تتكرر بمضمونها تماماً، لكن هذه المرة بين ابن إبراهيم (إسحاق) وبين أبيمالك. وهنا يظهر الملك أبيمالك بصفته حاكماً لفلسطين. إذ ورد (تك: ٢٦: ٧) أن أهل جرار سألوا إسحاق عن امراته، فقال: («هي أختي» لئلا يقتلوه بسببها وكانت جميلة المنظر. وحدث أن أبيمالك طلّ من نافذة له فرأى إسحاق يداعب امراته «رفقة». فدعاه وقال له: إذاً هي امراتك، فلماذا قلت إنها

أختك؟ فقال إسحاق... «لأني ظننت أني سأهلك بسببها». فقال أبيمالك «ماذا فعلت بنا، فلولا قليل لضاجع أحد أبناء شعبنا امرأتك فنُذنب بسببها»).

أما «أبي ملكي» في المرة الثالثة، فقد ورد اسمه الشبيه لأبيمالك في إحدى رسائل «تل العمارنة» بصفته ملكاً لصور الفينيقية (حوالي عام **١٣٤٧** ق.م). كان «أبي ملكي» يتوسل فيها من أخناتون دعمه في وجه تمرد شعبه عليه! ومع أن التوراة رسمت **٣** شخصيات مختلفة لأبي مالك في أوقات متباعدة ومختلفة، لكنها ليست تكرارات متناقضة بالضرورة! إذ إن التاريخ حافل بنفس أسماء الحكام في نفس الأماكن أو في جوارها بتواريخ مختلفة. الأردن - على سبيل المثال - حكمه في التاريخ المعاصر الملك عبد الله بن الحسين، وتبعه ابنه الحسين بن عبد الله، ثم حفيده عبد الله بن الحسين، ما يجعل السياق الحقيقي للقارئ بعد قرابة **٤٠٠٠** سنة ملتبساً أو مبهماً على سبيل المقاربة. وكما أن هنالك عوامل منطقية للإبقاء على استمرارية الاسم بشكله ونطقه بدون ترتيبه الأول والثاني والثالث كالبطالمة والهنريات (بطليموس وهنري) مثلاً، هناك أيضاً عوامل كثيرة تجعل نفس الأسماء لنفس الأشخاص تتغير كلياً خلال مراحل حياتهم وتنقلاتهم. من أبرز هذه التغيرات في العهد القديم أبرام وإبراهيم، ساراي وسارة، يعقوب وإسرائيل. وفي العهد الجديد هناك بولس وشاول، سيمون وبيتر. هذه حالات مألوفة عند المؤرخين ومتكررة عبر الثقافات المختلفة. بل أحياناً يخترعها المؤرخون أنفسهم لتهريب ملك هنا أو تنصيب آخر هناك، أو للتعمية على حقبة معينة من الزمن. وهنالك أيضاً حالات ادّعى فيها حكام ألقاباً تسلسلية لأنفسهم كـ«الثاني» (الأمير بشير)، مثلاً، أو «الثالث» (نابليون)، لسد فجوة أو التستر على فترات تاريخية مفقودة في تسلسل النسب. وغالباً ما تهدف هذه الادعاءات إلى خلق شعور بالاستمرارية أو الشرعية، خاصة في الحالات التي يكون النسب الفعلي فيها غير مؤكد أو مجزأ بسبب اضطرابات سياسية أو صراع على السلطة أو عدم وجود وثائق مناسبة. ولعل ملوك مصر القديمة كانوا أبرز مَن اعتمد ألقاباً متسلسلة لخلق الثقة

بشرعية الخلافة حتى وإن لم تكن مرتبطة بالحاكم الأسبق.. وهناك تسميات لأشخاص مشهورين لا علاقة لها بتسلسل اسمي معين، إنما يلتبس أمرها في التاريخ لأن أسماءها تختلف باختلاف البلدان التي زاروها!

ولعل من المشاهير الذين تعرضوا لمثل هذه الالتباسات في العصور الأخيرة، العالم الإسلامي الشهير جمال الدين، أحد الأعلام البارزين في النهضة المصرية. وُلد في إحدى قرى أفغانستان ولما تهجّر إلى إيران بات يُعرف فيها «بالأفغاني» نسبة إلى قدومه من مسقط رأسه. ويقال إنه كان من سلالة علي زين العابدين بن الحسين؛ فصار اسمه بالتبعية المذهبية أيضاً جمال الدين الحسيني. ومن ثم تنقل بين تركيا ومصر والهند وأوروبا، وكان في كل مكان يقطنه فترة من الزمن يأتيه لقب موقعه الأسبق أو شغله بحيث نعرفه اليوم بجمال الدين الحسيني والأفغاني والفارسي والكابلي والرومي والمصري والاستنبولي، فيما تعرفه عشيرته الأصلية في أفغانستان بالعلّامة «الشيخ جمال الدين» (حاف) فقط. وعليه، فقد يكون اسما «أبيمالك» في التوراة فعلاً لملكين باسم واحد لكن في منطقتين متباعدتين وحقبتين مختلفتين.

لكن من غير المعقول أن تتكرر الصدف والأسماء والتجارب في نفس الرواية الواحدة! ولربما كان دراجاً في زمن إبراهيم أن يدعو الرجل زوجته بلقب «أختي» كما يُستنتج من بعض البيئات والفتاوى الإسلامية، سيما أنها أخته فعلاً في الاعتقاد أو في الإنسانية. ثم إن الكثير من رجال البوادي ينادون زوجاتهم إلى اليوم بلقب «يا أختي» أو «يا حرمة» أو «يا خالة»، بل حتى يا «عمة»، لا لشيء سوى لإبعاد ايحاء العلاقة الجنسية بينهما عن أذهان المستمعين من باب الأدب والحشمة والتقليد.. لكن التوراتيين يصرون أن مسألة «أخته» أبسط من ذلك بكثير لأن البشر معرّضون للخطأ، وإبراهيم كان أحدهم، وهو ليس معصوماً. وعليه، فقد خاف من القحط والمجاعة، وشكّ في قدرة الله على إنقاذه وعائلته بأمارة قوله في معرض سابق ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فلجأ من

خوفه - كما يلجأ البشر - لأساليب الدنيا وأنكر أن سارة زوجته في الحالتين مع فرعون وأبيمالك. لكن عِبرة التوراة أن الله يتدخل لإنقاذ المسكين، فحفظ له سارة مرتين لكي يحافظ من خلالها على مَن ستحقق المعجزة وتلد الابن (إسحاق) الذي وعده لها (تك: ١٧).

رحّالة في بلاد الله

بالعودة إلى مشوار إبراهيم، وبصرف النظر عمَن يملك حقيقة هويته، فقد كانت له - حسب القصة التوراتية - مغامرات شيّقة على ذلك الطريق الممتع إلى أرض الميعاد. طريق كان أخضر غنياً بالتضاريس الخصبة والحبوب والفاكهة والذرة. كانت الوجبات الغذائية تتنوع اعتماداً على المتوفر من المحليات والطهي في أماكن الاستراحة. والأرجح أن أكلهم كان سهل المنال ويتكون أساساً من الأطعمة الموسمية الطازجة. وربما تضمّنت للفطور الواحد عصيدة شعير أو كِسرة خبز، أو بعض التمور والتين المجفف أو الرمّان. ربما كان الحليب والجبن و«الكايمر»، جزءً أيضاً من النظام الغذائي. ثم كانت هناك الخضروات والبقوليات والبصل والثوم والعدس، مما كان يوفر العناصر الغذائية والنكهات. حتى العسل كان يُستخدم بكثرة وسهولة للتحلية والطبابة ولخصائصه المميزة في حفظ بعض الأطعمة. كانت مأكولاتهم التقليدية أثناء الترحال تتكون عادة من سمك الفرات المجفّف أو المملح، ومن أجبان مُشمّسة وسوائل الـ«سو كار» (سكر) (دبس) وجوز ولوز وكستناء وخروب وزيت وطماطم منشفة وخضار مخلّلة. هذا فضلاً عن لحوم الصيد القريب، كلحم الحمار البرّي والأرانب والظبيان، وحتى من بعض أنواع القنافذ والزواحف التي كانت جوانب الطرق تعجّ بها وتوفرها بسهولة. صحيح أن ما أكله إبراهيم على الطريق ليس مفصلاً في الروايات التوراتية، لكن ما تقدم من مأكولات هو تقريباً ما صورته النقوش المتحَفية وبيّنته الشواهد والقرائن في بلاد ما بين النهرين خلال تلك الحقبة.

الأكيد أن الطريق من مدينة «أور» إلى مصر، الذي يُعتقد أن أبرام (إبراهيم) اتخذه وفقاً للروايات التوراتية، قد خضع لتغييرات كبيرة على مدى آلاف السنين. إلّا أن معالم المسارات العامة لنهري دجلة والفرات لا تزال تقريباً كما كانت عليه في العصور القديمة. كانت مياه النهرين حاسمة بالنسبة للتجارة والزراعة وازدهار المجتمعات التي استقرت على ضفافهما. وحتى اليوم بعد ٤٠٠٠ سنة على مشوار أبرام، يشعر مسافرو الطريق بنفس الأجواء الملهمة تقريباً والمناظر الطبيعية المختلفة، رغم المعالم العصرية والاختلافات والمعابر التي لم تكن موجودة خلال العصور القديمة.

ووفقاً للمواسم، كانت سماء الطريق أيام أبرام مشغولة بكل شيء. بالصفاء الحالم والسحب الداكنة، بالغبار والضباب، بأسراب الطيور المهاجرة والمنتظرة، وببريق النجوم وبروق الرعود. أما البراري، فكانت دوماً منهمكة بالدواب والقطعان والقطط والكلاب. وكثيراً ما كانت الخنازير والغزلان والزواحف تقفز أمام القوافل أو تتسامر بجانب الركاب تحت أشعة الشمس أو تستحم معهم بمطر السماء على سيمفونية رائعة من أصوات الطبيعة وأصداء الفلاة. زقزقة عصافير وتغريد طيور وحفيف شجر وخرير ماء وقرقعات رعد ونقيق ضفادع.. كلها كانت تعطي الأجواء أشياءً مبهرة لا نعرفها في أيامنا هذه حتى في أحلك القرى والأرياف. فلا عجب أن أطلق عالم المصريات الأميركي جيمس هنري بريستد، في مطلع القرن العشرين، في كتابه «أوقات غابرة - تاريخ العالم القديم» مصطلح «الهلال الخصيب» على أراضي ذلك الجزء من الشرق الأدنى الساحر البهي. فقد كانت من جمالها تخفف الهمّ عن النفس وتبعد القلق عن البال بعكس رتابة الصحراء وطنينها المخيف الغامض. لكن رغم الانشغال والحركة، كان أبرام وقبيلته عرضة لمخاطر من نوع آخر، من قُطّاع طرق ومجرمين، وسكان كهوف، ووحوش برية مفترسة في الليالي. هذا طبعاً بالإضافة إلى «الأعداء» الخطيرين الصامتين الذين كانوا يصادفونهم بين الفينة والأخرى، كالإلتهابات وعقصات العقارب والأفاعي والبرغش والبعوض

وتسوّس الأسنان وسوء التغذية والحِمّة والجرب وأمراض الإصابة بالعدوى من بعض الحيوانات، ناهيك عن التجفاف والنشفان والإسهال. كانت حياة الترحال خطرة وصعبة بمعايير اليوم، لكن كانت بسياق زمنها جامعةً ومعقولة على مبدأ «حشر مع الناس عيد»، لا سيما أن قدرة الإنسان على التأقلم هي من أسمى ميزاته وأقدمها.

أرسل ريحاً فأهلكهم

هذا كله كان في كفة والعواصف الموسمية كانت في كفة أخرى؛ وحدها كانت تكفي لتقضي على جيوش بحالها - دعك عن قبائل مسافرين في مناطق مفتوحة كتلك الواقعة بين حاران وتدمر. فقد وجدنا في السجلات رواية حزينة عن ضياع جيش قمبيز الثاني الفارسي (٥٢٥ ق.م) أثناء عبوره في صحراء مصر إلى قرطاج (؟). أغلبية النظريات رجّحت حدوث الكارثة بسبب عاصفة رملية «خُماسينية» بيّتت لهم بعد الغروب وغدرت بهم عند الشروق. الملفت فعلاً أنها وردت في «مدونات التاريخ» عند المؤرخ هيرودوتس بعد ٨٠ سنة على حدوثها. وقد «أثبتت» تنقيبات بلجيكية - مصرية حديثة حدوثها، إذ أُعلن عن نتائجها في العام ٢٠٠٠ م، ومن آثارها بقايا دروع ونبال وخوذ (كالعادة لم تحظَ نتائجها بإجماع الدوائر الشاغلة بالآثارات). لكن من الشواهد المؤكدة على مثل هذه العواصف القاتلة في العصر القريب، ما رأيناه بأمّ العين عندما قضت الرياح بلا رحمة على طائرات هليكوبتر أميركية أثناء محاولتها إنقاذ رهائن السفارة الأميركية في طهران (١٩٧٩م). وعموماً، فمثل هذه العواصف المرعبة تحمل في الأجواء عادة مكوناً ناعماً يشبه البودرة الخفية يسد العينين والأنف والأذنين والفم مرّة واحدة، فلا يقوى على الإفلات منه إلّا الجمل، والثعلب، والبدوي (هكذا بهذا الترتيب)! وحتى على مستوى قِصص الأوّلين قبل التوثيق، ورد في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ

خَاوِيَةٍ﴾. وفي التوراة أيضاً وردت ريح شرقية قوية في معرض تفاصيل قصة الخروج من مصر (الخروج: ١٩:١٦). وعلى سطح الذاكرة القريبة، هناك إعصار «كاترينا» في الولايات المتحدة في العام ٢٠٠٥م، إذ لم تترك رياحه شيئاً لم تقضِ عليه وتدمره. كما كانت هناك أيضاً «أم» الأعاصير، تسونامي المحيط الهندي في العام ٢٠٠٤ م، وقد ذهب ضحيته ٢٣٠ ألف نسمة عبر ست دول، كانت إندونيسيا (بندا آتشي) أكثرها ضرراً، ونقراً في الذاكرة!

على الطريق باتجاه تدمر

السؤال أمام كل هذه التحدّيات والمخاطر هو كيف حافظ أبرام (إبراهيم) على نفسه وسلامة جماعته خلال رحلة طولها ٤٣٠٠ كلم؟ كانت القوافل غالباً ما تتعرض لهجمات دورية من قبائل متخلفة تجردّها من كل ممتلكاتها، بل كانت أحياناً تستولي على ملابسها وحاجياتها الشخصية. كانت الضحايا في أسوأ الظروف تتعرض للإبادة التامة وفي أفضل الحالات تُترك لمصير مُؤجل. لذلك كان المسافرون ينتظرون أسابيع طويلة قبل انطلاقهم من المحطات بغرض اكتمال مجموعات كبيرة تحمي بعضها البعض بتكدس أعدادها. وفي الأثناء كانوا يبادلون الحبوب بالسلع، ويقايضون الخدمات والخبرات. وكانت هذه المداولات تتم بموجب أوزان وأحجام ومكاييل من مقادير طبيعية ورثوها عن أجدادهم، كبحصة الكفّ وطول الذراع والقدم والكو والكور والمدّ والسلّة وقرون الماعز وقبّان الوزن أو الحصى والأحجار الموحدة وغيرها من وسائل الوزن والقياس(١). ومع أن النقود المعدنية لم تكن قد ظهرت بعد في عصر أبرام، فقد كانت الثروة آنذاك تقاس بأكوام الفضة وبكميات الحبوب والأحجار الكريمة وامتلاك طاقة العبيد والثيران وأعداد رؤوس المواشي.

في سيرهم بالقرب من المدن، كانوا يشاهدون أضرحة الآلهة الافتراضية

---

(١) الكور يساوي ٣٠٠ كو، والعملة المستعملة في عصري حمورابي وإبراهيم كانت فضة. وكانت العلاقة بين الفضة وأوزان الحبوب والأشياء يحددها الملك.

ونواعير الماء على جوانب الفرات. «الزقورات» (أبراج نيويورك في ذلك الزمن) كانت ترتقي نحو السماء على قواعد عريضة ضخمة مصبوبة بالطوب الرافدي الشهير والقير المحلي (الزفت). كانت المناظر تغيب خلفهم بصور رومانسية متدرجة كما في المشاهدة من نوافذ القطارات البخارية البطيئة. الزفت يومها كان - كما هو اليوم - شيئاً مهماً يُجلب من مدينة «الهيت»، وسط العراق تحديداً، ويُستعمل أيضاً لحماية قعور سفن دجلة والفرات وأواني السوائل[١]. وإذا ما صحّت رحلة أبرام من «أور» فعلاً، فقد يكون قد مرّ بطريقه على ما هو اليوم محافظات الديوانية والحِلّة وبغداد والموصل.

الأرجح أنه مرّ أيضاً على ما لا يقل عن عشرات المعالم والآثار اللامعة على الطريق والضفاف. وأغلب الظن أن محطتهم الرئيسية الأولى بعد بغداد كانت مدينة «بابل» العريقة. لربما عرفها أبرام باسمها الأصلي آنذاك ك«بابيل»، أو «باب - إيل»، أي «باب الإله» - حسب التفسير التقليدي. كانت يومها أشهر المدن الملكية القديمة بلا منازع. محمية بجدران سمكية وفيها تسع بوابات كبرى، أهمها باب «أوراش». كانوا يزينون المدينة يومها بالنقوش البديعة ويقسّمون هندسة بيوتها الفاخرة حسب مراتب سكانها وقصور ملوكها على ضفاف الفرات. من هناك، يكون أبرام قد توجّه بأسرته في الطريق الرئيسي المؤدي إلى وسط المدينة عبر ضاحية «ليتامو». ويكون القصر الملكي قد لاح له مهيباً بنقوشه النسورية والأسودية بجانب معبد «مردوخ» المدجج بتماثيله المُذهبة المُجنّحة. وهما منظران لا يمكن لزائر الزمن أن ينسهما كما لا ينسى زوّار اليوم مبنى الكونغرس والكنيسة الوطنية في واشنطن - على سبيل التقريب.

وبمواصلة الطريق، لا بد أنهم وصلوا إلى المدينة العظيمة الأخرى على ضفة دجلة. كانت «نينوى» مكاناً مقدساً في نظر الشعب الأكادي والبابلي

---

(١) ومدينة «هيت»، هي الأخرى، من أعتق مدن العالم ويزيد عمرها عن عشرة آلاف سنة. وهي مثل «كركوك» تنفث أعمدة الغاز من شقوق تربتها بصورة طبيعية بلا توقف، وتحرقه أمام أعين الناس ودهشتهم، فيخيل للمراقب أنه أمام مهد أسطورة نبوخذ نصر مع النار وأفران العذاب

والأشوري معاً في عصر أبرام، تماماً كما هي القدس اليوم بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين. ولو كان أبرام قد دخلها فعلاً، لكان قد ذهل من تنظيم شوارعها المرصصة وكثرة أسواقها المزدهرة ومعابدها الفخمة المخصصة لمردوخ وأشور وعشتار، فضلاً عن القصر الملكي. الأرجح أن يكون أبرام قد أمضى بضعة أسابيع أخرى في الطريق منها إلى الشمال العراقي حيث ربما قضى لياليه في بلدات صغيرة منتشرة على الجوانب أو في المحيط. جلّ ما كان عليه فعله هو السير بمحاذة الطريق التجاري الذي كان يشق الهلال الخصيب ويتعرج مع خطوط أسراب الطيور المهاجرة فوقه ويتبع مسارها. وإذا كانت رحلة أبرام من «أور» إلى نينوى شاقة ومثيرة، فإن ما كان سيأتي بعدها للوصول إلى «حاران» حمل من العجب ما تطلب السحر والتنجيم والإعجاز لبلوغ المدينة. هناك في «حاران»، يقول العهد القديم، إن أباه «تارح» العجوز مات عن عمر ناهز **٢٠٥** سنوات. حزنت العائلة عليه ودفنته، ومزقت النُّسْوَةِ ملابسهن ونتفتن شعورهن؛ بل حتى التقليد التوراتي يخبرنا أن قافلة أبرام قضت مناسبة «الأربعين» هناك، فأدركها فصل الشتاء، واضطرت للمكوث بالقرب من ضريح «تارَح» حتى الربيع. وبعد الراحة والاستراحة وأخذ الأنفاس من جديد، أمر الربّ أبرام ترك «حاران» والتوجه مباشرة إلى كنعان. وبمتابعة الطريق باتجاه تدمر بسوريا حسب الرواية، استمر أبرام بسيره غرباً من «حاران»، وقطع منها نحو ٨٠ كلم تقريباً إلى مدينة «كركميش» ذات الأسوار العالية، وهي في منتصف الطريق تقريباً بين «عينتاب» اليوم وحلب. هناك استراح من جديد واستذكر رحلته من «أور» بطقوس وتقاليد كان يرتاح لها.

تابعت القافلة طريقها باتجاه حلب، محطتهم المهمة الثانية بعد «حاران»، وكانت ذات سهول وهضاب واسعة، وكان أبرام يرعى قطعانه في حقولها. ونعرف من السجلات المتاحة أن حلب شهدت «أمهات المعارك» في التاريخ بين كل الحضارات المتنازعة تقريباً. تدمرت عشرات المرات، آخرها كان في العصر الحديث أثناء حرب «داعش». ولولا أنهم دمروا المدينة التراثية

بالكامل، لكان بالإمكان تحديد الشوارع التي مشى أبرام وسارة عليها. والملفت اليوم أن هناك مواقع كثيرة في حلب ما زالت تحمل رموزاً دينية صافية، منها على سبيل التحديد، «ابن يعقوب» و«مسجد زكريا»، وهما منطقتان تحملان أسماءً من سلالة أبرام - حسب المؤلفين.

رجل لكل الناس

العهد القديم حدّد كلام الربّ مع أبرام للمرة الثانية في بلاد كنعان. الأولى كانت عندما أمره بمغادرة مسقط رأسه السومري «أور». لكن العهد لم يحدد أين في كنعان حصل التحادث الثاني بينهما. كل ما يذكره سفر التكوين في هذا الصدد أنه كانت هناك لحظة تحوّل مهمة في مسيرة إبراهيم عندما هبط الوحي الإلهي عليه، وكان عمره يومها ٩٩ عاماً. هناك في بقعة ما من بلاد الشام تغيّر اسمه فجأة، من أبرام إلى إبراهيم.

وهذا التغيير في الاسم يعتبر حدثاً محورياً ومفصلياً، إذ قال الرب: «فلا يُدعى اسْمك بعْد أَبْرَام، بل يكون اسمك إِبراهيم، لأَنِي أَجْعلك أَباً لِجُمْهور من الأُمَم» (تك ١٧ : ٥). وقد يكون التغيير في الاسم قد حدث لعدة أسباب حسب التفسير التقليدي، منها تحوّل دوره وتغيّر مهماته في خطط الربّ.

ففي حين أن اسم «أبرام» تقليدياً يعني «الأب القدير»، فإن اسم «إبراهيم» يعني «أب التكاثر». وهذا يعكس وعد الربّ بجعل إبراهيم أباً للعديد من الأمم في أرض كنعان. ثم إن التغيير - حسب الفهم التوراتي - يمثل أيضاً بناء الرحلة الروحية وتوثيق إيمان إبراهيم والتوقيع عليه.

إذ إن تغيير الاسم - في السرد الإيماني - يدلّ على خطة الربّ لتوظيف إبراهيم بطريقة خاصة ليكون مرجعية لكل البشر، لا سيما في سياق ما ستصبح عليه لاحقاً الأمم اليهودية والمسيحية والمسلمة. ثم إن تغيير الاسم - برأي المؤمنين - هو أيضاً رمز القوة التحويلية للإيمان والوفاء بوعد الله له.

ومن تذكار التحويل والأمارة عليه، فُرض الختان كعلامة ثابتة للعهد

والعروى الوثقى. والملفت من الناحية البحثية الصافية أن اسم «إبراهيم» - حسب اجتهاد كمال الصليبي - مشتق من الاسم العربي «أبو رهم» «بمعنى زخ المطر الخفيف»، في حين أن اسم زوجته «ساراي» كان مكتسباً من مرتفعات غرب الجزيرة المطلة على حوض وادي بيشه. (طبعاً سيكون لنا مع الصليبي وغيره وقفات حول تفصيل اللغة على مقاسات الأهداف والغايات).

في حضن البردى

بعد حلب، نفهم أن إبراهيم توجّه إلى قادش، سواء عن طريق تدمر أو عن طريق حماة أو حمص. هي اليوم قرية تسمى «تل النبي مندو». عندما دخل إبراهيم مدينة القلعة هذه، كانت قادش مركزاً لتجمّع قوافل التجّار وأرتال الجنود من المناطق المجاورة، وصارت لاحقاً موقعاً استراتيجيا لمعارك الحثيين مع المصريين، أو المصريين مع الأشوريين وغيرهم. بعد قادش، انحدر إبراهيم باتجاه الجنوب الشرقي، فوصل إلى دمشق، أقدم مدينة في تاريخ البشرية. كانت يومها كنعانية بامتياز وواقعة تحت وصاية الأموريين وسلطتهم. ورغم ذلك، كانت دمشق - بين مدن المنطقة آنذاك - موطناً لصفوة الأمراء المحاربين والجواسيس والتجار والأثرياء من كل مكان. كانت مرتعاً خصباً لكبار كهّان الوثنية، ومكاناً مهماً لتقديم الأضاحي لبعل وإيل ولآلهات الخصوبة، ولآخر الصرعات والتقليعات والأزياء، أشبه بالطبيعة المتناقضة بين الفاتيكان وروما في وقتنا الحاضر. تلك النخب والصفوة كانت تعيش في أبنية هندسية معمارية مبهرة بمعايير تلك العصور، مستمتعين بأشهى الطعام وأفخر السلع وأجود الخدمات التي كانت تتدفق إلى دمشق من كل الاتجاهات.

ورغم شهرتها وعراقتها وأقدميتها كمدينة مستمرة بلا توقف منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، إلّا أنه لا يوجد اتفاق موحّد على مصدر اسمها. هناك مَن يقول إنه كناية عن «الأرض المروية». هناك مَن يُفسّره على أنه «دار الخصوبة». وهناك مَن يدّعي أن الاسم قديم بقدم المدينة نظراً إلى موقعها «الشمالي» بالنسبة للمهاجرين من اليمن. ومنهم مَن يقول إن المدينة سُمّيت بهذا الاسم

لاشتقاقه من كلمة «دُومَسْكَس» التي توحي برائحة المسك أو بسبب اسم قائد يوناني اسمه «دماس» كان له دور بارز في تنظيم المدينة؟ لكن هذا اجتهاد متأخر جداً على أصل الاسم القديم. لعل أقرب تفسير للاسم من منطق ذلك العصر كنايته عن عبارة «كيس الدم» بالنظر إلى أن لفظة «دم» ولفظة «كيس» سومريتان بامتياز، وتشيران إلى مفهوم ساحات القتال والمجد. وبصرف النظر عن مصدر اسمها، فقد كانت في عصر إبراهيم بمثابة أمّ الواحات وسط الصحراء، وكانت تظهر من بعيد كالجوهرة التي تتلألأ بالأفق. وقد وردت تقديرات ملهمة توحي أن عمر المدينة في أيام إبراهيم نفسه كان **٣٠٠٠** سنة تقريباً. وحتى أقدم المعالم التي نعتبرها اليوم من أعتق آثارات المدينة كسوق الحميدية، مثلاً، لم تكن قد ظهرت بعد أيام إبراهيم. بل الأغلب أن موقع مسجد أميّة وبعض الكنائس حول سوق الحميدية ربما كانت فعلاً مواقع حجّ أو عبادات وثنية للطهارة والتأمل بالقرب من ضفاف نهر بردى.

الملفت أنه لم يمر أحد على الشام إلّا مدحها ببيت من شعر أو خاطرة من وجدان أو ما شابه من تقدير وإجلال. نزار قباني أدلى بصوته فيها من خلال بيته الشهير القائل: «هذي دمشقُ.. وهذي الكأسُ والرّاحُ ... إنّي أحبُّ وبعضُ الحبِّ ذبّاحُ». وقارعه على حبّه لها إيليا أبو ماضي ببيته: «انا لست في دنيا الخيال ولا الكرى، وكأنني فيها لروعة ما أرى»! ولا عجب أن قال فيها أيضاً العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: «من بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها عابراً لخليله (إبراهيم)، وفيها أحد البيوت الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس». وقال الإمام ابن العربي: «وقد رُوي إن الله تكفّل لي بالشام وأهله». بل حتى بعض الغرباء والمستشرقين أمثال مارك توين، الأديب الأمريكي، في تعبيره الشهير قال: «السنوات في دمشق ليست سوى لحظات، والعقود عندها ليست سوى تفاهات. إنها تقيس الزمن بالإمبراطوريات التي مرت صعوداً بها ورخاءً ثم انهياراً وخراباً». أما ويليام كوبر، الشاعر الإنجليزي، في قصيدته «الهدف» (١٧٨٥م)، فوصفها كأنه

منبئاً: «يا شام على حافة الذروة وقمة التألق». فزاد عليه جون لويس بوركهارت، المستشرق السويسري الشهير، قوله: «يا دمشق يا روضة البهاء والقداسة على سفح جبل». وإذا دلّت هذه الاقتباسات السريعة على جوانب مختلفة من قيمة دمشق وأهميتها، فهي لتؤكد على جاذبيتها الخالدة منذ الأزل، وعلى تاريخها العريق وجمالها الخلّاب. وهي في جميع الحالات لا يمكن إلّا أن كانت تستأهل زيارة إبراهيم سواء بمهمة تبشيرية أو زيارة سياحية.

البكر من الثانية!

بعد السياحة والاختلاط بالتجار والكهنة وأمراء الحرب وممثلي بعثات الحضارات المقيمين في الشام، سار إبراهيم جنوباً باتجاه الجولان ولم تكن هضبته يومها معروفة بهذا الاسم، بل لم تكن مهمة من الأساس باستثناء أنها كانت مجرد ممر إلى منطقة «باشان» شرق بحر الجليل. وهنا يلحّ السؤال على المتابعين والبحّاث: لماذا لم ترق مدينة دمشق للخليل ولم يستأنس العيش بها ليسارع إلى تركها، خاصة أنه كان ابن مدينة عصرية متحضّرة؟ السؤال قد يبدو بايخاً بعض الشيء، لكن لدلالته ثمة أهمية. ربما كانت لإبراهيم طموحات كبرى كان سينشغل عنها فيما لو بقي في الشام!

لكن بعيداً عن رغباته ونواياه، تابع إبراهيم طريقه من الشام إلى كعب الضفة الشرقية لنهر الأردن، ثم توجّه غرباً إلى فلسطين، وكانت هي الأخرى، تحت وصاية الأموريين. ثم اتجه من فلسطين غرباً إلى مصر. ورحلة إبراهيم إلى مصر كانت لها وجوه متعددة وعناصر كثيرة، كل باحث تناولها بطريقته الخاصة وحسب أهدافه. عرجت آنفاً على بعضها وسأعرج لاحقاً على المزيد منها. لكن ما يهمني في هذا السياق هو التفسير التقليدي العام (الذريعة) لأسباب زيارته مصر بسبب القحط والمجاعة. أما كيف توصّل إبراهيم - وهو لم يكن ملكاً ولا أميراً ولا سفيراً - لمقابلة الفرعون والنزول بضيافته إلى حد الكشف له عن «أخته» سارة، فمسألة تحتاج إلى بعض التحرّي والتجليس على قواعد المنطق، خاصة بالنظر إلى زواج إبراهيم من هاجر لاحقاً.

كان إبراهيم وسارة متقدمين جداً عن خريف العمر الطبيعي. ولا بد أنه أثناء مشواره المتعرج الطويل تحدث، فضلاً عن الربّ، إلى الكثير من التجّار والبدو والكهنة والغجر والفلاحين والسمساسرة. مرّ بكهوف وأكواخ وبيوت وقصور وأسوار ومعابد وسدود وترع. مرّ بهضاب وجبال ووديان وأنهر وبحيرات. التقى بكبار القوم وبفرعون الجنوب واجتمع بأمراء وعيّن مندوبين واستقبل رسلاً. لا بد أيضاً أنه كان دبلوماسياً بارعاً ووسيطاً متمكناً استطاع إبداء التحكيم في تقسيم الممتلكات الواسعة واشتغل بجمع الذهب والفضة والنحاس والعقارات والماشية، وضارب بالسلع وقايضها في أسواق الجملة والبورصة آنذاك. كان عنده جيش باسل، تولّى قيادته بنفسه إلى معارك ضارية دفاعاً عن عشيرته وأنصاره وحلفائه!

ومن الأشياء المحيرة الكثيرة التي يسأل المشككون والنقّاد عنها عند هذا المنعطف، كيف لفرعون مصر أن يجد سارة جميلة وجذابة في ذلك العمر المتقدم؟ وإذا صحّ السرد التوراتي أن إبراهيم كان عمره ٨٦ سنة عند إنجابه إسماعيل (تك ١٦ : ١٦)، فيكون قد أنجبه بعد نحو عقد من خروجه من «أور». لكن كيف يكون قد أنجبه من هاجر وهو لم يكن قد وصل إلى مصر بعد، أو التقى فرعونها وأخذ هاجر منه جارية لسارة؟ وإذا أخذنا من التوراة بأعمار سارة وإبراهيم في محطات المشوار، كعمره عندما غادر «أور» وعندما كلمه الربّ في كنعان بعد تركه حاران، وعند ولادة إسماعيل، وعند ولادة إسحاق، وعمر سارة أثناء وجودها في مصر وعمرها عند ولادة إسحاق، إذا أخذنا بهذه الأعمار نستنتج أشياءً إضافية لم تذكرها التوراة، مثل قضاء إبراهيم ٢٤ سنة على الطريق منذ غادر «أور». وإذا أضفنا سنة أخرى استغرقتها رحلته من كنعان إلى مصر، فيكون قد وصل مصر بعمر مئة سنة. وهنا نرى (كما ورد أعلاه) أنه كان في ذلك الوقت قد أنجب إسماعيل بعمر ٨٦ سنة، أي قبل أن يصل إلى مصر ويتعرف على أمه هاجر بعد؟ أما إذا أخذنا بالاعتبار عمر زوجته ٨٥ عاماً عندما كانت في مصر و٩٠ عاماً عندما أنجبت إسحاق بعد مغادرة مصر،

فنستنج من كل الأرقام أن فرق العمر بين سارة وإبراهيم كان ١٥ سنة، وإن إبراهيم كان عمره ١٠٥ سنوات عندما غادر مصر. وبالاستطراد الحسابي نستنتج أن إبراهيم وسارة بقيا في مصر قراية خمس سنوات. لكن كما هو واضح لا يتفق منطق الحساب مع كل الأعمار والمحطات حسب ورودها في التوراة. قد يقول قائل إن التواريخ والسنين ليست مهمة، إنما العبرة تكمن بالمغزى وبيت القصيد. ومع أنه ليس بمقدورنا استدراك نوايا كتبة التوراة من هذه التفاصيل، إنما نستهجن قيمة هذه المدد والأعمار ما دامت متناقضة وغير دقيقة!

ولأن هاجر خلّفت إسماعيل بعد مغادرة مصر وتحديداً في «باران» جنوب سيناء (تك - ٢١: ١٣-٢١)، يكون إسماعيل بالمفهوم التقليدي بكراً لإبراهيم، لكن من زوجته الثانية![1] أما في التعريف الفقهي، فالبكر هو المولود الأول لأبويه، أي إن إسماعيل هو البكر الحقيقي فقط فيما لو كان مولوداً من إبراهيم وسارة، وليس من إبراهيم وهاجر - حسب منطق اللغة العربية والفقه. والمسألة بين الفقهاء ما زال حبلها على الجرار منذ ٤٠٠٠ سنة!! الغريب هنا أيضاً أننا لو حسبنا فرق العمر بين إسماعيل وإسحاق حسب الآيات (تك ١٦:١٦) و(تك: ٢١:٥) سنجده ١٤ عاماً، ما يعني أن سارة عندما وُهبت هاجر كجارية في مصر لم يكن عمرها ٨٥ سنة، بل ٧٦ سنة بموجب حسبة بسيطة؟ وهذا بعدٌ آخر عن التباسات الأعمار في التوراة. ثم يبقى سؤال محير آخر عن اسم «هاجر» نفسه. فهو يبدو للوهلة الأولى عربياً بامتياز وليس مصرياً قديماً مثل ميرتا، أو متيا، أو موتجمت، أو أمسا، أو بسشت، أو ميرتت، أو تا آست، أو نفرو، أو سنبتي إلخ، ما يوحي إما أنها لم تكن مصرية، أو أنها اكتسبت اسمها الجديد من ساراة وإبراهيم بعد خروجهما من مصر! وعلى افتراض انه أعيدت تسميتها، هنا يبرز سؤال محير آخر: لماذا أعطيت هاجر اسماً عربياً إذا كان إبراهيم وسارة وهاجر كلهم ليسوا عرباً؟

---

(١) إن الخصومة والغيرة بين الضرتين (سارة وهاجر) سببت تعاسات وأحقاد وخلافات لكثير من الناس على مستوى البشرية حول الأرض - بدون قصد.

الثاني من الأولى!

ولما بلغ إبراهيم قرناً من الزمن في بلاد الشام بعد رحلة مصر، تحقق الوعد وأنجب ولده إسحاق من سارة، وكانت عاقراً كما أسلفنا. إسحاق كان بمثابة عطية الله لهما في شيخوختهما. وكان حبلها به في كنعان، وهي في التسعين من عمرها (تك: ١٧:١٧)، معجزة وتنفيذاً لوعد الربّ الذي كان قد قطعه لها قبل عام من ذلك الوقت. وببشارة حملها وتذكيراً للمعجزة، أمر الربّ يومها بتغيير اسمها من «ساراي» إلى «سارة». المؤمنون التوراتيون يتطلعون إلى إسحاق ليس فقط كابن طبيعي، بل كولد مقدس موعود. ورغم أنه أصغر من أخيه إسماعيل بـ ١٤ سنة، لكنه جاء من زوجة إبراهيم الأولى. ومع هذه الجِيئة المباركة جاء خلاف شرس صار عمره اليوم ٤٠٠٠ سنة على الروزنامة الافتراضية. إن مسألة إسماعيل وإسحاق واحدة من الإشكاليات العويصة مع أتباع الأديان السماوية حتى اليوم في معرض تحديد هوية الابن المقصود في رواية «كبش الفداء»؟

ورغم وجود إبراهيم وعائلته وسط عشائر وأقوام وشعوب متنوعة في بلاد كنعان، إلّا أنه لم يشأ تزويج إسحاق من كنعانية[1]، فاختار له حفيدة أخيه ناحور، «رفقة»، من بلاد أرامِ النّهرَينِ على بعد ١٣٠٠ كلم، وتحديداً من مدينة تسمى أيضاً (للصدفة) «ناحور» حسب السياق التقليدي (تك: ٢٤)! فكيف تكون «ناحور» في التوراة اسماً لمدينة واسماً لشقيق إبراهيم معاً؟ البعض يقول ليس هناك خطأ أو ريبة، لأن اسم المدينة نفسه يكون قد اُقتبس لشخص، كما في أسماء أشخاص مثل «باريس» و«سيدني» و«فلورانس»، أو أن يكون الأشخاص هم من أعطوا المدينة اسمها بسبب مساهماتهم في تأسيسها أو عبر تاريخها، أمثال «واشنطن» و«قسطنطين» و«الإسكندر» على سبيل الاستشهاد. وإن دلّ هذا على شيء في هكذا حالة، فربما على مكانة قبيلة إبراهيم وقِدوتها.

---

(١) يعقوب تزوج بعده من حرانيّة، وكأن الزواج من كنعانية كان نقيصة لآل إبراهيم أو نجاسة، وإلّا فالإصرار عليه كان يدل على الرغبة في الإبقاء على النسل ضمن العائلة.

أما عن اسم عروس إسحاق «رفقة»، فيقول كمال الصليبي إن الأصل فيه مشتق من «ربقة»، إلهة الخصوبة في الحجاز القديمة، وذلك ضمن مئات الاستناجات التي توصل إليها من تبديل الأحرف وتغيير اللهجات.

التوأمان وبني إسرائيل

بمرور عصر إسماعيل وإسحاق التقريبي (١٧١٠-١٨٦٠ ق.م)، ينتقل المسرح التوراتي إلى الأخوين التوأمين يعقوب وعيصو (عيسو) من أمهما رفقة. وهما شخصيتان متناقضتان أعادتا إلى الأذهان رواية الغيرة والحسد والتنافس بين هابيل وقايين (قابيل). وكما كان آدم يُفضّل أحدهما على الآخر، كان إسحاق يُفضّل عيصو المسالم على يعقوب المشاكس، فيما كانت رفقة تتحيز ليعقوب، الذي وُلد منها عقب أخيه. وقد ورد أن التوأم الأكبر، عيصو، كان صياداً ماهراً ورجل فضاء وميدان. الخلافات والجفاء بينهما توالت وأصبح أحفاد عيصو مع مرور الوقت معروفين باسم الأدوميين - حسب التفصيل التوراتي. أما موقعهم، فارتبط في حدود منطقة (أدوم)، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت! وبعكس عيصو، تميزت حياة يعقوب بأحداث مهمة أهمها أنه - بتآمر من أمه رفقة - انتزع البكورية من أخيه واستولى على بركة أبيه عندما هرم إسحاق وصار ضريراً. الأمر الذي أدى إلى المزيد من توتر العلاقة بين الأخوين وهروب يعقوب إلى هاران حيث كانت عائلة أمهما رفقة تقيم. هذه «الهريبة» بالذات أدت إلى لقاءات وتجارب وِجدانية مهمة ليعقوب، بما في ذلك حلمه الشهير وما بات يعرف لاحقاً بـ «سلم يعقوب». واختصار الحلم (حسب التوراة) أن يعقوب بينما كان في طريقه من بئر سبع إلى «هاران» هارباً من وجه أخيه وقع على نعس شديد ونام على حجر. في الأثناء رأى في حلمه سلماً ممتداً من الأرض إلى السماء تتسلقه وتهبط عليه ملائكة الله. وعلى رأس السلم وقف الربّ وقال ليعقوب: «أنا الربّ إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق. الأرض التي أنت نائم عليها أهِبها لك ولنسلك وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً وَشِمَالاً وَجَنُوباً. وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ

الأَرْض». الملفت أن الربّ لم يسترسل في أسبابه ولم يشرح مبررات عطيته العظيمة هذه، مع العلم أن يعقوب لم يبدُ كأنه كان يستأهلها بعد انتزاع البكورية بالخداع. بيد أن للرب في عِباده شؤوناً لا يفهمها المشككون - حسب تفسيرات رجال الدين لمثل هذ النوع من الأحداث الربانية. والأرجح أن الربّ قالها لتأكيد سابق وعده بوهب أرض كنعان إلى إبراهيم.

عندما وصل يعقوب إلى «هاران» تزوج «ليا» أولاً، ثم أختها «راحيل» بعد سبع سنوات، وهما بنات خاله لابان، وبعد سنوات من الانفصال عن أخيه في «حاران»، قرر العودة إلى كنعان ومصالحة عيصو. في الطريق مساءً انفرد جانباً بنفسه عن أسرته، فوجد نفسه فجأة «يصارع رجلاً» حتى الصباح. ولما رأى «الرجل» أنه لا يقوى على يعقوب، قال له دع حالك عن حالي وأتركني، فقال يعقوب لا أتركك حتى تباركني، فقال الرجل ما اسمك، قال اسمي يعقوب. هنا، قال الرجل (لا يدعى يعقوب اسمك بعد الآن، بل «إسرائيل» لأنك غالبت الله والناس وغَلبت) (تك: **٣٢: ٢٢**). وبهذا الانتزاع الرباني بعد انتزاع البكورية من أخيه، صالح يعقوب أخاه وشكّل الوفاق بعد ذلك نقطة تحوّل مهمة في علاقتهما. لكن رغم إنهاء الخلاف وتسوية الأمور، ذهب عيصو بطريقه مع عشيرته إلى منطقة «سعير»، فيما ذهب إسرائيل (يعقوب) بطريق آخر إلى منطقة «سكوت»! ولأنه أنجب دزينة أولاد من أربع زوجات (لِيا؛ له منها أربعة أولاد. راحيل أخت ليا؛ له منها يوسف وبنيامين. زلفا؛ له منها ثلاثة. والرابعة بلها؛ وقد أنجبت له ثلاثة، وكانت جارية)، لذلك يعتبر يعقوب (إسرائيل) أباً لشعب صار يُعرف بـ «شعب إسرائيل»، وأضحى أبناؤه يعرفون بأسباط إسرائيل الاثني عشر.

يوسف لكل مكان!

بموجب ما تقدم، يكون يوسف هو الابن الأول ليعقوب من زوجته الثانية (راحيل) المحببة. كان محسوداً من أشقائه (أولاد خالته) بسبب تعلق أبيه به وحبّه الشديد له. وقد أدّت هذه «المحسوبية» إلى الغيرة منه والصراع معه

والتدبير للقضاء عليه. هنا تسلّط الرواية التوراتية الضوء على حلم غريب راود يوسف واختلف بشأنه المفسرون ورجال الدين والكهنة: «إِنِّي قَدْ حَلُمْتُ حُلْما أيضاً وَإِذَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَاحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً سَاجِدَةٌ لِي» (تك: ٣٧: ٩). وخلاصة الرواية من وجهة نظر التوراة، لمن فاتته، أن يوسف لما قصّ حلمه هذا على أبيه واخْوَتهِ انتهَره أبوه وقال لَه: «ما هذا الحلم الذي حلُمْت؟ هل نأتي أنا وأمك واخوَتك لنسْجدَ لَكَ إلى الأرض؟». لكن يبدو من شروحات لاهوتية أخرى وإسلامية لاحقة أن يعقوب نهره أمام أبنائه كيلا ينقمون عليه، لكنه استدرك مغزى الحلم وطلب من يوسف سراً التوقف عن قصّه ثانية. غير أن أشقاءه كانوا أسرع بالحقد عليه والتقصد للنيل منه. وفي التفاصيل انتهى الأمر بهم أن رموه ببئر ثم باعوه لقافلة إسماعيليين عابرة. وقد باعته هي بدورها عبداً في «سوق النخاسة» في مصر بعشرين «شيكل» فضي لحساب قائد حرس ومسؤول كبير في قصر فرعون يُدعى «بوتيفار» (تك: ٣٧: ١٢). وتستمر الرواية بعد ذلك لتقول إن إخوانه عادوا إلى أبيهم بشيء من دمه وأخبروه خداعاً ونفاقاً أن يوسف وقع ببئر وقتله ذئب إلخ[١].

الواضح أن قصه يوسف في التوراة ترتبط بمصر ارتباط جده إبراهيم بها من قبله. هناك واجه يوسف اتهامات خطيرة ومحاكمات عديدة لكنه كسب القضايا وارتفع إلى موقع السلطة من خلال قدرته العجيبة على الحلم وتفسير الأحلام. في نهاية المطاف أصبح مسؤولاً رفيع المستوى بمرتبة وزير أول في المحكمة الفرعونية، ولعب دوراً حاسماً، ليس فقط في تفسير أحلام الفرعون، بل بالتنبؤ له عن شؤون الحكم أيضاً. ولعل أدلّ تنبؤاته كانت تلك المشهورة عن سبع سنوات بحبوحة تليها سبع سنوات عجاف. وفي أوجّ سنوات المجاعة، سافر أشقاؤه من كنعان إلى مصر بحثاً عن ستر وطعام. هناك انحنوا أمام أخيهم يوسف دون أن يعرفوه، فيما تظاهر هو بعدم معرفته بهم رغم دهشته من أوضاعهم

(١) سبب القول الشهير «إن الذئب برئ من دم يوسف».

المزرية. والمشهد هنا يبدو كأنه حصل ليحقق حلمه الشهير الذي رأى فيه عائلته تبجّله وتنحي له يوم كان طفلاً بينهم. ومن خلال سلسلة الأحداث الربانية المتتالية ذات العِبر والمعاني، يكشف يوسف عن هويته لإخوته ويغفر لهم خطيئتهم بحقه ويرتب هجرتهم إليه. وعند هذ المفترق كان يعقوب قد صار عجوزاً على أبواب الوداع. كانت فكرة يوسف لهم أن يستقروا معه في مصر ليساعدوه في إدارة الحكم - حسب بعض المفسرين! لكن ربما في هذا الادعاء ما يراد به حشر فكرة ربط فترة الهكسوس بفترة يوسف من أجل تركيب المزاعم منطقياً وتسهيل فكرة خروج موسى لاحقاً (راجع فصل النظريات).

وغالباً ما يتردد أن بني إسرائيل ونسلهم بقوا في مصر نحو **٤٣٠** سنة. وهي فترة تشير إلى الوقت الإجمالي من وصول إبراهيم في بلاد كنعان إلى الخروج من مصر، بدلاً من المدة المحددة لإقامة الإسرائيليين في مصر نفسها حتى تاريخ خروجهم مع موسى. وبشكل عام، لا تزال المدة الدقيقة لإقامة الإسرائيليين في مصر مسألة تفسير ونقاش بين العلماء، مع تقديرات تتراوح من **٢٢٠** إلى **٤٣٠** سنة. صحيح أن هناك تفسيرات وحسابات مختلفة بين علماء الكتاب المقدس فيما يتعلق بالفترة الزمنية التي أمضاها اليهود في مصر، إلّا أن الإجماع الروائي المعاصر يرفض فكرة الخروج من أصلها سواء وضعوه في مكان آخر، أم اعتبروه خروجاً ميتافيزيقياً، أم ربطوه بغزو الهكسوس لمصر.. البعض يقول إن اليهود بالغوا بفترة إقامتهم في مصر ومدّوها ليبيّنوا قدر عطائهم في بنائها. كما أنهم ضخّموا أيضاً أعدادهم بحيث يظهر من خلالها العمق الاجتماعي التراثي لهم في بناء الحضارة المصرية. وهذا البعض لا يرى أن اليهود مكثوا بمصر أكثر من قرنين وعقدين ولم يزد عددهم عن مئة ألف في أقصى التقديرات. إلّا أن حِسبة إقامتهم في سياق الرواية التوراتية مسألة خطيرة وملتوية تنطوي على التوفيق الحذر بين الجداول الزمنية، والأنساب التوراتية، وعوائل الحكم المصرية، لتصيب كلها زمن خروج الإسرائيليين من مصر. وهذا شوط بعيد جداً..

العهد القديم يشير إلى حكم يوسف تحت قيادة «فرعون»، لكنه لا يحدد اسم الفرعون بعينه. هناك نظريات كثيرة ومحاولات مختلفة من قِبل مؤرخين وعلماء لتحديد «الفرعون» المذكور في السرد التوراتي، لكنها لا تعدو كونها اجتهادات مبنية على تحاليل وليست على أدلة قاطعة. فكما قال أحدهم بمنطق إن يوسف لا يمكن أن يكون قد بيع عبداً في مصر لأن المصريين لم يعرفوا تجارة العبيد، ولم تكن لهم فيها سوق، قال آخرون بمنطق مشابه إن يوسف كنعاني الهوية ولا بد أنه خدم في مصر مع ملك كنعاني مثله اختاره ووثق به أثناء حكم الهكسوس (١٦٦٠-١٥٥٠ ق.م). وإذا أخذنا في الاعتبار تاريخ يوسف الافتراضي (١٦٤٠-١٥٧٠ ق.م)، فقد يكون فرعون مصر في عصر يوسف من أسرة هكسوسية متوسطة - حسب استنتاج بعض البحاث العروبيين. والأرجح - برأيهم - أنه الفرعون «خايان» (خيّان) (الريان بن الوليد). أما لماذا لم نجد أثراً واحداً مقبولاً عن شخصيتي يوسف وريان رغم بروزهما، فلأن المصريين القدماء لم يتركوا أثراً للمحتل الهكسوسي بعد رحليه إلّا ودمّروه وأعادوا استعماله وصياغته على تاريخهم - حسب مصلحتهم. العجيب هنا أن بعض المؤرخين والمستشرقين اعتمدوا على تأريخات مانيتون، ونهلوا منها وأضافوا إليها، لإثبات وجود يوسف في عصر الهكسوس ووضعه مع «الريّان». هذا مع العلم أن مانيتون عاش بعد الهكسوس بأكثر من **١٢٥٠** سنة تقريباً. والأغرب من هذا أنه أرجع الهكسوس إلى أصول عمورية (أمورية) وضيعة، ما جعل بعض المؤرخين الاعتذاريين يبعدون وضاعة التبعية للهكسوس عن بني إسرائيل، ويدّعون أن إبراهيم وذريته ويوسف كانوا مجرد حلفاء للهكسوس ومؤيدين لهم (وليسوا منهم). وفي هذا الأمر ما جعل الهكسوس يعتمدون على حليفهم إبراهيم وذريته في إدارة مصر إلى أن طُردوا جميعاً منها على مراحل: مرحلة إبراهيم، ومرحلة يوسف ثم أخيراً ونهائياً مرحلة موسى. (كما لو أن البشرية فكّت ألغاز الخروج الأول لتستعجل البدء بالخروج الثاني والثالث، أو كأن خروجاً واحداً لم يكفِ لإثارة الترويج)....

وكما وضعوا يوسف في مصر الأفريقية مع غزاتها الهكسوس وجعلوه عربياً، اعتبره آخرون من مواليد سوراقيا بالقرب من حاران يوم كان أبوه يعقوب يقيم بين نسيبه، خال يوسف، لابان، وكان عمره **٩١** عاماً. لكن سرعان ما عاد إلى مسقط رأسه في اليمن وترعرع في ربوعها إلى أن حصل قحط فظيع، فهربوا جميعهم إلى بلاد القرن الأفريقي وأقاموا فيها بين الحبشة والسودان نحو **٤٠٠** عام[(١)]. ويزعم أصحاب هذه النظرية أن بني إسرائيل، هؤلاء أولاد يعقوب وأحفاده لم يكونوا عند انتقالهم إلى الحبشة والسودان سوى جماعة من جماعات باقي السكان. لكنهم تفاعلوا وتكاثروا وحافظوا على تراثهم وتقاليدهم اليمنية، فتميزوا عن أقوام المكان والجوار. وليس في تلك الحقبة ما يشير إلى عبودية أو خلاف أو صراعات سياسية أو نقمات شعبية حفرتها السجلات على حيطان المعمورة! ويفهم من هذا السياق أن يوسف لم يُستعبَد في مصر ولم يُستوّزَر، وأن عودتهم إلى اليمن بعد أربعة قرون لم تكن من مصر، بل من الحبشة. ويُفهم من هذه الرواية الشيقة أن أحفاد يوسف ربما تطوّر لهم صراع مع الحكام الإثيوبيين، تفاقم واستمر حتى ظهور موسى ومواجهته النظام الحبشي وهروبه من عواقب الملاحقة، إلى آخر القصة. وعلى هذه الصورة تصبح «مدين» التي لجأ موسى إليها بلدة في الجوار القريب أو في محيط النوبة السودانية ما يُفسر سهولة التفاهم اللغوي بين موسى وأهلها. هنالك أقام فيها عند شعيب وتزوج ابنته إلخ[(٢)]. وعليه يصبح الرجوع من مدين، ليس إلى مصر، بل إلى الحبشة! واستطراداً يصبح الخروج الكبير من الحبشة إلى اليمن عن طريق باب المندب وليس عن طريق سيناء بما فيه من ملاحقة مثيرة.... لكن يستطرد أصحاب النظرية بالقول إنه بعد وفاة موسى مباشرة اختلف أتباعه حول وجهة أرض الميعاد ورفض قسم كبير منهم أن تكون

---

(١) الحبشة في تلك الأيام كانت تضم جيبوتي وإريتريا والسودان وبعضاً من الصومال.

(٢) هناك إجماعات أكاديمية على أن شعيب عربي ومدين عربية تقع في أرض معان على أطراف الشام أقرب إلى صحراء الحجاز.

اليمن أو المنطقة الممتدة من جازان إلى الطائف أرض الرجوع والخيار، وفضّل أرض كنعان بدلاً عنها وكانت له الغلبة وإقناع القوم برمته.. وعلى هذا الأساس تابعوا إلى فلسطين وخطّ الكهنة والقضاة الحكام تفاصيل الرواية النهائية على أنها خروج من مصر عبر سيناء إلى أرض الميعاد، على قاعدة «لا من رأى ولا من سمع».

يوسف الملعون!

كتابات المؤرخ مانيتون المصري عن الهكسوس قليلة ومتأخرة وغير موضوعية. فمن جهة كان بعيداً جداً عن تاريخ الآثارات الكبرى والأهرامات والشواهد البارزة. ومن جهة أخرى كان معروفاً بكرهه الشديد للهكسوس. واستطراداً، فإن الاعتماد على كتاباته وحدها عن تاريخ مصر القديم (المملكة القديمة)، سيما عند حدود الأسرة ١٨ وما قبلها، لا تعطي صورة دقيقة أو كافية عن تاريخ مصر آنذاك. وإذا كان الأمر كذلك مع صاحب العلاقة نفسه والمؤرخ المصري الوطني الأمين، فكيف بمؤرخ أجنبي غريب حقود ينقل عن مانيتون ويترجم على هواه؟

المؤرخ اليهودي المعني هنا هو المؤرخ الفلسطيني يوسفوس، وقد جاء بعد مانيتون بثلاثة قرون تقريباً. يُعتبر عند الكثيرين من العلماء رجلاً عنصرياً متحيزاً ومادةً أكاديمية سمجة. ليس فقط لأن مصريات يوسفوس منقولة بمعظمها عن مانيتون، بل لأننا لا نعرف إن كان قد نقلها بصدق وأمانة، لا سيما أنه هو أيضاً كان يكره مانيتون بسبب ملاحظات له عن «دناسة» اليهود. وقد ورد وصف مانيتون لهم هذا بسبب مظاهر وجودهم وسلوكهم في الإسكندرية على زمنه. صحيح أنه لم يتحدث بوضوح أو صراحة عن جماعة يهودية معينة في سياق حديثه عن تاريخ مصر العريض، إنما تحدث عن خروج الهكسوس. لكن من ادعاءات يوسفوس أن مانتون كتب باسهاب عن اليهود وعن «جماعات غريبة» ساعدتهم أثناء حكمها لمصر. بيد أنه لا توجد هناك وسيلة للتحقق من كل

كتابات مانيتون لأن نسختها الأولى (الأصلية) تُلف معظمها في حريق مكتبة الإسكندرية الشهير، فيما ضاعت النسخة الثانية بين سجلات الكهّان المصريين ورفوف البطالمة. وكان قد سبق ليهود الإسكندرية أن نهلوا (وحرّفوا) تأريخات مانيتون، ومنها نقلوا بانتقائية ما ناسبهم عن غزاة مصر (الهكسوس) وربما اقتبسوا من خروجهم خروجاً افتراضياً لموسى. وفيما كان مانيتون يحتقر الغرباء والمحتلين لأسباب وطنية بديهية، فإن اليهود بدورهم ولأسبابهم الدينية البديهية أيضاً لم يكونوا على ودّ ووفاق مع المصريين!

هكذا أسهب يوسفوس وأطلق العنان لتعصبه الديني وأرخى العضل لأنامله وكتب بما صار نقشاً على الصوّان، لا سيما أنه اعتبر خروج الهكسوس هو ذاته خروج موسى، أي إن الهكسوس - حسب استنتاجه - كانوا يهوداً؟ وعند هذا المفترق من الرواية، يتساءل البعض عن حقيقة الالتباس بين اليهود والهكسوس، لا بل بتحديد السؤال عن هوية الهكسوس أنفسهم: كيف تمكّن «متخلفون» مثلهم الأتيان بعربة الحصان الحربية وأسلحة عصرية والقيام بتنظيم الحصاد وإدارة الإنتاج ما لم تكن لديهم خبرة حضارية وزراعية سابقة؟ هذه المقدرة الحضارية لدى الهكسوس لا شك أنها حالت دون معاملة المصريين بظلم وقسوة واستعباد، كما حالت دون إبطال عبادتهم «الآمونية»، أو تهويدهم قسراً على أساس أنهم يهود؟

بيد أن مفكرين آخرين ردّوا على هذه النظرية باعتبار أن الهكسوس ربما كانوا كالمغول والتتار الذين لم يمنعهم التخلّف من التفوق العسكري على غيرهم والتوسع إلى أقاصي الدنيا. أي إن الهكسوس «تمصّروا» بدخولهم إلى مصر واتخذوا من الآلهة المصرية آلاهات لهم. وفي مكان لاحق يزعم بعض آخر - وإن تلميحاً - أنه استناداً إلى يوسفوس، فإن الهكسوس هم تحديداً اليهود الذين حكموا مصر في العهود القديمة، فكثرت أعدادهم وامتدت إقامتهم وصاروا نسيجاً اجتماعياً أساسياً من قماشة الثقافة المصرية. وهم بذلك ليسوا فقط أصحاب حضارة عريقة، بل لهم الفضل أيضاً على المصريين لوجودها.

لذا، فالأمر يحتاج لغربلة التكرار من كتابات يوسفوس وتصفية الصُدف منها واختصار التضخيمات فيها.. ولئن كان الكثير من المفكرين يعتمدون على كتابات المؤرخين العمالقة (كلاسيكيين) أمثال مانيتون وهيرودوس وسيبوس، إلّا أن اعتمادهم على الداهية الماكر يوسفوس مبالغ فيه. الأنكى في هذه المسألة أنه لا تكتمل أطروحة باحث أو أكاديمي أو مؤرخ رصين في العالم الغربي إلّا إذا استشهد لجامعته بيوسفوس هذا، كما لو أنه وكالة «ناسا» لمرجعية أنباء الكواكب والفضاء. ومن الأدلة الكثيرة على عدم موضوعيته أنه ذكر لنا في كتابه «تاريخ اليهود» أنه حوصر في مدينة القدس من قِبل الرومان عام ٦٧ م مع ثلة من المقاومين الوطنيين. كلهم حاربوا بضراوة وماتوا شجعاناً ولم ينجُ من المذبحة إلّا مثقف يهودي واحد اسمه يوسفوس (يوسف بن متتاياهو). انطلق بعدها ليصبح أخطر مؤرخ معتمد لدى دوائر الفكر في أعرق إمبراطورية في التاريخ في روما. منها انتقلت تأريخاته عن اليهود إلى قصور الحكام وجامعات الغرب والمتاحف!.. وقد ورد عنه تعليقه «أن معظم مؤرخي مصر هم من الإغريق المتأخرين، فيما تاريخ اليهود يعود إلى قعر الزمن قبل ظهور الإغريق على الساحة بقرون». ما يعني مداورة أن كتابات مانيتون عن مصر والهكسوس ليست دقيقة حسب تلميحاته - باعتبار أن مانيتون إغريقي وليس مصرياً - برأيه!

من الممكن جداً أن نثق بما كتب يوسفوس عن معاصرته للأحداث وعن مقاومته للرومان حتى بلا شهود. من الممكن أيضاً أن نتفهم خوفه على روحه (اللهم نفسي) عندما وشى بأتباعه وانضم إلى محاربيه وبطانة الإمبراطور. لكن كيف نثق بما كتبه لنا عن أحداث جرت قبل ولادته بألف وستماية سنة، أو عن الهكسوس أو عن أخناتون أو عن رحلة بلقيس إلى القدس كما وصفها؟ فكونه مؤرخاً مرموقاً ومدعوماً من السلطات الرومانية لا يعني أن تأريخاته صحيحة أو ينبغي أن تكون مقبولة، حتى وإن اعتمدتها جامعات الغرب أو متاحف «علي بابا»... فلو أخذنا «تاريخ المسلمين» كمقاربة، لنا أن نثق إلى حد ما بكتابات

المؤرخ محمد حسنين هيكل عن أزمة السويس، ومدرسة البقر، وأسرار أمّ كلثوم، وحرب ٦٧، وحياة عبد الناصر، ومغامرات المشير عامر، وحرب مصر مع اليمن والجزائر، والوحدة مع سوريا، والمواجهة مع حلف بغداد، وما شابه من أحداث عاصرها أو انغمس في طبخاتها. لكن لا يمكن أن نثق كلياً بتأريخه لمعركة «خيبر»، مثلاً، أو نعتمد على كتاباته عن «فتح» المسلمين لمصر أو طرد العرب من الأندلس، فقط لأنه مؤرخ مسلم عاصر تاريخ انتقال مصر إلى عصر جديد (من الملكية إلى الجمهورية)؟ وكما لليهود «يوسفوسهم» الذي لا يُعترف لأي بحث أكاديمي بدون ذكره، كذلك العرب مع مؤرخيهم العظام الذين استلهموا الكثير من تفاسير اليهود والإسرائيليات في القرن الثامن والتاسع ميلادي والحقبة الأندلسية. حقيقة الأمر أننا لا نعرف بثقة تامة ما إذا كانت مصادر اليهود سليمة عن الهكسوس، أو أن مصادر العرب عن إبراهيم قد جاءتنا من مؤرخي اليهود وكتاباتهم، أم أن اليهود تلقوا أخباراً عنهما أثناء السبي؟ في جميع الحالات هناك تسريبات هائلة من الإسرائيليات إلى التراث العربي وخاصة في تفاسير قصص الأولين التي وردت أيضاً في التوراة.

أهمية يوسفوس لا تقتصر على المكانة الرفيعة التي وضعوه فيها. بل تتعداها إلى إقرار معظم المؤرخين بضرورة الأخذ من تدويناته لأن الباحث يضمن بها عدم المساءلة عما يجتهده لبناء نظريته مستفيداً من سماده. وعليه، فإن كتابات التوراتيين عن رحلة إبراهيم من «أور»، نقاداً كانوا أو مؤيدين، أو عن حكم يوسف في عصر الهكسوس، أو خروج موسى من مصر أو بناء سليمان للهيكل، تبقى كتابات مظنونة ومريبة، خاصة إذا ما كان جزء كبير من مصادرها معتمداً على تأريخات يوسفوس وشروحاته. صحيح أنه لم يخصص كثيراً من كتاباته عن إبراهيم تحديداً، لكن ما ذكره عن ملامح رحلاته وتفاصيل يوسف لا يتطابق كلياً مع الروايات الموجودة في النصوص التوراتية، لأنه آثر أن يركز في المقام الأول على مضمون التاريخ اليهودي كرزمة عريضة واحدة، بما في ذلك أصول الشعب اليهودي وخروجه من مصر. ففي كتبه، وخاصة في كتابي

«آثار اليهود» و«الحروب اليهودية»، ضمّن يوسفوس بعض المعلومات عن البطاركة الأوائل لكن لم يقدم سياقاً منهجياً تاريخياً أو تفسيرات للأحداث التوراتية خارج النَفس التعصبي للديانة اليهودية. وإذا كان من أمر صاعق ملفت في كتاباته، هو أنه لم يلمح إلى عبور موسى من الحبشة بدلاً من سيناء أو ضياعه في اليمن أو الجزيرة العربية حتى عندما أسهب الكتابة عن بلقيس في معرض سيرة سليمان.

ولئن حشرت يوسفوس هنا على هذا النحو، فلأنه لم يترك تفصيلاً توراتياً لم يحشر هو نفسه به إلى درجة أن عدم الاقتباس منه اليوم يعتبر دلالة تمرد وإلحاد بنظر الكثير من الأكاديميين، وقد تتعرض مادة البحث بدون اسمه إلى التشكيك في أفضل الحالات، وإلى الإهمال في معظمها.

«عماليقوس»

من خلال روايات الهكسوس وغزو مصر، ورد الكثير من التفاصيل حول عناصر الغزو إن لجهة الزمن أو لجهة التسمية أو لأصول وهوية الغزاة. هناك آراء كثيرة ومتعددة ربما أقدمها انطباعات مانيتون، وفيها وصفه لهم بـ«الملوك الرعاة». لكن الإجماع العلمي حول الهكسوس أنهم حكام غرباء تمكنوا في فترة من الزمن من غزو الجزء الشمالي من البلاد (مصر السفلى) عن طريق سيناء، وحكموه نحو قرن من الزمن بين ١٦٦٠-١٥٥٠ ق.م. وقيل في تفسير تسمية «الهكسوس» إنها مصرية بامتياز مشتقة من المصطلح «هيكا خاست» (هيقا كاسيويت) التي قد تعني «حكام بلاد غريبة». (لكن هذا شوط طويل بالنظر إلى وجود حرف السين الأخير وهو يوناني تقليدي). ورغم الإجماع أن الهكسوس كانوا أول شعب أجنبى احتل مصر مستفيداً من تفوّق استخدامهم للعربات والأسلحة البرونزية وخبراتهم من بلاد المنشأ، لكن هناك سجلات تشير إلى هجمات ليبية دخلت مصر قبلهم وإن طارئاً؟ وتردد من دوائر التاريخ (بلا إجماع) أن الملك المصري أحموس الأول هو من انتفض على الهكسوس وطردهم إلى غير رجعة.

الملفت أن المؤرخين كتبوا الكثير بخصوص الحقائق المشتركة عن فترة حكمهم، لكنهم لم يكتبوا أشياءً مشتركة كثيرة عن أصولهم. فجأة ظهروا لنا في مصر كأنهم هبطوا من السماء أو كمجموعات بشرية جُمّعت على طريقة «من كل واد عصا»؛ أسماؤهم وآلاهتهم كان فيها ما هو أموري وبعلّي وميناوي ومن حدود البحر الأسود وقزوين ومن نواحي تركمستان وأرمينيا. أي، من أي مكان بعيد في الشرق أو القريب من جزيرة كريت. لكن رغم ذلك التباين، هناك من المؤرخين الرصّان مَن جعل أصولهم سامية بامتياز وأرجعها إلى بلاد كنعان. وبلاد كنعان والنهرين في تلك الفترة تحديداً لم تكن محكومة من جهة احتكارية واحدة. بل كانت ضمن «دول الممالك» التي كانت جماعات أمورية وكنعانية تتقاسمها. لكن السؤال كيف تكون المنطقة مقسّمة ويظهر منها قوم مركزي يغزو مصر عن طريق سيناء؟ الواقع أن المكان الوحيد الذي كان قوياً وعامراً ومركزياً في زمن الهكسوس هو جزيرة كريت. هناك كانت الحضارة المينوية (المينوسية) في أوجّ تألقها (١٦٠٠ ق.م). لكن هذه القرينة لا تثير اهتمام كثيرين، فيصرّون على الرجوع بالتاريخ إلى زمن إبراهيم لفهم أصول الهكسوس وأسباب احتمالات وصولهم إلى مصر ودواعيهم!

إذا رجعنا إلى تلك الحقبة، (زمن إبراهيم)، نجد فعلاً أن بلاد الرافدين كانت تتعرض إلى مناوشات على أيدي قبائل همجية كوتية أمورية نزلت عليها من جبال زاكروس القريبة. فاعتُبرت مناوشاتها المباغتة - كما سبق ذكره - استهلالاً لمشروع توسعي أوصل أحفادها إلى مصر بعد قرنين ونصف من زمنها. ومع أن هذه الجماعات كانت بنظر سكان بلاد ما بين النهرين أقواماً بدوية متخلّفة لا يحلو العيش لها في مكان ثابت، وتتصف بالفظاظة وخشونة الطباع، لكن أغلب الظن أنه كان لها حلفاء في الداخل الرافدي ممن كانوا يعترضون على الحكم الوثني. ولتركيب قِطع اللغز الهكسوسي بطريقة أو بأخرى، جعل بعض الروائيين إبراهيم حليفاً من الداخل لهولاء القوم الأموري، واعتبروا انه كان يُرسل نيابة عن الأموريين في مهمات استكشافية

إلى بلاد كنعان. لا بل إن رحلته الشهيرة من «أور» كانت لتلك المهمة وبذلك الغرض تحديداً! وعلى هذا النهج، كان الوصول إلى فلسطين ومصر فيما بعد مسألة وقت لكل الأحفاد من الطرفين، لا سيما أنهم كانوا جريئين ومسلحين. وإذا صحّ ما وصفته مدونة رافدية بأن الأموريين - رغم بدائتهم - كانوا من أصحاب الطهارة (؟) لا يأكلون اللحم نيئاً ولا تعنيهم مراقد الموتى، فلربما كانوا أيضاً من أتباع اعتقاد توحيدي حنيف معين كالصابئة القديمة. وبوصول أحفاد الأموريين إلى بلاد كنعان اختلط أمرهم عند الإخباريين مرة باسم «العموريين»، ومرة باسم «العماليق»، ومرة باسم «الهكسوس»، ومرة باسم «القيداريين»، اعتماداً على ما ورد في مصادر متنوعة.

هناك من العلماء مَن حاول مستقلاً تأكيد هذه الصلة بين العماليق والهكسوس من خلال اللغة التي كانت متداولة في مصر على ألسنة الغزاة. هنا لا بد من استعراض بعض ما قاله المفكر اليهودي المتخصص باليهوديات ونصوص العهد القديم، ديفيد نيمان. فبالإضافة إلى تأسيسه معهد الدراسات الإسرائيلية في نيويورك عام **١٩٥٣** م، له العديد من وجهات النظر المشاكسة للسياق التقليدي. إلّا انها لم تحل دون تأكيد صدقيته الأكاديمية ورصانته العلمية! يقول نيمان: «إن لغة الهكسوس كانت فينيقية عبرية»، وقد شبّه الفرق بينهما كالفرق بين الإنجليزية والأميركية؟ ما يعني أن الهكسوس برأيه كانوا كنعانيين بامتياز. لكن على افتراض أن زعمه هذا صحيح (؟)، فمَن قال إن لغتهم العبرية المستعملة في مصر كانت هي لغة الأصل؟ في أفريقيا اليوم هناك دول لغاتها الرسمية فرنسية أو برتغالية أو إنجليزية رغم زوال الاستعمار. ولربما كانت لغة الهكسوس مصرية فقط في شوارع مصر وأكادية في الدوائر الرسمية والتجارة الخارجية! وكنت سأصدق استنتاج نيمان لو أن الأوغاريتية (التي أخذ الفينيقيون منها لاحقاً «ألف باءهم») كانت فعلاً موجودة في عصر الهكسوس! إذ إنها استغرقت نحو ٤ قرون بعد رحيلهم عن مصر لتظهر في مملكة أوغاريت. وعلى هذا الأساس، فإن العبرية لم تكن قد تشكلت كاملة قبل إنشقاق المملكة

الإسرائيلية بعد قرنين على ظهور الأوغارتية الفينيقية. ما يعني أن العبرية قد ظهرت بعد الهكسوس بنحو ٦٠٠ سنة على أقل حساب!

أغلب الظن أن الهكسوس كانوا أموريين فعلاً، يتكلمون لغة شعبية مختلطة بين الأكادية والحثية والكنعانية على طريقة اللغات المركبة. اليوم - على سبيل التوضيح - هناك العديد من اللغات في العالم التي تطورت من خلطة ثلاث لغات متميزة أو أكثر. ولربما كانت اللهجة العبرية بدايةً تكتب آنذاك بطريقة مميزة عن الدارج لدى بقية الأقوام، أي (مقاربة) أشبه بميزة لغة مالطة، حيث إنها اللغة السامية الوحيدة اليوم التي تكتب باللاتينية[١]. وعموماً، فاللغات المركبة المختلطة تعرف اليوم باسم «الكريول»، وغالباً ما تتضمن عناصر من لغات متعددة، وتشكل لغة جديدة بقواعدها ومفرداتها وهيكلها. من أبرز الأمثلة على لغات «الكريول» اليوم اللغة الهايتية، وقد نشأت في هايتي وتطورت بمزيج من الفرنسية (لغة الاستعمار) واللغات الأفريقية الأصلية التي حملها الأفارقة المستَعبدين. لكن دعونا نؤكد أن هذه المقاربات والترجيجات عن لغة الهكسوس ولهجة العماليق ولَكنة الكنعانيين والعبرانيين في تلك الفترة الغامضة إنما هي جزء من افتراضات ونظريات تناولها المفترضون والمنظرون من كل الأطياف بناء على مقاربات عصرية بلا أدلة قاطعة.

أهل البيت؟

عندما توفيت سارة، ورد في النصوص أن إبراهيم تزوج للمرّة الثالثة. والزوجة الثالثة بعد هاجر قيل إنها حبشية تدعى قنطورة (كتوّرة). لكن هناك من وَازن بين مراحل نصوص التوراة، وقال إن إبراهيم أخذ قنطورة خليلةً له في

(١) والمالطية تشبه إلى حد قريب فلسفة ما طوره الشباب العربي عند ظهورالجوالات بدون الأحرف العربية، فاستنبطوا لغة عربية جديدة لكن بلغة لاتينية، وصاروروا يكتبون العربية بالأحرف اللاتينية لاحتواء القصور. واستعملوا بعض الأرقام كناية عن أحرف عربية غير متوفرة باللاتينية، كالعين والخاء والظاء والضاد.

البداية قبل أن يتزوجها لاحقاً. هناك مَن رفض لإبراهيم فكرة أن يكون قد تزوج من حبشية أصلاً، رغم اعتراف التوراة بها (تك: ٢٥: ٤)؛ فاعتبر هذا البعض الرافض قنطورة هي نفسها هاجر، أمّ إسماعيل. لكن نصوص التوراة صريحة وواضحة وتقول إن قنطورة أنجبت لإبراهيم ستة أولاد «أحباش» هم: زمران، يقشان، مَدْين، مَدان، يشباق وشو. وهؤلاء - حسب بعض المفسرين - هم أجداد القبائل العربية التي استوطنت أطراف اليمن الغربي وشمال غرب الجزيرة بين تيماء والأردن والنقب وبعض جنوب كنعان. وعُرف عنهم تقليدياً أنهم كانوا أيضاً إخوة للعماليق وأشقاءً لهم. في هذا السياق، يذكر الطبري وأمثاله أن جماعة «المديانيين» الذين عاشوا على الحدود بين الجزيرة وبلاد الشام هم سلالة «مدين» نفسها. وقد كانت لديهم ثقافة جدهم إبراهيم التوسعية ومعتقداته ومعرفته الوثيقة بمصر وأحوالها. وكان مدين من دون اخوته الأقرب جغرافياً إلى مصر من جهة سيناء، ما يعني أن الهكسوس - لو كانوا كنعانيين حقاً - لكانوا هم المديانيين بذاتهم!

هناك من المحققين مَن ربط المديانيين (الهكسوس) بأجداد الكاهن الحكيم «شعيب» الذي كان لموسى معه فيما بعد تجربة فارقة ملفتة[١]. لكن الجدير بالالتفات إليه في هذا السياق - ولو بركلة بعيدة - أن البهائيين يعتقدون أن مؤسسهم بهاء الله ميرزا حسين علي هو من ذرية إبراهيم المباشرة سواء من أحفاد هاجر أو أحفاد قنطورة. وهناك في القرون الخوالي مَن أكد أن قنطورة هي أمّ الحبشيين وقد استعملوها قرينة لمقاربة الطقوس الأفريقية بالطقوس اليهودية. هذا مع العلم أن هناك رواية عميقة وعتيقة تُرجع الفلاشا في إثيوبيا إلى ما بعد عصر إبراهيم بثمانية قرون، وتحديداً إلى صلب الملك سليمان من ابنه منليك ولد بلقيس. واختصار القصة لمَن لم يسمعها من قبل أن الكتاب

(١) الكاهن الحكيم في مديان هو يثرون حسب التوراة وهو شعيب في التراث العربي الإسلامي. والملفت أن مديان التي تقع إلى الشرق من خليج العقبة يسميها البعض «عربان» كناية عن بداية بلاد العرب ابتداءً من جنوب الأردن!!

التاريخي المقدس عند الأحباش «بهاء الملوك» يذكر أن ابن الملك سليمان من بلقيس زاره في أورشليم يافعاً ثم عاد إلى أحضان أمه بلقيس في إثيوبيا بعد أن لقنّه دروساً في الحكم والحكمة والعدل والفروسية. هناك في أكسوم باح الولد لأمه بذنب خطير اقترفه وهو في قصر أبيه سليمان. الجريمة «الشنيعة» التي ارتكبها أنه أخذ «تابوت العهد» خلسة من وراء ظهر أبيه بالتآمر مع جماعة من الحراس، كهنة بني لاوي بن يعقوب، (أشبه بجماعة الأوقاف). ومنليك لم يُهرّب التابوت إلّا ليبرهن على شرعية أصله من سليمان واستمراراً منه لوراثة العهد.

وعلى طريقة الأساطير، كُوفئ منليك على «إنجازه» هذا كرد اعتبار لشرف أمه، (على أساس أن سليمان لم يكن قد تزوج بلقيس علناً)، فتخلّت لولدها عن العرش ليحكم وحيداً على إثيوبيا ويحافظ على الخط اليهودي لـ«بيت إسرائيل» ببركة نعش مسروق. وقد قيل فيما بعد إن منليك خبّأ «تابوت العهد» في حفرة تحت دير «بحيرة تانا» القريب من «مكيدة»، مسقط رأس أمه، حيث بقي هناك ٨٠٠ سنة قبل نقله سراً إلى كنيسة «القديسة ماريّا» في أديس بابا. هناك يحرسه إلى اليوم حُرّاس مخلصون وقساوسة مؤمنون بالعهد، حسب الاعتقاد المحلي والإشاعات. (لكن كالعادة بدون أدلة)[١].

في المقاربة لهذا النهج من الأحداث، نرى روايات معاكسة تقول إن منليك وُلد وتربّى ودرس وترعرع في أورشليم، وبقي فيها ردحاً من الزمن حتى بلغ سنّ المسؤولية الشرعية. فقرر الذهاب إلى الحبشة بنصيحة من والده وموافقته. لكن لم يهن عليه ترك «تابوت العهد» في معبدٍ بناه أبوه سليمان لنسائه

---

(١) هناك من ادّعى أن تابوت العهد نقل إلى كهف عميق في أحد مصايف بلقيس في سبأ. وهناك من الفرضيات والتكهنات عن مكان وجوده (من الكعبة إلى المسجد الأقصى إلى جيرة إبي الهول) ما يتجاوز حدود المنطق والمعقول رغم أستعمال التكنولوجيا في معظم الأماكن المحتملة. أما عن محتوياته، فقيل إن فيه حجراً من أورشليم وعصا هارون وجرّة المنّ وزيت مسح مبارك ولوحين فقط من كل ألواح موسى، وربما نسخة من الشريعة (الأسفار الخمسة لموسى) - كلها بلا أدلة.

الوثنيات؛ فعقد العزم، هو وأصحابه وبعض الكهنة، على تحرير التابوت من التلوث الوثني ومن البعّلية التي تسرّبت إلى المعبد عن طريق زوجات أبيه الكنعانيات. هكذا تمكّن منليك من استبدال النعش واخفائه أثناء مغادرته. وسواء ذهبنا مع هذه الفرضية أو مع الأولى، فالأسطورة لم تتغيّر بخروج التابوت من أورشليم وتسلم منليك الحكم على مملكة أكسوم وسبأ. وهذا السرد سيكون له دلالات معينة فقط عند أصحاب النظرية التي تُدخل الحبشة في بُنيانها، وإن كان خروج موسى قد حدث قبل سليمان بنحو ثلاثة قرون. وتستمر الروايات عن قصص التوراة ولا تنتهي من تبرير وتعليل مع العلم أنها نفسها لم تذكر بلقيس بالاسم ولم تذكر زواج سليمان من ملكة سبأ لا علناً ولا سراً. وعليه لا زواج رسمياً بين سليمان وبلقيس ولا بين ملك أورشليم وملكة سبأ - حسب قناعات المؤمنين من غير الأحباش.

والعبرة من هذه التفصيلات أن كل فريق يهودي يدّعي الربط الأسبق بالبيت الإبراهيمي: إسحاق يدّعي ارتباطه بالتفضيل الأسبق كابن الزوجة الأولى سارا. وإسماعيل يدّعيه كالأبن البكر لإبراهيم. ويعقوب يدّعيه كممثل شرعي لبني إسرائيل وحفيد القيادة. ويوسف يدّعيه كمنقذ بيت إسرائيل من الجوع وكحاكم أمين. ومدين يدّعيه كعمليق النقب وسند القوم في وجه مصر. وموسى يدعيه كمخلص لبني إسرائيل. كلهم عبروا بإرث إبراهيم من مكانة إلى أخرى، ومن مقام إلى آخر، ومن موقع إلى غيره؛ فأضحت هذه المحطات العبورية رموزاً للانتقال من حالة إلى أخرى تجسّده في أدبياتها وثقافة الشتات.

موسى بعد يوسف - داود قبل سليمان؟

من الواضح أن قصة موسى وخروجه من مصر سردية محورية مهمة لكل الأديان السماوية. وموسى يعتبر في التقاليد الدينية الثلاثة شخصية قيادية مركزية ملهمة، فضلاً عن كونه نبياً. ورغم أن روايته حبلى بالإثارات الخيالية وغنية بالمفاجآت السحّرية والأحداث، أو ربما بسبب ذلك، فإنها تستحوذ على إيمان الملايين حول العالم وتؤثر في وجدانياتهم تأثيراً عميقاً. قصته تشبه الأساطير

التاريخية التي تروي ولادة طفل، لا يُراد لهويته الافتضاح، ولا لأمه الفضيحة، فيوضع في سلة ويُترك في مجرى النهر ليأتي من ينتشله ويتبناه. وهذا ما حدث مع موسى بالحرف والنقطة؛ فانتُشل من «اليم» وتربّى في البلاط الملكي إلى أن شبّ واكتشف بنفسه أصوله اليهودية وتراثه الإسرائيلي. تسارعت الأحداث معه، وتورّط بالدفاع عن أحد عمال السُّخْرَة وقتل بسببه الجندي المعتدي وهرب هو من «مصر». لكن سرعان ما عاد إليها وانقلب على النظام وقام بتحرير شعبه من العبودية، وقادهم إلى أرض الميعاد ومرّر لهم الوصايا العشر كما تسلّمها بنفسه على جبل سيناء!

من الناحية التاريخية، فإن وجود موسى بين العلماء يعتبر مادة دسمة لما يمثله من أساس للسرد التوراتي ولأرض الميعاد.. لكن كما رأينا وسمعنا، فإن تفاصيل القصة لم تقنع نقّادها، مثلما لم تعجب جغرافية التوراة معارضيها. وليس هناك أية أدلة أثرية أو تاريخية مباشرة تؤكد تفاصيل حياة موسى كما جاءت في النصوص.. وحتى من خلال المحاكاة والأدلة التجريبية التي قام العديد بها من المنقبين، لم يكن بالإمكان التحقق من واقعية الخروج ولو بنسبة ضئيلة. لكن لا فرق في ذلك عند البيئات المؤمنة لأنها تتعامل مع موسى بمزيج من الإيمان الفطري الصادق ضمن التفسير الإعجازي في سياق أنظمة المعتقدات السماوية.

أما أهم أسباب انتقاد رواية الخروج من قِبل العديد من العلماء والباحثين (رغم تناقضاتهم وخلافاتهم)، فيمكن اختصارها بفقدان الدقة التاريخية من جهة، وتشابه بداية موسى الطفل ببداية الأبطال في الأساطير من الجهة الثانية. إذ ليست هناك خارج الكتب المقدسة الدينية أدّلة، وإن محدودة، لتأكيد تفاصيل حياته أونشأته أو تلك التي ارتبط بها. لكن الملفت من النصوص أنه وُلد في عام أمرَ الفرعون فيه بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل مرة في عامين؛ هنا أخذت القصة - كما عرجنا آنفاً - مساراً يشبه مسارات قصص بعض الرُضّع الذين وضعتهم أمهاتهم في سِلل قش ورمتهن في نهر على أمل أن

ينتشلهم أحد ويربيهم. هكذا وصل موسى الرضيع إلى خدم القصر على ضفة نهر، فأخذوه فوراً إلى امرأة الفرعون (البعض يقول إلى أخته أو جاريتها)؛ تبنّوه ولداً لهم ونشأ على عاداتهم وقيمهم إلخ. أما بقية القصة، فمعروفة....

من الأسباب الإضافية لانتقاد قصة الخروج، إشكالية التأليف القصصي! إذ نرى موسى يلتقي أخاه هارون صدفةً في طرف الصحراء عند عودته من «مدين». وكان ذلك بعد أن اختاره الرب لإقناع الفرعون بالعدول عن عبادة آلاهات المصريين! وهناك من الأسباب، ثالثاً، تشابه القصة مع الأدب الأقدم بما فيها عناصر من قصة إبراهيم (مكالمة مع الرب في أرض مفتوحة). رابعاً، هناك الجوانب الإعجازية التي لا تُصدق بدون إيمان، كتحويل موسى عصاه إلى حيّة وتغيير لون يده، وانشقاق البحر الأحمر أمامه، وهبوط الوصايا العشر في حضنه، ونزوح ما يزيد على ٦٠٠ ألف نسمة مرة واحدة، غير الأطفال والنساء والعجزة، ودورانهم في سيناء على مدى ٤٠ سنة..

هذه الانتقادات والمناقشات مجرد جزء صغير من التحقق العلمي المستمر في النصوص القديمة والشخصيات التاريخية. وهذا التباين في عشرات العناصر في قصة واحدة من قصص التوراة يمزج التاريخ وعلم الآثار والدين المقارن والحضارات بعضها ببعض، ما يدفع بالمناقشات إلى حدود الريبة والشبهة حول طبيعتها وأصولها وأهميتها. والجدال، كما هو مبين من البداية، لا يقتصر فقط على حقيقة الشتات في سيناء، ولا على العبور من مصر، ولا على الوصول إلى فلسطين، ولا على رفع بيت المقدس في أورشليم، ولا على حقيقة حكم داود ومملكة سليمان، بل على هذه كلها مرة واحدة، فضلاً عن «وقائع» رحلة أبرام مذ غادر «أور». إنه جدل الكبار على كل شيء.

عليك الأمان يا سليمان؟

بعد مرحلة الخروج والتيه والعبور، يصل موسى بشعبه إلى أرض الميعاد. لا يدخلها بنفسه، بل يرسل يشوع بن نون بعد عبور نهر الأردن؛ فيغزوها،

ويستوطن الشعب اليهودي مناطق مختلفة من فلسطين. هنا يستعيد اليهود أنفاسهم قليلاً إلى أن يأتي قُضاتهم ويحكمون عليهم مداورة. تلك كانت فترة ارتباك وعصيان وتوبة وخلاص - حسب وصف «سفر القضاة». وقد انقضت المرحلة بتأسيس مملكة واحدة متحدّة. وتحوّل الإسرائيليون من تجمع عشائري مبعثر إلى نظام ملكي مركزي. مُسح خلاله شاول كأول ملك لبني إسرائيل، تبعه داود، الذي اشتهر بتغلّبه على جالوت وإنشاء أورشليم عاصمة للمملكة. وهنا جاء ولده سليمان وورثه، وقد اشتهر بحكمته وثروته وبناء هيكل الرب والاحتفاظ بـ«تابوت العهد» فيه. وورد في ثنايا التوراة أنه بنى المعبد بخشب الأرز وبمعية ملك صور. كانت هذه الفترة، التي شملت غزو أرض الميعاد، وعصر القُضاة، وعهود الملوك الأوائل (شاول وداود وسليمان)، أساسية لإنشاء وتوحيد هوية إسرائيل القديمة وممارساتها الدينية كما هو موضح في العهد القديم!

الملفت أن فترة داود وسليمان كلها تبدو وكأنها غائبة عن عيون التاريخ وسجلاته. أين اختفى هذان الملكان من المواجهة مع المؤرخين والمنقبين؟ أن تختفي بلقيس، مثلاً، مسألة يتفهمها المفكرون من باب الأساطير والإسرائيليات، سيما أن التوراة لم تذكرها بالاسم كما تقدم. لكن أن يختفي سليمان نفسه، فأمر أغرب من الخيال، إذ إنه لم يقترن تراث في العالم كاقتران تراث اليهود بمعبد سليمان وحكمه. هم موجودون في كل مكان وكل زمان، لكن سليمانهم ليس موجوداً إلّا على صفحات الكتب؟ أين أختفى وكيف تبخرّت آثاره عنا جميعاً رغم ضخامة إرثه وصيته من الفرات إلى النيل؟ كيف لمملكة تمتد حدودها إلى هذا الحدّ من المساحات الشاسعة بين أراضي ومشاعات الحضارات أن تختفي من على وجه الأرض هكذا، ناهيكم أنها أرض مقدسة؟ كيف لملك الملوك سليمان أن يضيع منا تحت أنقاض أورشليم، وهي الأخرى، مفقودة بين أسماء المدن ومعانيها؟ كيف يختفي إرثه رغم مآثره وبطولاته فيها على مدى العمر؟ ولئن عجزت كل التنقيبات عن العثور على

عرشه حتى الآن في القدس نفسها، فكيف تعجز عن إيجاد امتدادات له في ضواحيها أو في الخارج الأوسع على حدود فلسطين أو عند جيرانها؟

هذا هو السؤال المحوري الذي يحيرّ كل الشاغلين بهذا اللغز العويص ويقلق مضاجع كبار اليهود والمفكرين والمنقبين على حد سواء. كان بن غوريون محقاً عندما قال: «لا قيمة لإسرائيل بدون القدس ولا قيمة للقدس بدون هيكل سليمان». ورغم عشرات العقود من الاحتلال المنظّم والبحث المستمر، لم تعثر إسرائيل على شيء يذكر باستثناء قبرٍ وضيع لحاكم يوناني، وحائط قصير (٦٠م × ٢٠م) يبكون على جدرانه. وقد أجمع معظم الآثاريين أن حتى حائط المبكى (البراق) هذا لا يعود إلى فترة مملكة سليمان، إنما إلى فترة حكم هيرودس الكبير، ملك اليهود في عصر الرومان، أي إلى ٨٥٠ سنة بعد زمن سليمان الافتراضي. بيد أن اليهود المؤمنين يعتقدون أن الجدار هو الأثر الأخير المتبقي من هيكل سليمان نفسه. الواقع أنها فضيحة تاريخية أن يأتي أكاديمي منقب إسرائيلي رصين يُدعى إسرائيل فنكلشتاين ليقول إنه لم يعثر على شيء! تنقيباته المسهبة والمضنية لم تشر إلى وجود مملكة لسليمان، ولم تدل على أي شيء يقارب أوصاف التوراة عنها. ربما يكون سليمان قد فُبرك في المخيلة الجماعية عند اليهود بعد السبي على شاكلة ملوك أشور وبابل! لكن عدم وجود سليمان في أورشليم المفترضة أو في فلسطين التاريخية لا يعني بالضرورة أنه مختلق أو لم يكن موجوداً بالمرّة. بل ربما كان موطنه بنفس الاسم (أورشليم) لكن في مكان آخر، أي في مكة أو اليمن - حسب فرضيات بعض البحّاث العرب. أو ربما كان موطنه في مكان يُدعى (أورشليم) لكن في أورشليم أخرى أو زمن مختلف تماماً عن الزمن الذي ينقبون فيه. ربما اختبأ من خطر مفاجئ فحمل أشياءه الضرورية وأطلق العنان لرجليه ريثما يتبدد الخطر. فعليك الأمان الآن يا سليمان في ظل من يبحث عنك بشغف، ويتوق إلى لقائك بشوق وحرقة.

عبرانيون وعابرون و...

وهكذا، فإن كل شبر في مشوار أفراد قبيلة إبراهيم عبر الزمن، كان بحد ذاته حكاية عويصة ومثيرة. وبتراكم الأمتار والمسافات، صارت الحكاية أسطورة مريبة عند المشككين وقصصاً عن الخيال والمعجزات. وكلما مرّ على ذرية إبراهيم وقت، وقُطعت تحت أرجلهم مسافات وعن جوانبهم بحار، تراكمت القصص وتكدست الألغاز واختلط الأخيار بالأشرار. كان عبور إبراهيم من شرق الفرات إلى غربه سلسلة عويصة من روايات متشابكة بين حدود حضارات جبّارة وملحمة طويلة من العذاب والمعاناة والتفكّر والتعبّد.

فلا عجب إذن - في نظر البعض - أن انطلق مفكرون كثيرون من ذلك «العبور» الأسطوري ليسمّوا إبراهيم وعشيرته بـ«العبرانيين». لكن غيرهم أطلق هذا المصطلح بعد «عبور» موسى البحر الأحمر في طريقه لأرض الميعاد. وعلى هذا التصوّر يبني أصحاب النظريات استنتاجهم أن الأشياء غير المعقولة التي أوردتها التوراة في سياق عبور البحر تصبح معقولة في بيئة «بحر القصب»، (بحر الريد) أي بحر الدلتا، لا سيما لجهة الظواهر الطبيعية وهجرة الطيور والمناخ والرياح وقوس قزح والمدّ والجزر. ومن هذه الزاوية يكون «بحر القصب» موقعاً مثالياً لحقيقة وقائع التوراة ومناسباً لإسعاف أتباع موسى وتمكينهم من العبور بشكل أقل دراماتيكياً وأكثر واقعية. أما التعليل المنطقي لأنعدام الأثر في محيط «بحر القصب»، فهو جريان الماء باستمرار منذ **٢٣٠٠** سنة، واستمرار حركة الرياح بدون توقف، وتكالب الحيوانات دوماً على بقايا المخلفات والقمامة من جلود وأقمشة وطينيات إلخ.

وعلى تعليلات «العبور» المتنوعة هذه، فإما أن تصيب إحداها التسمية وتكون موفقة، أو أنها تبقى مجرد تخمينات لا تجلس على أريكة الواقع. هناك فعلاً جماعة وردت في السجلات باسم «خابيرو» (خبيرو) وليس «عابيرو» أو «عبرانيين، سنعرج عليها بالتفصيل لاحقاً، لكن الجدل بين المعنيين حول المصطلحات «العبروية» لا يزال على أشدّه. وقد حاول بعض اللسانيين الربط

بين «الخبيرو» و«العابيرو» مستندين فقط إلى التشابه اللفظي والتحوير التقليدي في نطق الأحرف أو في اللغة العبرية. بيد أن غيرهم رسم فروقات زمنية وجغرافية وعرقية شاسعة بين الجماعتين.

لكن الأبحاث، على كثرتها، لم تفضِ إلى استنتاج قاطع. ما يجعل أصول اليهود والعبرانيين والإسرائيليين والفلاشا متشابكة أو ملتبسة. بل ذهب البعض إلى إدخال مصطلح «عابريين» أو «خابريين» لقباً عريضاً لجماعات تشبه الغجر كما وردت في سجلات الأشوريين. فالعبرانيون، ومفردها «عبري» نسبة إلى عَبر، هي أرض تهامة - حسب دراسة كمال الصليبي. إلّا أن غالبية البحّاث بيّنت أنه لا علاقة بين اللفظين. وأغلب الظن أن تسمية «العابيرو» أو «العبرانيين» جاءت متأخرة جداً عن «خبيرو» ولا تنتمي إلى تهامة - هذا مع العلم أن تهامة كانت في ذلك الوقت مأهولة بقبائل متنقلة عابرة بين الهضاب والوديان في الاتجاهات الأربعة. ومصطلح «خبيرو» هذا قديم وورد في النصوص الرافدية من عصر إبراهيم إبان سلالة «أور» الثالثة (٢١٠٠ - ١٩٥٠ ق.م). وما إن رحل السومريون عن المشهد حتى غاب الخبيرو عن بلاد الرافدين (وكأنهما كانا مرتبطين) ليظهروا في فترات لاحقة بأمكنة أخرى من الهلال الخصيب وبأسماء محوّرة ربما عكست اختلاف لهجات التنقل والمواقع.

الغريب فعلاً أن مصطلح «الخبيرو» هذا، ورد أيضاً في رسائل «تل العمارنة»، أي في زمن أخناتون. وعلى الرغم من الفرق الزمني بين عصر إبراهيم وعصر أخناتون (نحو ٦٠٠ سنة تقريباً)، يصرّ بعض المؤرخين على أن «العبرانيين» هم أنفسهم «الخابيرو»، لا سيما أن قبيلة إبراهيم عاشت في ظلال سلالة «أور» الثالثة حيث كان قد ورد في سجلاتها مصطلح «الخابيرو» لأول مرّة. فهل يكون مَن ذكرتهم رسائل «تل العمارنة» هم فعلاً أحفاد إبراهيم، وكانوا كل الوقت يرومون، كالغجر، متنقلين بين ضواحي الممالك الكنعانية؟ وهل هم مّن كانوا موضوع شكوى ملوك كنعان لأخناتون في رسائلهم إليه؟ أما أن الفرضية لا تستوي من أساسها لأن اليهود كانوا أصلاً ساكنين في مصر في

حقبة أخناتون ربطاً برواية موسى - حسب النصّ التقليدي؟ هذا إلّا إذا كان موسى نفسه قد عبر سيناء آنذاك وبدأ بمضايقة حكام المدن في كنعان بما تقاطع مع «رسائل تل العمارنة»! لكن هذه الفرضية - إن صحّت - قد تدحض أي علاقة بين موسى وأخناتون أو تفترض أن موسى استغل أوضاع مصر وهرب من طريق أخناتون، سيما أن حكم مصر للمدن الكنعانية آنذاك كان في الحضيض بسبب انشغال أخناتون بفلسفته التوحيدية ودينه الجديد. هنالك كما سنرى تباعاً ما لا ينتهي من الفرضيات التي يجد صاحب كل منها تفسيراً منطقياً يبررها، ومنها على سبيل المثال أن اللغة العبرية سميت بهذا الاسم نسبة إلى «العبرانيين» الذين حملوا اللغة من بعد الكنعانيين!. وسيكون لنا في الملحق آخر الكتاب تفاصيل أكثر عن الفروقات الثقافية بين مصطلحات «العبرانيين» و«اليهود» و«الإسرائيليين» و«الصهاينة».

فلاسفة أم أنبياء؟

لا شك أن المغزى الفلسفي من رواية إبراهيم أبعد من عصره وأهم من ربعه. لقد خرج باحثاً عن أجوبةٍ وجودية لكل البشرية وعن المعاني المعيشية لكل الناس، وعن وجود الربّ نفسه وغاياته. تماماً كما خرج قبله كثيرون وبعده زرادشت، وبوذا، وهرمس، وكريشنا، وطاو تسي، وفيثاغورس، وغيرهم. سجلات التاريخ المدوّن حبلى بالأمثلة عن الذين انسحبوا إلى البريّة وعزلوا أنفسهم فيها عن تناقضات الدنيا للتأمل أو الإلهام أو للأغراض الروحية أو بحثاً عن راحة وسكينة واطمئنان. هرمس (إن صحّ وجوده) قيل إنه نفى نفسه وتنسّك في الصحراء المصرية - حسب التقليد الأكاديمي. سقراط، وعلى الرغم من حواراته التأملية مع طلّابه، كان منزوياً بطبيعته ومتأملاً في آفاق الكون. فيثاغورس ترك موطنه وقضى عدة سنوات من عمره أيضاً منبهراً في عظمة مصر حيث درس الرياضيات والهندسة والفلسفة. خلال الفترة المسيحية المبكرة، انسحب العديد من الأفراد المعروفين باسم «آباء الصحراء» إلى صحاري مصر

وإلى طيبة والنوبة والحبشة للعيش كنُسّاك أو رهبان في أديرة وحدانية صوفية. لقد سعوا إلى إدراك المبتغى الروحي والعزلة كوسيلة لتعميق علاقتهم بالخالق.. هذه وغيرها الكثير من الشخصيات التاريخية من العصور القديمة سعت إلى العزلة أو التفكر أو التصوّف الروحي بطرق مختلفة، مما ساهم في تطوير التقاليد الفلسفية والدينية والفكرية. كلهم - إن سألتني - بالمنظور اللفظي اللساني «عبرانيون» لأنهم عبروا من عالم مادي إلى عالم روحي أرقى...

أين مصر وأين البطاركة؟

بعد هذه الرحلة الطويلة في عصر مليء بالحوادث ومعالم الحضارة والتدوين، أين هي آثارات الدلالة والأطلال؟ باستثناء التقاليد والتراث في كل الأماكن على الطريق من «أور» إلى فلسطين، لا توجد هناك أية آثار أو أضرحة واضحة من النوع التقليدي لإبراهيم. هناك العديد من أماكن التراث ومواقع الجغرافيا وأحواض التضاريس والأنهر الجافة - التي سُمّيت باسمه أو كُنيت له، لكن ليس فيها ما يرقى إلى مجاورات وقائعية تعود إلى ٤٠٠٠ سنة. هناك قمم لجبال ومتون لهضاب في شمال العراق والأناضول تحمل اسمه. هناك أشياء كثيرة ومعابد تحمل ألقابه أو سماته، لكنها استُحدثت بعد تاريخه بعشرات القرون. ومن هذه المعالم، مثلاً، معبد وكنيس يهودي عريق في دمشق ومسجد قديم في حلب، ولكن تم تدميرهما في ضربات عدائية من قبل الإسرائيليين. وفي جميع أنحاء العراق وسوريا ولبنان، هناك أماكن معينة حيث التقاليد المحلية ما زالت قوية وتقول إن إبراهيم استراح فيها، أو خاض معركة، أو بنى مذبحاً، أو تحدث مع الله. وفي جميع الحالات هناك أدلة واضحة على وجود جماعات يهودية بارزة قبل السبي وإن غاب الدليل القاطع عن قادتها.

ولعل أهم أثر فعلي حسّي عن وجود مملكة يهودية في المشرق ما ورد في لوحة النصر للفرعون شيشنق الأول (شوشنق). واللوحة تَعرض بطولاته

وانتصاراته في كنعان وبلاد الشام خلال فترة حكمه في مصر على رأس الأسرة الثانية والعشرين. و«نقش شيشنق» الذي نصب في معبد «آمون» في الكرنك، يُعتبر من الآثارات القيّمة جداً للمؤرخين وعلماء الكتاب المقدس لأنه يذكر مدناً ويحدد مناطق ذكرتها التوراة بالاسم، لا سيما في سياق حملته العسكرية في بلاد الشام. من هنا يربط بعض الباحثين حملة شيشنق بالرواية التوراتية عن غزو فرعون مصر لمملكة يهوذا في عهد الملك رحبعام ابن سليمان (ملوك: ١٤: ٢٥-٢٦)؛ (أخبار الأيام: ١: ١٢-١٢)[١]. وفي حين أن اللوحة توفر دليلاً قاطعاً على الحملة العسكرية لشوشنق من الناحية التاريخية، لكنها لا تذكر أسماءً لأي من الحكام اليهود، ولا لإبراهيم وموسى وداود وسليمان. ولا تزال علاقة اللوحة الدقيقة بالأحداث الموصوفة في التوراة تخضع للتدقيق وللتفسير والنقاش بين المؤرخين والعلماء.

ولوحة شيشنق هذه مجرد مثال كيف يقوم مؤمنو الكتب بتبرير نقص الأدلة، فيما يوظّف نقّاد التوراة ندرة الأثر دلالةّ على أن الحدث لم يقع من أساسه، أو أنه حدث في مكان أو زمن آخر - على أقل تقدير. ومما يخطر على البال في هذا السياق أن باحثين كثيرين، خاصة مسلمين، يستشهدون بالقرآن نفسه على حقيقة التوراة بأمارة تذكير موسى لفرعون بقصص الأولين على أساس أن أحداثها وقعت في الجزيرة العربية وليس في مصر. ومن أبرز أدلتهم العقلانية على ذلك أنه لا ينفع للعِبر التاريخية الواردة في القرآن أن تتلى على قوم لم يسمعوا عنها، بل العبرة تكون في تلاوتها لقوم سمعوا بها بالتراث والتواتر. فوفقاً للمحدثين المسلمين والشّراح، أخبر موسى فرعون بقصص السلف والأولين، لكن وقعها الأخلاقي أجدى على أبناء الجزيرة العربية من وقعها على قوم مصر، ما يعني أن رواية التوراة لم تحصل في مصر وإنما حصلت في الجزيرة، وأن موسى وفرعون من العرب الأقحاح بالنظر إلى إدراكهما العبر من

(١) البعض وضع تاريخ الحملة في عصر سليمان، أي في ٩٢٤ ق.م بدل ٩٤٥ ق.م

تداول قصص الأولين. وأغلب الظن أن لغة الحوار بينهما كانت من لهجات جنوب الجزيرة العربية نواحي اليمن وحضرموت ولم تكن جزيرة عربية شمالية وإنما مسندية أو توليفة مصرية + هندوآرية + حبشية.

وحتى لو افترضنا جدلاً أن جنوب الجزيرة هي المكان الخطأ لوقائع التوراة على قرائن قصص الأولين، فهناك أدلة عقلانية إضافية تبعد مصر كلياً عن مسرح التوراة. ومن هذه القرائن الواضحة أن اليهود أمضوا **٤٣٠** عاماً في مصر (الخروج: **١٢**: **٤٠-٤١**)، بينما لم يمضوا أكثر من **٧٠** عاماً (جيرميا: **٢٥**: **١١-١٢**) في المنفى البابلي. فكيف يتأثر اليهود خلال **٧٠** سنة بالبابليين ويقتبسوا من لغتهم ويستعيروا من قصصهم وينهلوا من معتقداتهم وعاداتهم ما يغطي صفحات العهد القديم، في حين لم تؤثر **٤٣٠** سنة من الإقامة المستمرة على معتقداتهم وعاداتهم باستثناء رمزية عبادة العجل (الثور)؟ لكن حتى هذه العبادة التي يُرمز للثور فيها إلى القوة والخصوبة، فكانت تُربط بديانات أداد ومردوخ وحداد، آلهات بابل وسوريا. المسألة من هذه الزاوية تبدو كأن فيها وجهة نظر وقد تبرّر عدم وجود موسى في مصر، واستطراداً عدم وجود أسلافه فيها بمن فيهم يوسف.

ثم إن هناك لدى بعض آخر قرائن إضافية على أن اليهود لم يكونوا يوماً في مصر. منها مثلاً وليس حصراً أن التوراة ذكرت مصر **٢٩٠** مرة في الأسفار الخمسة الأولى، بينما لم تذكر أبو الهول ولا الأهرامات مرة واحدة. فكيف توحي التوراة باستعباد اليهود في مصر وتشغيلهم قسراً بالسخرة في أعمال البناء على مدى أربعة قرون ولم تذكر أياً من المشاريع؟[١] لكن لا أحد، حتى اليهود الكبار أنفسهم، يجهل أن هذا زعمٌ، المبالغة فيه بحجم البرتقالة إلى حجم الشمس لأن الأهرامات كانت مبنية قبل ولادة إبراهيم بمئات السنين، اللهم إلّا

(١) مناحين بيغن ورد عنه قوله للسادات عشية اتفاق كامب ديفيد عام ١٩٧٨م إن اليهود هم مَن زرعوا مصر (يوسف) وبنوا أهراماتها. وأغلب الظن أنه اقتبس الادعاء من مُفسّري التوراة في التلمود بشقيه «المشناة» و«الجمارة» حيث ورد الادعاء عالياً وصريحاً.

إذا كان اليهود يقصدون بناء الزقورات الهرمية عند الفرات (وليس عند النيل) يوم كانوا منفيين في بلاد بابل؟ لكن رغم ذلك، نجد من المدافعين عن صحة النصوص مَن يقول إن التوراة تعمّدت عدم ذكر الأهرامات كرد فعل على عدم اعتراف مصر بجميل اليهود وتسجيله لهم في نقوشاتها؟ (كأن مصر ضرّة اليهود، أو كأنها وجدت بتاريخ عميق فقط لتشهد على مسيرة اليهود؟)

الفصل السابع: كل الطرق إلى روما

تعطلت لغة الكلام

إن التفاهم بين الناس لا يكون دائماً واضحاً وسليماً حتى عندما يكون وجهاً لوجه، فكيف لو كان بالواسطة أو متناقلاً عبر العصور؟ ثم كيف لو كان متناقلاً ومُترجماً؟ مثلاً، عندما يُخبر رجل عربي زيداً من الناس في دمشق عن بطولاته في بريطانيا، فكأنما يُخبّر عمراً في القاهرة عن نفس رواياته في بلاد الإنجليز. أو كأنه يخبر جاسم في العراق عن نفس رواياته في أوروبا. أو كأنه يقصّ لحمزة في السعودية نفس حكاياته مع الغربيين. فبريطانيا وإنجلترا وأوروبا والغرب عناصر مثالية متطابقة في خبرية الرجل لزيد وعمر وجاسم وحمزة معاً. لا فرق في ذهنه بينها لغرض قصّ الرواية ما دام المستمعون إليه ليسوا بريطانيين ولا إنجليز ولا أوروبيين ولا غربيين. أما إذا جاء مترجمون غير عرب فيما بعد وترجموا خبرية الرجل، فسينقلونها متنوعة باختلاف التعريفات والكلمات والتعابير فيها. فيأتي من يقرأ الترجمة بعد قرون ليفهم بريطانيا بغير إنجلترا، وإنجلترا بغير أوروبا، وأوروبا بغير الغرب! أي إنهم سيفهمونها بغير قصد الرواي منها حتى وإن كانت الترجمة دقيقة؛ فبريطانيا وإنجلترا وأوروبا والغرب جاءت في ذهن الرواي بمعنى واحد لغرض روايته، لكن لها مصطلحات علمية وقانونية واجتماعية مختلفة خارج قصده وبيئته المحلية...

هكذا هي لغة التوراة، ضحية ثلاثة ألسن رئيسية: العِبرية واليونانية والآرامية. وبينما كانت الأخيرة لغة مَحكية في فترة نهاية مخاض اليهود بعد السَبي، كانت العبرية قبل ذلك حصرية محدودة لبني إسرائيل، ينطِقونها فقط

في مناطقهم (سواء في كنعان أو اليمن أو الحجاز أو الحبشة تبعاً لحقيقة مواقعهم الغامضة أو المفقودة)! أغلب الظن أنها كانت مجرد لهجة من اللهجات القديمة لأهل جنوب الجزيرة العربية. وإذا كنت سأجتهد في تقريب المسألة إلى الأذهان، فلربما كانت العبرية بنظري مجرد لهجة يمنية قديمة لكن تختلف قليلاً عن المحيط، أشبه بلهجة «المُورمون» اليوم في أمريكا. فمع أنه لا توجد لهم لغة مستقلة عن محيطهم الأميركي، إلّا أن تنوعهم من خلفيات ثقافية مختلفة جمعها الاعتقاد الديني المورموني، أدى إلى أنماط من الكلام واللهجات في منطقتهم الرئيسية في ولاية يوتا. ومثلما ورد في التوراة عن يعقوب أنه جادل الربّ، كذلك وردت عن مؤسس المورمون، جوزيف سميث، أحاديث له مع الله. وعليه، فالمقاربة هنا تصبح كما لو قلنا إن الاعتقاد «المورموني» المحصور في ولاية يوتا، وله لهجة أميركية مختلفة لدى أتباعه، ربما يتقارب مظهره العام بالشكل الإسرائيلي الذي أسسه يعقوب، وكان محصوراً أساساً في اليمن، وله لهجة مميزة عن المحيط اليمني. هذا مع التأكيد أن لا علاقة البتة، ولا شبه بين الديانتين، إلّا بما يشبه العلاقة المألوفة بين المسيحية واليهودية.

وبينما كانت اليونانية في الحقبة الهيلينية المتأخرة لغة العصر والأكاديميا، مثلها في ذلك مثل اللغة الإنجليزية في عصرنا اليوم، كانت الآرامية قبلها (على أيام أشوربنيبال) بدأت تنتشر في بلاد «الهلال الخصيب» على ألسنة الناس حتى حدود الهند. وكانت اللغة «الأوغارتية» قبلها (بروتو فينو- كنعان) تقريباً اللغة السائدة في بلاد كنعان (أيام الملك داود). وكانت اللغة الأكادية قبلها هي الدارجة في كل المنطقة (أيام موسى). وكانت المصرية العتيقة «الجبطية» هي الدارجة بين الناس في مصر (أيام يوسف). من هنا نجد الآرامية لغة وسطية «جسرية» (عبورية) وَظّفت لهجات متنوعة من الشرق الأدنى واختزلت رموزها وربطت بين المصرية السينائية والأكادية والأوغارتية بطريقة مبتكرة. وعندما تطور استعمال الفينيقية (١٠٥٠ ق.م)، صارت أقرب إلى

العربية والعبرية والمؤابية والسبئية من غيرها. ثم بانتشار الآرامية لاحقاً مع التوسع الأشوري تراجعت أغلبية اللغات في المنطقة وانحصر استعمالها بين أهلها فقط، فأضحت اللغة العربية للعرب فقط في الجزيرة، والعبرية المؤابية للعبرانيين اليهود فقط في مملكتهم الحديثة (سليمان) والسبئية للسبئيين فقط في اليمن، وهلم جراً.

زدني بيتاً

هذا طبعاً فيما يخصّ الترجمة من باب ناقل الكفر ليس بكافر. لكن الأمر يزداد خطورة وتعقيداً عندما يُؤمر المترجم بإقحام كلمة واحدة على النصّ التوراتي لينسف المضمون كله. الأمر لا يتطلب الكثير من العناء لكشف الأفخاخ التي يَقع الباحث فيها عند محاولات الترجمة من لغة إلى أخرى، ناهيك عن ترجمات هي نفسها منقولة من مُترجمات لا وجود لأصلها أساساً.. هناك آلاف الأمثلة على هذه «اللخبطات» اللغوية والتعديلات، بل الكارثية في أغلب الأحيان. فمن يقرأ السطر الأول في سفر «البدء» في التوراة، على سبيل المثال، يجد كلمة واحدة أضيفت على النصّ بمهارة وإبداع: فبدل أن يرى القارئ حسب التقليد المعهود «في البدء خلق الله السماوات والأرض»، يجدها في أحدث الطبعات الأخيرة[١] قد أصبحت «في البدء (عندما) خَلق الله السماوات والأرض»! وقد شاء آفاريت فوكس آخر مترجم عصري لسفر «البدء» أن يحشر كلمة (عندما) هذه لتعطينا معنى آخر تماماً عمّا اعتدناه أو فُسِّر لنا لأكثر من ٢٥٠٠ عام. المترجم العتيد برّر استنباطه هذا (عندما) بذريعة ظهور «المستجدات العلمية والتقنية» التي كان غيابها في الماضي عائقاً أمام الترجمة الصحيحة وتبيان المغزى الأمين. وهنا يوحي لنا المترجم أن الله لم

(١) راجع الكتاب المقدس المنقح - النسخة الكاثولكية - النصّ الأنجليكي ISBN: 978-0-281-07449-5 (2015)

يخلق السماوات والأرض عشوائياً من عبث وعدم، بل خلقها (بعد) شيء كان موجوداً قبلها بظرف «عندما»!

وعلى هذا المنوال، نقل مترجم آخر من الكتابة الثمودية اسم مدينة «جدة»، مثلاً، كناية عن جدة البشر أجمعين، أي حواء! فجاء مَن ترجم اسمها اللاتيني (*Jeddah*) على أنه «يدّا» بقلب حرف الجيم إلى ياء، أو إلى «هودّا» بقلب حرف الياء إلى هاء. فتصبح الكلمة بالتداول والتواتر مشتقة من النبي هود ومرتبطة بقومه اليهود! وقسّ على ذلك من تأويلات واجتهادات في الترجمات وفي قلة الحيرة واستحالة المواكبة.. أضف إلى ذلك اجتهادات خطيرة حُشرت بين النصوص عبر الأزمان لأغراض ومآرب متنوعة منها، على سبيل الاستشهاد العابر، قول التوراة: «إن يوسف رُمي في بئر فارغة لا ماء فيها (تك: ٣٧: ٢٤)»؛ فجاء مَن أوضح على هوامش النصوص لاحقاً ما مفاده أن البئر كانت فعلاً فارغة، لكن فقط من الماء (وكأنه كان شاهداً على وضعها آنذاك)، ما يعني استطراداً أنها «لم تكن فارغة» من العقارب والأفاعي والعناكب التي ربما قتلت يوسف. وكما في مواقع أخرى وردت آنفاً، قد يستغرب قراء المرّة الأولى كيف يشغل المفكرون أنفسهم بهذه التفاصيل الطفولية حول وجود البرغش والزلط، وهم بلا شك على حق في استغرابهم، بل في دهشتهم، لكن كيف لو عرفوا مقدار التفاصيل الأصغر التي يعتني بسردها وتحليلها علماء كبار، منهم من حمل جائزة «نوبل»؟ فإما أن هذه شؤون جوهرية حقاً لغرض المقارنة والتحليل، أو أن «نوبل» نفسه مجرد تفصيل لغرض التمييز الاستعماري والوجاهة.

لا أريد أن أحوّل الكلام إلى غير المراد منه في تسليط الضوء على المعضلة التفسيرية اللغوية. لكن الكثيرين من المفكرين في نصوص التوراة والباحثين عن مواقعها، شاءوا أن يرتكزوا على عنصر اللغة في اجتهاداتهم واستنتاجاتهم، وكأنها المفتاح «الماستر» لكل الأبواب؟ هذا الافتراض مشوّه ويجعل تبديل الأحرف للدلالة على الأصول الضائعة أمراً في غاية الريبة

والخطورة. كأن يقول أحدهم من خلال التبديل إن اسم «موسى»، على سبيل الاستشهاد، مُشتق من اسم «تتحموس»، الفِرْعون الابن الأكبر لأمنحوتب الثالث؟.. أو أن يقول آخر إن كلمة «المسيح» مُشتقة من كلمة تماسيح للدلالة على أن زيوتها كانت تستخدم في شعائر مسح أبدان الكهنة وكبار المُقرّبين إلى الفراعنة - حسب علوم المصريات والأعراف! ومما لا شك فيه ضمن هذا السياق أن تبديل الأحرف أو قلبها يمكن أن يكون فناً من فنون المواهب اللسانية أو علماً من العلوم، لا سيما عندما يتحّكم المنطق أحياناً في سياق الاستبدال. بمعنى أنه من الجائز بفعل الزمن والتنقل وتكرار الترجمة أن يتحول اسم «صادق» إلى «صديق»، أو «صدوق»، أو مُصَّدق، أو «صدقة»، وهلم جراً... ومن الممكن أيضاً أن يتغيّر اسم «حسن» إلى «حسين»، أو محسن، أو حسّان، أو إحسان، أو محاسن، أو حسنين، إلخ... لكن كيف لاسم «حسين» أن يصبح - بفعل الزمن والترحال والترجمة «طلحة» مثلاً؟... أو أن يتحّول «حسن» إلى «مصطفى»؟

نجّار وميكانيكي!

على بداهة التساؤل، فإن العديد من مترجمي التوراة واللسانيين، عملوا على إقناع الناس بإمكانية الاستبدال ليس وفقاً للغة فقط، كمقاربة اسم حسن إلى حسين، وإنما تبعاً للصفة أيضاً، كالحسن في الأمانة والصدق في الأخلاق. لا بل أضافوا مقاربة الصفة أيضاً إلى المكانة، فأصبح السيد حسن رجلاً جيداً أميناً عميداً أو عماداً! ولربُما يصبح «حسن» في بعض الطبعات «سيداً» أو «أباً» على قمة هرم المكانة والتقدير، أو يصير «ملكاً صادقاً» على طريقة «مليك صادق» نفسه على سبيل الاستشهاد العابر! ومما يزيد الإحباط عند قراءة نظريات بعض اللسانيين المفكرين العرب، أنها تجمع بين هذه الاستدلالات والمفارقات اللغوية لتربطها ربطاً عجيباً تخْلص فيه إلى أن الفرعون أخناتون هو هارون بذاته، وعليه تصبح النظرية مُحْبَكة لتسهيل هروب

أخناتون من وجه قومه ولتبرير نزوح توراتي إلى سَيناء مع شقيقه موسى وأختهما مريم!

وهكذا، فالاستبدال «أداة» يستعملها المؤرّخون والمفكرون لفتح أبواب لم يعدْ الصدّ معها ممكناً. لم تعد أسماء كل التوراة وحدها موثوقة مهما قالوا عنها أو كالوا فيها. بل إنهم يملؤون نواقص الاهتراء في الوثائق والشواهد بما يُكمّلها من عِندهم، كل حسب أهوائه أو تقديراته أو آماله. هنا تصبح المسألة بمثابة كلمات مُتقاطعة بلغات مختلفة! والطريف فعلاً أن هنالك من المفكرين المجتهدين مَنْ استشهد فعلاً وفسّر مغازي كلمات جمعها من لغات عِدّة ليستحصل منها على كلمة معينة بذاتها وليدلّل بها على صحّة مقولته. فعلى سبيل المثال، ورد وصف للسيد المسيح على أنه ابن يوسف النجّار. وورد وصف آخر على أنه المسيح الصّياد، وغيره على أنه المسيح الراعي، وآخر على أنه السيد المُعلم. وأمام هذه الأوصاف المختلفة والمغايرة أحياناً، رأى أحد المفسرين أن كل هذه الصفات تنطلق من كلمة «نجّار» القبطية المصرية. وهي تعني أيضاً المثقف، وفي اليونانية تعني المهندس الباني والشاغل في العمران. وعليه، فإن المسيح نجّار مثقف معْماري علماني لديه مشروع مقاومة الاحتلال الروماني لاسترجاع أورشليم. كل ذلك استخلصه «المؤرّخ» من كلمة «نجّار» القبطية! فماذا لو كانت الكلمة «ميكانيكي» بالآرامية مثلاً، أو «سبّاك» بالعبرية، أو «بقّال» باللغة السبئية؟.. لكن على نفس المبدأ، ألم يكن غاندي - في المنطق الآخر -حامِياً ومحامِياً وحاكِماً ومحْكوماً وحكِيماً ومنبوذاً ومُحَرِّراً ومُتحرِّراً؟

من الأسماء ما قتل!

استنتاجاً تصبح تقليبات الأحرف من كلمات الماضي السحيق تغييرات وأماني أو اجتهادات ورؤى رغم رصانة العلم وحسن النوايا وقدسية النصوص... وهكذا كما رأينا تحوّل «أبرام» إلى إبراهيم، و«ساراي» إلى سارة،

و«يعقوب» إلى إسرائيل، و«عموئيل» إلى المسيح، و«شاول» إلى بُولس، وما إلى ذلك مما لا حصر له في التراث والسجلات. لكن على نفس المنوال أيضاً، ألم يغيّر لويس ويلكوت اسمه إلى لويس فرخان محمد، ويغيّر كلاي اسمه من «كلاسيوس» إلى محمد علي تعبيراً عن مواقف دينية وسياسية معاً؟ هناك ولاة وسلاطين عثمانيون وأباطرة كثيرون غيروا أسماءهم تعبيراً عن تغيرات مفاجئة في سياساتهم أو في مسارات حياتهم...

وإذا كان هذا النوع من تغيير الأسماء والتبديل مبرّراً لأسباب سياسية أو ربّانية، فكيف تُبرّر التحويلات الإسمية الأخرى؟ فعلى سبيل المثال، نرى من بعض النشريات باللغة العبرية أن التقويم الشهري الأصلي فيها كان يقوم على حساب الأشهر القمرية ابتداء من شهر الخروج «أبيب» (أي الربيع)، ثم بالبناء الرقمي عليه، بحيث يصبح الشهر التالي هو الثاني بعد شهر الربيع، ثم الثالث بعد الربيع. لكن ما دام «الخروج» من مصر كان في شهر أبريل (حسب التقليد المعمول به)، فلماذا لم يُحفظ اسمه بالمصرية مثلاً، أي شهر «شمو» أو «باتشون» بدل كلمة «أبيب» البابلية كما وردت في التوراة؟ أغلب الظن كما سبق وأشرنا أن العبرية لم تكن قد ظهرت في عهد موسى وإلّا لكانوا أطلقوا على شهر الخروج كلمة عبرية صرفة؟ بل المستغرب أيضاً أنهم لم يطلقوا على شهر الخروج حتى الاسم المصري الأصيل، وكأنهم لم يخرجوا من مصر ولا بالربيع؟ وبما أن العبرية على الأرجح ظهرت بعد الخروج من مصر بقرون إبان العصرالأشوري، فقد اختلطت بأسماء أشورية وبابلية ومصطلاحات آرامية، لا سيما أثناء السبي، ومنها ما استخدم في أسماء الأشهر بحيث صارت تعمل على تذكير اليهود بعودتهم من المنفى البابلي.. فأضحى شهر (نيسان) البابلي الجديد (يستعمل بدل «أبيب» العبري، و(أيار) بدل «زيف»، وتشرين بدل «إيتانيم» إلخ. التلمود نفسه يؤكد لنا أن الأسماء الجديدة للأشهر جاءت فعلاً إلى بني إسرائيل مع العائدين من بابل. واستنتاجاً، فكما تغيّر شيء ما في حِسبة

الزمن بعد السبي، لا بد أن أشياءً أخرى كثيرة قد تغيرت هي أيضاً وأخذت هويات أو أسماء جديدة!

إذن، فإن مبدأ المقارنة بين الكلمات، (سَمِّه ما شِئت)، متفق عليه وشائع الاستعمال لكنه ليس بالضرورة وسيلة صحيحة وحدها. ورغم أن ضوابطه من قياس ومقاربة معروفة، فإننا نرى أحياناً من التناقض ما يُحيّر العقل فعلاً، والأمثلة على ذلك لا تحصى من أحد أو تخصّ أحداً. من الكتبَة الباحثين في تاريخ التوراة مَن يَصرّ على أن أنواعاً معينة من النبات التي ذكرتها لم تكن موجودة أصلاً في جغرافية فلسطين! منها أيضاً ما لم تكن معروفة في بيئة مصر أيام يوسف. وعلى النقيض من ذلك، هناك مَنْ يَستشهد بآثار لها مدلولات توراتية مثالية لكن لم تذكرها التوراة بالمرة؛ فمنطقة «عين العروس» العريقة في حاران، مثلاً، يمكن لها بسهولة أن تكون الدلالة التاريخية المُهمّة على صُدْقية حصول عرس إسحاق وزفاف يعقوب، لكن التوراة لم تقربها بهذه الصفة. هذا مع العلم أن المنطقة جذبت إليها مقاماً لوالد أحدهما ولجد الآخر، أي مقام إبراهيم. هناك مَن يقول إن التسمية لم تكن أصلاً توحي بأي شيء عن زواج، بل إن الاسم القديم «الذهبانية» ورد من الأساس لقباً لعين ماء (نبع) وليس لعين عروس، وكان المنبع أحد أعظم الينابيع الذي يغذي نهر البليخ. فالعيون والآبار تكون عادة مقامات القديسيين، ومنها ظهر بالجوار مقام لسارة! والأمثلة كثيرة عن مواقع أثرية منتشرة في الشرق الأدنى يمكن الاستشهاد بها على صحة التوراة لكن التوراة نفسها لا تقربها على طريقة «وكاد المريب»، وكأنها تخفي شيئاً أو لا تريدنا التعرّف إليه... هناك عشرات الضيعات في جنوب لبنان وفلسطين والأردن والجولان تبدأ اسماؤها بمصطلح «خربة» أو «تل» أو «كفر» كناية عن منارة أو طلل أو معركة أو مقبرة.. أما العيون، فلا حصر لها على امتداد الشرق ما يعلّل للطوفان سرديته إذا ما فاضت كلها مرة واحدة!

وهكذا، فإن المقاربات التوّصيفية تتمادى في الخيال وتتمدّد في الآفاق.

فيقال، مثلاً، إن إبراهيم نفسه كان من أتباع الصابئة - كما سبق وأُشير. وهي أقدم معتقدات المعمورة وتعود إلى أكثر من **٤٢٠٠** سنة. ومن سمات هذه الديانة البدائية انها تؤمن بخالق واحد للشمس. وقد يكون إبراهيم استمد إلهامه من هذا الاعتقاد أثناء ترحاله في بلاد ما بين النهرين عبر حاران. كان ذلك قبل أن تتجسد أمامه نبوءة مُعدّلة أنزلها عليه «الخالق» أو «الربّ» أو «الإله» أو غيرها من الأسماء العليا التي أوردتها التوراة فيما بعد. ذلك أن الله في التوراة ذُكر بعدة أسماء منها: «يهوه» و«إيل» و«إلهوهيم» و«شدّاي» و«أدوناي» و«الإله» و«الرّب». هناك مَنْ ذكر أن اسم «شداي»، على سبيل المثال، أُستنبط من برج الجدي، رمز فلكية اعتقاد بعض السومريين. وآخر يقول إن «أدوناي» كلمة مستطردة من الإله أخناتون، إله الشمس أتون أي «آدون»؟ بل هناك مَن زايد قائلاً إن «آدون» نفسها اشتقاق لاحق لاسم «أدونيس»!

وهكذا نرى أن لا مبدأ عاماً يحكم هذه التغيّرات والتقلّبات بين الأسماء والصفات والمواقع والألقاب، سيما أن لها تسميات تختلف في مراحل النمو والعيش. هناك اسم عند الولادة وآخر عند العرش، وغيره بعد انتصار أو هزيمة أو موت. ومع أن لهذه الأمور علماً قائماً بذاته، وله أربابه من لسانيين ولغويين وخبراء لغات قديمة، وحيّة، وميّتة، ومسْتنبطة، فقلما نجد توافقاً بين آرائهم التفصيلية حول اسم واحد لإله اليهود مثلاً(١). فهل هو وحي من برج بابل أو من أتباع تموزو، أم من برج القوس؟ فما الغرابة إذن أن تصعب على الباحث غربلة الرمل عن الحصي في هذا الخلط اللغوي العجيب؟ أضف إلى ذلك أن قدامى اليونانيين مثلاً كانوا يصّفون الكلام أحرفاً متواصلة دون قواطع يصعب استشفاف المعنى منها على غير اليوناني. بينما المعاني عند العِبْرانيين ليست محكومة بالتشكيل كما هي عند العرب، وهذا ما يعقد الأمور في حالات التمييز بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، ويجعل البحث في أغوار الترّجمة كالمشي بين الألغام...

(١) راجع السواحيلية والتركية والاسبرنتو.

ولتوضيح المزيد من إشكالية الاعتماد على اللغة، قبل الانتقال إلى إشكالية الاعتماد على الجغرافيا، نورد على سبيل المثال ما أصبح معلوماً اليوم أن كلمة (جيهوفا – *Jehovah*) الشهيرة الواردة في التوراة قد أُجمع مؤخراً على أنها خطأ فادح فيما الأصل الصحيح مشتق من «يهوه». وهناك مَنْ يقول (كريستوف لاكسنبورغ) إنه لو أُعيد التنقيح في كثير من الكتابات المقدّسة على القواعد التي ذكرها في كتاب نشره في برلين عام ٢٠٠٠م، فإن مفاهيم لغوية كثيرة لا بد أن تتغيّر فقط لأنها نقلت وترجمت أو فهمت لفظياً مغلوطة. وهو على سبيل المثال يقول إن اللغة العربية القديمة كانت، كالعبرية، من ضمن اللغات المجاورة للغة الانتشار الآراميّة، فدخل إليها منها تشويهات لفظية لافتة وتبديلات حرفية خطيرة، ناهيكم عن الترجمة! وإذا ما أُعيدَ تنقيحها جدياً، فقد تظهر للمهتمين مفاجآت تجبرهم على مراجعة قناعاتهم.

أما عن الترجمة عموماً، ومهما كانت أمينة، تبقى بائسة لأن المترجم قلما يستطيع أن يُعبّر فيها عن حقيقة المقصود تماماً، بما في ذلك تقديرات المقاييس والأوزان والمواصفات؛ فنهر النيل، مثلاً، يصبح «بحراً» و«الشيكل» (الشاقل) يصبح «لوفاً» و«المينا» تصبح «أوقية» و«الغُرّ» يُصبح «مداً» أو كيلو إلخ... وبما أن اللغة هي الأداة التي كُتِب التاريخ بها، فإن علوم الترجَمة تصبح على عَفويتها من أخطر الأدوات لتعديل التاريخ أو تزييفه أو الاستعارة منه لمقايضة هنا أو تسليف هناك. وما لم يكن المترجم مواطناً منذ صغره متنقلاً بانتظام بين بلدان الترجمة، فإن ترجماته للكلمات تبقى بجزء منها تتأرجح بين التراجيديا والكوميديا أو بين النقاء والرطانة، كترجمة «عجين باللحم» بدل «لحم بالعجين» على سبيل الفكاهة من بلاد الشام. وعندما قامت شركة شيفروليه الأميركية بطرح سيارتها السريعة «نوفا» (نو- فا) في الأسواق الناطقة بالإسبانية، جاءت الترجمة الحرفية على أنها سيارة «لا تسير»! هناك من الترجمات ما لا حصر لأخطائه المميتة أو المحرجة أو المضحكة، سيما في المجالات الأدبية والقانونية والدبلوماسية. أما عن ترجمة الأزمان والحقب،

فحدث ولا حرج! فهذه قد تقدر بأهواء المترجمين سواء بالعقود أو القرون أو الألفيات، فيصبح الحدث نفسه عند مترجم ما قد وقع في القرن السادس ميلادي، فيما يكون عند غيره قد وقع في عام الفيل، أو نحو خمس سنين من انهيار مملكة أكسوم عند البعض، أو بعد نحو ألفية كاملة من حصار الإسكندر لصور، أو بعد دزينة قرون من رجوع اليهود من السبي. الترجمة الكتابية المتأنية مسألة خطيرة، فكيف بالترجمة الفورية بين الملوك والرؤساء أو بين إبراهيم والفرعون؟

وسواء كانت حرّفية أو اقتضابية، تصرّفية أو دارجة، فالترجمة لا تَصدق بالشكل والمضمون إلّا إذا كان مُترجموها ضليعين بلغتي الترجمة ومُعاصرين للأحداث. وإذا كانت هذه الشروط نادراً ما تتحقق عند النزر القليل من المترجمين، فكيف لها أن تستوفى قصدها عندما تكون الترجمة نفسها مُترجمةً أصلاً من ترجمات لثقافات واختصاصات مُتعدّدة عبر الأزْمنة والخلفيات السياسية والاجتماعية والدينية... وحتى اليوم بعد ٢٥٠٠ سنة على كتابة التوراة بالعبرية العتيقة بعد السبي، ومع توفر عشرات الأدوات والألسن والذكاء الاصطناعي، ما زالت هناك عشرات الترجمات المختلفة عن بعضها البعض. كيف نفهم ذلك إن لم يكن لأسباب اختلاف عناصر الثقافة والزمن والمكان والموضة إلخ؟

فوضى تراثية!

هذه «اللخبطات» اللغوية قد تُمرّر وتُقبل لأشياء نثرية عامة، لكن لا يمكن غضّ النظر عنها أو قبولها لمدونات مقدسة كالتوراة. من الضروري، إذن، التروّي في تبنّي الترجمات على علّاتها والتحقق من نوايا المترجم أو عصبيته، أمثال يوسفوس آنف الذكر! من هنا تأتي أهمية الاتكاء على علم المقارنة، لأن في إهماله ما يمكن أن يؤثر على معنى النصّ أو يؤدي إلى سوء فهمه في حالات الترجمة الدقيقة، فكيف بحالات التآمر؟ من الأمثلة الطريفة في رسائل

«تل العمارنة»، رأينا في الترجمات العديدة كيف تُرجمت كلمة «ملك» إلى «والي» و«أمير» و«سيد» و«عالي» و«رفيع» و«حاكم» و«رئيس» إلخ. صحيح أن لهذه الترجمات دلالات متقاربة، لكن الصحيح أيضاً أنه إذا كان النصّ المترجم طويلاً وإذا تكررت نفس الكلمات بأشكال مختلفة، عندها يضيع المضمون وتتبخر المعاني كلياً.

أما في ترجمة الأماكن، على سبيل المثال، فقدت وردت كلمة «مصر» في رسائل «تل العمارنة» مرة باسم «مجان»، وتارة باسم «بلاد النيل»، وطوراً باسم «بلاد القبط»، ونوبةً باسم بلاد «كمي» و«كاشي»، فضلاً عن «كوش» و«نوبية» أحياناً. ووردت لفظة «ساعي» على أنها «مرسال» و«رسول» وأحياناً «خادم» و«نائب». لكن هذا كله في مكان واحتمال فبركة الرسائل في مكان آخر. هناك مَن ادّعى (محمد مبروك أبو زيد) أن رسائل «تل العمارنة» نفسها فُبركت بواسطة عصابة المستشرقين الأوائل لغرض حبك سياق الرواية التوراتية وتمكين خروج موسى من مصر. ومحمد ابو زيد، بزعمه هذا، إنما يطرح سؤالاً ذكياً في السياق، مفاده: لماذا كُتبت رسائل «تل العمارنة بالأكادية ولم تكتب بالهيروغلوفية لغة المستعمِر المصري آنذاك. المقاربة هنا كما لو أن أميركا اليوم تراسل حكام العالم وتتسلم رسائلهم بلغة روما اللاتينية المنقرضة تقريباً. والادعاء هنا بتزوير الرسائل يعيد أيضاً السؤال السابق حول طبيعة اللغة التي تداولها موسى مع شعبه طيلة ٤٠ سنة في سيناء، سيما أن العبرية - كما ذكرت - لم تكن موجودة في زمنهم الافتراضي في مصر. وعليه، لا يمكن أن يكون موسى قد كتب بها الأسفار الخمسة الأولى، ناهيكم عن كتابة تفاصيل موته فيها بنفسه؟

إذاً، فأية مقاربات لها أن تقوى على مواجهة هذا الكمّ اللغوي من التناقض والتشويه وإعادة الترتيب من كل حدب وصوب؟ وبالرغم أن هذا كله لا يُلغي الحاجة إلى الاجتهاد والاستنباط، إلّا أنه لا يؤدي بالضرورة إلى الغرض المطلوب ولا يمكن اعتماده كلياً، أو لوحده، لكشف حقيقة ما حدث فعلاً!

ذلك أن التاريخ يكتبه المنتصرون وبه يغتصبون الجغرافيا وشواهدها وهم عادة لا خوف لديهم من أي شيء أو خجل. إن آثار مصر وحدها، على سبيل التكرار، لم يبقَ منها في مصر سوى ٢٠ ٪ فقط. وهو ما يُعتقد أنه تبقى منها مقارنة بحجمها الطبيعي منذ نشأتها على أيدي «مؤسسها». وهذا حسب تقدير سفر التكوين في التوراة هو: «مصْريم» أو «مسْري»، أحد أحفاد حام الأربعة أبناء «كوش».

بعد كل هذه الفوضى التراثية والعبث الثقافي من قِبل مستشرقين ولسانيين وعلماء، هل يُعاتب المحتار إذا شك بالتوراة وهو أصلاً لا يعرف الفرق بين «يهوه» و«أدوناي»؟ ثم كيف لو أيقنا أن أثراً عينياً واحداً لم يظهر حتى الآن ليدعم قصة «الخروج» بطبعاتها المتعددة! هل لنا أن نتعجب أيضاً لماذا يتسابق الباحثون ويتصارعون على الفرضيات كما يتعارك الديكة للسيطرة على خمّ الدجاج؟ يتنافسون على الأسماء والمواقع وكأنها لم تتحور وتتنقل بانتقال النازحين إليها؟ اليوم، مثلاً، هناك ناس بسطاء في مدينة «فينوكس» الأميركية يعتقدون بثقة تامة وفخر أكيد أن الفينيقيين هم بُناة مدينتهم ومؤسسيها! ربما لأن واحداً من مفكريهم الكبار ربط لهم في الماضي اسم مدينتهم بالفينيقيين على طريقة الشاعر والمفكر القدير سعيد عقل باسترجاع الأسطورة والربط بين اسمي قدموس مؤسس مدينة «ثيبة» في اليونان ومدينة صور، مسقط رأسه (رأس قدموس وليس عقل)؟ هناك في القارة الأميركية أيضاً أسماء مواقع توراتية لا تحصى إلى درجة يخيل للزائر أنهم لم يتركوا اسماً توراتياً إلّا واستعملوه لتسمية العالم الجديد. وقد كان اختيارها لتسمية الأراضي التي وضعوا اليد عليها أسرع وأسهل من ابتكار أسماء جديدة من خارج التوراة!

وما يزيد الطين بلة، أن الكثير من التسميات التوراتية «الأصلية»، خاصة أسماء المواقع الجغرافية، نُسخت هي الأخرى خطأً ونُقلت مغلوطة إلى التوراة، ومن ثم تسرّبت معانيها ودلالاتها مشوهةً إلى التناخ وتفسيرات التلمود. ومنه إلى الكثير من الأقوال المأثورة والأمثال الفارسية والهندية،

فضلاً عن الترجمات اليونانية القديمة، التي اعتمد العرب على بعضها في حقبة النهل والترجمات إبان العصر العباسي (بيت الحكمة). وفي معظم حالات الاختلاط الثقافي المكثف بين الشعوب تكون المداولات سماعية شفهية ما يُميّع معانيها الحقيقية عند التنقل حتى لدى القوم نفسه.

الجنوبيون في هضاب لبنان لا يفهمون تماماً لهجة الزغرتاويين على جباله.. وهذا اختلاف مألوف واضح ضمن مسافة قصيرة لا تتجاوز ١٥٠ كلم، فكيف بمسافات تمتد من بابل إلى أريحا؟ الواقع أن المسافة وحدها لا تحدد اختلاف اللهجات، إنما ما يحددها أكثر التضاريس الجغرافية. إذ إن مجريات المناخ وحركات الرياح في كل منطقة تحجز لنفسها عند الناس أحبالاً صوتية مناسبة لنطق الكلمات بطريقة مثلى تؤمّن لهم سلامة التنفس. فإذا كان ثمة موقع تجري الأرياح فيه باستمرار، جاء بدء الكلام عند أهله بقفلة الفم وضم الشفتين احتراساً؛ فيقول ابن زغرتا مثلاً إنه «زوغورتاوي» بضم شفتيه. بينما ينطق ابن بيروت هويته بإرخاء شفتيه ويلفظها بأريحية، فيقول إنه «با-ي رو-تي». إذ إن الرياح على مقاس زغرتا تنعدم في بيروت ما يجعل البيروتي مطمئناً على حلقه منها! ويمكن أن تسهم الجغرافيا الطبيعية لمنطقة ما، مثل الجبال أو الأنهار أو السواحل، في عزل أقوام أو تجميعها.

ويمكن أن تؤدي هذه العزلة إلى تطورات لغوية متميزة واختلافات لهجوية داخل المناطق نفسها. أضف إلى ذلك، أن المناطق الساحلية، أو تلك القريبة من طرق التجارة الرئيسية والقوافل، تؤدي بالضرورة إلى تفاعلات لغوية عجيبة، فيصبح الجميع في محطات الاستراحة على درب تدمر أو نجران أو فلسطين، مثلاً، أصحاب لهجة سوقية عامة واحدة متقاربة يفهمونها بالكلمات المألوفة والإشارة والتعابير.

وهكذا صار الكلام المتداول في الاستراحات على طرق القوافل القديمة لغةً بذاتها. أشبه اليوم بلغة مالطة بكلماتها العربية وامتداداتها اللاتينية والصقيلية والرومانية والفرنسية والإنجليزية. ثم هناك مثلها اللغة السواحلية (شرق أفريقيا)

وهي خلطة عجيبة من لغات الجيرة والاحتلال، فيها اللفظ العربي والفارسي والبرتغالي والأمهري والألماني والإنجليزي. وخيراً فعل اليهود وكتبوا توراتهم بالعبرية القديمة رغم التحوّر فيها. وإلّا فاللغط بين المفسرين والمفكرين كان قد جاوز كوكب الأرض ووصل إلى حدود المجرّة! تصوّرا لو أن التوراة، مثلاً، كانت كُتبت بالمالطية أو السواحيلية أو بالأوردو، أو بلغة شريحة العمال الجدد في دبي؟ ولغتهم الجديدة هذه في طور النشوء والانتشار، وهي تستمد كلماتها من تعابير عمالها أو من اصطلاحات هندية وسنهالية وبنغالية وميالامية وتاميلية، فضلاً عن العربية والفارسية والإنجليزية.

وقد يطلع علينا مستقبلاً مَن يجد من لغتها أن «أورشليم» تقع في ضواحي مدينة «كانتي» المقدسة في سريلانكا، أو بالقرب من «حيرات» في أفغانستان. وهذا المثال عن فئة عمال دبي الجدد إنما هو دليل واقعي حي دامغ على تفاعل لغات الأجناس في مكان واحد لفترة اقتصادية نهضوية طويلة.

أقول كل هذا وأدور كل هذه الدورة لأبين أن «اللغة» العبرية الأصلية - كانت مجرد لَكنة جزيرية قديمة، لكنها كانت مميزة. فكما تؤثر التضاريس كثيراً على اللهجات الإقليمية، تسهم الاعتقادات أيضاً في خلق لهجات مميزة تُستمد من تنوع ألسنة الشرّاح وتعدد أجناسهم. وباستثناء ذلك، فالعبرية كغيرها من اللهجات التي تطورت بعوامل الترحال والاستيطان عبر التاريخ إلى أن صارت لها شخصية مميزة قبل أن تنقرض كلغة محكية في القرن الثالث قبل الميلاد، ويُعاد إحياؤها في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي.

وهنا نفهم كيف تحدث اليهود باللغة العبرية القديمة فترة من الزمن، ونفهم أيضاً كيف اعترتها شوائب الاختلاط وتسرّبت إليها التعابير الغامضة من خلال الهجرات والتفاعلات مع الثقافات المختلفة، خاصة خلال المنفى البابلي عند التقاء العبرية بالبابلية بالآرامية ثم الفارسية. وقد أدت الأحداث التاريخية اللاحقة، مثل تشتت اليهود بعد طردهم النهائي من فلسطين على أيدي الرومان، إلى ظهور لهجات عبرية إقليمية مختلفة عرفت تدرجاً بالـ«يادیش».

لكن في أواخر القرن التاسع عشر جرت عملية جراحية معقدة لترميم العبرية الأصلية وإحيائها كلغة محكية مع بداية القرن العشرين، فظهرت لنا العبرية الحديثة على شكلها الحالي، وهو شكل مغاير تماماً عن جوهر الأصل بسبب دمج عناصر لغوية متنوعة من مصادر وفترات تاريخية مختلفة. وقد شمل ذلك الدمج مفردات نحوية وعناصر لسانية أصلية كما وردت أساساً في العبرية التوراتية. ضف إلى ذلك أن الدمج المعاصر راعى التأثيرات الدخيلة من اللغات الأخرى المحكية في المناطق التي عاش اليهود فيها أثناء تشتتهم.

وباختصار، تطورت العبرية القديمة بمرور الوقت بسبب الأحداث التاريخية والتفاعلات الثقافية وحركة الشعب اليهودي، فضلاً عن الهندسة اللغوية الإرادية المصطنعة في القرن التاسع عشر، ما أدى إلى اختلافات جوهرية وتغييرات في بنية اللغة ومفرداتها ونطقها. والعِبرة من هذه البديهات كلها أن أي مُقاربة لغوية يلجأ إليها كهنة المعابد اليوم أو باحثو التوراة لتثبيت آرائهم وتوثيق تواريخهم، تبقى منقوصة أو «مضروبة»..

فهذه بمعظمها مقارنات مُفخّخة بتناقضات التاريخ وأخطاء النقل وأهواء المنتصرين والمهندسين. ولا يمكن لها أن ترتقي إلى مُقارنات علمية حتى باكتمال «فحوصات» التكنولوجيا والبيولوجيا (*DNA*) على جزيئات من أوراق بردى أو لفائف قشية أو فخاريات، لأن الاختبارات العلمية قد تنفع مع بعض الأقمشة والجلود والأخشاب والفخار، لكن لا تنفع مع الحبر المكتوب عليها، ولا مع النقوش الحجرية، ولا مع الآثارات غير العضوية أو الملوثة. الأمر الذي يرخي بالظنون على الكثير من الوثائق المستشهد بها كمرجعيات دامغة مثل «ثموديات عمران» أو «لفائف قمران»!

الغموض شعلة

مرة أخرى، ليس المقصد هنا أن نغوص في إشكاليات التنقيب في الحمض النووي ولا في فلسفة اللغة، وإنما فقط للإستشهاد المبسّط كيف أن لكلمة

ظرفية واحدة مثل (عندما) أن تنسف عقيدة عمرها آلاف السنين! فما بالكم بعشرات الكلمات المُحوّرة أو المفسّرة على قواميس اللسانيين والمؤرخين، خاصة المعاصرين العرب منهم؟ فلا بد أن يتساءل المراقب من أين جاء كل منهم بتفسيره الخاص وترجمته المفضّلة! ومَن قال إن نصوص التوراة المُجمّعة بالعبرية التي وجدوها في مغاور قمران تعود حقاً للقرن الثاني ق.م، أو أنها صافية لم يلتبس شيء منها على نسّاخها أو على مترجميها المعاصرين؟ ومَن هو الذي صدّقها والجهات التي صادقت عليها وسمحت بنشرها بعد خمسين عاماً على كتمان تفاصيلها؟ هذ هي المشكلة الكبرى مع بعض الهيئات والمؤرخين والمترجمين في موضوع التوراة.

وبما أنها من أقدم الكتب المقدسة وأكثرها تفصيلاً، فهي تأشيرة العبور إلى موضوعات البشر برمتها، كعمر الإنسان وطبيعته، أو تطوّره وعبادته، أو فلسفته وادّعاءاته. بل هي «عبور» إلى الفلك وإلى المُلك وإلى الجنّة نفسها. ذلك المكان الذي يصبو كثير من المؤمنين إلى دخوله في حياة ثانية بعد الموت. لا يخفى على أحد اليوم «العذاب» الذي ذاقه هتلر وأقرب معاونيه هملر وهما يبحثان فوق الأرض وتحتها عن الجنّة الأصلية أو «جنة» الشعب الآري، وعن بقايا «أطلانطس». تلك المدينة الضائعة التي ألهم أفلاطون بها فلاسفة النخبة، وذهب هتلر لأجلها إلى آخر الدنيا على حدود جبال التيبت وهملايا وإلى أعماق المحيط الأطلسي بالقرب من جزيرة «ماديرا» البرتغالية. هتلر بحث عن «حَب الحَصيد» في الأندلس، وفي طرابزون التركية على البحر الأسود بالقرب من جنة ديفيد رول، وعلى شواطئ جزيرة كريت اليونانية، وفي طروادة «الإغريقية»، وقرطاجة الفينيقية وأور السومرية وغيرها... إلّا أنه انتحر قبل بدء البحث عنها في مواقع أقرب إلى الرواية التقليدية، كسيناء وحاران، أو حيث وطأت قدما آدم في سُوقطرة وسريلانكا؟ فحسب اعتقاد أهل الأخيرة، فإن أثر أحد قدمي آدم ما يزال مطبوعاً واضحاً على أحد جبال سريلانكا («سري بادا» أو «قمة آدم» كما تسمى)، فيما موقع

قدمه الثانية «موجود» حُكماً في جزيرة سُوقطرة اليمنية على بعد أكثر من **٢٩٠٠** كلم إلى الغرب من سريلانكا. أي إنه بحيث لو سجد آدم على عرض المسافة بين قدميه لوصل جبينه بالمقارنة لجسده إلى موقع جَنة يورس زارنس (أي إلى الدلمون) بالقرب من سومر! والدليل على «صحّة» هذا التصوّر لدى البعض أن جزيرة سُوقطرة الواقعة في المحيط الهندي بالقرب من سواحل اليمن الجنوبية وتبعد عنها نحو ٤٥٠ كلم، تحتوي على نوع فريد لشجرة غريبة ذات فروع ثنائية كناية عن رمزية قايين وهابيل. والتراث الشعبي هناك يقول إنه لا مثيل لها في أي مكان آخر في العالم، وكأن هذه الشجرة بالذات أرادت أن تختبئ في سوقطرة من تحريات داروين عن الاستثناء البيئي! وعلى طريقة شجرة آدم (في القرنة) عند ملتقى النهرين بالقرب من البصرة، يصرّ اليمنيون على أن شجرتهم هذه تمثل دمّ ابني آدم اللذين، من نسلهما، قام سام فيما بعد ببناء صنعاء كأول مستوطنة حضارية عقب الطوفان.

هناك من العلماء والبحّاث والمفكرين مَنْ رَوّج إلى أن موقع «الجنّة» الحقيقي يقع في وسط الأناضول (تركيا) بالقرب من عاصمة الحثيين القديمة «هَاتشوشا»، حيث ما يزال هناك حضور واضح لأقدم الآثارات في عالم التحضر ومُستعمرات الزرع. بل وتوجد أيضاً بقايا صخور بَلّورية مُلَوَّنَة يُقال إنها مبعثرات متبقية من شُهب الجنّة نفسها! وعلى نفس الرجاء والتمني، هناك أيضاً مَن يرى «الجنّة» قابعة في مكان سرّي خلف سور الصين العظيم في إشارة واضحة تحمل بذور الترقب والأمل القريب.

لكن بعيداً عن الأساطير، يعتقد كثيرون من علماء البيئة والوراثة البشرية والأنثروبولوجيا أن هجرة الإنسان العاقل، فيما سمي بـ «الانتشار الأخير» الحديث، كانت موجة نزوح من القرن الأفريقي إلى اليمن عبر باب المندب (عدن) منذ ١٠٠,٠٠٠ سنة (البعض يقدرها بمليون سنة). ومع أن ثمة دراسات أكاديمية رصينة أيدت فكرة بعض التوجّه من وسط أفريقيا شمالاً غرباً عبر المغرب وجبل طارق، وعبر سيناء وفلسطين وسوريا (بلاد الشام) شمالاً شرقاً،

إلّا أن الراحلين الأوائل انتشر أغلبهم على طول سواحل جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس وصولاً إلى شبه القارة الهندية قبل ٥٥,٠٠٠ سنة. وإن دلّ الأمر على شيء، فعلى أن «عدن»، كمحطة بشرية عاقلة أولى، كانت «النعيم» الأول والخزان البشري الذي أطلق وجهات البشر في اتجاهات الجزيرة، فضلاً عن شرقها عبر شواطئ البحار الهندو- آسيوية.

ولئن كانت كل هذه النظريات لا تعدو سوى مقولات تعبّر عن آراء أصحابها ومموليها وتعكس قناعاتهم أو نواياهم، فإنها تحاك عادة بخلطة سحرية واحدة قوامها «الكلام والمكان والزمان». أيّ عناصر اللغة والجغرافيا والتاريخ كما بينت آنفاً.

وهكذا يمثل تشريح العهد القديم والبحث عن موقع الجنة موضة توراتية يتخفّى تحت عباءتها مفكرون كثيرون لتنفيس ما في صدورهم من خلال سراديب التاريخ وثقوب الجغرافيا ورطانة اللغة.. ومهما كانت النظريات التي يحيكونها بخيوط التوراة، فهي تتأرجح في نهاية المطاف بين «نقيضين» إثنين أقصاهما الإيمان والإلحاد. إلّا أن السير بينهما يبقى كالمشي على الأشواك، إنْ لم يُضْنك التعب خلاله أهلكتك الجروح وقضت عليك الآلام والظنون! لكن قد لا يكون هناك نقيض أو تناقض بالضرورة. لعل أجمل ما قرأته لفيلسوف عن المقاربة بين العلم والدين، أن الخيار بينهما لا يجوز ولا يفيد على قواعد المنطق، إذ لا يصحّ أن نقول (إما موسى وشق البحر، مثلاً، أو العلم والتكنولوجيا!). كما لا يصح القول (إما هنري فورد، أو هندسة السيارات!). أمران لا يفهم الفصل بينهما بسهولة!

ومع أن الكثير من العقلاء يرون المسألة اللغوية برمتها لا تستأهل كل هذا الإرهاق والفذلكة لأن التوراة والتاريخ والطبيعة يلتقون بالمضمون في مواقع كثيرة تبرّر استكمال المعنى العام، يرى بعض آخر أن التفسيرات اللغوية والتناقضات التركيبية التي تبرزها التوراة بين أسفارها لا يمكن لها أن تبرّر مطّ تاريخ هنا، أو رتق تاريخ هناك، ممّا يجعل وسطية الجدل حول نقاط الالتقاء

عقيمة لا تروي المنطق ولا تشبع الفكر. فإما أن المرأة حامل أو ليست حاملاً كما يُقال! إما أن يُنظر إلى التوراة على أنها أدب قصصي شعبي على شاكلة قصص الأطفال التي تروى في القرى عن طريق الحكواتي ولهجته المحلية وفهمه للرواية، أيّ لا علاقة لها بتاريخ صحيح أو محدّد، أو انها تُقص على أنها رموز معقدة لا تُدرك إلّا بالمعنى الدقيق جداً للكلمة واللهجة والزقاق والزمان معاً، ما يعني أن فهمها أمر صعب حتى على اللاهوتي نفسه. وإذا تمعّن المُحتار بروايات التوراة كما وصلتنا بأردية متنوعة، أو كما يشرحها الشراحون، فإنه يزداد حيرة لأنها، بتنوع معاني الكلمات، لا تعبّر عن حقيقة الأحداث بصيغة تاريخية سليمة. وهذا الخلل غالباً ما يسمح بتداخل عناصر الأسطورة بالخرافة، وكأن التوراة كانت قد أعدّت لتكون فيلماً سينمائياً درامياً ليس وثائقياً هادفاً!

ويلحّ السؤال: هل التوراة حقيقة أم رواية؟ حقيقة بمفهوم علمي له بداية وتطوّر ونهاية، أم أنها رواية عقائدية رمزية لضرب العِبر من أساطير وذكريات شعوب وأقوام قديمة؟ هل يهم فعلاً لو أن «ملكي صادق»، مثلاً، كان اسماً لملك كنعاني في سفر التكوين أم مجرد صفة له كملك صادق؟ هل يهم لو أن الاسم جاء مغلوطاً من أساسه على كُتّاب التوراة، أم أنه تركيبة لغوية مُحيّرة تحتضن موقع قصر سليمان وسرّ مكان تابوت العهد؟

الكلّ كما رأينا لديه نظريته، والكل يوظّف ما لديه من أدوات اللغة والتراث والمُختبر لإثبات حجته أو لدحض مقولة غيره فيها. وقد تتمدد هذه النظريات على خلفية المُنظرين أو قد تتشعب حسب زوايا الفكر والاعتقاد. لكنها تبقى شيّقة لما يسوقه فطاحل الفكر واللسانيون من جدال مُسل حول الفروقات بين جذور الكلمات ومعانيها، وبين أصول الشعوب وفروع القبائل، وعن التعريفات بين الأمم والأقوام والدول إلخ! وكما سنرى لاحقاً، يحاول البعض أن يمتطي «دابة إبراهيم» أو يصعد على «سلم يعقوب» أو يعبر «بحر موسى» للوصول إلى غرضه. بينما يرى آخرون في عدم تطابق التوراة مع سياق

التاريخ أو اللغة وسيلة أفضل من خلال الترويج لنظريات، لا تعدو للوهلة الأولى، ذات علاقة بإبراهيم وقبيلته، مثل نظرية «المؤامرة» و«الماسونيّة» و«الأطباق الطائرة» أو «النشوء والتطور» وغيرها. بل إن هناك - كما ذكرت آنفاً - مَن لجأ إلى علوم تقنية الكربون وإلى *DNA* كوسائل عصرية لحسم الأهداف، لكن بلا جدوى!

بين النووي والكربون

لا ريب أن تقنية الـ «الكربون» لها عِلة كبيرة تجعل نتائجها ترجيحاً أكثر منها يقيناً. ولئن كانت قصص الأولين الكبرى تعتمد لصدقيتها على مناظر الأطلال والآثارات، فهي تعتمد أيضاً على الكربون لصدقية تأريخها. سمعنا عن التأريخ الكربوني على أنه واحد من أدقّ التقنيات العلمية لتحديد البيئات والأزمان. فإذا بالسنوات الأخيرة تفضح المستور وتكشف لنا هشاشة نظامه؛ قالوا إنها تقنية متقدمة تعطينا تقديرات عمرية دقيقة جداً، فإذا بهامش الخطأ يتجاوز مئة عام في العيّنات الحديثة النظيفة، بينما يتجاوز الخطأ بتقدير أعمارها آلاف السنين في العيّنات الأثرية العتيقة الملوثة، كما في تمثال أبو الهول على سبيل الاستشهاد.. فمرّة يضعونه في حقبة «خوفو»، ومرّة في عصر «خفرع»، وطوراً بحضن «منقرع»، وتارة يمطّون تاريخه من ٢٥٠٠ إلى ٤٥٠٠ سنة ق.م. الملفت حقاً أن بعضهم يُمدّده إلى ٩٠٠٠ ق.م ليعود به إلى ما قبل عصور الفراعنة. وهم يقومون بذلك ليشيروا من خلال عمره المديد إلى وجود حضارات أرضية سابقة للأهرامات اختفت، أو فضائية خارقة تعود إلى عصر «الأنوناكي» الذين هجّنوا الإنسان الأول في سومر قبل التاريخ التقليدي؟ هذه كلها مجرد اجتهادات توحي وكأن أبا الهول له تاريخ مصنوع من لبان أصلي يعلكونه حسب مزاجهم أو يمطونه تبعاً لسياق رواياتهم أو ترجماتهم. أبو الهول نفسه لا يبدو أنه يأبه بما يدور حوله من آراء المؤرخين والتوراتيين!

لكن بعيداً عن الدخول في التقنيات الكيمائية المعقدة، يزعم المتحمسون

لعلوم الكشف عن المجهول أن «الكربون - ١٤» هو آخر صرعة تقنية متقدمة 'يعمل بدقة' على تحديد أعمار المواد والأشياء، لا سيما العضوية منها. لكن حقيقة الأمر أنه يعمل جيداً فقط حيث لا نحتاجه؛ بمعنى أنه كلما كان عمر الأثر المُراد فحصه موغلاً في الزمن، جاءت نتائجه غير دقيقة بالمرة، خاصة مع الصخور والمعادن. فقياس عمر أثر صخري عُبيدي أو سومري، مثلاً، يكاد يكون ضرباً من التخمين العلمي مقارنة بقياس عمر أثر خشبي روماني أو فخاري على سبيل المقاربة.

ولعل رواية مخطوطة القرآن التي عُثر عليها عام ٢٠١٥ م في وثائق قسم الشرق الأوسط في جامعة «بيرمينغهام» من أبرز أدلة اللغط حول تقنية الكربون في العصر الحديث. وهي مخطوطة تضم صفحتين فقط من القرآن استخدم الخبراء لهما علم المخطوطات والأشعة بواسطة عنصر الكربون المشع هذا. فتبين (؟) أن الصفحتين تعودان إلى تاريخ يقارب تاريخ ولادة الرسول أو بداية دعوته.

وهذا تقدير غير منطقي بالنظر إلى أن المصحف آنذاك لم يكن قد جُمع بعد. الأمر الذي دفع بعض الخبراء إلى التوضيح أن اختبار الكربون ذاته سليم وقد حدد تاريخ اللفائف الجلدية نفسها بنسبة معقولة، لكن الإشكالية تكمن بتاريخ الكتابة عليها إلخ. وعلى الرغم أن النصّ المكتوب على الرقعة لا يتجاوز ٢ ٪ فقط من إجمالي القرآن، فإنها كانت كافية لإثارة ضغينة المتربصين لمناقشة بعض آيات القرآن (أو لفائف قمران) على أضواء جديدة ولأغراض مجددة. ورغم معرفة هوية ناقلها إلى الجامعة في الثلاثينيات من القرن الماضي، وهو لاهوتي عراقي كلداني، غير أن أحداً لا يعرف بالتحديد كيف وصلت الصفحتان إليه أثناء عمله على تجميع مخطوطات من الطراز العالمي في «بيرمينغهام». تبين لاحقاً أن مهمته تلك كانت ممولة من قِبل أحد أعضاء 'جمعية الأصدقاء الدينية والخيرية' في المدينة البريطانية. وهي جمعية غامضة لم يتسرب عن دورها وأعمالها شيء مفيد يُبنى عليه.

ولربما يكون المعيار الأقرب لدقة فحص الكربون، ما لا يتجاوز عمره ٤٠٠٠ سنة فقط. فما أقدم من ذلك يعتبر عمراً ترجيحياً، وما أصغر منه لا يمكن الأخذ بصحتة نهائياً أو جدّيا لاعتبارات كثيرة منها التلوث. ولأن العالم اليوم صار مليئاً بانبعاثات الكربون، فقد نصل بعد عقدين من الزمن إلى مكان تبدو الآثارات 'الحديثة' فيه أعتق من الآثارات الأقدم للمفارقة! هذا أمر وإن كان 'علمياً' من الناحية النظرية، لكنه عجيب ومغاير للمنطق. وعليه، فإن معظم الأشياء الصخرية الجامدة، التي قيل لنا إنها تتجاوز ٤٠٠٠ سنة، مشكوك بصحة أعمارها بنسبة عالية. ولكي ينقذوا هذه التقنية من الظنّ بسبب تداعيات الشكوك فيها على مجريات التاريخ العريض، قرر علماء صينيون وروس منذ العام ٢٠١٥ م مجاراة الغرب في لعبة الأمم؛ فحددوا ٣٠,٠٠٠ سنة عمراً وسطياً قابلاً للإثبات الكربوني العصري بدلاً من أربعة آلاف سنة. (وقد سبق لنفس المدرسة الصينية الروسية أن جاملت أيضاً المدرسة الغربية في تقديرها لمتوسط حقبة إبراهيم). وإذا صحّ ما اتفقوا عليه كمعيار وسطي على صدقية نتائج الكربون، فتكون فرضياتهم الكبرى السابقة عن أعمار الجماجم 'المليونية'، التي أولدوا لنا «أريدو» و«لوسي» من رحمها، مجرد أشواط طويلة لا يُصاب المرمى منها إلّا بالصدفة أو الحظّ. وعلى اِفتراض أن هذه التقنية المخبرية دقيقة جداً ضمن معيار الـ ٤٠٠٠ سنة، فلماذا إذن يختلف المؤرخون ويفشلون في تحديد عمر «أبو الهول» والإجماع على زمن سرجون أو حتى أخناتون القريب نسبياً، وهذه تعتبر من الأزمان الإنسانية التاريخية الفارقة؟ وقس على ذلك بالنسبة إلى العينات التي قاموا بفحصها حول العالم، خاصة خلال العقود الأخيرة، وبنوا على نتائجها استنتاجات مبهمة ومشبوهة أو مضلّلة... ومثلما ربطوا لنا بين أهم الروايات التاريخية وبين أطلالها بأوصالٍ من تقنية الكربون، أضافوا إليها الآن تقنية الحمض النووي (*DNA*) لاكتمال عناصر تزوير التاريخ. وقد قيل لنا إن هذه التقنية، هي أيضاً، واحدة من معجزات العلم الحديث لتحديد خرائط حيوات الكائنات؛ فإذا بنتائج الخلايا

المخبرية الصافية من أي تلوث، لا تؤكد أكثر من **٩٢** ٪ من فعاليتها في الحالات المثالية الخالية تماماً من تأثيرات التلوث (وهي نادرة جداً).

٥ مختبرات و٥ قارات

أما إذا كان المُراد فحصه مشوباً أصلاً ببعض العيوب والتلوّث وموغلاً في القِدم، كأسنان السومريين وأظافر البابليين وعظام المصريين وضلوع الحثيين، وهو الحال مع معظم العينات المنقولة، فإن نسبة الدقة في نتائج حمضها النووي تتدحرج على سلالم التلوّث والعفن إلى ٤٠ ٪. وهذا يعني الدخول في ملعب التبصير والتخمين وعدم صواب الأخذ بها إلّا لملئ الاستمارات والتقدير العام! ووفقاً لهذا الاستنتاج، فأغلبية 'الحقائق' التي قيل لنا إنهم كشفوا النقاب عنها عبر تقنية الحمض النووي، إنما هي الأخرى 'حقائق' مضروبة أو تبقى 'ملغومة' ما لم يتجرّأ عالم قدير وقور على تحدّي صحتها بوجه «المؤسسة». وهنا تحضرني محاكمة الرياضي الأميركي العالمي «أوجيه سيمبسون» الشهيرة في منتصف التسعينيات من القرن العشرين. فقد كانت خير دليل على خطورة الاِتكاء فقط على تقنية الحمض النووي. إذ طلع الرجل بريئاً من دم زوجته وعشيقها رغم ثبوت اِقترافه الجريمة مخبرياً. تحدّى بثرائه وشهرته مصداقية الحمض النووي، وصرف على تحدّيه ملايين الدولارات عبر مختبرات كبرى ورصينة وعلماء شجعان وخبراء دوليين معروفين وظّفهم للدفاع عنه، ونال من شهاداتهم العلمية براءته بغياب الدليل الدامغ على صدقية *(DNA)*...

إذاً، اللجوء إلى هذه التقنية وحدها، كدلالة قاطعة، أمر مشوب بالريبة رغم ثقة العلم بنسبة صدقيتها العالية في المستقبل. واستطراداً، لا بد هنا أن نتساءل عن صحة نتائج عشرات آلاف العينات التي عُرضّت في الماضي للفحص الحمضي حول العالم والتي بنوا عليها استنتاجاتهم، تحديداً فيما يتعلق بأشياء عضوية تخصّ شخصيات دهرية، كجيمس الأول، ورمسيس الثاني، وريتشارد

الثالث، وأمنحوتب الرابع، وبطليموس الخامس، والبابا إسكندر السادس، وتشارلز السابع، وهنري الثامن إلخ. لا بد أيضاً أن نستفسر عن صحّة نتائج أعمار قرون الثيران على قبعات «الفايكنغ»، أو أردية بعض الملكات المنغوليات، أو طرابيش بعض الخلفاء العثمانيين، أو حتى عن صحّة نتائج أعمار بعض الرسومات في بعض الكهوف الأوروبية! كما لا بد من التشكيك أيضاً بنتائج بحثية لبيئة آثارات خالدة، كفلك نوح والحجر الأسود و«خور سمهرم» ومعبد «باربار» وأمثالها. ثم إننا لا يمكن أن نستبعد أيضاً الظنون بأبحاث احتيالية جرمية تتعلق بجثامين زعماء مغدورين أو معارضين أو مشاهير أو بوثائق فارقة، ككتاب «أخنوخ»، وأوراق «رجل بلتداون» و«لفائف قمران»، و«قرآن بيرمنغهام»، و«مذكرات هتلر» - على سبيل الاستشهاد العابر!

وعليه، لا بد أن تساورنا الظنون بخلاصات بعض نتائج الحمض النووي، أقله من باب الموضوعية. هذا لا يعني بالضرورة أننا نشك بتقنية الحمض النووي نفسها، لكن لا يمكننا الأخذ بتفسيرات المفسرين لنتائجها، لا سيما عن نماذج العصور الإبراهيمية والموسوية. الأمر هنا كما لو كنا نقول إننا نؤمن بالطب وليس بنوايا الأطباء. وبالدين وليس بتفاسير المتدينين. وبالقضاء وليس بأحكام القضاة إلخ... من هنا، فالأمور كلها نسبية حتى في العلوم والمختبرات والبينات، وتبقى معانيها وتأثيراتها رهن استخدامات سلطة الزمن واستغلال مؤسساتها. ذلك أن الظروف الغامضة والعينات الملوثة وأمكنة العثور عليها تعتبر ملاعب احتيالية بامتياز لتمرير المبتغى...

ودليلي الكاريكاتوري على ذلك هو أنك لو أجريت فحص الحمض النووي على نفسك لدى خمسة مختبرات عالمية في خمس قارات في وقت واحد، وبإشراف خمس جامعات عالمية، لجاءتك خمس نتائج مختلفة بتفسيراتها رغم العلم الواحد؛ فقد تكتشف أنك قوقازي وهندي وسيبيري وأفريقي وأوروبي وفينيقي ويمني في آن واحد. الأمر في نهاية المطاف يتوقف على انطباعات كَتَبة

التقرير، أو على مَن يُفسّر لك نتائج الاختبار أو ربما على رغبتك الشخصية وقيمة المبلغ المدفوع كما في مثل «أوجيه سيمبسون»!

وإذا كان أمر الحمض النووي مزرياً مع الشخص الواحد إلى هذا الحدّ، فكيف يكون مع قبيلة عريقة ذات أصول وفروع مترامية على مدى الصحراء؟

بل المضحك المبكي في هذا الصدد أن 'جهات' مختلفة في بقاع العالم تجري أبحاثاً جينية على عينات بشرية بشكل دوري لتحديد أعراق شعوب بأكملها. كأن هذه الشعوب كانت مسترخية في ثلاجة الزمن بلا عمل ولا تطور ولا اختلاط بانتظار مَن يأتي لها بعصير الحامض! فيصدر عنها - على سبيل المثال - ما يجعلك تستغرب كيف يُصنفون الأعراق أحياناً تبعاً للعادات والطبائع والمعتقدات، كما لو أن للسلوك والأديان دماءً تُفحص على أجهزة المختبرات! المسألة ليست سهلة ولا علم ينفع معها أكثر من التقدير العام.. إسرائيل، مثلاً، ومع أنها تعتبر دولة متقدمة جداً في حقل التكنولوجيا عموماً والجينيات خصوصاً، لا تأخذ بنتائج اختبار الحمض النووي عندما يتعلق الأمر بمنح الجنسية الإسرائيلية لليهودي. ذلك أن الاختبار العلمي يعتمد على عينات مشتركة من الأب والأم معاً، فيما النظام الإسرائيلي لا يعترف بصفاء اليهودية لغرض التجنيس إلّا من خلال الأمّ... فإما إن إسرائيل لا تعنيها صدقية الحمض النووي من أساسه، أو إنها لا تصدقه أصلاً، أو إنها في الاحتمال الثالث تخشى أن ينفضح أمرها به على اعتبار أن شعبها مُكّون من جماعات وتكوينات مُبعثرة ومجمّعة من بقاع العالم.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك هو الاختلافات الشديدة بين اليهودي الفلاشا الأسمر في إثيوبيا واليهودي الميزراخي في البلاد العربية! وهناك أيضاً الاختلاف العضوي بين اليهودي البولندي الأبيض الأشكنازي في أوروبا وبين السفارديم «الأيبري» (الإسبرتغالي) على سبيل المقاربة.

الفصل الثامن: جغرافية قوس قزح

ما كل ما يلمع ذهباً

مع أن الجغرافيا هي الأكثر ظهوراً بين عنصري التاريخ واللغة، لكنها لا توضّح بالضرورة أين جرت قصص التوراة رغم أسماء المواقع التي تحددها. ذلك أن إحداثيات التوراة حولها عامة وعريضة، وأسماؤها تتكرر في الشكل والمضمون في أكثر من موقع متشابه. ثم إن آثار الجغرافيا غالباً ما تنقب بإرادة سياسية وبموازنات رسمية لأغراض استعراضية أو دِعَائية أو لطقوس لها مرام وأهداف متعددة. أما التنقيب الخاص خارج «المؤسسة»، فبالإضافة إلى أنه محدود التمويل ومتقطع زمنياً، قلما يؤخذ بنتائجه على محمل الجد، أو يحظى بإجماع أكاديمي شامل بالنظر إلى كلفة إجراءات تسجيل المكتشفات الجديدة واللقى وتحديد المواقع والتصاريح إلخ.

كثيرون، كما رأينا، يتحدّون قصة الخروج! المحاذير ليست قليلة ولا بسيطة لأن مصداقية الوحي التوراتي نفسها على المحك. لذلك من الضروري أن يكون فهمنا لكل الطروحات والأدلة فهماً علمياً دقيقاً، أو عاماً جامعاً على أقل معيار. هناك مَن يقول إن الاعتماد على الآثار وحدها لا يفيد في إظهار الحقيقة. إذ إن التاريخ - كما بينّت آنفاً - مليء بآثارات فبركها ملوك دمروا أطلال أسلافهم أو معالم مَن احتل بلادهم ليبنوا بحجارتها قصورهم. ومن أوضح الأمثلة على ذلك حكام مصر الذين قاموا بتدمير الكثير من آثار الهكسوس وأعادوا استعمالها لأمجادهم. وكذلك قام تحتموس الثالث بتدمير ما استطاعه من آثار الملكة حتشبسوت قبله. أو مثال كهنة معبد آمون الذين

دمروا مدينة أخناتون عن بكرة أبيها واستعملوا حجارتها في أماكن نائية، فضلاً عن قلب الثقيل منها وجهاً على خلف ورأساً على عقب للاستخدام في الأماكن القريبة.

وفي العصور الحديثة رأينا العثمانيين وقد حاولوا مسح الأيقونات المذهّبة والرسومات الإنجيلية من سقوف وجدران كنيسة «آيا صوفيا» البيزنطية. ولفترة من الزمن حاولوا تغطيتها بتصويرات متأخرة عن أمجادهم. سمعنا أيضاً عن محاولات تزوير فاضحة من خلال نقش إضافات مفبركة على الآثارات بدل الحذف منها أو طمسها. ومنها، على سبيل المثال، ما قيل إن صدام حسين أدخله من نقوشات على أطلال بابل أثناء ترميمها خلال الحرب العراقية - الإيرانية. ومن هذه النقوش العصرية ما رَبط «علاقة شخصية» افتراضية بين نبوخذ نصّر وصدام حسين، بحيث إن صمدت هذه النقوش أمام عوامل التعرية والزمن، تكون قد نجحت باختبار الأسيد وضيّعت البوصلة على المؤرخين بعد قرن من الزمن. صدام لم يكتفِ بذلك، بل استعار من أطلال بابل ليرمم بها جدران قصره حسب الإشاعات المحلية. هذا بالإضافة إلى تشويهات الإنجليز لآثارات بابل خلال مدّ سكك الحديد وبناء قطار الشحن أثناء الحرب العالمية الثانية، فضلاً عن تحصينات الأميركيين الخرسانية أثناء حرب بوش على العراق.

ومن الأمثلة العديدة الأخرى على الآثار المزيفة الشهيرة أو القطع الأثرية من العصور القديمة: قطع محاربي «التيراكوتا» الأتروسكان التي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. فقد تم في إيطاليا في العام **٢٠١٥** م العثور على عدد كبير من منحوتات طينية تشبه شخوص المحاربين الصينيين. وزعم يومها أنها أتروسكانية الأصل. لكن سرعان ما تم الكشف لاحقاً أنها كانت جزءً من عمليات تزوير حديثة أنشأها الحرفيون الإيطاليون بغرض الاستفادة من الطلب على القطع الأثرية القديمة. وهناك «لفائف شابيرا» العبرية التي تعود إلى أواخر القرن التاسع ميلادي، وقد عُرفت باسم صاحبها تاجر الآثار الشهير المدعو موسى فيلتهام شابيرا. وأقول «صاحبها»، وليس مكتشفها، لأنه فبرك

المخطوطات وزعم اكتشافها في الأردن، بما في ذلك نسخة قديمة من كتاب «التثنية». وتجدر الإشارة هنا إلى أن «لفائف شابيرا» هي غير «لفائف قمران». وعلى الرغم من الحماسة الأولية والإثارة التي هيّجها شابيرا في دوائر الأبحاث والتاريخ، فقد رُفضت المخطوطات على أنها مزورة من اللفة الأولى حتى اللفة الأخيرة. هذه الأمثلة توضح الانبهار الدائم بالقطع الأثرية القديمة وإمكانية الخداع والتزوير عبر التاريخ، ولاسيما حيث تكثر الآثارات كما في الشرق الأدنى.

صدام مجرد مثل، ولم يكن وحده في لعبة العبث والتصرّف بالآثارات. الزعيم الصيني مَاوتسي تونغ، قام هو الآخر، بإعادة ترتيب «المدينة المُحرّمة» ورتبّها على طريقته وحسب رواية دعاياته. الأمثلة على هذه التشويهات الجغرافية وتزييف الآثارات يضِيق بها حيَز الموضوع. إذ إن فبركات الحكام والملوك والمحظيين عبر التاريخ فلكية بأرقامها لا تكفيها مساحة مكتبة الكونغرس بحالها. واستطراداً، هناك شكوك جدّية تساور العلماء حول مصداقية نقوشات كثيرة قي متحف اللوفر والمتحف البريطاني ومتحف فرانكفورت ومتحف برلين ومتحف نيويورك. وهناك ريبة وخيبة أيضاً في دوائر الحفريات حول تفسيرات وأعمار بعض النقوشات والأسطوانات والفخاريات، لا بل حتى في الرسومات المستخرجة من مواقع أثرية قديمة جداً، مثل «إبلا» و«كركميش» و«الوركاء» ومعابد «سن» في خفاجي، و«أبو» في تل أسمر، و«عشتار» في نفر، ومعبد «شارا» في تل أجرب، وغيرها من المواقع الفارقة الهامة.

ويكفي تزوير نقش تاريخي واحد لخلق رواية وهمية أو لتبرير رواية احتيالية. هنا تقفز على البال «خبرية» عملاء الموساد الذين ما إن وصل الأميركيون إلى بغداد في العام ٢٠٠٣م حتى هبط ثلاثة من كبار خبراء الآثار الإسرائيليين إلى السرداب الثالث من قبو المتحف العراقي الوطني. هناك قصدوا صندوقاً بذاته، وكانت فيه قطع أثرية صغيرة لم تكن قد صُنفت نهائياً بعد؛ فأخذوا منه ثلاث

قطع محددة بأرقام كانت مدونة سلفاً في لوائحهم. تركوا المتحف بحاملة جنود مصفحة وطاروا منها لاحقاً بطوافة أميركية إلى كركوك[١]. الواضح أن خبراء الآثار الإسرائيليين لم يكونوا على علم مسبق بمكان وأرقام القطع وحسب، بل تركوا بدلها قطعاً مزورة لاكتمال عملية السطو التاريخي وتضييع الحقيقة. أما القطع الأصلية المسروقة، فقيل همساً (بلا دليل كالعادة) إنها تعود إلى حقبة «أور» تحديداً! «مصدر» مسؤول في المتحف العراقي قال إن ألوف القطع الفنية والأثرية من فخار ورِقم طينية كانت، قبل حرب العراق مع إيران، تستخرج يومياً وترسل تباعاً إلى المتحف بغرض الدراسة والتصنيف. المتحف كان بمثابة «قلعة أثرية» وكنزاً مكدساً بأروع اللقى السومرية والبابلية والأشورية التي كانت تودع فيه تباعاً منذ قرن ونصف القرن. وقد نقل على لسان صحفي بريطاني رصين ما مفاده أنه استنجد برجال القوات الأميركية لإخماد حرائق هبّت في مكتبة المخطوطات الأثرية أثناء مروره بها، لكنهم لم يلبّوا نداءه. وتبين من آثار الحريق أنه كان مصطنعاً، بأمارة اشتعاله بأطنان المجلات البالية والصحف العتيقة والمطبوعات المهملة، ما يعني أن حرقها كان عملاً تمويهاً لعملية سرقة التحف. ومما نشر لاحقاً أن وزارة الثقافة والآثار العراقية حصرت ما قدره ٣٠٠٠ قطعة نادرة من أصل ١٧٠,٠٠٠ مفقودة، ولم يبق لديها سوى ٤٧ قطعة فقط ذات قيمة تاريخية فارقة من أصل ٨٠٠٠ قطعة....

وعلى نقيض سيرة إبراهيم، التي لا يوجد دليل من «أور» على حياته فيها، يقال إن ضريحه قائم فعلياً وشاهد على حقيقته في الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل. هذا بحد ذاته - حسب قول المؤمنين - يكفي لدحض ظنون المشككين ووأد قناعاتهم الخاطئة. فهناك كما نعلم - والكلام ما يزال للمؤمنين - شخصيات تاريخية حقيقية عظيمة، لدينا على حياتها شواهد وأدلة ومخطوطات حسيّة لا تُنكر، لكن ليس عندنا دليل واحد على قبورها، كالإسكندر ومانيتون

(١) مدينة عريقة يزيد عمرها عن عشرة آلاف سنة.

وجنكيز خان وهومر وكونفوشيوس وهنيبعل، فضلاً عن القديس يوحنا المعمدان وموسى الصدر وبن لادن وغيرهم الكثير ممن لا مراقد لهم، رغم آثار حياتهم الواضحة وتأثيرهم القوي على حياة شعوبهم. ثم في المقابل أيضاً كم مرّة هُدِمَت مدينة «أورشليم» وأعُيد بناؤها؟ كم مرّة خُرّبت البصرة ومواقِع أخرى بأكملها عبر التاريخ لتنقل آثارها وأحجارها إلى مواقع غير مواقعها الأصلية؟ أوَلَمْ يقم الأكاديون بإعادة ترتيب هندسة «أور» ومعابد «تموز» كما فعل الغزاة والمحتلون في كل مكان؟ أوَلَمْ يسّهل الأمريكيون تدمير العراق وسرقة آثاره ومحو معالم كثيرة من شِماله إلى جنوبه؟ ألم يعبث الطالبان بآثار أفغانستان، ويعبث داعش بآثار نينوى وتدمر وبابل؟

وإذا كانت سرقة التاريخ كفكرة قد داعبت مخيلة صدام ومَاو وهتلر (تزوير لوحات فنية وتغيير هويات رساميها)، فلِمَ لمْ تداعب الفكرة أيضاً مخيّلات مَنْ سبقوهم من فراعنة وأباطرة وملوك ومستشرقين ومنقبين؟ هنا، يطفو إلى الذاكرة همس الدوائر التاريخية وبعض المتاحف عن المنقب عالم المصريات الشهير هاورد كارتر وتلاعبه ببعض أهم الآثارات! لكن سرعان ما برأته «المؤسسة» بالنظر إلى أن «غرضه كان شريفاً» وينحصر في إقناع ممولي حملاته التنقيبية بضرورة تمديدها، أي إن غرضه لم يكن التزوير بحد ذاته (عذر أقبح من ذنب)! صحيح أن بريطانيا ردّت الاعتبار له عام **٢٠١٢** م وحصنّته بتكريمات رسمية متتالية، لكن ما زالت الشكوك تساور البعض حول فعلته، سيما أنه لم «يبخل» على نفسه بنقل الكثير من الآثار المهمة إلى منزله في بريطانيا، وإن بذريعة حفظها من إهمال المصريين وعبث المزورين وجشع المُهرّبين. وعلى الرغم أنها تعتبر بالتعريف الواقعي ممتلكات رسمية لمصر، لكن أسمعت إن ناديت حياً إلّا أنه لا حياة لمن تنادي! المعروف رسمياً أن قطعاً كثيرة وقيّمة بقيت في حوزته ببيته إلى أن توفي عام **١٩٣٩**م، لكن لا يُعرف عن تفاصيلها شيئاً، ولا عن مصيرها بين الورثة والمتاحف والسماسرة ودوائر الأكاديميا وكتّاب التاريخ والسوق السوداء وإسرائيل.

إذا كانت الآثارات الموثوقة وحدها لا توضّح إلّا بعض الوقائع، فالقراءات من اللغات القديمة لا تنفع هي الأخرى لتوضيح كل العناصر بصورة منطقية. الدليل على ذلك أنه ليست هناك ترجمتان متطابقتان عن «ملحمة جلجامش»، أو عن رسائل «تل العمارنة» أو مدوّنة «أور- نامو»، وهي منقوشات وُضعت باللغة المسمارية الأكادية على سبيل التذكير. أما ملايين الترجمات القديمة الأخرى غير المسمارية، فالاختلافات فيها تُقبل على مضض لاعتبارات علمية أو ضرورات اجتهادية تفسيرية. وما ينطبق على اختلاف ترجمات المترجمين في النصّ العتيق الواحد، ينسحب أيضاً على اختلاف استنتاجات المنقبين في الموقع الأثري الواحد! إذ إن تعدد وجهات النظر وتنوع الثقافة وتحيّز الانتماء كلها عناصر «تكحّل» الحقيقة وتطمس إمكانياتها. فتصبح جهود المترجمين والمنقبين في أفضل أحوالها كما لو كانت تبيّن أشكالاً غامضة لأشخاص من وراء غربال، لا يُعرف الذكر منها من الأنثى ولا الصغير من الكبير ولا الأبيض من الأسمر. لكن مع ذلك تبقى مفيدة في تمييز الشكل البشري عن شكل النبتة أو الحيوان أو الجماد، وهذا بذاته يعتبر إنجازاً يستفاد منه!

الفصل التاسع: قرائن وأدلة

أطلال وأزمان وأعمار؟

لكن أين آثار المدن والقرى التي ذكرت التوراة أن يشوع بن نون دمرّها عن بكرة أبيها عند دخوله إلى أرض الميعاد؟ أين هي مؤآب وأدوم وإغلون وأشدود (أسدود) وآي، وأين هي أسوار أريحا وجدران بيت شمش؟ إن هذه القرى والبلدات إما إنها لم تكن مأهولة في التواريخ التي أوحت إليها التوراة أصلاً، أو أن تدميرها كان قد حصل قبل ذلك الزمن بمئات السنين - حسب تقدير البعض! لكن أين كانت مدينة «القدس» نفسها يوم دخل يشوع إلى فلسطين؟ لا أحد يعلم يقيناً ولا تقديراً! الواضح أن المواقع التي ذكرتها التوراة لم يعثر عليها لا بأغلبيتها ولا بترتيبها من بعضها البعض ولا ضمن جغرافية إسرائيل الحديثة؟ الأمر الذي أثار قريحة المفكرين العرب لحمل لواء البحث عنها في أوطانهم. لكن ما دام المنقبون لم يعثروا خلال قرن كامل من التنقيب المنهجي على شيء يؤكد تاريخية التوراة وجغرافيتها بين مصر والأردن بما فيها فلسطين نفسها، فلماذا يفترضون أن الآثار موجودة من أساسها أصلاً؟ سؤال منطقي تفرضه جدلية البحث بعد أزمان طويلة من الغوص في البحر الميت والبحش حول أراد وهاذور وفي النقب؟ ثم لماذا يفترض معظمهم أن الآثار موجودة في جزيرة العرب، فقط لأن بعض أسماء المواقع وتصويرات البيئة تتشابه بمثيلاتها هناك؟

التوراتيون المحابون يصرّون على أن المواقع الفارقة لبعض المدن التوراتية لا تزال غير مؤكدة فقط لأسباب علمية منطقية. أي إن المنقبين يبحوثون عن

الآثار حيث التقليد والأضواء وليس حيث المستبعد، أو حيث ينبغي البحث عنها خارج أضواء المراجع التاريخية المألوفة. ورغم ذلك، ليس هناك أثر أو أرشيف واحد يدل على وقائع تاريخية بشأن هذه المدن المفقودة حتى من خارج أضواء النصوص - حسب تعبير إسرائيل فنكلشتاين. وعليه، فليس مُجدياً التحدّث تاريخياً عن مدن لم تكن مأهولة وإنْ أقحمتها زوراً نصوص الأسفار فيما بعد. وقد تردد في مراجع تاريخية كثيرة أن مدينة «القدس» نفسها، مثلاً، لم تكن مدينة أصلاً، أو مأهولة في القرن العاشر قبل الميلاد، دعك عن دواد وآثار مملتكة. وهي بالمناسبة مملكة يُفترض أن لها أطلالاً عظيمة من عصر كانت الحضارات حولها قائمة وجارية!. وحتى لو افترضنا جدلاً أن تلك الفترة (١٠٠٠ ق.م) كانت حقبة غامضة بمثابة «الثقب الأسود» لانشغال الحضارات الكبرى عن بعضها البعض بشؤونها الداخلية، فكيف نجد لتلك الحضارات ما لا يحصى من الآثارات والجدريات والنقوش، ولا نجد قشة واحدة من مملكة داود أو مزموراً محفوراً من مزاميره؟

إذا كانت مدن التوراة بأغلبيتها مفقودة، فكيف نعتمد على حِسبة التواريخ في تأسيسها أو ظهور القبائل بين بواديها على مدى الدهور؟ بل كيف نفهم حِسبة التوراتيين بشأن الخلق نفسه وهي حِسبة تؤثر على تواريخ وأعمار وترتيب البطاركة قبل وصول ذريتهم إلى مصر وأرض الميعاد؟ وهكذا، نرى أن الأزمان والدهور أيضاً مادة توراتية خصبة للجميع. كلٌ يستعملها لإثبات واقعة أو نقض وقائع. فبينما نرى مؤرخاً مثل بيروسوس يُحدّد بدء الخليقة بنحو **١٢٠** «ساروي» (وحدة قياس تساوى **٣٦٠٠** سنة) ممّا يجعل عُمر البدء **٤٣٢,٠٠٠** سنة قبل الطوفان، نجد لاهوتياً يمسك العَصا بطريقته ويَدّعي أن العُمر الصحيح هو **١١٨٣** سنة قبل الطوفان، وذلك عن طريق الاقتضاب وتقسّيم الحساب على عدد أيام السنة، أي **٤٣٢,٠٠٠** قِسْمة **٣٦٥**؟ وهذا استنتاج سَبق ذِكره في سفر «أخنوخ» الممنوع من المؤسسة الدينية....

وعلى منوال هذه المعادلات، نرى نقلاً عن المؤرّخ المصري مانيتون أن

احتساب ٦ عهود لآلهات قديمة قد جاء مجموعها عِنده ١١,٩٨٥ سنة. ولما اعتبر السنة ٢٩,٥ يوماً، فقد جاءت حِسبَتة (١١٩٨٥ × ٢٩,٥) قريبة نسبياً لحسبة المؤرّخ الإغريقي بيروسوس. وكلاهما كانا معاصرين لفترة العقد الثالث قبل الميلاد وأرّخا لبدء الخليقة، كل من موقعه في مصر واليونان تباعاً؟

وهكذا نرى أيضاً مفكرين ولاهوتيين وكهنة يجربون حظوظهم مع الحساب كما يجرب غيرهم مع أسماء المواقع! فيقولون مثلاً إن نوحاً وُلِد بعد آدم بنحو ١٠٥٦ سنة، بينما عمّر قرابة ٩٥٠ سنة. وعلى طريقة احتساب أعمار أولاده سام وحام ويافث من تاريخ الطوفان - والذي فاض عندما كان نوح قد بلغ ٦٠٠ سنة من عمره (تك: ٧-٦) - يصبح باقي الحساب معروفاً سواء بالذكر تحديداً حسب نصوص التوراة، أو من خلال بعض عمليات الضرب والجمع والقِسمة اعتماداً على فترات الـ ٤٠ سنة المتكررة. وهكذا نرى أن نوحاً قضى ٣٧٠ يوماً في السفينة ما يؤدّي إلى احتساب زمن الخليقة بنحو ٥٨٠٠ سنة تقريباً كما في التقويم اليهودي المعتمد. ثم إن هناك حِسابات أخرى للشمس والقمر والنجوم. فيوم على كوكب آخر قد يساوى ٦ أيام لدينا، أو أن يوماً على الأرض يساوي نصف يوم على القمر. وبالعودة إلى لوائح الكونيفورم والانثروبون في عهود حمورابي وبعض الفراعنة، نجد أن هناك مرجعيات عديدة لأرقام وحسابات فلكية معقدة جداً عن بدء الخليقة. وهذه روزنامات رأينا أكثر منها تفصيلاً وتعقيداً في حضارة «المايا» في المكسيك، فضلاً عن روزنامات «الإنكا» في البيرو والإكوادور وبوليفيا وتشيلي. أمّا زمن العلم الفيزيائي الحديث، فقدّر فترة «البدء» منذ نشأة الأرض حتى الآن بنحو ٤,٥ بلايين سنة. وهذه سنوات لا يستوعبها مّن يعتبر أن آدم والجنة يعودان إلى ٦٠٠٠ آلاف فقط. وما هذه كلها إلّا عينات تميّز فريقاً من العلماء والمؤرّخين عن فريق اللاهوتيين. والأمثلة على التنافس السلبي بينهما والاختلاف المعطوب لا يتسع لهما حيز الموضوع سواء بشأن الحساب أو الأسماء أو المواقع أو التواريخ أو المغازي.

وهكذا نرى التوراة نقطة ارتكاز للجميع من عامة وصفوة وأصوليين وحداثة. لكنها وإن بدت وسيلة تديّن وتعبّد للمؤمنين، وشغف واهتمام للباحثين في أمور الكهنوت واللاهوت، فإنها تبقى الوسيلة الأعظم لدى الملحدين أو العِلمانيين على تعدّد مشاربهم وجنسياتهم. فكما أن هناك الكثير من الفلاسفة المؤمنين الذين تطرقوا بحياء مرة أو بجرأة مرة أخرى إلى أسباب الخليقة، وتقارعوا عبر التاريخ في فلسفة الوجود وأسرار الحياة، هناك أيضاً كثير من العلماء والمؤرّخين الذين - كما سبق وذكرت - لم يكن لديهم الشجاعة اللازمة لإعلان التحيّز العلني، فرأوا في تشريح التوراة وسيلة ناجعة للتفريغ عن أهوائهم دونما الظهور بالمساس بجوهر المسألة، أو بالأحرى، بأمّ المسائل. ذلك أن تداعيات التناقض بين الأسفار وفي فقراتها تستوجب التحليل تحت عباءة البحث عن الحقيقة - أياً كانت هذه الحقيقة.

ولعل قصور العلم عن معرفة النوايا هو أهم دليل على قصور طروحاتهم مهما لجأوا بها إلى مختبرات التاريخ وأطلال الحضارات التي مرّت من خلاله. وإذا كان فضحهم لتناقضات التوراة نقطة تحسب لهم، فإنها لا تؤكد حقيقة بعينها. فكأن هؤلاء الكتبَة والمفكرين والعلماء كلما وصلوا إلى قمة من قمم المعرفة والكشف عن حقيقة من الحقائق، وجدوا كهنة المعبد قد وصلوها قبلهم بآلاف السنين دون أن يكون لوصولهم عناء واضح - على حد تعبير كارين أرمسترونغ. فإما إن المشككين يتوهمون رؤية الوصول إلى قمم المعرفة، أو أن الكهنة قد هبطوا عليها فعلاً من الفضاء بقدرة قادر.

من هنا، فإن التطرّق إلى النظريات التي كُتبت حول مواقع التوراة وأزمانها، إنما هو تطرق إلى الفكر الأكبر. الفكر الذي يتبناه طرفا المعادلة في محاولات عقيمة لتسليط الأضواء على جانب مُعقد لصراع مرير عمره آلاف السنين. وهو يَتمثل في صراع المادة والرُوح والعلم والإيمان. وهذه مسائل عجز البشر عن الاتفاق بشأنها رغم ولادة الفلسفة من أجلها ورغم وساطة أفلاطون وسقراط وأخنوخ ودانتي وداروين وفرويد. وهذا الأخير على سبيل الدلالة عندما أصدر

كتابه «موسى والتوحيد» كتبه مواربة من الوجهتين التاريخية و«النفسانية» ليقول في الأولى إن موسى لم يكن عبرانياً، بل مصرياً. وليؤكد في الثانية أن ظهور «فكرة التوحيد» تعود إلى العقدة الجنسية الأولى عند الإنسان، أو إلى الجريمة الأولى في التاريخ البشري، جريمة قتل الأب البدائي على أيدي أبنائه الطامعين في نسائه وسلطته. كتابه هذا كان بالغ الخطورة إلى حد أن فرويد نفسه لم يجرؤ على السماح بنشره إلّا عند احتضاره. وما إن ظهر الكتاب في الأوساط الفكرية حتى سارع أبناء جلدته اليهود يتهمونه بالإلحاد والهرطقة واللاسامية بالنظر إلى أنه ألحد عن نصوص التوراة.

عند هذا المفترق ينبغي الانتباه إلى الفروقات الفلسفية بين الإلحاد وبين العلمانية، وبين الكفر وبين اللادينية، وبين الشيوعية وسواها من الفروقات. ليس كل من نقد التوراة أنكرها. ولا كل مَن آمن بها صدّق تواريخها وجغرافيتها وشخصياتها. ولا كل من صمت عنها ألحد أو كفر أو فقد صوابه. وقد بينت آنفاً أن هناك حاخامات وقساوسة وشيوخاً وعظماءً ومفكرين كباراً آمنوا بخالق عظيم لكن لم يؤمنوا بـ«يهوه»، ولا بفلسفة تفضيله لشعب مختار في جزء موعود من الكرة الأرضية إلخ....

على المحك وتحت المجهر!

عندما نتحدث عن التاريخ بموضوع التوراة، غالباً ما يتبادر إلى الأذهان تاريخ الحضارات القديمة وشعوب الشرق الأدنى كما رأينا. ونادراً ما تساورنا الشكوك في صحّة التفاصيل التاريخية على الأقل بالمفهوم التقليدي لدى غالبية الناس. فالتاريخ سيرة حدثية تُستعرض في أشكال وأساليب مختلفة. البعض يحرص من أجلها على صحّة الوثائق ومصداقية المصادر التي يرصدها. لكن مهما يكن من أمر، فالكل يسعى إلى إبراز السيرة التاريخية بصورة مقنعة قدر الإمكان. قد تكون الحقيقة أحياناً أغرب من الخيال، لا تنفع معها بلاغة الوصف ولا دقة التفاصيل ولا تعدّد المراجع أو أمانة المترجمين. ليس «العهد

القديم» فقط، بل إن تاريخ البشرية كله مملوء بالألغاز والإعجاز وحافل بالأوهام والأساطير والخرافات. ورغم أدلة المختبرات ومقاييس العلماء والـDNA، ليس كل التاريخ يُفهم أو يُقبل، إذ تمتزج فيه إرادات الشعوب بوقائع الجغرافيا وتصطدم آمالها فيه بحدود الطبيعة وطقوس الآلهة، إلى درجة لم يعد من السهل على المفكرين الفطاحل غربلة الصحيح من الخطأ وتنقية العسل من شهده..

من هنا، يزعم المشككون والنقاد أن أسفار التوراة (شريعة موسى) مليئة بالدسائس والأكاذيب والتفخيمات ولا يمكن أن يتفوّه بها عقلاء، دعك عن أنبياء منزّلين. ففي أسفار التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية، هناك - برأيهم - أحاديث تدل على انحرافات دينية وحشية وعن اغتصابات ونهب وأنانية تسودها أوصاف، أقل ما قِيل فيها، إنها من وحي خيال قلة حاقدة على ما هو غير يهودي، زوّرت التاريخ لأسباب وراثية سلطوية وانتقامية.

وقد شكّل طرفا الصراع (مؤيدو التوراة ونقادها) مدرستين أساسيتين تعرفان بالمُقلّلة والمُكثّرة. أي، واحدة تقلل من أهمية آثار التوراة وأخرى تكثرها. وهاتان، كما رأينا تباعاً، تتعاركان على مدى أهمية الآثار المقدسة على ضوء ندرة الشواهد الجغرافية وانعدام الأطلال. فالمكتشف منها في إسرائيل خلال سبعة عقود لا يتجاوز ٢ ٪ فقط بالقياس إلى الآثار المُكتشفة في مصر لنفس الفترة مثلاً. أضف إلى ذلك أن دولة إسرائيل الحديثة - وبعكس مصر - لديها من التكنولوجيا والشغف والمصادر والأدوات التقنية أكثر مما لدى مصر بمراحل وطبقات. ومع ذلك، فليس هناك ما يدعم عندها قصص التوراة من الناحية الأثرية الجغرافية التي يتبنّاها المُكثرون ويروّجون لها ضد المقللين. الخلاف على صلاحية مفعول التوراة من الناحية الأثرية لا يعجب فئة ثالثة من مفكرّي الصفوة، لأنهم يعتبرونه خلافاً مفبركاً بين الطرفين لأغراض مشبوهة. أي إن الجدال بينهما - برأي الفئة الثالثة - مجرد مسرحية مكشوفة في الهواء

الطلق. أبطالها أكاديميون ومنقبون ومؤرخون ومتاحف ودوائر بحث. من أغراضها أولاً: اللعب على مواكبة العلم وتطور الفهم من خلال رمي أسئلة مبطنة على قواعد المنطق، أو أسئلة رمادية يجوز للرد عليها وجهان متناقضان. ثانياً تطويل عمر الزعم التوراتي بالأرض المقدسة وشعب الله المختار. ثالثاً صيانة نضرة المسألة اليهودية وإبقائها متفاعلة على رادار الكوكب، فضلاً عن حصر النقد وإدارة الجَدل والتحّكم به!

«شاهد ما شافش حاجة»!

واستكمالاً لسلسلة الادعاءات الأممية العريضة هذه، قرأنا كثيراً عن أعظم مؤرخ في التاريخ. هيرودتس، شيخ المؤرخين، لم يترك شيئاً مهماً أو فارقاً من تاريخ الشرق الأدنى إلّا وأرّخ له. سبق بالتدوين أقرانه وجاوز بالرحلات منافسيه ورجع بكتاباته إلى قعر الزمن.. وعلى الرغم من إعجابه بالمصريين ومجاملته للفينيقيين، فإنه (عجباً) لم يذكر جيرانهما اليهود، ولم يلحظ التوراة، ولا حتى 'خروج' قائدهم موسى من مصر ولا الملك سليمان الذي يفترض انه كان صديقاً حميماً للفينيقيين؟ هذا مع العلم أنه كان أول من أطلق 'فلسطين' اسماً لتلك المنطقة من شرق المتوسط، حسب المصادر[١]. المفارقة هنا أن عدم ذكر اليهود عند هيرودتس يشبه عدم ذكر الأهرامات والنيل عند اليهود لأسباب مبهمة!

السؤال الأول: كيف فات هيرودتس أن يذكر اليهود ولو اقتضاباً، وقد كان بمثابة ابن بطوطة عصره، وزار بابل والأناضول ومصر وفلسطين وصور وبلاد الشام، فضلاً عن جزر الساحل اليوناني؟ هذه كلها كانت أجزاءً حيوية من المناطق الشاسعة التي كان الفرس حينئذ يحكمونها من الهند إلى اليونان. جولاته تلك بدأت عام ٤٤٨ ق.م، أي نحو قرن كامل تقريباً من التاريخ

(١) هيرودتس - كتاب «التاريخ» الثاني (منطقة سوريا المسماة فلسطين) المقطع ١٠٤.

المفترض الذي كان عزرا قد أرجع خلاله آخر المَسبيين اليهود من بابل. وإن دلّ هذا على شيء، فعلى أن التوراة لم تكن قد استكملت بعد في ذلك الوقت، أو أن هيرودتس العظيم لم يسمع بها من الأساس. هذا أمر مُستهجن للغاية لأن الرجل كما أوضحنا لم يترك شاردة وواردة إلّا وكتب عنها. لكنه - ويا للعجب - لم يكتب شيئاً عن أطلال قصر سليمان ولا عن المعبد المقدس أو عن بطولات الملك داود؟ كلها كانت موضوعات تستأهل بعض السطور منه مقارنة بما كتب عن الأفاعي الطائرة ونمل الهند الضخم المنقب عن الذهب وعن آكلي لحوم البشر في أفريقيا! أغلب الظن - حسب ترجيحات الكثيرين - أنه لم يَعْر قصص التوراة اهتمامه رغم جولاته في المناطق التي يُفترض أن اليهود كانوا قد تواجدوا أو تركوا آثارات فيها؟

السؤال الثاني: أيعقل أن يكون هيرودتس 'خبيراً وناقلاً وشاهداً' في معظم ما كَتب إلّا عن التوراة وبلاد الحجاز؟ وهما معاً يُعتبران 'الصندوق الأسود' لتاريخ تلك المرحلة من تراث المنطقة بالنسبة لكثير من الأكاديميين المهتمين. لكن الرجل لم يكتسب شهرته «بأبي التاريخ» من فراغ أو عبث، إذ إن الكثير من كتاباته تطابقت فعلاً مع الجغرافيا حسب اكتشافات لاحقة، سواء كان قد شهدها بنفسه، أو نقلها عن شهود عيان ثقاة، أو تحقق من رواياتها. ولعل ما ذكره عن ضياع جيش «قمبيز» الفارسي، في منتصف الطريق بين «طيبة» وواحة «سوا» في مصر، كان من أوضح الأمثلة الحديثة على دقة تأريخاته ورصانة تدويناته، لا سيما أن التنقيبات الأخيرة في المنطقة المعنية من صحراء مصر أظهرت فعلاً - كما ذكرت آنفاً في معرض الرياح الخماسينية - وجود مجموعات من الجماجم البشرية والدروع ومقابض الأقواس ورؤوس الرماح، وإن لم تبرم الاستنتاجات من الدوائر المعنية بعد.

وهنا نستطرد إلى السؤال الثالث: أيهما من مصادر الغرب نصدق: «هيرودتس» الذي «غاب» عنه أن يسجل أحداثاً يهودية خطيرة وجمّة قيل إن أصداءها ترددت في محيطه وعصره، أم نصدّق الرواية الكلاسيكية عن نهوض

اليهود الأسطوري في فلسطين بعد عودة أغلبية المسبيين؟ علم المنطق يقول: إما أن هيرودتس تآمر وتعمّد عدم ذكر اليهود لأسباب عرقية أو عقائدية أو طبقية معينة، أو أن اليهود كانوا فعلاً مجرد جماعة دراويش معثرة من ضمن جماعات اِعتقادية متعددة لم تلفت اِنتباه هيرودتس آنذاك. لكن من المحتمل أيضاً أنهم كانوا معروفين فعلاً لكن في مكان لم يزره أو يسمع عن أهله، كالجزيرة العربية، على سبيل التحديد؟

في جميع الحالات، لا تستوي الروايات الغربية على مسطرة علمية واحدة إلّا لغرض مُبيّت. فالـ«المؤسسة» الأممية تجلّ هيرودتس وتلتزم بتأريخاته حتى وإن وَجدت شطحاً فيها أو لغواً. وبنفس الوقت لا يناسبها أن يشك العالم بوجود اليهود في فلسطين، أو وصولهم إليها بعد ٥٠ سنة من المنفى بشكل يغيب عن اِنتباه مؤرخ عظيم مثله! فهل كان هيرودتس شاهد زور أم شاهداً لم يشهد على شيء مهم من أمرهم؟

مأزق واضح وخطير، ما زال الأكاديميون الغربيون يعملون على إخراج حلّ خلّاق له بترتيب تواريخ هنا وآثارات هناك وترجمات ومصطلاحات. فقط غُلاة اليهود البسطاء يقولون إنهم ليسوا بحاجة إلى شهادة «معتوه» عنهم، لأنهم يعرفون أن فلسطين أرض مقدسة وَعَدها الربّ لهم وحدهم. كما أنه ليست مشكلتهم أن هيرودتس لم يطّلع على التوراة أو يسمع عن اليهود، خاصة مع وجود «حجر قورش»! والحجر لمن يجهله عبارة عن فرمان (مرسوم) ملكي قيل لنا إنه من الإمبراطور الفارسي كورش نفسه، ونُقش عام ٥٣٩ ق.م. و(يقضي المرسوم بعودة اليهود من السبي إلى فلسطين وتمكينهم من إعادة بناء معبد الهيكل). كان الحجر نصباً شرعياً معروضاً للعامة في أحد المراكز في بابل، وهي من أهم المدن التي زارها هيرودتس خلال جولاته. وأغلب الظن أن الحجر (إن صحّت حقيقته) نُقشت نصوصه بغرض الدعاية والترويج لسياسة كورش المتسامحة مع كل الديانات. وهي سياسة جريئة حافظ ورثة كورش على استمرارها على أيام هيرودتس ولم تكن لتغيب عن باله أو أهتمامه من حيث الثقافة والفلكلور.

الملفت في أمر الحجر أنه أنجز على شكل أسطواني مختلف تماماً عن باقي اللقى التي وُجد بينها (أشبه بجرّة صغيرة)، وكأن المراد من وضعه المميز كان لفضح وجوده تسهيلاً لكشفه. والأرجح أنه تزوير أثري اِحترافي من تزويرات «المؤسسة» ومؤامرة من مؤمرات المتحف البريطاني. وقد عُثر عليه منقوشاً باللغة الأكادية في بابل عام ١٨٧٩م. ولكي تُبعَد الشبهة عن تورط الغرب في عملية الفبركة، زُعم أن العثور عليه جاء على يد أحد علماء الآثار الفرس واسمه «هرمز رسام»؟

شخصياً، لا أستبعد فرضية التزوير بالمرّة. كما لا أتصوّر في الوقت نفسه أن يُضحّي الغرب يوماً بهيرودتس نفسه أو يجعله 'كبش فداء' لإنقاذ سمعة المتحف البريطاني والرواية اليهودية معاً. لكن أغلب الظن أن 'الجماعة' و«المؤسسة» سوف يمسكون العصا من الوسط ويُعوّمون فرضية بديلة مفادها أن التوراة كانت فعلاً موجودة إبان عصر هيرودتس، لكن بنتف متفرقة وأقسام مهترئة ولم تكن قد جُمعت رسمياً إلّا بعد وفاته. وهذا المخرج ربما يتوافق أيضاً مع رواية تجميع التوراة السبعينية في الإسكندرية لاحقاً في عهد الملك بطليموس الثاني (٢٨٥ -٢٤٧ ق.م). وبغير ذلك سيضطر المعنيون يوماً للبحث عن فلسطين ثانية، أو توراة بديلة، أو كورش آخر، أو «عزرا» جديد، أو زمن بديل، أو أن يقرّوا لكمال الصليبي عن وجود اليهود وقصر سليمان في الحجاز!

رؤوس ورموز وتوحيد

لكن صلب النزاع بحقيقته أن نقّاد التوراة يرون بتطبيل المدافعين عنها رطانة لا سند لها. كما أنهم يرون أبطالها الأوائل (البطاركة) أشخاصاً من حبك الخيال باستثناء بعض الشخصيات المتأخرة، ابتداءً من زربابيل كما سبق ذكره.. بل إن من النقاد والمشككين مَن يعتقد تحديداً أن قبائل إسرائيل الإثنتي عشرة إنما هي بناء دعائي مُوّجه ومقصود. كذلك هو الأمر مع قصص داود وابنه

سليمان وأبيه ايشا. روايات حيكت عنهم فيما بعد خلال الفترة الممتدة من الحكم الفارسي حتى الحكم الهيليني. ربما هذا ما يُفسّر عدم وجود أي دَليل على دولة إسرائيل التاريخية. تلك الدولة التي تقول التوراة إن الملك داود أسسها وحكم ابنه سليمان من بعده عليها وامتدت من الفرات إلى النيل إلخ...

المفارقة أن فكرة انعدام تاريخية التوراة لم يزعمها فلسطينيون من الأساس، ولا روّج لها عرب أو مسلمون من قبل. بل أطلقها مسيحيون ويهود نشطت حركتهم الفكرية في أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات من القرن الماضي. في تلك الفترة بالذات ظهرت انتقادات مناهضة للتوراة، أهمها، كما سبق وأشرت، لـ«فليس بيتر لاماك» و«دافيز جيوفاني» و«توماس ل. طومسون». هذا الأخير قالها صريحة عالية في كتابه «التاريخ الخرافي» (ترجمة عدنان حسن - ٢٠٠١م): «إن الكتاب المقدس مجرد نصوص أدبية فلسفية وأخلاقية في أساسها، ولا ينبغي النظر إليه بغير ذلك. وقد وُجد في بعض استنتاجاته أن المشكلة لا تكمن في التوراة نفسها، وإنما بنقادها والباحثين في نصوصها لأنهم هم، وليست هي، مَن يصرّ على أنها كتاب تاريخ دقيق، فيما التوراة لم تزعم ذلك لنفسها».

أما عن الجانب الأخلاقي، فلعلّ من أوضح تعبيراته قوله إن المسألة في التوراة لا تحتاج إلى صراع شديد بين يعقوب وقوة إلهية للدلالة على تأنيب الضمير بسبب خيانته لأخيه عيصو. هذه المجازية عن صحوة الضمير ليست ابتكاراً توراتياً لأنها موجودة أصلاً كصراع أزلي بين الخير والشر في كل الحضارات والشرائع البشرية الأقدم. لا بل حتى مضمون التوحيد نفسه موجود عند الإنسان قبل ظهور التوراة بقرون طويلة. صحيح أنه كان هناك العديد من الأساطير عن آلهات ومخلوقات علوية متعددة في معظم الحضارات القديمة، لكن الملفت في أمرها على اختلاف أماكنها وثقافة أقوامها، أنها كانت تتجسد في تماثيل صخرية تجمع في أشكالها قوة الحيوان ودهاء الإنسان وغموض الطبيعة معاً. وهي عناصر تتحد في التمثال المشغول تعبيراً عن سلطة عليا

واحدة تهيمن على كل الخلق؛ فعند المصريين هناك حورس (رجل برأس صقر). وعند الهندوسيين هناك غانيشا (رجل برأس فيل) وهانومان (برأس قرد) وناراسيمها (برأس أسد). أما عند اليونانيين فغالباً ما كان زيوس يُصوّر (برأس نسر). وفي بلاد ما بين النهرين كان إنكي يظهر أحيانا (برأس كبش أو تيس). وفي الصين كان شكل التنين من أبرز التماثيل كنابة عن بعض الآلهة. وهكذا، كان الأمر أيضاً عبر كل الحضارات والقبائل القديمة بما فيها الأناضولية والأزتيكية والأفريقية. ومن تماثيلها ما حمل رموزاً هندسية غامضة أو ملامح اقتباسية عن قوى الطبيعة. هذه مجرد أمثلة عن تماثيل كانت تختصر رمزية غموض الوجود.

وما إن تمكن الإنسان من الحيوان، وأخذ الحيطة والحذر من عواقب الطبيعة وتعلّم الزرع في تربتها، وتواصل مع جماعات بعيدة عنه وأخضعها لسلطته، حتى اختزل التماثيل كلها واخترع بطلاً واحداً «عابراً» لكل الأشياء. صار حراس المعبد وحماة الدين يكتفون بنحت تمثال الإله على شاكلة إنسان متمدن خارق جبار مثل «مردوخ»، ثم نحته لاحقاً كملك عادي يحكم نيابة عن الآلهة الافتراضيين كما رأينا مع ملوك بابل والأشوريين فيما بعد.

هنا ظهرت النزعة التوحيدية الخارقة عند السومريين في آخر عهودهم بتفوق إله واحد (إيل) على كل الآلهات وجلوسه على عرش كل السماوات والنجوم والأراضي. تميز (إيل) عن باقي الآلهة باحتكاره وإدارته كل الظواهر التي كانت تُعبد والأقدار التي كانت ترجى من مختلف الأقوام المجاورة والبعيدة. هذه الآلهات المتعددة كانت قبل سطوة (إيل) تمثل المرجعية المطلقة لشعوب المنطقة كما في «إيللو» عند أكاد. و«مردوخ» عند البابليين. و«شور» عند الأشوريين. و«بعل» عند الكنعانيين. و«المقه» عند المأربين. و«أُبل» (هُبل) عند الجزيريين و«رعّ» عند المصريين. ولعل الإله الرئيس الأبّ على مجلس إدارة الآلهات واللاهوت في كل الفروع وفي كل المناطق، كان الإله الكبير «إيل»، وهو الآمر الناهي المطلق آنذاك، فانضمت تحت رايته وريادته كل الآلهات

اللاحقة، مثل «يهوه» عند اليهود و«ملقارت» عند الفينيقيين و«أمون» عند المصريين.

وكما استمرت العبادة لـ«بعل» آلاف السنين على سبيل المثال، كذلك كانت العبادة لـ«مردوخ» الذي يُذكر عادة ارتباطاً بمدينة بابل القديمة. فقد كان معبده، ويعرف أيضاً باسم إيساجيلا، أحد أهم الهياكل الدينية في بلاد ما بين النهرين القديمة ومركزاً للحجّ أشبه بمكة اليوم. وكان قد تم بناء مجمعه المقدّس تدرجاً في عهود ملكية متعاقبة على مرّ القرون أشبه بتوسعات الحرم المكي اليوم والتجديدات الدائمة. وقد استمرت «صلاحيته» كإله معتبر من الحقبة الأكادية إلى الفترة البابلية الثانية في القرن السادس قبل الميلاد، أي قرابة **١٦٥٠** سنة. المعبد كان يتميز بزقورة هرمية متدرجة ضخمة، ترمز إلى العلاقة بين السموات والأرض. ومقام «مردوخ» كان بمثابة المرجعية العامة لكل الطقوس الدينية، وارتبط اسمه بملحمة الخلق البابلية، إينوما إليش، التي تحكي قصة صعوده إلى الألوهية العليا وخلق العالم.

هناك على هذا النهج الكثير من الباحثين الذين سلطوا الضوء على وجود إله قوي واحد محتكر وأوضحوا البعد الإيماني التوحيدي به قبل ظهور إله التوراة (يهوه) بوقت طويل. ومنهم، مثلاً، توماس ل. طومسون مرة أخرى الذي دفع ثمناً غالياً من وظيفته وريادته وقدره بسبب هكذا إضاءة وآراء نقدية لنصّ التوراة. لكن الحق يقال إن طومسون كان «كبش فداء» وأُخذ عبرة لمن حاول المشي على خطاه، لا سيما أن لائحة علماء السومريات التي أخذت توضح البعد الأخلاقي البشري قبل ظهور التوراة تمادت جداً وتشعبت منذ أطلق العنان لها الروسي صموئيل كريمار (١٨٩٧- ١٩٩٠م). وكريمار صاحب فضل كبير في وضع أسس منهجية عميقة لدراسة علم السومريات على منوال دراسة علم المصريات.

الفصل العاشر: وتمخض الجبل

لكل شيخ طريقته

في حين أن هناك مجموعات ضخمة من وجهات النظر حول محتوى التوراة، لكن من الصعب تحديد عالم بارز واحد كرائد للمفكرين الذين يؤيدون العهد القديم أو يعاكسونه. والسبب كما سبق وبينت أن دراسة الموضوع مجال واسع ومتنوع، وقد قاربه العلماء من زوايا مختلفة، سواء لدعم أهميته الدينية والتاريخية أو لنقده.

مرة أخرى، ولو على حساب التكرار، أنا لم أتطرق إلى عموم الرواية التوارتية بعناوينها العريضة عن سيرة إبراهيم وذريته إلّا لأقول إن لكل جانب من جوانب رحلته ولكل محطة من محطاته ظناً بحقيقته وشكاً بتاريخه وتحفظاً على سياقه. ذلك أن شخصية إبراهيم جاءت أوصافها لنا من مصدر أولي ليس فيه آثارات تدعم وجوده، أي من العهد القديم. أما الخلفية السياسية والتفاصيل الاجتماعية والمشاهد العامة، فهي لا تخص عصر إبراهيم وحده أو شخصه. لدينا الكثير من النقوش والجداريات والرسومات في ماري وإبلا واللوفر تصوّر أنواع العيش في العصور السومرية - الأكادية - البابلية، التي يوحي العهد القديم أن إبراهيم عاش في ظلها. وإذا أخذنا بعين الاعتبار العمر الافتراضي الطويل الذي تمتع به، فقد يكون قد عاش في عصر انتقالي مخضرم تحت أكثر من حكم ملك واحد، أو بين أكثر من توالف حضارة واحدة على امتداد الشرق.

وعليه، فقد يكون من المحتمل أن إبراهيم - بموجب هذه الملاحظة - قد

أدرك حقبة حكم حمورابي بين ١٧٥٠ - ١٧٩٢ ق.م، خاصة إذا ما كان فعلاً قد عمّر ١٧٥ سنة من زمنه الافتراضي (١٨٠٠ - ١٩٥٠ ق.م). وهذا الاحتمال له تبعات وعواقب تشريعية إيمانية جمّة. وحتى إذا لم يواكب الرجلان عصريهما معاً، فأغلب الظن - على سياق الرواية التقليدية - أن يكون إبراهيم قد عاصر على الأقل والد حمورابي «سين - موباليط» أو أحد أجداده، فيكون بذلك ملماً بنواة شريعة حمورابي أو سنن أجداده، أي شريعة «أوركاجينا» و«مدونة أور- نمو»[1]. ذلك أن جلّ ما فعله حمورابي - بإجماع مؤرخيه - أنه جمّع الأحكام التي كان والده وأجداده قد استنبطوها لعهودهم وعملوا بموجبها، لكن ليس بنفس الحزم والعزم اللذين مارسهما حمورابي وطبقهما. من الضرورة بمكان هنا الانتباه إلى أن لا إجماع بين الخبراء والعلماء على تاريخ نقش الشريعة، إذ قدّر بعضهم زمنها ضمن فترة ١٨٥٠ ق.م، فيما قدّرها آخرون بـ ١٧٥٠ ق.م.

وفي جميع الحالات كانت هناك قبلها مدونات أخلاقية هيروغليفية مصرية متناثرة تعود إلى فترة ٣٢٠٠ ق.م، وأخرى مسمارية حثية تعود إلى الحضارة الأناضولية القديمة في الألفية الثانية ق.م. ثم كانت هناك أيضاً ما سمي بـ«العيلاميات المسمارية» القانونية التي استخدمت في عيلام، (وهي حضارة قديمة في ما يعرف الآن بإيران) في الألفية الثانية قبل الميلاد. وكلها كانت نقوشاً تتضمن تسجيلات أخلاقية وقانونية وإدارية. لا بل إن هناك أيضاً نقوشات من وادي السند (في باكستان والهند الحالية). ورغم أنه لم يتم فك كل النقوش السندية بعد، إلّا أن ثمة نصوصاً قانونية كانت تستخدم في الألفية الثانية قبل الميلاد، وهي واحدة من أقدم النصوص المعروفة من جنوب آسيا حتى تاريخه، وتقدم لنا قواعد أخلاقية ورؤى قيّمة عن حضارات تلك الحقبة الغامضة.

---

(١) كان أور - نمو الحاكم المؤسس للأسرة الثالثة في أور (٢١١٢-٢٠٩٥ ق.م). وهو عرف باهتماماته الأدبية والثقافية وبنى أفخم زيقورة لا زالت تتحدى الزمن في بلاد الرافدين رغم عمرها المديد

مصادفات، مبالغات، أم مؤمرات؟

المفارقة أن معظم المشككين بالرواية التوراتية، على اختلاف نظرياتهم يتفقون - كما سبق وكررت - على عنصر مشترك فيها، وهو انطلاقهم من فرضية وجود إبراهيم أصلاً رغم التشكيك بكل شيء آخر. قد تكون لهم أسباب وجيهة، أو أنهم لا يريدون إنكار وجود إبراهيم خوفاً من وصمة «العلمانية» أو من تهمة الإلحاد. لكن أليس التشكيك بخروج موسى عبر سيناء إلحاداً، هو الآخر، عن الرواية المقدسة كما وردت في التوراة والإنجيل والقرآن معاً؟ ليس لنا هنا شأن بالخفايا والنوايا، بل ما يهمنا هو سرد أبرز نقاط الشك مجتمعة كما أوردوها مباشرة أو مداورة. وذلك من خلال إلقاء الضوء على ما جاء فيها من أسئلة على ألسنتهم بأنفسهم. ثم إن عناصر المبالغة والتضخيم في التوراة لا يمكن أن تمر حتى على الصغار بسهولة، ولا يمكن تبريرها أو تفسيرها حتى من باب المصادفات، كتكرار نفس الأحداث مع أشخاص مختلفين في أزمان متباعدة؛ فهناك كما رأينا، مثلاً، خبرية «تخلّي» إبراهيم أمام الغرباء عن سارة كزوجة له، على أنها أخته. وقد حدثت الواقعة مرتين في موقعين مختلفين. وبالمثل، هناك خبرية ابنه إسحاق الذي فعل الشيء نفسه مع زوجته وادّعى أنها أخته، لكن مع مَن؟ مع ملك صدف أن اسمه هو الآخر يشبه اسم صديق أبيه إبراهيم «إبيمالك»، الذي كاد يدخل على زوجته سارة!! هناك أيضاً خبريات تكرار الزواج من الأقارب البعيدين خارج كنعان كما مع إسحاق ويعقوب. الأول تزوج من قريبته ربيكا (رفقة) وهي حفيدة عمه ناحور (تك: ٢٤: ٦٧)، وتزوج الثاني من بنتي خاله لابان، الأختين ليا وراشيل (تك: ٢٩: ١٦- ٣٠). ثم لو رجعنا إلى أيام آدم لوجدنا أن قايين خلّف ولداً اسمه «إينوك» (حنوك) (تك: ٤ -١٧)، في حين نرى في نص آخر (تك: ٥: ١٨) أن إينوك هذا هو السابع من آدم، وأباه «جيراد» (عيراد)، وتفصله عن إينوك الأول مئات السنين. ربما هناك حنوكان مختلفان على الطريقة التي تكررت لاحقاً مع «أبيمالك» على أيام إبراهيم؟

قد تكون هذه الوقائع مجرد صدف، أو لها أسبابها التقنية كما أوضحت آنفاً، لكن كيف نفهم أعداد الشعب المرافق لموسى في سيناء على أنها كانت ٦٠٠,٠٠٠ نسمة من غير النساء والشيوخ الأطفال؟ أو كيف نفسّر أن خدم إبراهيم وجنده كانوا ٣١٨ من الرجال الأشداء (تك: ١٤: ١٤) عندما ذهب ليحرر ابن أخيه لوط؟ أو كيف نفهم أن أعداد حريم سليمان أكثر من أيام السنة الشمسية والقمرية معاً (٧٠٠ زوجة و٣٠٠ من الجواري المحظيات)، (الملوك: ١١: ٣)؟ أو كيف نتخيل أسطوله ونفسّر أعداد سفنه وقطعانه وخيوله إلخ... هذه كلها تكرارات وأحداث وأرقام تتحدّى منطق الأمور في سياقه التاريخي. لكن إذا كانت هناك أسباب مخفية ودواع عملية تعلل هذا التكرار والمصادفات، فمن الإنصاف الذهاب خطوة إضافية وتسليط الضوء على الأشياء التي لم تبدُ مهمة من قبل. وهذا مسار مستمر مع كل ريبة ودهشة.

علماء أم بحّاث؟

أمام هذه المبالغات والتكرارات، لا بد للمتابع أن يبحث عن تبريرات حقيقية للشكوك التي تثيرها أبحاث العلماء والمفكرين. كل باحث توراتي تقريباً إذا، أمعنت ببحثه، وجدت أن عنده أشياءً جديرة بالاهتمام وأسئلة منطقية موجبة. ومن الدلالات على هذا المنحى ما يؤكده كمال الصليبي، على سبيل الاستشهاد، بقوله «إن التوراة ذكرت أشياءً وأحياءً في فلسطين ليست من طبيعة أرضها ولم تكن يوماً في بيئتها، لا بل تراها تنسجم كلياً في جغرافية مغايرة تماماً». أو أن يقول غيره عكس ذلك تماماً لكن بنفس التهمة، بمعنى «إن أشياءً كثيرة من معالم فلسطين وطبيعتها كان ينبغي أن تذكرها التوراة لكن لم تقربها وكأنها غريبة عنها»[1]. صحيح أن هذه ملاحظات شكلية، غير أنها في غاية الأهمية والدلالة لحقيقة النصوص. لكن الإشكالية الكبرى التي يواجهها

(١) راجع كتابي الصليبي «التوّراة جاءت من جزيرة العرب» و«خفايا التوّراة» للوقوف على أبرز الأمثلة.

الحيارى بهذا الصدد أن ليس «كل البحث» مع «كل باحث» يعتبر سليماً أو منطقياً، خاصة عندما يملأون الغموض باجتهادات وعموميات، أو يرجعون تفسيره إلى «مصدر» مبهم. للأسف هنالك من الباحثين مَن ضربتهم شمس التنقيب ونفختهم أهواء الشهرة وأخذتهم العِزّة إلى حد التطاول على منتقدي فرضياتهم بالقول: «إن لم تقتنعوا بما نبيّن لكم، فاذهبوا ونقّبوا بأنفسكم». لا ريب أن هذه الفئة من العلماء هي من أسوا الباحثين لأن نرجسيتهم تحول دون النقاش الموضوعي معهم خارج إطار فرضياتهم. يعزون لك أسباب رفضهم التعمق في النقاش إلى أمور تتعلق باحترام الدين اليهودي، أو أنهم يتذرعون بحرصهم على أصول الدين الإسلامي، أو لمراعاتهم تعاليم الكنيسة، أو لتجنب سوء الفهم والقصد!

ليس استعراض أسماء البحّاثة أدناه هو لتقييم فرضياتهم، سيما أنه لا توجد ماسورة علمية موحّدة لقياس الصحيح فيها من الملتبس. لذا، فإن المرور عليهم هو من صميم الكلام عن شخصية التوراة نفسها، وليس عن شخصياتهم. وإذ استعرض أفكارهم المختلفة اقتضاباً وبعيداً عن ترجيح أي منها، فلأن كلاً منهم عالم بحقله وله باع طويل وخبرة معتبرة في الرواية التوارتية. أقصى ما نستطيعه من خلال المقارنة هو أن نُبدي إعجاباً هنا، أو استهجاناً هناك، أو سؤالاً كناية عن حيرة وفضول. وعلى قاعدة «إن النبيه من الإشارة يفهم»، فإن جملة الاستفسارات التي يعرضها مفكرونا ومؤرخونا تمثل بتناقضاتها خطراً أكبر على مصداقيتهم العلمية من الخطر على مصداقية التوراة!

وإليكم فيما يلي، أبرز الملاحظات والأسئلة التي يطرحها النقّاد التوارتيون أنفسهم عن إبراهيم وموسى والخروج والأسفار وعن داود وسليمان وملكة سبأ، وهي بعض من أسئلة لا تُعَدّ ولا تحصى!

أسئلة النقّاد وملاحظات النقدة

* لا دليل غير اللغة على مسقط رأس إبراهيم. وبغيابه تغيب بقية الرؤوس!

* لا إجماع على تاريخ البطاركة وحقيقة وجودهم.
* إذا كان بلد إبراهيم وزمنه مشكوكاً بهما، فكيف تكون ذريته معلومة وأكيدة؟
* رحلة إبراهيم مع قبيلته من «أور» إلى مصر لا تستقيم على ظروف عصره!
* لا وجود لشخص اسمه «نمرود» في سجلات حقبة إبراهيم أو تراثه أو جيرته!
* عمر إبراهيم (١٧٥ سنة) لا يتناسب وأعمار الناس والملوك في عصره وجيرته!
* إذا كان تاريخ إبراهيم وعمره مقدّرَين، فكيف لم يلتقِ مع حمورابي؟
* كيف لزوجة إبراهيم، سارة، أن تنجب إسحاق عندما بلغت ٩٠ عاماً؟
* تكرار الوقائع والتشابه في عصور التوراة يتعدى حدود المنطق والصدف!
* ما هو الدليل على ارتباط (أو عدم ارتباط) خراب سدوم وعمورة بزمن إبراهيم ولوط؟
* مملكتا ماري وإبلا لم تذكرا في التوراة رغم أهميتهما العظمى في عصر إبراهيم؟
* رحلة إبراهيم إلى مصر عبر «حاران» طويلة جداً بالنظر إلى إمكانية اختصارها.
* أعداد الخارجين مع موسى وفترة مكوثهم ٤٠ سنة في سيناء أمر يجاوز المعقول!
* قصة انفلاق البحر لعبور موسى، وانغلاقه على فرعون، لا تتفق مع العلم!
* لا أثر للبطاركة ويوسف وموسى وداود وسليمان وبلقيس في سجلات الشرق!
* كيف لموسى أن يدوّن الأسفار الخمسة الأولى بما فيها حادثة موته بنفسه؟

* لا أحد يعرف متى حدث الفيضان ولا دقائقه وأين بُني فلك نوح إلخ..
* تشابه المواقع والأسماء بين فلسطين والجزيرة لم يرقَ بعد إلى إجماع العلماء!
* كيف تذكر التوراة مصر نحو ٦٠٠ مرّة ولا تذكر أبو الهول أو الأهرامات مرة واحدة؟
* كيف للتوراة أن تصمت عن الهكسوس وعن أخناتون وهما واسطة العقد؟
* كيف لها أن تصمت عن حتشبسوت ونفرتيتي وهما من أبرز نساء مصر في تلك الحقبة؟
* كيف تصمت عن النيل وقد ذكرت نهر الأردن ودجلة والفرات، ناهيكم عن نهري الجنة الآخرين؟

هذا في العموم غيضٌ من فيض، لكن هناك استفسارات كثيرة إضافية بالمقاربة مع التقاليد الإسلامية، منها - على سبيل المثال - ما ورد من اختلافات أو انطباعات حول امراة لوط، وامراة نوح، وامرأة فرعون، وامرأة سليمان والتضحية بإسماعيل، وركاب سفينة نوح، وقمة أرارات، وأسماء الفراعنة، ومراتب الملوك، والتباين بقصة يوسف، ونساء موسى، وبئر سبع، وبئر زمزم، وهوية لاقط موسى من السلّة، وما إذا ما كان إسرائيلياً أم من سبط لاوي، وغيرها من المقارنات الكثيرة المشروعة. فاللغط حول شخصية «فرعون الخروج» وحده، مثلاً، يكشف أبعاد الاختلاف حول تفسير النصوص التوراتية أو تثبيتها على تواريخ وجغرافيا محددة. وإذا كان «فرعون» لقباً، فهذا شيء! أما إذا كان اسماً، فشيء آخر تماماً. هناك مناصرون ونقاد كثيرون لطرفي الفرضية تحملوا الويلات وتأذوا بسببها في مجتمعاتهم وبين أقوامهم؛ فعلى سبيل المثال يقول رافضو نظرية «فرعون» الاسم، إنه لو كان اسماً فعلاً، لكانت مصر قد سميت «فرعونة». أي نسبة إلى فرعون، على طريقة المملكة العربية السعودية نسبة لآل سعود، أو الفلبين نسبة لاسم فيليب الثاني ملك إسبانيا، أو كولومبيا على اسم كولومبوس، أو بوليفيا على اسم زعيم

الاستقلال سيمون بوليفار، أو موزمبيق على اسم الزعيم السواحيلي موسى بن بيك، أو «ليبيريا» (من التحرر) كناية عن مكان للأفارقة الأحرار. كما لا ينبغي في هذا الإسهاب أن ننسى إسرائيل نفسها التي سميت، هي الأخرى، على اسم يعقوب بعد تحوّل اسمه.

أما في الاتجاه المعاكس، فيقول أصحاب نظرية «الفرعون» اللقب، إن هناك حركات أو كيانات سُمّيت على أسماء أفراد، كألقاب توصيفية لمبادئهم السياسية أو مناهجهم. فالفرعون في هذه الحالة يكون لقباً لنهج سياسي أو فلسفة عقائدية، مثل الرؤية «الكينزية» نسبة للاقتصادي الشهير كينز. أو الفلسفة الداروينية كناية عن أصل الأنواع لداروين، أو «الماركسية» على اسم كارل ماركس، أو «الفرويدية» على فرويد، أو «الستالينية»، أو «الثاتشرية» أو «الناصرية»، وهلم جراً. هنا تظهر قيمة اللقب باعتبار أن تسمية هذه الاتجاهات أو الأيديولوجيات تأتي للاعتراف بتأثير المعني الذي لعبت أفكاره أو قيادته من أجله دوراً هاماً في تطوير بلده أو العالم. فلربما يكون ملوك مصر بالإيجاز والعموم نالوا لقب «الفراعنة» في محيطهم بسبب محافظتهم على استمرار عظمة مصر وعلى الأفكار التي طرحوها. واستطراداً، فمن الجائز أيضاً أن يكون اللقب «فرعون» يشبه لقب «بروفيسور» الفخري الذي يسبق أسماء بعض الأكاديميين في حقولهم أو ما شابه.

وهكذا هي المغالطات التي يكشف نقاشها أبعاد الاختلاف حول تفسير النصوص أو تثبيتها على تواريخ وجغرافية محددة. وهي تفاصيل عويصة لن أقحم نفسي في جدال المفكرين حولها إلّا بالعموم! فأسهل لنا البحث عن مواقع اتفاق المفكرين والنقاد من مجرد إظهار الاختلافات بينهم. لكن «الصندوق الأسود» عند كل منهم يجعل مواقع الاتفاق بينهم تساوي مواقع الاختلاف، فيحتار المراقب كيف يؤيد أو يعارض، سيما أن الوقوف على الحياد أمر صعب أمام زخم التناقضات والتضخيمات في التوراة.

وعليه، دعونا نضع التفاسير الشرعية جانباً ونرى كيف تعاطى أبرز المفكرين

التوارتيين مع أمثال هذه التباينات، وكيف وظّفوها في سياق نظرياتهم. وإذ نستعرض نتفة من رأي كل باحث في النصوص على حِدة، فعلى مبدأ أن «لحسة» عسل واحدة تغني عن شهد بأكمله. ففكرة كل باحث بأساسها تنكشف لنا من عناوين فرضيته العامة أو من البدائل التي تعززها قناعتة وخبرته، لا سيما أننا نتحدث عن باحثين معروفين في دوائر الأكاديميا أو أوساط التنقيب واللسانيات واللاهوت. ومن أراد التوسّع في فرضية كل من هؤلاء الواردة أسماؤهم أدناه، ما عليه إلّا الرجوع إلى مقولاتهم كاملةً كما كتبوها وشرحوها بأنفسهم، وهي كتب متاحة في المكتبات ومُيسّرة على الإنترنت. وقد يلحظ القارئ بعد الانتهاء من مراجعة هذه الفرضيات ما لحظته شخصياً خلال الإعداد للكتاب: (مفكرون أرادوا أن يكحّلوها، فعَمُوها). كنا منذ بضعة عقود في مسألة عويصة واحدة مع باحث واحد، (كمال الصليبي)، فصرنا اليوم بمشاكل أعوص مع العالم كله، في حين أن التوراة بقيت على حالها.

ولتكن البداية مع أبرز المشاكسين العرب:

١ - كمال الصليبي: «عسيرية بامتياز»

اختصار زعم الصليبي أن اليهود لم يكونوا يوماً في مصر ولم يعبروا سيناء ولم يصلوا إلى فلسطين. عاشوا منذ زمنهم في نجد أولاً، ثم في منطقة عسير، ثم ضاع الأحفاد بين ضواحيها وهضابها قبل وصولهم إلى بقعة مقدسة فيها. الصليبي قالها عالياً وبصراحة إنه لم يشكك يوماً في وقائع التوراة نفسها كسياق عام، إنما فقط في جغرافيتها وتواريخها. فأحداث التوراة - حسب رأيه - جرت في جغرافية الجزيرة. وإلى هناك - تبعاً لقناعته - ينبغي على البحّاث أن يتوجّهوا، وعلى المنقبين أن يحفروا، وعلى الأكاديميين أن يصوّبوا. وما إن صدر كتابه الأول عن الموضوع «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، ثم الثاني «خفايا التوراة»، حتى توالت النظريات من تلامذته ومقارعيه والمهتمين من الشرق والغرب معاً، كأنهم كانوا بانتظار مَن يقودهم على «أوتوستراد» المبادرة والجرأة. خلط الصليبي أوراق البحث في التوراة جيداً، ورماها في الجو عالياً

ليضع تاريخيتها ومسارها وجغرافيتها على المحك، بما فيها هوية إبراهيم ويوسف وموسى وسليمان، فضلاً عن عودة اليهود من السبي وموقع أورشليم إلخ. وبذلك أثار الصليبي قريحة المهتمين وحفّز مخاوفهم وأطلق العنان لمخيلاتهم، لا سيما عندما أعاد النظر في القصص المألوفة على ضوء استنتاجاته اللغوية والجغراقية. لكن رغم إقدامه على نزع قناع الخجل والخوف في نقده لنصوص مرتبكة كثيرة، فإنه - كمسيحي مشرقي - لم يشكك في التوراة باعتبارها رسالة مقدسة، وقال بالحرف: «إنها تبقى جزءً لا يتجزأ من التراث الذي تقدسه المسيحية، وعن حق، لأن جذور التعليم المسيحي تعود في أساسها إلى التوراة». لكنه رغم ذلك، استدرك «أن في المسيحية ما هو أبعد من تعاليم التوراة دون أن تنقض المبادئ التي تقوم التوراة عليها». وأوضح أن قصص التوراة لا علاقة أساسية لها بمبادئ المسيحية. واختصاراً، فهو يعتقد أن اليهود فئة من عرب جاهلية قديمة لكن إيمانها توحيدي بامتياز. أما أدواته فبقيت تقليدية على مستوى اللغة والقواميس والملاحظات ولم تتعداها إلى المِعول وبعثات التنقيب والميزانيات المرصودة. وعليه، لا يُركن اليوم كثيراً إلى نظريته رغم شغفه بها وحماسه لها. وبينما يرى البعض أن للصليبي فضلاً كبيراً على الحقل التوراتي بطرحه علائق الربط بين اليهود ومنطقة عسير واليمن، وبالقاء الضوء على الوجود العبري في إثيوبيا، وتحديد الفروقات الجوهرية والاختلافات الجذرية بين بني إسرائيل واليهود، فضلاً عن إضاءاته على تدرج اللغة العبرية وتطورها، يرى آخرون أن فضل الصليبي مردود لأنه عكّر الأجواء على الجميع وأضاف غموضاً على الغموض....

أسطورة أم خرافة؟: من الأمثلة الصارخة على الأسلوب اللغوي عند الصليبي نجدها واضحة من أصل الحكاية. أي من رواية الجنّة؛ فعلى نقيض مَن تكلّم قبله، لم يستند الصليبي لتحديد مواقعه الجديدة على المعالم الجغرافية التي أوردها سفر «البدء». أيّ إنه - في مثال الجنّة - تجاهل الأنهار الأربعة كلياً، وفضّل على الحجّة المبرمة أن يكتفي بذكر جبل «جودي» العربي

دليلاً على طوفان قريب من حدود الجنّة. ولعل في تجاهله هذا يكمن المقصد اللغوي الذي رمى إليه عند استهلاله بالحديث عن الفروقات والتناقضات المستولدة من تداخل الأسطورة بالخرافة. فالأسطورة - حسب رأيه - لا تختلق أسماء أبطالها ومواقعهم رغم مرور الزمن، بل هي تُبْقي على جغرافيتها. والدليل على ذلك، حسب قناعته، أن الأسطورة لو فعلت ذلك لزالت عنها الصفة الأسطورية وأضحت خرافة.

قايين وهابيل: من هذه، الزاوية عالج الصليبي أمر الجنّة التوراتية ليفصل فيها بين المُضّخم من الواقع والخرافة في الأسطورة. وهو كغيره من البحّاث التوّراتيين وقف عند استفسارات بديهية تبدو منطقية، ومنها على سبيل التكرار، قوله إن منطق رواية الجنّة لا يستقيم إطلاقاً على أساس أن قايين وهابيل هما الابن البكر والثاني للإنسان الأول. فالواضح من النصوص - حسب قراءته - أن قايين كانت له زوجة واحدة على الأقل أنجبت له ولداً اسمه حنوك (تك: ٤: ١٧)، فيسأل من أين هبطت هذه المرأة؟ ثم يستهجن كيف أن آدم وحواء لم يلعبا أيّ دور توفيقي أو يتوسطا في قصّة الخلاف بين ولديهما، ما يدلل - برأيه - على نقيض طبيعية الأمور واختلاطها على كتّاب التوراة بين عُنصري الخرافة والأسطورة.

وبعد هذا التدليل المُسهب على مِيثولوجية الإنسان الأول وعلى كثير من تفاصيل بداية تنظيم المجتمع بين الرُعاة والمُزارعين، أو الطقوس، وحبّ الإنتقام، أو الغدر، والعبادات التي فاضت بها رواية الجنّة، ينتقل الصليبي بتقليب الأحرف للقول إن أحداث قصة الجنّة وقعت في منطقة ما تزال تحمل اسمها إلى اليوم، وهي «واحة الجُنينة» بأسفل وادي بيشة إلى الشرق من سراة عسير في جنوب السعودية على حدودها مع اليمن. وهناك - برأيه - قام الإله يهوه بأخذ الإنسان وأسكنه في «الجُنينة» مما يوحي بأن الربّ لم يخلق آدم في الجنّة أصلاً، بل في مكان آخر إلى الغرب منها؟ واستطراداً لهذا التدحرج الفكري، يستنتج الصليبي - وهنا بدون تدوير للأحرف أو تقليب للكلمات -

أن قصة الصراع بين ولدي آدم وحواء أدّت، فيما أدّت، إلى رحّالة مُتنقلين، ورُعاة، ومُزارعين، ومُستقرين، ومُتحضّرين عملوا في الحِدَادَة وتوسّعوا في الجهات الأربع، وتعدّدت ألسنتهم وتعوّدت على القدح والذم بكل اللغات من يومها. (هنا، الصليبي يقارب ما ذهب إليه الباحث البريطاني ديفيد رول صاحب نظرية «قبيلة آدم والتاريخ البديل»).

التعدد عند الصليبي: في تحليلاته اللغوية الشيّقة، غاب عن الصليبي التطرق إلى أيّ من نظريات الذين سبقوه إلى مواقع الجنّة تحديداً. وذلك إما لأن غرضه الأساسي كان ينحصر في دحض الأسفار الأولى، أو لحشرها في الجزيرة العربية فقط، مع العلم أنه صرّح بوجود جنتين وأن كلتيهما تقعان في الجزيرة العربية وسطاً وجنوباً. كأنه بذلك كان يستبق غيره في حلبة الافتراض ويسعى لضمان رهانه على حصان آخر لم يدخل السباق بعد. هذا مع العلم أن مؤرّخين كثيرين ورجال دين - رغم اختلافهم على جغرافية الجنّة - أجمعوا على أن لها موقعاً واحداً. وكما وجد جنتين بين ثنايا الأحرف، وجد الصليبي خمسة «براهمة» مرّة واحدة في بوادي الحجاز: «أبرام» و«أبرهام» و«أبرهة»، و«برم» و«إبراهيم»! منهم مَن وصفه بأصله العبراني، ومنهم بالأصل الكلداني حسب «التكوين»، ومنهم بأصله الآرامي، ومنهم بأصله اليمني. وعلى نفس المنوال، وجد بالتحليل اللغوي ومن تعدد الزوجات أكثر من موسى واحد: موسى إلوهيم اليمني، وموسى بن عمرام الحجازي - أخوه هارون واختهما مريم، وموسى المدياني زوج صفّورة، وأخيراً موسى التاريخي مخلص الشعب اليهودي. ورغم أن الصليبي أبدى تحفظاته حول تشابه بعض العناصر والأحداث، لكنه لم يتردد بالقول إن موسى التاريخي، كما موسى بن عمران، كان له، هو أيضاً، أخ (أو قريب) اسمه هارون؟ وإذا كان هذا التنويع في تقديم البدائل وتوسيع الخيارات ليس احترازاً من احتمالات المجهول وتحسباً لقادم الأيام واستباقاً لابتكارات ثقافية من النقاد والحسّاد، فماذا يكون؟ صحيح أنه حاول تفنيد تضارب النصوص وفك بعثرتها، لكنه ضرب بعضها

ببعض، وبعثر غيرها متوهماً أن المقدرة على تطويع اللغة وحدها كافياً لاستعصار الحقيقة.

وهكذا، رأينا في نظريته تهرّباً واضحاً من مواجهة الموضوعية وجدلية النقاد، بل رأينا تحصينات عديدة ضد المجهول، أظهرت كأن قناعته لم تكن قد اكتملت بعد، أو أنه كان متردداً في تحديدها بأمارة توسيع خياراته. وإذ كان لأبحاثه من الناحية اللغوية منحى فريد ومميّز، فأنه بدا في النهاية كأنه كان يتحفظ على سماع ما لا يؤيد نظريته! من اجتهاداته الملفتة الكثيرة، على سبيل المثال، أن «هابيل» اسم مشتق من الإله العربي القديم «هبل». و«قايين» يعود نسبه إلى القينيين سكان غرب الجزيرة. أما آدم، فيعود نسبه إلى «جبل آدم» جنوب صنعاء. وهكذا سُمّي نوح نسبة إلى قبيلة يمنية كانت تسكن حضرموت، في حين أن اسم إسحاق - برأيه - مشتق من (يصحق) بمعنى يضحك (يجود) ويفيض كماء الآبار، مثلما كان أبوه إبراهيم إلهاً للأمطار..

لغويات مصرية أم لسانيات؟: وتكرّ السبحة اللغوية مع الصليبي لترسم الأسماء على الأماكن أو كناية عن آلهة في قماشة التراث. فكل اسم من هؤلاء الضائعين من سجلات التاريخ له عند الصليبي اشتقاق أو مقاربة، بحيث صار «يعقوب» منسوباً إلى فخذ إسحاق وهو من رموز الخصوبة عند العرب البائدين. أما اسم نجم التوراة وقائد الخروج «موسى»، فهو - عند الصليبي - كلمة مصرية حرّة (وليست عبرية)، لكن العجب أن كلتيهما تأتيان بمعنى «أفرغ» أو «اسُتخرج من». أما وزير الزراعة وأمين الصندوق يوسف، فلاسمه - برأي الصليبي - تعريفات كثيرة في اللغات، لكن عند العرب مشتق من «أساف» وهو إله، أو مقتبس من إله آخر اسمه «وسف» بمعنى (اتسع وسمن) أو تيسر وكثر. ومع أنه يعتبر مصر التوراة هي «مصرايم» في الجزيرة العربية، فإن الملفت في تفسير العلاقة بين اليهود ومصر الحالية - حسب قناعته - أنه كان لمصر الحالية على ساحل البحر الأحمر الشرقي مستعمرات عسكرية أديرت منها مباشرة. وهو من هذه الروابط الاستعمارية يرى تبريرات لوجود أسماء مصرية صرفة كثيرة في منطقة عسير والحجاز، وتحديداً للآلهة المصرية.

ومثلما تلتبس الأحرف على أسماء الأعلام والآلهات المصرية، في قناعة الصليبي، كذلك الأمر بالنسبة لأسماء المدن والمواقع. المدقق يحتاج إلى حواسيب ضخمة لغربلة تقلبات الأحرف ومواضع الكلمات واللهجات، خاصة أن لا إجماع أصلاً على مصدر اللغة نفسها. ففي حين أنه ربما كانت هناك أشكال لغوية مبكرة تطورت منها اللغات الحديثة، إلّا أن تحديد مصدر معين للغة (أو لكلمة) لا يزال يمثل تحدياً في البحث اللغوي حتى بين اللسانيين أنفسهم، فما بالكم لو كان الباحث دخيلاً على الاختصاص أصلاً، كنقاد الصليبي مثلاً؟

٢ - فاضل الربيعي - «صناعة يمنية»

الربيعي لم يبتعد كثيراً عن الصليبي بالموقع العام، وإنما - كالصليبي - زعم ما خلاصته أن اليهود لم يكونوا في مصر يوماً، ولم يخرجوا منها، وأن التوراة دارت أحداثها فقط في اليمن كما نعرفه اليوم، وليس على حدودها أو في عسير وحتماً ليس في فلسطين. فهناك من التشابهات الفظيعة بين أسماء التوراة وبين المواقع اليمنية، فضلاً عن التطابق الخرافي لسياق الوقائع بين طرقات التوراة والدروب اليمنية ما يرجح الهوية اليمنية للإطار التوراتي. الربيعي تميز عن أستاذه الصليبي بأنه نفى صراحة (وليس مداورة) مقولة السبي البابلي لليهود من أصلها الفلسطيني. بمعنى أن نبوخذ نصر - عنده - لم يجرجر اليهود إلى بابل من فلسطين، وإنما جرجرهم إليها من مكان في اليمن. ولو صحّ تقديري لهذا التصوّر، فقد يكون زعم الربيعي هذا متقدماً لم يسبقه أحد إليه مع أنه لحقه آخرون. وعلى نهج الصليبي القصصي، مشت نظرية الربيعي بين ممرات الأساطير والخرافات على خلفية البيئة الخيالية لحارات اليمن القديم وضواحي مدنه بالتقاطع مع إعادة تركيب الكلمات وصياغة معانيها لتصيب الهدف المنشود. يقول الربيعي اختصاراً لفرضيته «إن لا اليهود كانوا في فلسطين حسب القصص التوارتية ولا فلسطين كانت يوماً مقراً لأورشليم». من ابتكاراته أيضاً قوله «إن التاريخ - بعكس ما تردد - لم يشهد أي صراع يوماً بين الأشوريين

والمصريين، وإنما الصراع كان بين «مصريم» اليمنية والأشوريين على مناطق نفوذ وطرق قوافل.. وهنا يلجأ الربيعي إلى نفس دفاع الصليبي عن مقولته ويدعو نقاده إلى التنقيب بأنفسهم في الجغرافيا المقترحة. ويقول إذا اردتم التعرّف على بطاركة التوراة عن كثب وتقفي آثارهم الواضحة، فاذهبوا إلى اليمن. من الواضح أن الربيعي بذل جهوداً مضنية لتثبيت الهوية اليمنية للتوراة إلى درجة أنه خصص كتاباً تقريباً لكل عنصر من أبرز عناصر الأسفار الخمسة، بيد أنه لم يتطرق كثيراً إلى حقبة بعد السبي، لا سيما فترة تواجد كبار اليهود في الإسكندرية إبان العصر الهيليني.

اليمن أولاً: لعل الربيعي من أكثر الباحثين غزارة وشغفاً وتعمقاً في طَرق التوراة. لم يترك عنصراً فيها إلّا وعرّضه للاختبار والتمحيص. كتب بإسهاب عن «المراثي الضائعة» وعن «يهود اليمن» وعن «إسماعيل وهاجر» وعن «سليمان وبلقيس» وعن «يوسف والبئر» وعن «اسطورة عبور الأردن وسقوط أريحا» وعن «إرم» و«أورشليم» و«مكة» وغيرها الكثير مما هو ملامس لبيت القصيد حول هوية اليهود. أما أدلته، فهي كأدلة الصليبي تقريباً تعتمد بالأساس على تدوير الكلمات وتقليب الأحرف وإعادة الصياغات النصوصية والترجمات على ضوء مقاربات مع صور لنقوش وأثريات يمنية، سواء الموجود منها في اليمن أو ما تم ترحيله إلى بعض المتاحف في أوروبا. وما دام قد نفى وقائع اليهود في فلسطين ووضعها في اليمن من الأساس، فأي تفرع من الرواية التوراية يكون قد سقط، أو أنه حصل بطريقة مختلفة على أهداف مختلفة تماماً. وعليه، فلا داود حارب فلسطينيين في فلسطين - برأيه - ولا سليمان بنى قصره فيها، أو أطلق سفنه من موانئها. ومع أنه نفى سبي نبوخذ نصر لليهود من فلسطين، لكن يُفهم من كلامه كأنه زعم رجوع المنفيين اليهود إلى اليمن (وليس إلى فلسطين) حيث أعادوا بناء الهيكل في السراة اليمنية!! أي إنه يؤكد مداورة أنهم ربما كانوا في اليمن أصلاً وسبيوا منه إلى بابل.

عِرق ودين: وبعكس الصليبي الذي لم يذكر مرجعيات واضحة لنظريته، فإن

الربيعي أوحى في واحد من أبرز كتبه «فلسطين المتخيلة» بجزئيه الأول والثاني وكأنه اتكأ على شيء قديم؟ وبالتمعن، نجد انه استند إلى مرجع كان عبد الرحمن الشابندر قد أورده في الثلاثينيات من القرن الماضي. وقد أشار فيه إلى ما يفيد أن مملكة إسرائيل القديمة لم تكن قطّ في فلسطين، ما يعني أن الخبرية ليست جديدة إلّا في أذهان الجيل الجديد من الكتّاب! من أسهل المقاربات التي عرضها الربيعي لدحض الدعاية الصهيونية في الخلط المتعمد بين اليهود والإسرائيليين وفلسطين قوله: «وكما أن قريش شيء والإسلام شيء آخر، كذلك هو الفرق بني إسرائيل واليهود». بمعنى لا ينبغي الوقوع في فخ الخلط بين العرق والدين. فكما هناك مسلم صيني أو هندي، مثلاً، كذلك هناك يهودي بولندي أو ايطالي - شيئان منفصلان لا يجمعهما إلّا جاهل. فالمسلم الهندي بالعموم لا يصح له أن يدّعي أنه من بني هاشم أو من مكة أو من المدينة فقط لأنه مسلم. وكذلك اليهودي البولندي لا يجوز له الزعم أنه من بني إسرائيل أو من القدس أو فلسطين بذريعة انتمائه للديانة اليهودية. الربيعي لم يبسط المسألة هكذا إلّا ليفصل عناصرها بحيث ترتخي بسلاسة على مواقعها في اليمن. كما انه خالف الصليبي اعتقاده بصدقية وجود ملك (فرعون) مصري اسمه شيشنق (شوشنق)، ناهيك أنه لم يقر، لا بوجود «تل العمارنة» ولا بـ«أخناتون». فموقع الرسائل الشهيرة عنده بلاد اليمن - وليست مصر - بالقرب من موقع أورشليم فيها، و«أخناتون» مجرد لقب لملك «مصريم» اليمنية، وليس اسماً لفرعون متمرد حكم مصر.

٣ - محمد منصور: «حجازية حبشية»

لم يبتعد منصور في نظريته عن وقائع النقد الجماعي المشترك من زاوية أن فلسطين لم تكن ملعب التوراة. لكنه ذهب بعيداً في جعل مكة هي الأرض المقدسة التي وعدها الله لإبراهيم، حيث سكن فيها مع سارة وهاجر وإسماعيل وإسحاق. وهو، كالصليبي والربيعي، قام بمقارنات لغوية مع العبرية، لكن بعكسهما توكأ كثيراً على سور من القرآن واعتبره المرجع المطلق حتى عندما

لم تشغل الآيات القرآنية نفسها بمقاييس علمية أو بتسميات توراتية. وجعل لـ«الخروج» تفسيراً مبتكراً مختلفاً تماماً عن غيره، قوامه هروب موسى، ليس من مصر إلى فلسطين عن طريق سيناء، وإنما من الحبشة إلى الجزيرة العربية عن طريق باب المندب. وهذا شوط طويل لكن يبدو للوهلة الأولى سالكاً من العثرات والاعتراضات التقليدية! وبعكس منافسيه، زعم منصور أن «مصر» التوراة ما هي إلّا إثيوبيا، وكان اليهود قد وصلوها أصلاً من مكة (؟)، ثم عادوا إليها (مكة) عن طريق عبورهم من المضيق اليمني. من أبرز أدلته على أن الحبشة هي مصر، وجود أسماء توراتية مألوفة كثيرة في الحبشة، لكن مجهولة بمصر نفسها. ثم إن هناك - برأيه - أسماء مواقع إن تبدلت أحرفها (كالعادة) أصابت تماماً مواقع إثيوبية بعينها، كـ«أسوم» و«سقوطة» و«إدامة». ثم إن «أغلبية» الفراعنة الواردة أسماؤهم بالتوراة كانوا من أسر غير مصرية، وإن حاول علماء التاريخ تزوير هوياتهم الأصلية (الحبشية والليبية) لقرون طويلة - حسب استنتاجه. ولعل أجرأ ما توصّل منصور إليه أن الملك سليمان بنى قصره والهيكل الأول في ضاحية من ضواحي مكة نفسها، لا في «أورشليم» التقليدية، سواء كانت في اليمن أو فلسطين، ولا على مسافة طيران هدهد من فلسطين بأي اتجاه. غيره من العرب ألمح خجلاً إلى هذا الاحتمال لكن لم يحسم وجود مملكة سليمان وقصره في ضواحي مكة علانية. بيد أن منصور لم يكن الأول بالمطلق الذي وضع أطلال سليمان بجوار مكة (راجع التفاصيل لاحقاً تحت عنوان مكة أم بكة؟).

وما الحنين إلّا لأول منزل: لتمكين نظريته بأن الأرض الموعودة هي حقاً مكة، مشى منصور على خطى الباقين في تحليل عناصر التوراة وتجليسها على نفس آرائك قصص الطوفان وذرية صالح وترحال إبراهيم وسلالته. كما حاول (قيصرياً) تسويتها على معاني رموز ومصطلاحات مثل «الجنّة» و«تابوت العهد» و«الحجر الأسود» و«الفرعون» و«أورشليم» وسواها من مواقع الغموض وأسماء الريبة..

لعل أبرز ما لفت منصور إليه أن بني إسرائيل «عرب» بائدة كانوا يؤمنون أساساً بالدين الحنفي ثم تحولوا إلى شريعة موسى. وما دامت الجزيرة مهداً لليهود، فلا بد أن أول توراة مكتوبة لهم كانت بالعربية القديمة، وليس بالعبرية، ابتداء من ألواح موسى «سليل قبيلة كنانة الحجازية»؟ وزعم أن أسفار العهد القديم الأولى كُتبت بأحرف «الزبور» بصيغة الخط المسند المنتشر في الحجاز، ومنه لاحقاً إلى آرامية بدائية مربعة وقريبة من الخط النبطي، المشابه للعربي بدون تنقيط. وعلى طريقة الصليبي والربيعي، قارن منصور أحرفاً عبرية بعربية أو مسندية ليشكل مصطلحاً يصب في استنتاجاته. وحيث لم تسعفه البيانات التوراتية أو غاب سياقها عن هدفه، ذكّر منصور قراءه بحقيقة ضياع (أو إخفاء) الكثير من آيات صحف موسى. وعلى الرغم من اعترافه بالسبي البابلي، فإنه، كالربيعي، يعتقد أن رجوع اليهود من السبي كان من بابل إلى الحجاز، وليس من بابل إلى «أورشليم» في فلسطين! وأنهم استمروا في العيش والبقاء في شبه الجزيرة كيهود من حيث الاعتقاد فقط، وليس كإسرائيليين من الناحية القبلية والسياسية. وقد استأنس منصور كثيراً بالاتكاء على المقاربة بسور من القرآن وبعض التفاسير. والواضح أيضاً انه استعار من الصليبي واقتبس من الرباعي وابتكر من مقتطفات الذين سبقوه إلى الرواية؛ فحاك قصة مثيرة تحمل أوجهاً منطقية في أماكن، واجتهادية في أماكن أخرى كثرت فيها أداوات التوقع والتمني والتخمين. إلّا أنه اعتبر أن التوراة كتبت بالعربية الأصلية قبل أن تتطور العبرية وتتحور حسب مراحل مسيرة اليهود واختلاطاتهم. ومن مقارباته الملفتة إلى التاريخ المعاصر أنه قارن مسألة تحريف التوراة بتغيير اللغة التركية التقليدية من حروفها العربية إلى الحروف اللاتينية. وضرب أمثلة عن حجم الالتباس الذي كان سيتعرض له القرآن، مثلاً، فيما لو كان قد كتب بالتركية اللاتينية وانتقل إلى مسلمي المهجر. إذ كان سيستحيل على أي تركي بعد ١٥٠٠ سنة أن ينطق القرآن صحيحاً أو أن يفهمه سليماً كما صدر أصلاً أو قُصد منه...

البيت الحرام وبيت المقدس: إن زبدة نظرية منصور أن التوراة تدوينات حقيقية لوقائع حدثت فعلاً بعد الطوفان، لكنها تبعثرت فيما بعد. ومكة في الحجاز لطالما كانت - حسب قناعته - قِبلة بني إسرائيل حتى زمن السبي. أما بعده، فهناك مَن بقي منهم في العراق. وهناك - بسبب النزاعات مع العائدين من المنفى - مَن توجّه جنوباً إلى اليمن، أو غرباً إلى بلاد الشام وفلسطين حيث رفع لنفسه فيها قِبلة جديدة. وقد ورد مباشرة أو مداورة أن مكة الأصلية في الحجاز ربما كانت هي «بيت المقدس» الأساس الذي حجّ إليه إبراهيم ورمّمه، والذي دار أحفاده من زوجته هاجر في محيطه فترات من الزمن، وربما ضلّوا الطريق وتاهوا في بوادي الجزيرة إلى أن ظهر بينهم موسى وقادهم للخلاص وأعادهم إلى أرض الميعاد. هناك في ضواحي مكة تم التحضير لتأسيس مملكة داود، ثم مملكة سليمان قبل أن تنقسم إلى قسمين: شمالية دعيت «إسرائيل» وعاشت فيها حصرياً عشر قبائل من أسباط يعقوب الـ١٢، وجنوبية دعيت «يهوذا» وعاصمتها أورشليم، وعاش فيها سبطا يعقوب (يهوذا وبنجامين) - وكانت قبائل يهوذا هي الأشهر والأكثر عدداً حسب التوراة! (راجع مركزية مكة في الرواية التوراتية لاحقاً).

٤ - فراس السواح - «تشكيلة من دهريات»

السواح من جيل البحّاث المسهبين في موضوعات الشرق القديم والميثولوجيا والحضارات وتاريخ الأديان والسّنة والحديث. لم يترك عنصراً من هذه الحقول إلّا وتناوله نقداً أو ابتكاراً أو ترجمة، نشرها في ٢٤ كتاباً. من الواضح أنه من مفكري العيار الثقيل الميّال لنظريات التطور الإنساني والتدرج الحضاري الذي استنبط ربه بنفسه واكتشفه وحده قبل عصر الأنبياء بقرون. وهذه - برأيه - أسْمى صفة ميّز الإنسان نفسه بها عن الحيوان، بحيث من خلال الزراعة والكتابة والتواصل، استطاع ضبط الغرائز واطلاق العنان للمخيلة العقلية والفضاء الروحي. من هنا، فإنه يرى في النصوص التوراتية تحجيماً لقدرات العقل الذي يريد حشره بزقاق للملك سليمان، أو سُلم ليعقوب، أو

نفق في بحر وابتلاع رئيس أكبر دولة في التاريخ القديم، فرعون مصر! ومع أن له فرضية خاصة به عن أصول النصوص التوارتية وشعب إسرائيل في كتابه «تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود»، إلاّ أنه أفرد حيزاً كبيراً في كتابه «الحدث التوراتي والشرق الأدنى» لتحليل نظرية كمال الصليبي. ربما أبرز ما في آرائه التوراتية أن زوجة إبراهيم «هاجر» شخصية وهمية، وأن إبراهيم نفسه من بلاد الحجاز، وكان زعيماً لعشيرة، مع أنه أعرب عن شكه بوجود البطاركة عموماً. وهو يتفق مع الصليبي على أن إبراهيم لم يترك «أور» ولم يذهب إلى فلسطين لأنه كان أبداً في الجزيرة العربية. وكغيره من الباحثين التوارتين الميّالين إلى نظرية اليمن، فقد أشار إلى «يمنية» هيكل أورشليم، لكن بصفة الهيكل الأول فقط. ومع أن السّواح لم يخفِ إعجابه بالوصف الذي يطلق عليه من متابعيه بأنه يغرّد خارج السرب، لكن الكثير من أفكاره مشتركة مع غيره من أقرانه. وما يغلب على أعماله هو طابع التقريب بين الأديان على قاعدة أن التنوّع فيها أمر اعتيادي مثله مثل تنوّع الثقافات أو تعدّد اللغات، تؤدي كلها إلى الغرض النهائي الأوحد. فكما لا ينبغي أن تغلب ثقافة كبرى على ثقافة كبرى أخرى، كذلك هي الأديان لا ينبغي أن يسمو بعضها على بعض. كل الأديان استعملت لغاتها ومحليات أهلها وأساليب عصورها ومقارباتها للوصول إلى خالق واحد. واليهودية في هذا السياق ليست أهم ولا افضل ولا استثناء.

ربّ الأرباب: أما الإله «يهوه» تحديداً الذي شاء اليهود أن يختاروه للإيمان بوحدانيته وجبروته، فقد أختاروه فقط بعد رجوعهم من السبي البابلي - حسب تفسير السّواح. هو ليس سوى إله من آلهة كانت متاحة لأقوام المنطقة. كلها - كما سبق ذكره - كانت تخضع لعظيم واحد إسمه «إيل». وخلاصة ما يمكن قوله على لسان السّواح بخصوص مملكة إسرائيل التاريخية (بتصرف): «إنها فلسطينية المنشأ، كنعانية البيئة في سياق عصر الحديد الثاني عقب بناء مدينة السامرة، أي نحو عام ٨٨٠ ق.م، وإن سكانها فلسطينيون محليون لا علاقة لهم بالأسباط العشرة ممن يفترض أنهم استوطنوا فلسطين إثر فتوحات يشوع».

وفي كتابه «الله والكون والإنسان» يفسّر السّواح تفوّق الدين على الفلسفة وتسلّط الاعتقاد على منطق الفكر بأن الأديان تتمكن من قلوب وأفكار عامة الناس في حين تبقى الفلسفة مقيدة بحدود الأكاديميا على بعض الناس. لذلك فهو يقول: «إنه إذا ما أردنا البحثَ عن الحكمة البشرية، فإننا سنجدها في تاريخِ أديانها لا في تاريخِ فلسفاتها».

كل الطرق إلى روما: مع أن السّواح غاص في الميثولوجيا والدِّيانات الزرادشتية والبوذية والهندوسية، إلّا أنه تعمّق في نصوص التوراة ليرسم من خلالها طرق الاختلاف مع الديانة المسيحية والإسلامية. كما ذهب بعيداً حول جوهر فكرة التوحيد في الدِّيانات السماوية وحول مصادر العناصر المشتركة بين كل الأديان، كالغنوصية التي انتشرت أفكارها في الشرق الأدنى ومحيط البحر المتوسط في القرن الثاني الميلادي. ويعيد السواح أصل الفكرة إلى الأخلاق الأفلاطونية التي تسربت إلى الثقافة الغربية وكانت قد انتشرت في زمن الإمبراطورية الفارسية، ومنها إلى الصين على شكل الديانة المانوية، وفي العراق على طريقة الديانة المندائية.

تفصيل ثانوي: منذ كتابه الشهير «لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة» (١٩٨٥م) يعرف المراقب سلفاً أين كان السواح يقف منفصلاً عن مسألة التوراة والأديان عموماً. وقد ألحق عشتار بكتب عديدة توضح عمق التفكير الإنساني عنده وإطلاق العنان للفكر بدون حدود، فكتب مسهباً عن نموذج خيال «إخوان الصفا» وعن «جلجامش» و«تاريخ أورشليم» و«قصص إسرائيل القديمية» وغيرها. كلها باكورة فكر وإن لم يكن متخصصاً بالشؤون التوراتية، فلأنه يعتبرها مجرد تفصيل عقائدي ثانوي في مسيرة الإنسان رغم الأهمية. ربما من هذه الزاوية اعتبره البعض مغرداً خارج السرب عندما تعلق الأمر بالكتابات الغزيرة التي تناول فيها إسرائيل القديمة والتعاليم. إذ لم يشغل نفسه بالصور النمطية البحثية عن كلمة عبرية هنا أو معنى أكادي هناك بقدر ما ركّز على استراتيجية الاعتقاد والفلسفة التوحيدية. وهي، برأيه، كانت استنتاجاً تطورياً طبيعياً ربط الإنسان بفطرته أينما كان، بالتوراة أو بغيرها.

٥ - خزعل الماجدي - «التوراة سومرية»

كتابات الماجدي غزيرة جداً ومتداخلة؛ ففي عرض نظرياته عن الحضارة السومرية مثلاً، يجامل في ملامسة روايات التوراة من باب الاحتياط لما قد يخبأه المستقبل وعلم الآثار.. ومع أنه كان واضحاً في خلاصة استنتاجه «أنه وما دمنا قد تعلمنا من علم الأركيولوجيا أن التوراة عبارة عن مروية دينية لا تؤيدها الآثار، فلماذا ننقلها من فلسطين للجزيرة أو إلى اليمن أو أي مكان آخر؟ إذاً لتبقَ مروية في كل مكان إلى أن تظهر آثار جديدة». والماجدي من هذا المخرج، أعرب عن رفضه للطروحات الشرقية والغربية معاً، التي تعتمد فقط على التأويل اللغوي أو توظف الجغرافيا لاستنتاجات معدة سلفاً. أي انه أعلنها صراحة برفضه لما طرحه كمال صليبي وفاضل الربيعي بعده لأنها طروحات مبنية - برأيه - على اجتهادات لغوية لا تدعمها الآثار، الأمر الذي يناقض البحث العلمي. وعلى الرغم انه يُعتبر من طليعة الباحثين العرب الذين استطاعوا بناء سلسلة متكاملة لمعتقدات البشر من خلال رصد سيرة الأديان، فإنه لم يهمل عشقه لموضوعات بلاد الرافدين وأسس المعتقدات والأساطير والخرافات التي جرته إلى مسيرة البطاركة والتوراة من الأساس. ورغم انشغاله أيضاً بمسائل الشعر والأدب والمسرح، إلّا أن «ماركته المسجلة» تطفو أبداً في موضوع السومريات وحضارات ما قبل التاريخ والمعتقدات البالية والكنعانية. وهو كغيره من الباحثين العرب لم يقوَ على مقاومة الجذب التوراتي، فاقتحمه على خلفية اختصاصه وشغفه ببلاد سومر، سيما أنها مسقط رأس إبراهيم. وقد اعتبر البعض أن عدم تعمقه بالمصريات على قياس السومريات ربما يمثل عنصراً مفقوداً في رسم القناعة الكبرى بخصوص هوية التوراة عنده.

أنبياء «كمبارس»: لعل أهم استنتاجاته، انه اعتبر أن اليهود استعاروا سِير آخر عشرة حكام (ملوك) على الحضارة السومرية وأسقطوها زوراً على أنبيائهم. أضافوا إليها أو عدّلوها بما كان يناسب بيئاتهم وأزمانهم. ورغم أن هذه الزاوية من طرحه ليست جديدة أو حصرية، إذ ألمح إليها قبله طه باقر، ثم وسّعها

فاضل عبد الواحد، الذي أقدح فتيل المقاربة بين ملوك سومر والبطاركة، إلّا أن الماجدي هو أول من تلقفها وقدح شرارتها ونفخ لهيباً في انتشارها كفرضية عريضة وازنة.

نقبوا في المنفى: ولأنه غزير بكتاباته عن تاريخ الحضارات والأديان والأساطير والأستشراق، فقد استحوذ الماجدي على مقاربات جديرة بالمتابعة والاستكمال. من توضيحاته أن اليهود استلهموا بتاريخ سومر وبقصص حكامها الأشاوس واستعاروهم شخصياتٍ لأنبيائهم. صحيح أنه لم يقل صراحة إن شخصية موسى بطوفان سلته على النيل، مثلاً، مأخوذة بمضمونها من قصة سرجون الأكادي، بل قالها مواربة وعالياً من خلال استهجانه بالمصادفة بين القصتين في حين أن الفرق الزمني بينهما يجاوز ١٠٠٠ سنة. والماجدي، وإن لم يجهد نفسه بتقديم الأسباب عن تناقضات الرويات وغياب آثار الأنبياء، بيد انه يوحي للمهتمين والمراقبين أن قصص الرافدين كانت منتشرة في المحيط الواسع وعلى مسامع نخب اليهود التي كانت مَسبية في بابل؛ فليس من الصعب أن يتخيّل المراقب كيف أمتزجت قصص الأولين في ذكرياتهم وتحديداً عندما جمّعوها عقب عودتهم من الأسر وترتيب أمورهم بعد مرور أكثر من قرن كامل عليها. ومن المحتمل عند التدوين والنسخ لاحقاً أن تكون القصص التي تم التداول بها أثناء السبي قد اختلطت بقصص أمجاد أقوام أخرى كانت مسبية أيضاً مع آبائهم أو أجدادهم. لكن من هم هؤلاء الأقوام؟ إنهم ولاة صور ودلمون وصيدا ودمشق وغزة وأوراتو. أي إن الخلطة القصصية كانت غزيرة بتفاصيل رافدية ودلمونية وأرمينية ويمنية وفينيقية، فضلاً عن المصرية بالطبع.

٦ - ديفيد رول - «التاريخ الجديد»

في كتابه «العهد المفقود»، فتح رول توارة جديدة على حسابه الخاص، لا ليخالفها أو ينتقدها، بل ليؤكد صدقيتها بطريقة مبتكرة جداً. رسم تسلسلاً طبوغرافياً زمنياً بديلاً، تحدّى المألوف بصور من الأقمار الاصطناعية وتفسيرات علمية ملفتة وتركيبات مذهلة. لذلك، اشتهر بصاحب نظرية «التاريخ

الجديد» التي لم يكن قد سبقه أحد إليها بشكلها. واختصارها بكلمات مفيدة، أنه أرادنا أن نعدّل الزمن التوراتي ونضبّه ١٥٠ سنه ونرجعه إلى الوراء لكي تجلس تواريخه على كراسيها «الصحيحة». وكالصليبي، انطلق رول بدايةً من ضاحية «الجنّة» واعتبرها مكاناً افتراضياً يشير إلى بدء الذاكرة البشرية بعد التمكن من الكتابة. وفيها، بين بحيرتي «فان» و«إرميا» وسط جبال «سنجار»، عاش بشر مميزون أحاطتهم أربعة أنهار جرت بين أرمينيا وإيران وكردستان والعراق. وبعد العصر الجليدي وانحساره قرابة العام ٨٠٠٠ ق.م، ومع كل درجة إرتفاع للحرارة، كان أولئك البشر يقتربون أكثر فأكثر من المواقع الدافئة المثالية إلى أن استقر بعضهم في «الجنة» نفسها تحت قيادة عظيم اسمه آدم. استمروا معه بالنعيم والاستقرار نحو ١٠٠٠ عام متواصلة حتى زمن الطوفان. لكن رول، بعد الطوفان، لم يختلف كثيراً في سرده عن النصوص التوراتية، اللهم إلّا بتقديره للتواريخ المختلفة عن التورايخ المقدرة تقليدياً. كل ذلك ليصل بنا في نهاية المطاف إلى أن خروج موسى كان صحيحاً بوقائعه كما ورد في التوراة، لكن فقط لو أرجعنا الزمن التوراتي نتفة إلى الوراء وقلّصناه قرناً ونيف من الزمن! في هذا السياق اقترح تسلسلاً زمنياً منقحاً لمصر القديمة وللأحداث التوراتية، بما في ذلك تلك المتعلقة بأزمان حكامها وبني إسرائيل بحيث «مشّاها» (طوّعها) مع «الأدلة الأثرية والتاريخية». لكن من المهم هنا أن نلاحظ أن نظريته هذه قوبلت بانتقادات جمّة من كبار العلماء والمؤرخين، لأنها ألحدت عن التسلسل الزمني المعهود وانزاحت عن التفسيرات التقليدية. لكن رغم ذلك اكتسبت بعض الشعبية في الدوائر التاريخية البديلة. وعلى المهتمين بنظريته مراجعة كتابيه، «اختبار الزمن» و«الأسطورة: نشأة الحضارة»، حيث يناقش فيهما التسلسل الزمني البديل بتفاصيل علمية مذهلة. ولعل أبرز ما ورد عنه، مقاربته التصويرية للتشابه الدقيق في طرق بناء السفن وممارسة الثقافة والاعتقاد بين الشعبين السومري والمصري. وهو مدخل ذكي

أراد به ربط إبراهيم بفرعون مصر، بعد قرون طويلة من وصول قبيلة آدم من الشمال السنجاري إلى سومر بواسطة دجلة!

الهلال الخصيب: بالبناء على حتمية التِرحال وصراع البقاء مع ارتفاع مستويات المياه على ضفاف الأنهر والبحيرات وشواطئ البحار، ومع تحوّل البُرك والبحيرات من المياه المالحة إلى العذبة، أو العكس، يرى رول أن قبيلة آدم هذه كانت من القبائل القليلة التي كُتِبت لها النجاة والاستمرار منذ تركت موقعها في ضواحي «الجنّة». ذاك الفردوس الذي حدّده لنا بين أرمينيا وكردستان وإيران والعراق. وهو إذ يعلن عن ولادة نظريته على هذا النحو، إنما يُوظف لها شواهد بيئة طبيعية سنديانية وبَلوطية وصفصافية عديدة. (كأن هذه الأشجار والبيئة مميزة أو تختلف عن غيرها في بلاد الهلال الخصيب؟). كما يَستنفر لها مفارقات وتعابير وأساطير حيّة جَمعها من المناطِق المحيطة بالمواقع ومن تراث الشعوب المُجاورة عبر التاريخ، كالسومريين والبابليين والأشوريين والحِثيين والفرس وصولاً إلى زمن فتوحات الإسكندر.

«خابيرو» الجنة: شواهد كثيرة مستهلكة أوردها رول وتمادى في توصيفها ليصل بنا في نهاية التحليل إلى أن «الجنّة» تقع تحديداً بالقرب من مدينة «تبريز» الإيرانية شرق جبل بُركاني اسمه «ساهند». يسترسل في وصف الطرق الوعرة النائية المؤدية إلى «الجنّة» باتجاه كردستان، ويسهب في إحياء التسميات القديمة، ومنها ما سمّاه «طريق الوادي» الشهير إلى بلدة «أدجّي تشاي»، القريبة من أرض «نود»، التي ذكرت التوراة موقعها إلى الشرق من الجنّة. وهي - بتفسيره - قرية «نقدي» الكردية، حيث زعم أن هابيل هرب إليها بعد أن قتل أخاه قايين، وكانت تعرف في السابق باسم «كروباد» (خروباد) ومعناها - حسب رأيه - مقر شعب «الخابيرو»، وهي لا تبعد كثيراً عن أعلى القمم (آرارات) حيث رست سفينة نوح - حسب استنتاجه. والملفت هنا أن رول «حلّ» سرّ الخابيرو واعتبرهم شعباً ووضعهم في ذلك الزمن البعيد لأسبابه اليهودية الخاصة وليبني عليهم لاحقاً وصلة التقاء مع إبراهيم بدون دليل كعادة معظم بحاث التوراة!

شاي أصلي: وعلى هذه المغامرات الأدبية الأسطورية المسلّية رغم كمية البحث وجدية التحقق فيه، يُحدد رول بلاد «كوش» على أنها من ضواحي «وادي الشاي»، ومن ثم يجد ضالته بتحديد اسم النهر الغامض «جيحون» لتكتمل لديه مقدمة أطروحته بأن لا «دخان بلا نار»، ولا ذكر للجَنة إنْ لم تكن قد وُجدت أصلاً بخطوط طول وعرض حدّدتها التوراة!.. وما دامت الجنّة موجودة فعلاً، فلا بد أن يكون آدم قد وُجد هو الآخر بالضرورة لإحكام الرواية حتى وإن رآه رأساً لقبيلة عتيدة كان بعضها يَعمل في مناجم الضواحي أو في الصيد أو الزراعة(١).

شمّ النسيم: جنّد الكاتب في شروحاته التفصيلية الكثير من المَصادر والروايات. كما أنه عدّد المراجع الواضحة على ذكر موقع الجنة وأنعاته بأرض العيش، والفردوس، والخضرة، والوفرة، والأمن، والسلام وما إلى ذلك من تعابير شعبية. بل إن قبيلة آدم في إحدى محطاتها التاريخية قورنت - حسب قوله - برمزية معنى كلمة سنسكريتية قديمة ترمى إلى معنى (العيش بسلام). وهذه الجنّة، حسب وصف ديفيد، ما تزال إلى اليوم قمراً مهماً يستقطب ألوف الجبليين الذين يقصدونها في المواسم رغم تنوّع معتقداتهم ونوايا الحجاج إليها. وهم حجاج آراميون، وأشوريون، ومسيحيون، ويهود، ومسلمون، وصابئة، و«زردش»، يشتركون كلهم في رمزية عيد «النيروز» مع حلول الربيع في كل عام، وذلك لإحياء قصص الفردوس الأول والفلوكلورات الأولى احتفاء بجدهم آدم!(٢)

وينتهي ديفيد من بحثه في موقع الجنّة ليؤكد صحة النتيجة، ليس فقط لتطابق الجغرافيا والطبوغرافية والأساطير مع ما تقوله التوراة، وإنما أيضاً لما تمثله

---

(١) إذا أخذنا بالاعتبار تاريخ اكتشاف الصينيين للشاي قرابة **٢٧٣٧** ق.م، فقد يكون وصول المنتج إلى «وادي الشاي» قد أيقظ عوامل الألفة والسمر بين أفراد قبيلة آدم بما أوحى لهم بأجواء الاسترخاء والنعيم والفردوس بعد يوم عمل طويل شاق!

(٢) هناك فلوكلورات نراها تقام أيضا كل عام في عيد شم النسيم في مصر ونوبية و«هولي» في الهند وباكستان، وسواها.

هذه البقعة الرائعة إلى اليوم من مفاهيم الإيمان واستمرار الولاء لدى الترك والكرد والأرمنيين والنسطوريين (كلدان) والأيزيديين، وغيرها عن روايات ملتبسة سابقة للطوفان مثل روايات نمرود وكالخ ونوح. وهو مفهوم اعتقادي أزليّ يختصر ذاكرة الشعوب عن جنة مليئة بالخضرة والماء العذب، أو ربما عن نقيضها الحتمي المتمثل بالجحيم والنار أو الجهنم والعار.

قوس قزح: بهذا التوّصل يكون ديفيد رول كمثل الذي يستشهد بحِلمه على حُسن نيته أو على حُسن اجتهاده في حَسم موقع «الجنّة». ومنه انتقل لحسم صحة الرواية التوراية لكن - كما ذكرت - فقط على طريقته بزمّ التاريخ والدفع بالأحداث نحو قرن ونيف إلى الوراء عن تاريخ حدوثها التقليدي! أي إن موسى بحسبة رول يكون قد غادر مصر **١٢٣٠** ق.م بدلاً من **١٣٥٠** ق.م على سبيل المثال. وهكذا تنتظم عنده التواريخ التوارتية، لنجده يسارع إلى وضع سليمان في تاريخ **٨٧٠** ق.م بدل **٩٧٠** ق.م على سبيل المقاربة أيضاً. والواقع أن رول ليس وحده في اقتراح مطّ التاريخ لمطابقته ونصوص التوراة. فمن أبرز هؤلاء المطاطين المتخصصين المنقب الآثاري بيتر جيمس في كتابه «قرون من الظلام». قال فيه ما مفاده إن التوراة صحيحة وحقيقية، بما فيها مشاهد انفلاق البحر ودقائق سيناء وسدوم وعمورة، لكن مقارباتنا لتوراريخها خاطئة! ومثله، قال إيمانيول فليكوفسكي في كتابه «عصور الفوضى»، وقد أشار فيه إلى نفس المعنى والمضمون تقريباً. وأخيراً هناك دونوفان كورفيل الذي تبنى نظرية المط في كتابه «مأزق الخروج والتداعيات». هذا مع العلم أن أحداً من أصحاب نظريات «التاريخ البديل» هؤلاء لم يقنع مجتمع المؤرخين والباحثين التوراتيين لأن كل باحث لديه مطّ أو زمّ مختلف عن مطّ أو زمّ غيره وبحث مناقض لبحث منافسيه.

٧ - أشرف عزت - إسكندرانية هيلينية

بعكس معظم البحّاث التوراتيين، فإن أشرف عزت غير متخصص كثيراً في التاريخ أو الآثار، لكنه وجد أشياءً في رواية التوراة استفزت قناعته العلمية.

ومع أنه قرر الخوض في غمار المعركة متأخراً، لكنه تسلّح لها بشغف واضح ومثابرة عنيدة. لعل أبرز عناصر الاستفزاز لديه، مسألة الترجمة اليونانية التي نفّذها سبعون من كهنة اليهود في الإسكندرية. هذه المسالة أزعجته كثيراً وأثارت ريبته لأنه استند في تحليله إلى أمرين: الأول أن تلك التوراة بالذات كانت يومئذ أول طبعة رسمية نهائية أصدرها اليهود مترجمة إلى اليونانية. لم يحدث أن كانت لهم قبل ذلك كتابة موحدة منجزة ومقبولة من كبار الكهنة. الأمر الثاني أن الغرب اعتمد عليها ككتاب مقدس قطعي جامع لا يحتمل التأويل والجدل. وهذا الاعتماد الأعمى المطلق على «صدقية» التوراة لا يجوز، لأن قصصها - برأيه - جُمعت بعد أن عدّلوها على خلفية وجودهم في مصر واطلاعهم على تاريخها آنذاك. فتحوّلت الجلود المتناقلة عندهم واللفائف المبعثرة لديهم إلى «توارة عظيمة». وهذه المسألة (تعظيم التوراة) خلقت لعزت اهتماماً شغوفاً للسير في التحرّي عن مواقع التحريف والتزوير فيها. وقاده شغفه الكبير وجدله الحاد حول مصداقية التوراة إلى سلسلة نقاشات معمقة أجراها مع خبراء آثار وعلماء مصريات وأدباء ومؤرخين. بيد أن حماسه لنقاء التاريخ المصري من تشويهات اليهود دفعه إلى حوارات شرسة مع آخرين، منهم فاضل الربيعي. زبدة الإشكالية بينهما أن عزت توقع من الربيعي أن يكون ملماً بـ «الحقبة اليهودية في الإسكندرية» - ليكون قادراً على إبداء تصور موزون حول المسألة اليهودية من أصلها. الواضح أن عزت لم يقصد الإساءة للربيعي بقدر ما كان يحاول الإعراب عن استهجانه من عدم معرفة الربيعي بتفاصيل وخبايا الترجمة السبعوية وظروفها. فهذه بالنسبة له تعتبر حدثاً أهم من خروج موسى لأنها تؤرخ لمفصلية التزوير. بمعنى أن تاريخ الترجمة السبعوية هو تاريخ التحريف الذي غيّر العالم لأن المؤسسة المسيحية نهلت منه فيما بعد على أنه حقيقة دامغة. لكن للأسف بدا أمر المواجهة بين عزت والربيعي وكأنه انتقاص من مكانة الربيعي وخبرته. بيد أن المشهد العام أضرّ بعزت أيضاً بسبب أسلوبه المباشر الفجّ. ورغم أن أسئلة عزت محقة ومنطقية، لكنه لم يبنها على أبحاث

متعمقة ومتنوعة أو متدرجة. وباستثناء محورية اهتمامه بما يدّعيه عن تلفيقة الترجمة السبعوية للتوراة، فقد وافق عزت باحثين آخرين الرأي بعدم تواجد موسى فى مصر بالمرة، وبالتالي بعدم رحلة الخروج إلى سيناء وغيرها من العناصر المشتركة.

مصر للمصريين: لعِزت تحفظات كثيرة على الذين سبقوه. نشر خلاصات مآخذه في كتاب على الإنترنت لدى «أمازون» عام **٢٠١٥**م. وقام أيضاً بتخصيص قناة له على «اليوتيوب» نشر عليها قناعته من خلال عنوان عريض ودائم: «مصر لم تعرف فرعون ولا موسى». حاك حجته الرئيسية على ذلك من خلال تهمته الجوهرية ليهود الإسكندرية بالتلفيق الفاضح أثناء ترجمتهم للتوراة إلى اليونانية. ومن أبرز الأمثلة التي ساقها للتدليل على ذلك هو أن بطليموس الثاني لم يطلب فقط من اليهود في الإسكندرية تقديم عرض له عن دينهم، بل طلب أيضاً من المؤرخ المصري مانيتون، وهو - كما سبق وأوضحت - كاهن وعالم وأديب، أن يعد له خلاصة عن تاريخ مصر الطويل منذ التأسيس حتى عهد الإسكندر. لكن ليس واضحاً من السجلات ما إذا كان الفريقان (اليهود ومانيتون) قد التقيا في أروقة قصر بطليموس أو لامسا أكتاف بعضهما البعض في ممرات الدوائر البطليمية أو مكتبة الإسكندرية. والملفت في أمر كتابات مانيتون عن تاريخ مصر أنها «تبخّرت» بأجزاء منها في نار مكتبة الإسكندرية عقب حادثة احتراق سفن المرفأ. وهكذا، لم يصلنا من كتاباته إلّا النتف من فصول منسوخة مبعثرة مما ظهر بعد مماته بثلاثة قرون ورُمم قدر الإمكان. ولعل في هذا كله ما ساعد على تثبيت رواية اليهود عن مصر في غياب تأريخات مانيتون كاملة. والملفت أيضاً أنه لم يؤرخ فقط لمصر، بل انطلق أصلاً من بداية الكون والنشأة الأولى وكأن القارئ معه أمام شيء من سفر «البدء» في التوراة. أو أن سفر «البدء» استعار من أوصاف مانيتون؟ وبالسياق نفسه على الاتجاه المعاكس لا بد لساذج أن يتساءل ما إذا كان مانيتون نفسه قد اطلع على توراة اليهود أثناء ترجمتها في الإسكندرية ونهل منها أشياءه. هذا مع العلم

أنه ليس لدينا دليل واحد على تواجد الاثنين معاً رغم عيشهما في ظل بطليموس الثاني.

واختفى الهكسوس: صحيح أن مانيتون أسهب في وصف هروب الهكسوس من مصر في كتابه «إيجبتيكا» (جيبتانا)، لكن الملفت هنا أن اليهود لم يأتوا على ذكرهم رغم وجود يوسف بينهم. والأدهى، أنهم (اليهود) لم يلمحوا عنهم رغم شهرتهم بالـ (الهكسوس) في مدينة كانت مركز العالم آنذاك، تعجّ بكل الأقوام والعلماء وطلاب العلم. وإذا كان البعض يُعلّل سكوت التوراة عن ذكر الإسكندر على أساس أن كتابتها كانت قد اكتملت وخُتمت قبل زمنه، وقبل انتقال نخب اليهود إلى الإسكندرية، يتساءل بعض آخر لماذا إذن تجاهلت التوراة الهكسوس وقد كان لديها حيز زمني طويل لذكرهم في مناسبات عديدة خاصة أنهم كانوا جزءً مهماً في التاريخ المصري إبان وجود اليهود المفترض فيها؟

ولربما يكون الحاخامات في الإسكندرية قد استعاروا فعلاً قصة خروج الهكسوس من مصر بغرض اقتباسها لخروج موسى منها، مما اضطرهم إلى إخفائهم من النصوص كيلا يُفتضح اختراع الرواية وأخذها من كتابات مانيتون. وكغيره من البحّاث، فقد ذكّرنا عزت أن اسم «فرعون» لم يرد عند مانيتون في كل السلالات المصرية التي أدرجها، بل أورد حكام مصر ملوكاً عليها. لا بل حتى المؤرخ سترابو لم يأت فيما بعد (٢٥م) على ذكر الفراعنة في أي من كتاباته، بل وصفهم بملوك مصر. والطريف أن كلمة «*Bible*» نفسها - حسب تعبير عزت - لم تكن معروفة عند اليونانيين قبل مؤتمر حاخامات اليهود في الإسكندرية.

ومن الأمثلة الأخرى التي يطرقها عزت من باب «البديهيات» اعتراضه على تفسير رواية بيع يوسف، ما يوحي أن مصر كانت فيها سوق للعبيد، وهو ما يرفضه جملة وتفصيلاً. بل يصر أن أسواق النخاسة كانت لها أماكنها في الاستراحات على طرق التوابل والقوافل بين عُمان واليمن والجزبرة وبلاد

المشرق (فلسطين وسوريا ولبنان والأردن). وعليه - والاستنتاج لعزت - تكون التوراة التي يعتمدها العالم اليوم - مفبركة بامتياز في الإسكندرية، اللهم إلّا إذا كانت كتابات مانيتون هي المفبركة - حسب تهكمه!

٨ - جورج كوسى - «فتش عن اللغة»

مفكر سوري ضليع باللغات وخبير بالأبحاث والترجمة ومتخصص بالتعريب على مستوى الشرق. ورد في المواقع الإلكترونية عنه أنه متمكن بطلاقة من سبع لغات، فضلاً عن العربية. وهي: اللاتينية، والآرامية والسريانية، والإسبانية، والبرتغالية، والإيطالية والفرنسية والإنجليزية. ورغم أنه أعدّ الكثير من الدراسات القيّمة والمحاضرات عن الشرق الأدنى، لكنه لم يخصص كتباً لشرح فلسفته الخاصة عن اليهود أو عن نصوص التوراة أو فرضياته بشأنهما. قد لا تكون لديه نظرية قائمة بشخصية مستقلة من وحي موقعه في سوريا، لكنه حتماً لامس الموضوع التوراتي جدياً بكتابه القيّم «أعرق الحضارات». وهو من هذا المدخل يستحق المقاربة ليس من باب التقييم كما ذكرنا آنفاً، بل من باب التقدير لإسهاماته تظهيراً لتعدد الآراء حول النصوص التوراتية.

عين الطير: الواضح أن مقدرة كوسى اللغوية، وتمكنه من بضع لغات، ومقدرته على التعريب، قد وضعته في مكانة مميزة يحسد عليها، لأن تخصصه هذا أتاح له مداولة الموضوعات المترجمة بصورة الأبعاد على مدار **٣٦٠** درجة. بمعنى أن فهمه للموضوع الواحد، على خلفية تكراره بعدد من المؤلفين بأكثر من لغة، وفّر له استنباطات لا تتاح لغيره بسهولة حتى للخبراء وأهل الاختصاص. من هنا تبقى ترجماته لكتب كبار الباحثين التوارتين والرافدين وهوامش تعليقاته في حواشي الكتب، من أهم ما تعطي المتابع العربي نظرة واضحة عن رصانة فكره كمفكر شغوف حرّيف. وتكفى مقدرته اللغوية وحدها، وترجماته العديدة عن بلاد النهرين ومصر والشام، لتعطيه أبعاداً ثقافية عميقة في جذور تراث الهلال الخصيب لا تتوفر إلّا للإستثنائيين في اللغة الواحدة.

من أبرز الكتب التي ترجمها حول الموضوع «رأس شمرا والعهد القديم»

لأدموند جاكوب الذي سبق وذكرناه في سياق آخر عن نظريته حول استنتاجه بأن نصوص العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا تحاكي الوقائع التاريخية. وليس واضحاً حجم تأثر كوسى بالكتابات النقدية التي ترجمها. إذ أجمع مؤلفوها على أن المترجمين أضافوا على العهد القديم من خيالهم في مرحلة النقل الشفهي وحبكوا أساليب كتابية من عندهم ما شوّه عناصر الوقائع. وإذ أتجنّب اقتباس أي شيء من تعليقاته في الحواشي للتدليل على آرائه بالنصوص، فلأنني أخشى أن تؤخذ بغير سياقها ويُساء فهمها.

٩ - موريس بوكاي - «التوراة قرآنية»

في كتابه الشهير «التوراة والأناجيل والقرآن بمقياس العلم الحديث»، والذي ترجم إلى كل لغات الدول الإسلامية، فضلاً عن أبرز دول الغرب، استنتج بوكاي أن القرآن وحده فوق المستوى العلمي، ما يعني تلقائياً لغرضنا هنا أن التوراة لا تجاري وقائع العلم ومجريات التاريخ. وفيما رأى أن بعض الآيات القرآنية سابقة لعصرها بمراحل وتحتوي على رؤى أسرع من الاكتشافات العلمية، وجد أن النصوص التوراتية أدبية أسطورية لا تستند إلى علم ولا إلى سياق تاريخي سليم. وبالنظر إلى دراسته الشغوفة بالكتب السماوية، فقد طوّر اهتماماً عميقاً بعلوم المصريات واللغات، منها العربية والهيروغليفية، فتناول قصة خروج موسى من مصر بشكل خاص ومميز. ورغم أنه قلّل من شأن تاريخيتها وتفاصيلها، فإنه لم يشكك لحظة في حدوثها أو في جغرافيتها لكن حسبما وردت في القرآن وليس في التوراة. في خضم حماسه لأفكاره، اقترح تصوراً بحثياً ملفتاً لتحديد مومياء «فرعون الخروج» بعد فحصها، خاصة انه طبيب بالتخصص والخبرة! غير أن منتقديه أشاروا إلى أن تفسيراته انتقائية وذاتية، لاسيما أنه وبحكم عمله الرئيسي في مجال الطب كان محابياً للعديد من مرضاه المشاهير والرموز السياسية والعربية والإسلامية التي عالجها، ومنها السادات والملك فيصل على سبيل التحديد. وكمعظم نقاد التوراة، أفرد بوكاي حيزاً واسعاً لتحليل التناقض في أعمار الشخصيات التوراتية الكبرى توالياً منذ

آدم. وخلص - كغيره - إلى عدم واقعية انطباقها على أعمار الأجيال حتى عصر المسيح. أما استنتاجه، فيقوم على أن التوراة محرّفة حتى النخاع ولا يمكن الاتكاء عليها لرسم وقائع تاريخية أمينة أو علمية صحيحة كما هي الحال مع القرآن - حسب قناعته المعلنة.

صادق أم متملق؟ إن أهمية آراء بوكاي لا تكمن فقط باعتباره قامة علمية أوروبية مدح الإسلام، بل لأنه أيضاً مسيحي كاثوليكي اعتبر القرآن - بعكس الكتب السماوية الأخرى - مثالياً باستباق نظريات علمية وكيميائية وفيزيائية. وهذه الصدقية - برأيه - لا تنطبق على التوراة، كما أن المسائل العلمية البحتة لم تلقَ اهتماماً في حالة الأناجيل. طرحه «الجريء» هذا أغاظ، ليس فقط المؤمنين اليهود والمسيحيين معاً، بل اللادينيين والملحدين أيضاً كونه وثّق لمصداقية القرآن ككتاب علم ودين يحاكيان العقل والروح، سيما أن إلمامه باللغة العربية كان جيداً. ورغم استفزاز آرائه مفكرين كثيرين، فقد وجدها بعض آخر مثيرة للاهتمام وجديرة بالنقاش. لعل أبرز الملاحظات على أبحاثه أن البعض رأى فيها ارتجالاً مرتبكاً أو غير مدعوم بأدلة علمية مبرمة، خاصة ما تعلق منها بمسألة خلق الكون. ورغم أن اجتهاداته غير موفقة بمعظمها، حسب تعبير بعض الدوائر العلمية الرصينة، إلّا أنه من جهة أخرى عزّز الفخر في التراث الإسلامي لدى عامة المسلمين، ولعب على نرجسية ممثليهم الكبار. كما أدّى دوراً هاماً في جذب مئات الحيارى إلى الإسلام، وإعادة عشرات المرتدين على ضوء زعمه باكتشاف هوية «فرعون موسى».

فرعون موسى: في مطلع الثمانينات من القرن العشرين تفرّغ بوكاي لأبحاثه الدينية والتاريخية، ومدّ اهتماماته إلى علوم المصريات، وأثار فيها لغطاً مشابهاً وجدلاً شديداً على مستوى العالم. كان مصدر اللغط أنه اقترح خلال عام ١٩٧٤ م مشروعاً بحثياً جريئاً أراد منه تحديد هوية مومياء «فرعون موسى» الذي مات غرقاً على شطّ بحر. ومما شجّعه على اقتراحه هذا أنه - كما ذكرنا - كان يتمتع بعلاقات شخصية ودية مع بعض قادة العالم العربي. كانوا مستعدين

لمساعدته وتقديم التسهيلات له و«المساهمة البطولية» في الكشف عن «فرعون موسى»! هذا مع العلم أن بوكاي نفسه لم يكن خبيراً مثالياً في الموضوعين الديني والمصري.

وتبقى مركزية طرحه أنه جادل منتقديه من اليهود والمسيحيين من خلال تقديم تفسيرات علمية صارمة لبعض الآيات. آيات لم يكن الحديث ممكناً عنها من قبل، أو لم تكن العلوم قد كشفت النقاب عن صحتها بعد. لكن طرحه هذا دفع نقّاده المؤمنين والملحدين على حد سواء إلى اتهامه بتبسيط المسائل واختزال المقارنات. أهم ما ورد من اعتراضات على ألسنتهم أن بوكاي حاول مطّ الآيات القرآنية غصباً للتوفيق بينها وبين العلم فقط من خلال التأكيد على الجوانب المجازية أو الرمزية لقصص الأولين. وقد أدّى هذا النهج الانتقائي القسري إلى استدراج الكثير من الانتقادات ضده حتى من أدباء وشعراء رأوا انه تمادى في شرح الآيات القرآنية من جهة، وقوّض الجانب الديني من النصوص التوراتية من جهة أخرى. ثم إن بعض الفيزيائيين والجيولوجيين رأى أن بوكاي بالغ في شرح بعض النتائج العلمية، أو أساء عرضها خدمة لمآربه الخاصة.

ليس وحده: صحيح أن بوكاي كان شخصية فريدة من نوعها، وفي نهجه، لمقارنة العلم والدين، لكن بالتأكيد لم يكن وحده في تعريض النصوص الدينية للمعادلات العلمية. هناك علماء ومؤلفون آخرون عاصروه واستكشفوا مثله موضوعات مماثلة. من هؤلاء على صعيد المثال وليس الحصر، الفيزيائي الأميركي اللاهوتي الشهير، إيان بربور. له كتب عديدة عن نفس الموضوع (علمية النصوص ودينية العلوم)، منها كتابه الشهير «قضايا في العلم والدين». لكنه بعكس بوكاي لم يحابِ أحداً ولم يعادِ أحداً. وهناك جون بولكينهورن، هو أيضاً فيزيائي لاهوتي، كتب على نطاق واسع حول واجهة العلم والإيمان. ساهمت أعماله، مثل «العلم واللاهوت» في تغذية المناقشات المستمرة في هذا المجال لكن بحدود الرصانة العلمية الموضوعية الهادئة. وهناك كارل دبليو

جيبرسون، وهو أيضاً فيزيائي وعالم دين، ألّف العديد من الكتب، بما فيها «إنقاذ داروين»، لكنه فشل في إنقاذه رغم محاولاته التوفيق بين الإيمان والمنطق. هؤلاء العلماء والمؤلفون شاركوا في مناقشات حول العلاقة بين العلم والدين في نفس حقبة بوكاي، لكن فقط من الجوانب الإنجيلية أو التوارتية للموضوع.

١٠ - زياد منى - «توراة دلمونية»

رغم عمق أبحاثه بالتوراة وإلمامه بتاريخ ما بين النهرين وبلاد كنعان، بقي منى تقريباً على خطى الصليبي ولم يلحد عن استنتاجه أن أرض التوراة كانت في عسير وليس في فلسطين، وأن أصل بني إسرائيل ليس اليهود. فهؤلاء اليهود - برأيه - شيء، وان بني إسرائيل شيء آخر. في كتابه «جغرافية التوراة: مِصر وبنو إسرائيل في عسير»، ركز منسى على ما زعمه وردده كثيرون غيره، لا عن وجود بني إسرائيل في مصر، وإنما على دلائل عدم وجودهم فيها. ربما أبرز ما ورد في كتابه، فضلاً عن استنتاجه الواضح بالخط العريض، أن الجزيرة العربية مملوئة بالكنوز التاريخية المنسية بسبب انعزالها أولاً، ثم بسبب رفض التنقيب فيها سابقاً لأسباب دينية أو تراثية أو سياسية عديدة. وهو يرى أن الإضاءة العصرية على شبه الجزيرة سيساعد ببدء التنقيب وكشف المستور عن الدرر المدفونة، سواء في عسير، أو اليمن، أو حتى منطقة «الدلمون» وجوارها الواسع القديم، بما فيها منطقة الساحل الشرقي من هرمز حتى شط العرب. وزياد منى من فئة الباحثين الذين يراهنون على أن ما سنجده في شرق الجزيرة العربية وجنوبها سيدهش العالم ويغير قناعات كثيرة إلى غير رجعة. وقد يتطلب الأمر إعادة كتابة أحداث الحضارات التقليدية وتاريخنا البشري بما في ذلك نظرتنا إلى بداية المعتقدات وتطورها.

من جدّ وَجد: ليس المقصود من التنقيب المرتقب في أنحاء الجزيرة أن ينحصر فقط فيما يخص الرواية التوراتية، بل سيشمل بالضرورة روايات أخرى عبيدية وسومرية وبابلية وثمودية وفارسية وحبشية وأشورية. والسبب - برأي منى -

واضح بديهي بالنظر إلى اختلاط هذه الحضارات المهمة جداً بمفاعيل التوارث والهجرات ومرورها عبر طرق مشتركة لقوافل التوابل والبخور، فضلاً عن التجارة مع بلاد الشام. وتأكيداً لمذهب منسى في ضرورة الاهتمام بدراسة الجزيرة، ورد في نصّ «أسطوانة شولجي» ملك سومر وأكاد (**٢٠٢٩-١٩٨٢** ق.م) وجود صناعة متقدمة للسفن في بلاد مجان (عمان) وتجارة واسعة مع المحيط من الهند و«دلمون» ومواقع أخرى من الساحل العربي الشرقي. ما يعني أن البحرين كانت ميناءً ومركزاً عامراً وسوقاً للمقايضة حيث رست السفن فيها أثناء إبحارها من الشمال السومري الأكادي إلى الهند وشرق أفريقيا حاملة على متونها العاج والمرّ، ومن الشمال للجنوب النحاس والطوب إلخ. وقد كانت الملاحة وحركة الاتصال هذه مستمرة بلا انقطاع منذ مئات السنين، ولها محطات وموانئ عريقة جداً على طول الشواطئ الممتدة من العراق، مروراً بهرمز، إلى باب المندب، صعوداً إلى شواطئ مصر على البحر الذي وصفه اليونانيون لاحقاً بالأحمر وهم سمّوه كما سمّوا معظم المواقع الفارقة.

وكما على خطوط البحر، كانت القوافل في البر تمر على طرق اتصال مباشرة بين مراكز التجارة آنذاك وتسحب بضاعاتها من الموانئ، أو عبر أطراف الربع الخالي إلى شمال شرق الجزيرة من اتجاه، وإلى عدن باتجاه آخر. ولا بد لتلك الأنشطة عبر آلاف السنين أن خلّفت أشياءً وآثارات اختبأت من قسوة البيئة في رمال عميقة، أقله في مناطق الاستراحات والواحات البائدة. وهي بانتظار الأيادي الخبيرة للتنقيب عنها واستخراجها.

بلقيس والقدس: أما على مقلب الآثارات التوراتية، فلربما أكثر ما يلفت من أقوال منى: «إننا لا نحتاج إثباتات لتأكيد حق الفلسطينيين بأرضهم، وعندما يتعلق النقاش بتاريخية هذه المنطقة من العالم، فإن موقع الدولة العبرية يكون بالضرورة خارج هذا النقاش، انطلاقاً من أن هذه المجموعة من الصهاينة أتت إلى فلسطين واغتصبت الأرض وهجّرت الشعب الذي سيخرجهم منها في يوم من الأيام ويعيد لتاريخ المنطقة وجهه الحقيقي». من هذه النظرة

الراسخة باتجاه مركزية فلسطين، وجدنا اشتغالات منى بالتطرق إلى التوراة سبّاقة من خلال كتابه «بلقيس امرأة الألغاز وشيطانة الجنس». الكتاب تفصيل عن روايتها مع سليمان والقدس، حيث أضاء من خلاله على بضعة مزاعم صهيونية ورد عليها. وبالإضافة إلى «جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير» ركّز منى في كتبه اللاحقة على مسألة «التحرّيف في التوراة والتلفيق في التلمود». وهو كغيره من كتّاب المسائل التورارتية أثار لغطاً واسعاً في كتبه انطلاقاً من أطروحة كمال الصليبي التي فرّخت مفكرين حيارى ومبدعين، خانهم الإبداع في الاتفاق على سردية جزيرية واحدة...

١١ - فرج الله ديب - «توراة سبئية»

في كتابه «اليمن وأنبياء التوراة»، توصّل ديب كأقرانه التوراتيين العرب إلى أن مسرح وقائع التوراة هو اليمن. واختصار نظريته كما عبّر عنها في العديد من كتبه، ومنها «اليمن هي الأصل»، و«التوراة العربية»، و«أورشليم اليمنية»، أن علم الآثار في إسرائيل يفضح أسطورة «أرض الميعاد» ويخطئ إسقاط جغرافية التوراة على فلسطين. ومع أن الكثيرين من الباحثين العرب والأجانب قالوا بدجل الدعاية الإسرائيلية عن جغرافية التوراة في فلسطين، فإن ديب أعطى أهمية خاصة لاعتراف الغرب بهذه الفبركة من خلال إشاراته لتحقيقات أكاديمية وصحفية جريئة حرّرتها أقلام ومطبوعات راقية رصينة مفادها: (إن علم الآثار في فسطين لم يؤكد ما جاء في أسفار التوراة، وبالتالي، فإن «أرض الميعاد» الكنعانية ليست في فلسطين. وعليه، فالاسطورة الصهيونية عن أرض الأجداد باطلة). لعل أبرز ما أكد عليه من غربلة مئات الأسماء التوارتية التي تداولها، أن مدينة «حبرون» مثوى إبراهيم الحقيقي تقع شمال عدن ولا علاقة لها بمدينة «الخليل» في فلسطين. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى حصن «أريحا» (بالعبرية يريخو حسب استنتاجه)، إذ يقع في شمال صنعاء! كما يرى في كتابه «اليمن وأنبياء التوراة» أن يوسف بقي في اليمن ولم يخرج منها، أي انه ظل يقطن وعائلته ربما بالقرب من بئر على طريق القوافل. أما كيف بنى فرج الله ديب

قناعاته وحصّنها، فهذا أمر لا يستوعبه إلّا من مشى على خطى الصليبي، أي على مبدأ: «فإن لم تصدقوني، فاذهبوا ونقبوا». وهذا تحديداً أبرز القصور في هذه مثل الاجتهادات لأنها تحيك من إعادة ترتيب الكلمات مواقع جديدة على أنها المواقع الأصلية. قد نكتفي ونقتنع فيما لو قدم كل البحّاث إعادات لكلمات مماثلة أدت إلى نفس المواقع بنفس الأوصاف والمسافات! لكن هذا ليس هو واقع الحال، فمثلاً نجد أن مدينة «حبرون» (التي حُدد موقعها بتقليب الأحرف وغربلة سياق الكلمات) تبعد نحو **٧٠** *كلم عن مدينة أريحا في فلسطين، بينما يبعد الموقعان عن بعضهما البعض في اليمن نحو* **٥٣٠** *كلم! وهلم جراً من أمثلة والتباسات لا حصر لها.*

هود ويهود: ديب ذهب أيضاً إلى حيث اقترح غيره أن النبي «هود» هو أصل اليهود، معتمداً فقط على منطق التفسير اللغوي ليصل إلى قناعة أن «هود» كان يعيش في منطقة الأحقاف شمال عدن، وأن صيته كان واسعاً وأتباعه في «يثرب» كانوا يُنسبون إليه، فصاروا يهوداً بالتبعية. كما أن «أور قاصديم»، التي رحل إبراهيم منها في التوراة، إنما عنده ليست في سومر، بل هي مدينة من بلاد «بني قاصد» جنوب اليمن. ما يعني أن إبراهيم ارتحل من بلاد «قاصد» في جنوب اليمن إلى «حبرون» التي ما زالت تحتفظ باسمها شمال شرق عدن. وإذا كان من اقتباس مهم ننقله عن ديب، فهو نظرته الواقعية أن الغرب لا يلام على مؤامرته، بل الفكر العربي، سواء من الناحية التاريخية أو الأركيولوجية.. ولديب تساؤل ملفت في هذا الصدد عندما يعبّر عن استهجانه بالقول: «فهل كان الهمذاني (في كتاب الإكليل) والطبري (في تاريخ الأمم والملوك) من الأغبياء عندما ذكرا أن فراعنة مصر أيام يوسف وموسى كانا الوليد بن الريان والوليد بن مصعب، أم أن احداً لم يقرأ الطبري بل اعتمد على فهرسه فقط؟ إن اليهود عشائر عربية يمنية نسبة إلى النبي هود الوارد ذكره في القرآن والذي كان من الأحقاف شمال حضرموت».

وعلى ذكر مصر في المراجع عن تلك الحقبة، فإن مصطلح «مصرايم»

التوراتي مغلوط وملتبس عند ديب تماماً كما هو عند غيره من الباحثين - أي لا ينتمي إلى مصر الحالية (الأفريقية)، لأنه لم يكن كذلك أيام التوراة إلخ[١]. والبعض لأسبابه الخاصة يصرّ على أن تسميتها جاءت كناية عن أسماء «مؤسسي مصر»، أي مصريم بن مركائيل بن دوابيل بن غرياب بن آدم. ومصرام بن نقراوش الجبار بن مصريم. ومصر بن بيصر بن حام بن نوح، وهذا الأخير أُطلق اسمه على مصر بعد الطوفان. أما اسم «مصر» العصري، فلم يظهر كما سبق وورد إلّا عشية الإسلام، أي إن مصر لم تكن تعرف باسمها هذا بزمن اكتمال التوراة في عهد بطليموس الثاني (**٢٤٦- ٢٨٣** ق.م).

وفي حديثه عن الترابط بين حقبة الفينيقيين وعصر التوراة، زعم ديب أن مدينة «صور» اللبنانية لم تكن هي المعنية بالنصوص التوراتية. ف«صور» ذكرت في عدة أماكن في العهد القديم منها (حزقيال: **٢٦-٢٨**) حيث نبوءته الشهيرة عن خراب المدينة. وفي إشعياء **٢٣** هناك وصف للمدينة على أنها قوة تجارية وبحرية عظيمة. بينما «صور» المقصودة - برأي ديب - هي مدينة ومرفأ وقلعة صور العُمانية على الخليج العربي وليس صور اللبنانية على المتوسط[٢]. وفي معرض آخر عن أماكن التوراة، يقول ديب: «إن إبدال حرف الياء إلى حرف هاء في الممارسات الجزيرية قد برهنت أن «صهيون» فلسطين هي «صيّون» اليمن. ذلك أن مدينة صيّون هي «سيئون» اليوم على حافة وادي حضرموت».

١٢ - القسّ عيد صلاح - «للترجمة المسيحية نصيبها»

رجل كنيسة مصري وباحث في المخطوطات السماوية. أدلى بدلوه بالقصص التوراتية لكن من باب الترجمة العربية. وهو بشكل عام، يَعتبر نصوص التوراة

(١) هناك الكثير من المؤرخين من يقول إن اسم مصر التاريخي كان دائماً يتراوح بين «اكبطد» و«كيمتو» أو «ديشتي».

(٢) لكن نحن نعرف من تاريخ المدينة اللبنانية أنها حوصرت سبعة أشهر على يد الإسكندر قبل أن يدمرها، بينما لا نجد في السجلات حدثاً تدميرياً في صور العُمانية من فترة السبي البابلي إلى تاريخ اكتمال التوراة في الإسكندرية؟.

مختلفة باختلاف اللغات المكتوبة بها. بل حتى في اللغة الواحدة هناك اختلافات حسب اختلاف المترجمين. وهذه إشكالية تتكرر وتحدث عنها كثيرون. وإذا كانت الاختلافات قد انحصرت باختيار المعاني المثالية حسب بيئة الموضوع وزمنه، فإن المضمون العام للرواية التوراتية، لم ينجُ من العوارض الجانبية. وفي بحث مستفيض له عن الموضوع، ذكّر القسّ قرّاءه أن المسيحيين العرب، الذين عاشوا في أجواء روح الثقافة العربية - الإسلامية منذ وقت مبكر، هم مَن يعود الفضل إليهم في ترجمة الكتاب المقدس برمته إلى العربية. وهي ترجمات أمينة توضّح أسس بنائهم للجسور الثقافية بين الشرق والغرب في فهم تعابير التوراة في النسخة العربية.

تورية أم سجع؟ أشار القسّ صلاح فيما وصفه بـ «الترجمة العربية المسجعة» للأناجيل المسيحية كيف استعمل المترجمون المسيحيون العرب أسلوب مبسط وسجعي أقرب إلى الأنغام منه إلى غيره من أساليب اللغات. وبيّن لنا أيضاً كيف ذهبت الترجمة العربية المسيحية «مسافة» إضافية من خلال استخدام مصطلاحات وتعابير وأسماء إسلامية بحتة مثل: «عيسى» و«دار الإقامة» و«المثوى» و«يوم البعث» و«الحشر» وأمثالها. وأوضح في أحد المؤتمرات السنوية في العام **٢٠٠٤** م للمخطوطات العربية بمكتبة الإسكندرية، أن الاهتمام بترجمات الكتاب المقدس للعربية كان أمراً «شرقياً عربياً خالصاً» وتابعه عرب مسيحيون في بداية العصور الأولى للتلاقي الإسلامي المسيحي. لكن ترجماتهم كانت متناثرة هنا ومبعثرة هناك، وبقيت غير مجمّعة ومنقحة حتى القرن الثامن الميلادي.

وقال إن سفر «المزامير»، مثلاً، كان أول ما ترجم إلى العربية في لبنان على أيدي الرهبان الموارنة منذ زمن بعيد، ثم طُبع في مدينة جنوة (جنوا) الإيطالية عام **١٥١٦** م ضمن طبعات أخرى. وقد لحقت به في روما بعد ذلك طباعة مجموعة من النصوص في كتاب موحد شامل سنة **١٥٩٠** م، ثم لحقته ترجمات أخرى من النصّ السرياني عام **١٦١٠**م. وبعدها صدر «كتاب حلب» الشهير عام

١٧٠٦م. وهناك في حلب أيضاً طُبعت الأناجيل المسيحية باللغة العربية لأول مرة في الشرق الاوسط عام ١٧٢٧م.

وبلفتة ذكية حول إشكالية النصوص التوراتية من باب «إن اللبيب»، أعرب صلاح عن قناعته بضرورة تنفيذ ترجمات أخرى في عصرنا هذا لتواكب تطوّر اللغة ككائن حيّ ولتلبي احتياج العرب المسيحيين إلى فهم أعمق للكتاب المقدس، مشدداً على أن كثيراً من النصوص التراثية المسيحية ما زالت بحاجة إلى التنقية والتحقيق وإعادة النشر.

صحيح أن القسّ لم يتطرق إلى حقيقة الرواية التوراتية نفسها، ولم يبدِ رأياً صريحاً بجغرافيتها أو زمنها، إلّا أن مساهماته الدؤوبة لتسهيل لغة الكتاب المقدس على فهم العامة وعلى خلفية حوار الأديان، يستحق التقدير، لا سيما أن الكثير من النصوص الأصلية شوهته الترجمات، فضلاً على عوامل المناخ وسوء الحفظ والعفن.

١٣ - جان أستروك - «توراة بالألوان»

طبيب فرنسي لكن من النوع الفذ. أخذته حيرته الشديدة إلى الغوص عميقاً في التوراة إلى درجة أنه صار مرجعاً لكل من اشتغل بعده أو أراد العمل في حقل البحث النقدي التوراتي، تحديداً حول التفنيد اللغوي للعهد القديم. وكما لم تخلُ أطروحات الدارسين لليهود وإسرائيل من تأريخات يوسفوس كما سبق وذكرت، كذلك لم تُطرح دراسة عن العهد القديم بعد أستروك بدون إشارة إلى أبحاثه. الرجل ركّز جلّ جهده على النقد الكتابي للتوراة، وليس على شيء آخر فيها؛ فتألق بتخصصه الأدبي وبرصانته المنهجية وحقق الريادة فيما صار يعرف بمدرسة «الفرضية الوثائقية». واختصاراً لمفهومها، أنها تقدم نظرية استقصائية متينة، بحث أستروك فيها عن «الهويات الأدبية» لمؤلفي الكتب الخمسة الأولى من التوراة. وقد خلصت نظريته إلى استنتاج حسّي مفاده أن أسفار موسى الخمسة وضعها مؤلفون متعددون، وأنه يمكن تحديد تنوعهم من خلال تحليل الأسماء وأنماط الكتابة المختلفة المستخدمة، خاصة من خلال التسميات

والأوصاف المتعددة لكلمة «الله». ولأنه كان سبّاقاً في كشفه هذا، لم يواجه في حياته منافسين شرسين أو نقاداً، بل العكس، حظي بإجماع يحسد عليه!

ربٌّ واحد وأسماء كثيرة: استنتج أستروك من دراساته المضنية أن هناك ٤ مصادر في التوراة. مصدران رئيسيان منهما لمصطلح (الله) الحاضر في كل مكان وزمان. وهناك مصدران آخران مختلفان. واحد بغياب الله عن «المشهد التوراتي» بصفة الغائب (أي هو). وآخر بغيابه عن «روايات عامة» لا تتعلق بتاريخ اليهود لا من قريب ولا من بعيد أي بصيغة (إنه). أطلق على المصدر الأول (من الأربعة) اسم «إلوهيم»، ورمز إليه بحرف «*E*». وأطلق على المصدر الثاني اسم «يهوه»، ورمز إليه بحرف «*J*»؛ فصار لله عنده اسمان، «إلوهيم» و«يهوه»، فضلاً عن الإله التقليدي أو الربّ. ورمز إلى المصدر الثالث بحرف «*P*» كناية عن العنصر الكهنوتي، فيما أشار إلى المصدر الأخير بحرف «*D*» كناية عن مجمل المتبقي. وعندما فنّد نصوص شريعة موسى وغرّبلها على هذه القاعدة التصنيفية الدقيقة، تمكن أستروك من كشف تعدد مؤلفي التوراة بما لا يقبل اللبس أو يسترعي الريبة. بذلك وضع حجر الأساس لطريقة تحليل النصّ التوراتي لتحديد المصادر المختلفة فيه. كانت أفكاره رائدة مبتكرة ومقدمة للنقد الراقي للعهد القديم. وقد فتح الباب واسعاً لمن أراد من العلماء والمؤرخين تحليل الأصول التاريخية والتأليفية (التحريف) بنطاق مرن.

مرجعية جامعة: ما إن اكتسبت أفكاره سمعة راقية وانتشاراً، حتى ساهمت في المجال الأوسع للنقد الكتابي، وجذبت مشاركة العديد من العلماء واللاهوتيين في أبحاث مماثلة. من الذين بنوا على فرضيته وناقشوها، بحاثٌ مشاهير وثقاة في دوائر البحث التوراتي أمثال يوهان غوتفريد أيخهورن، ويوليوس ويلهاوزن، وكارل هاينريش كراف، من بين آخرين. وهؤلاء العلماء قاموا بتنقية «الفرضية الوثائقية» من بعض الأخطاء النافرة أو الأفكار الناشزة، مثل افتراض أستروك الخاطئ أن العبرية كانت اللغة السائدة في عصر موسى

(١٣٥٠ ق.م)، ناهيكم أنه لم يشرح كيف وصلت إليه، أو ما إذا كانت قد وصلته بصيغة كتابية في عصر لم تكن الأبجدية ميسرة أو معروفة؟[(١)]

خلاصة بحث أستروك: أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم كُتبت بعد قرون عديدة من موت موسى، ولا يمكن أن يكون قد كتبها هو بنفسه حسبما ورد فيها: «فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ»[(٢)] واستمراراً لخلاصة أستروك: «وما دام موسى لم يكتب التوراة بنفسه - حسب قواعد «الفرضية الوثائقية» - لا بد أن هناك نصوصاً أخرى ملتبسة أيضاً على نفس المنوال لم يكتبها أشخاصها على ما أُعلن من غاياتها. وهذا استنتاج لافت كونه يعرّض النصوص للمزيد من الشكوك ويضعها في دائرة التأليف الروائي المتعدد.

١٤ - طه باقر - «لولا السومرية»!

طه باقر بلا منازع أبرز مرجعية عربية أكاديمية في تاريخ بلاد الرافدين على مستوى الشرق، بل ربما قارع في زمنه أعتى المتخصصين في الحقل السومري وبلاد بابل. وتعود جذور شهرته في العالم إلى المكانة الرصينة السباقة التي حققها من خلال ترجمته لملحمة جلجامش. فقد صاغ الملحمة البابلية بطريقة التعريب المبسّط، وقارب نصوصها العتيقة إلى مستوى فهم الأجيال المعاصرة بحيث استطاع المهتمون الشباب فهم أشياء كثيرة منها، فشغلتهم وأطلقت العنان لمخيلاتهم. ولولا مقدرته اللغوية الملفتة وتمكنه من قراءة الكثير من النقوش المسمارية، على صعوبتها، لما تمكّن في ستينيّات القرن الماضي من تأدية الترجمة الفورية بلغة عربية مفهومة بدون الاتكاء على مصطلحات غربية مبهمة أو دخيلة. وهذا بدوره قدح خيال الأدباء والمثقفين والشعراء العرب،

---

(١) المفهوم السائد أن العبرية لم تكن قد ظهرت واستعملت قبل عصر الملك داود.

(٢) هناك من يوضّح أن موسى كتب أسفاره كلها بنفسه وكانت منتهية تواً عند احتضاره، ما برّر آخر كلمات له فيها عن موته المشعور وناولها من سريره إلى يشوع بن نون!.

فصاروا يتحدثون عن البطل «جلجامش» وبلاد الرافدين كما يتحدث اليونانيون عن البطل «أخيل» وبلاد طروادة. لكن مع ذلك، فإن باقر لم يسلم من انتقاد البعض بقولهم إن ترجمته ربما كانت ضحلة أو مقتضبة أو شعبوية مقارنة بما جاء بعدها، كترجمة فراس السواح مثلاً. وعلى الرغم من مساهماته الغزيرة (باقر) وكتاباته المسهبة مثل «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» و«جلجامش» ودراسات «مجلة سومر» وغيرها، فإنه لم يفرد دراسة قائمة بذاتها للربط المباشر بين التوراة وتاريخ الرافدين. لكنه لم يحتاج للتوراة ليخلّد من حديثه عنها مؤلفاته حول أعرق الحضارات في العالم. أبحاثه وأفكاره ما زالت تنبض في دوائر المؤرخين وترقد معززة على رفوف مكتباتهم. ويكفي أن كتيباته الإرشادية إلى مواقع الآثار العراقية يعاد طبعها بدون إضافات كثيرة ملحوظة (ربما أن الاستكشافات في العراق بطيئة، أو لا يصرح لها بسهولة). وفضلاً عن تقديره بمئات الإشادات في كتب علماء السومريات والآثاريين في الغرب، قدّرته الدولة العراقية وأثنت على جهوده وأطلقت بمناسبة ذكراه المؤية عام ٢٠١٢ *م أول جائزة متخصصة للقطاع التنقيبي في العراق حملت اسمه. كما منحته أيضاً دوائر عربية تقديرات اعتبارية كثيرة.*

سومري حتى النخاع: ما كان يميز مكانة باقر بين بحّاث حضارات بلاد ما بين النهرين، أنه أتقن قراءة النقوش السومرية والأكادية والبابلية، فضلاً عن اضطلاعه بالآرامية والعربية ولغات العصر، كالإنكليزية والفرنسية وسواهما. صحيح أنه كان معلماً قديراً في علوم الآثار في بلده العراق ومرجعية رصينة في علم السومريات والأكاديات، إلّا أنه لم يتردد في الاعتراف بجهود من تعلّم منهم وسبقوه من المنقبين وعلماء الآثار الغربيين، أبرزهم وأجدرهم بلا مقارع العالم صموئيل نوح كريمر. لكن مع ذلك، لم يغب عن بال باقر أن يسلط الضوء على مشكلة تهريب بعض الآثارات عن طريق المستكشفين أنفسهم أو تزويرها أو استغلالها في غير سياقها. الأمر الذي كان يرى احتواءه ممكناً من خلال «تطوير الوعي التاريخي وتوفير الإرادة والأدوات».

ومن حسن الظروف أن المؤرخين الكبار أدركوا أهمية مساهماته في تطوير وعي البشرية عن أزمان السومريين، إذ فكّ لنا رموز الكثير من النقوش والألواح الرياضية البابلية، ومنها مدونة «إشنونا» الشهيرة، واكتشاف مدينة «شادوبوم» السومرية، فضلاً عن إسهاماته في الدوائر الآثارية العالمية وكتاباته التربوية المنهجية في العراق. وكما ألمحت أعلاه، ورد عن بعض مَن جاءوا بعده انتقادهم له بسبب ترجمته المبسطة لجلجامش. إذ إنه اختصرها في أربعة فصول مقتضبة وحذف المكرر من نصوصها، ما أفقدها - برأيهم - سياقها الموسيقي وقيمتها الفعلية. ورغم أن هذه ملاحظات قد تكون جديرة بالتمحص وصحيحة، لكنها بالتأكيد لا تقلل علمياً من محاولات باقر الاستباقية في كشف التاريخ من خلال خربشات لغة ما تزال قيد التدقيق والفك. وإذا كان شامبليون قد نال التقدير لترجمة «حجر الرشيد»، فباقر حسب تلامذته ومحبيه، أهل لتقدير عالمي مماثل لجهوده وعلمه في كشف النقاب عن أسرار السومريين. ولعل عالمنا المشرقي ما زال بحاجة إلى المزيد من التطور والمواكبة لتقدير إسهامات القامات الوطنية التي تساعد شعوبها على فهم تاريخها الصحيح، أمثال طه باقر وفاضل عبد الواحد وفوزي رشيد وفراس السواح وغيرهم...

١٥ - فاضل عبد الواحد - «سومري آخر»

إنه منقب شغوف وعالم مميز. رغم أنه كتب الكثير وأغدق، لكن كتابه «من سومر إلى التوراة» سنة ١٩٨٩م، يبقى من أروع ما كتب لأنه - على خطى أستاذه طه باقر - توسّع «بقومية» الرافدين ككل، وليس فقط كمجموعات أقوام من عيلاميين وسومريين وأكاديين وبابليين وأشوريين. ثم إنه ابتكر وسلّط الضوء على ثمة «علاقة» بين ملوك سومريين ما قبل الطوفان وبين الأنبياء التوراتيين بعده. يبدو من كتاباته أنه تعمّد الأيحاء عن وجود روابط اعتقادية، ككنوز ثقافية تستأهل المزيد من البحث والتدقيق لخدمة علم التاريخ، مشرعاً الأبواب لغيره من أجل قطف ثمار ما زرعه. والواضح أنه ألهَم زملاءه ومَن عاصره، أبرزهم خزعل الماجدي وأمثاله. لكن على المستوى الشعبي، ربما يعود الفضل

الرئيسي له في خلق مقاربات عملية ونماذج تصويرية في مخيلات الناس عن حياة وفكر السومريين الأوائل من عادات وتقاليد، والأهم من طقوس ولاهوت. ومن هذه المشهدية السومرية، غرف الكثيرون ونهلوا لتخيلاتهم عن أوصاف رحلة أبرام كما ورد عنها آنفاً. لوحات تراثية غنية ساعدت دراسي التوراة وعلماء الاجتماع والتطور على التجرأ والنظر بالتحليل إلى حقبة ما قبل الطوفان. ولا عجب أن أبحاثه ومؤلفاته الرصينة ساهمت أيضاً في المنهج العراقي الأكاديمي وكانت قيمةً ثقافية في إعداد الموسوعة الرسمية عن العراق.

قناة السويس والمانش؟: حقيقة الأمر أن محورية دور فاضل عبد الواحد في فهمنا للزمن الغابر تكمن في هندستة لعمران متين فوق فجوة التاريخ بين حقبة الطوفان وبعده. محوريته هذه تشبه (افتراضاً) قناة السويس ونفق المانش، من حيث ربط المعلوم في الجهتين وأتاحتهما للعامة بيسر وسهولة، وليس بإضافة شيء عليهما. ولعل أكثر ما ساعده على الربط السلس بين الحقبتين اختصاصة بعلم السومريات وتمكنه من الكتابة النقشية السومرية والأكادية والآرامية. هذه وحدها ميزة عظيمة لأنه من خلالها ترجم لنا نقوشات مهمة مباشرة إلى اللغة العربية دون المرور بمطبات الترجمة من مترجمين غربيين أو مستشرقين لهم أهواء وآراء. بالإضافة إلى هذه الميزه عنده، فإن آثارات السومريين، بعكس الآثارات اللاحقة لهم، نادرة الوجود وصعبة المنال، ما جعل عبد الواحد من العلماء القلة الذين كانوا يلعبون في الملعب السومري العالمي بأريحية عجيبة رغم عصيانها عليه وتمردها. لا ريب أن عمله في المتحف العراقي سهّل عليه وخوّله الاطلاع على مقارنات لم تتوفر بسهولة لغيره إلى درجة أنه بات «قاموساً أكاديمياً» عن غموض بلاد الرافدين، لا سيما في مسائل الاعتقاد وعشتار ومأساة تموزو والطوفان...

١٦ - إسرائيل فنكلشتاين - «ليست فلسطينية»

لا ريب إطلاقا أن الأكاديمي الإسرائيلي إسرائيل فنكلشتاين أهم منقب وعالم آثار توارتي اليوم من وجهة نظر المشتغلين العرب. ليس بسبب عبقريته

ولا شغفه، إنما فقط لأنه جسّد لهم في تكذيب رواية التوراة ثمة تنفيس عن غضب دفين، وبرّر لهم وجود أمثال عربية شهيرة مثل: «شهد شاهد من أهلها» أو «على نفسها جنّت براقش»، أو «كاد المريب أن يقول خذوني»؛ فالرجل بارز رصين معروف باختصاصه بعلم الآثار في عصور إسرائيل القديمة. كانت لأبحاثه تأثيرات كبيرة على فهمنا لتاريخ بلاد الشام القديمة، خاصة خلال الفترة الممتدة من ١٢٠٠-٥٨٦ ق.م. ومن أهم مساهماته في كشف المستور عن مصداقية التوراة أنه اقترح تسلسلاً زمنياً «أقلوياً» (أكثر منطقياً وتبسيطاً) عن الزمن التوراتي التقليدي (المعقد والمبعثر) ما أوحى عن توصياته بضرورة مراجعة التأريخ التقليدي لكثير من الأحداث التوراتية والفترات الأثرية. هذا المنحى، تحديداً هو ما يسعى إليه كثيرون ويصب في جزء منه لصالح البحّاث العرب. ولعل أهم استنتاجاته أنه أكّد لا وجود لأدلة علمية آثارية تؤيد رواية الخروج من مصر، ولا دخول يشوع إلى أريحا، ولا لوجود دواد وسليمان على طراز ملوك، بل ربما اقتصر وجودهما على هيئة رؤساء عشائر ومناطق. هذا فضلاً عن عدم وجود آثار بالمرة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب في فلسطين.

زعماء أزقة أو رؤساء عشائر؟ في كتابه المشترك مع الباحث الأميركي «فيل آشر سيلبرمان» بعنوان «التوراة مكشوفة على حقيقتها»، زعم فنكلشتاين أن أسفار موسى كتبت قبل السبي بأيدي كهنة يهود في عهد «يوشيا» (٦٤١ - ٦٠٩ ق.م) في القرن السابع قبل الميلاد، أي ٧٠٠ سنة تقريباً بعد عصر موسى الافتراضي. وإن دلّ هذا الاستنتاج على شيء، فعلى خيبة الادعاء بأن فلسطين هي أرض المعياد، وبالتالي على بطلان النغمة الصهيونية من أساسها. وقد كان ملفتاً جداً لدوائر التنقيب التوراتي والبحث الإبراهيمي اللاهوتي استنتاج فنكلشتاين وسيلبرمان، أن الإسرائيليين لم يكونوا سوى جماعة هامشية تمكنت من تحقيق حكم ذاتي في بعض الهضاب لفترة قصيرة وسط أرض مسكونة بأقوام كثيرة متنوعة، منها الفلسطينيين والكنعانيين. الواضح أن دراسة الرجلين، وإن بيّنت فرقاً بين العرق الكنعاني والعرق «الفليستي»، بيّنت أيضاً موضوعية المنقبين

بالنظر إلى جنسيتهما وأكاديميتهما من خلال تحديهما «المؤسسة» اليهودية. لا بل تعرضا إلى الكثير من الضغوط لعدم مجاراة التفسيرات التقليدية وإثارة الظنون حول الدقة التاريخية للعهد القديم. والأمثلة التي ضرباها على قناعتهما لا تحصى لهذا السياق لكن ما كان ملفتاً منها وصفهما للقدس على أنها لم تكن سوى بلدة صغيرة لا قيمة دينية أو تجارية مهمة لها في سياق التاريخ التقليدي عند التوراة. واستطراداً، فإن رجالات القدس - حسب استنتاجهما - كانوا مجرد زعماء حارات وأزقة فيها.

ملح على جرح: لم يكتفِ فنكلشتاين بتحدي التفسيرات الإسرائيلية التقليدية للتاريخ التوراتي وحسب، بل قدم أيضاً وجهات نظر بديلة جريئة أستندت إلى الأدلة الأثرية والتحليل العلمي الذي أجراه على فترات طويلة. وقد شملت مساهماته الرئيسية مراجعة التسلسل الزمني واقتراحه ضرورة إعادة تأريخ بعض الأحداث التوراتية والفترات الكتابية بشكل مختلف، استناداً إلى اكتشافاته الأثرية. لعل أهم ما أكده حسياً وعضوياً هو «التسلسل الزمني المنطقي»، مما أكد أن ظهور إسرائيل القديمة، كمملكة، حدث في وقت لاحق عما كان يعتقد تقليدياً، وأن العديد من الروايات التوراتية تعكس البنى الأيديولوجية اللاحقة بدلاً من الحقائق التاريخية الفعلية كما جرت. استطاع فنكلشتاين وزميله سيلبرمان أن يثبتا متانة نظريتهما من خلال تسليطهما الضوء على عمر المستوطنات وأنماط العيش في إسرائيل القديمة، ما يناقض السرد التقليدي. وهذا الحرج - بالنسبة للدولة الإسرائيلية - يتجاوز حدود البخعة المستورة إلى فضاء الفضيحة المجلجلة ويعرّض جروحها للمزيد من رشّ الملح على أيدي أكاديميين ومؤرخين ذوي مكانة مرموقة!

ليسوا من فلسطين: خلاصة الكلام عن نتائج بحثهما أنها جاءت بمثابة فضيحة مدوية على مستوى العالم. ليس فقط على طريقة «من فمه أدينه»، وإنما لأن التنقيب كان مسهباً ومفصلاً وعصرياً تم على أيدي إسرائيليين متخصصين، وليس على أيدي هواة أو رحّالة أو مستشرقين أو جواسيس أو صحفيين كما في

كثير من تنقيبات الشرق الأدنى. وعليه، تعتبر نتائج بحثهما حجر زاوية متين يُبنى عليه بثقة وثبات. لكن مع ذلك، فإن الكتّاب والعلماء والمفكرين العرب التوارتيين لم ينتشوا كثيراً بعد بكل ما توصّل إليه الباحثان، لأنهما لم يذهبا إلى أبعد من ذلك. أي، لم يرد منهما شيء عن تاريخ وصول اليهود إلى فلسطين أو أصولهم من الجزيرة العربية. إلّا أن الطريق ما زال في بداياته خاصة أن الكثير مما أورده الرجلان ما يزال يقع في دوائر الترجيح والتخمين. وقد ورد على لسان فنكلشتاين في إحدى المقابلات قوله: «إن نتائج الحفريات الأثرية صدمت المؤسسات الدينية اليهودية والسياسية والثقافية في إسرائيل لأنها تعتبر نصوص التوراة مقدسة. كانت تتوقع أن تأتي نتائج الحفريات لتؤكد صدقية الرواية التوراتية لا أن تدحضها». الملفت حقاً أنه حتى عام ١٩٦٠م لم يكن هناك عالم توراتي يشك في التاريخية المقدسة لرحلات أنبياء «التكوين» و«الخروج»، من إبراهيم حتى موسى. وكأن الأمر المهم قبل الستينيات من العصر الماضي كان ينطوي فقط على ضرورة البحث عن آثارات تؤكد النصّ لا أن تنقده أو تبخسه. لكن الحفريات منذ ذلك الحين بدأت تدلي بصوتها المستقل عالياً في وضح النهار..

يعتبر فنكلشتاين شخصية رائدة في دراسة علم الآثار في بلاد الشام والشرق الأدنى القديم، تماماً كما يمثل شوكة حادة في حلق الدعاية الإسرائيلية من جوف الطبل الصهيوني.

١٧ - أحمد داود - «الوجود أصله سوري»!

كغيره من النقاد التوراتيين العرب، لداود فرضياته الخاصة عن أصل اليهود. هي لا تختلف كثيراً عن فرضيات غيره. منها في السياق، أن اليهود عرب أقحاح ينتمون إلى عشيرة عربية بدوية كانت ببداياتها في شبه الجزيرة منكفئة على نفسها. (أشبه اليوم بالأميركيين «المورمون» في أميركا). والأرجح - حسب تعبيره - أنهم كانوا يعودون بجذورهم إلى براري اليمن من الجزيرة. وداود، مثل شلومو ساند، يعتقد أيضاً أن ٨٠ ٪ من يهود العالم اليوم هم من شعب

الخزر الذين ظهروا بالقرم والمحيط القوقازي في القرن الثامن الميلادي. ومن آرائه المتعاركة مع المألوف حول الرواية التوارتية ما يشبه في بعض جوانبها مقولة فاضل الربيعي عن أصل اليهود في اليمن، وفي بعض آخر مقولة الصليبي عن أصلهم في عسير. أما بالنسبة إلى مصر، فاختلف عنهما وزعم أن مصر لم تدخل سوريا يوماً أو تحتلها، بل جلّ صراعاتها كانت في اليمن. هناك كان لها نفوذ واضح بسبب التنافس على طرق قوافل التجارة. كان شيوخ القبائل وحكام الأقوام اليمنيون يتداورون على تمثيل ملك مصر لتمكين سيطرته على تلك الطرق. هذا الترتيب الإداري - برأيه - يضع مراسلات «تل العمارنة» في سياقها الجغرافي الصحيح في اليمن، بدلاً من إسقاطها تلفيقاً أو جهلاً بأيدي المستشرقين على الجغرافيا الكنعانية. وإذا كانت هناك سمة بارزة يعكسها أحمد داود في أعماله وكتاباته، فهي أنه يعتبر سوريا والعرب قلب العالم وعقله، إلى درجة أن البعض شبّه فخره بهما كفخر الشعب الألماني بقوميته وعظمته إلى حدود التعصّب. وقد بدا اعتزازه بقوميته للبعض نقيصة علمية من الناحية الفلسفية لأن كل جيد عنده عربي، وكل عظيم سوري؛ فيصبح الجيد عربياً سورياً بامتياز. كان واضحاً من دراساته وأبحاثه أنه أرجع عظمة حضارات الشرق إلى اعتدال مناخ الهلال الخصيب كأساس لدعائم التحضر، الذي نهل العالم الكثير منه ونسبه إليه زوراً....

عاطلون عن العمل؟: في كتابه المثير «العرب والساميّون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود»، كرّر أحمد داود ما سبق للصليبي أن قاله عن أصل التوراة في المضمون العام. وقد ركّز في بصمته البحثية المميزة على أن أصول الحكاية مع التوراة تعود إلى عسير والجزيرة بالنظر إلى أن اليهود هم أصلاً عرب حسب قناعته أعلاه. إلّا أنه، بعكس الصليبي، لم يعطِ مكانة مميزة لعشيرة إبراهيم وأتباعه، بل نعتهم بزمرة عاطلين عن العمل كانوا يرومون بين البلدات ويعيشون عالة على الأقوام القابضة على الزرع. أي أشبه بحياة الغجر الذين كانوا ينامون في مغاور الجبال ويرتزقون من عطايا المزارعين وقطع الطرق

وبعض الصيد. هذا الوصف النقدي الجدلي من أحمد داود لبني إسرائيل يصطدم تماماً مع ما وردنا من التوراة عن حياة داود وجاه سليمان. واستطراداً، فإن التعابير والاصطلاحات التي ظهرت في نصوص اليهود لاحقاً إنما - برأيه - تعكس تضخيمات ثقافية ولغوية لا وجود لها إلّا في مخيلاتهم. لكن التناقض هذا لا يعني اليهود بشيء ولا يضيرهم ما دامت هناك توراة مقدسة تؤكد للعالم أنهم «شعب الله المختار» شاء من شاء وأبى من أبى!

نرجسية أم غرور؟: بالرغم أن أحمد داود من مدرسة فكرية لا تختلف كثيراً عن مدارس بعض المفكرين العرب، فإن النزعة السورية عنده تشبه نزعة التباهي لدى بعض اللبنانيين. فهي تطغى في بعض استنتاجاته بشكل ملفت على النهج المنطقي العلمي. تراه يذهب بعصبيته مذهب سعيد عقل، مثلاً، ويزعم بحماسة متزايدة أن الحضارة الإغريقية عربية المنشأ وأن السوريين أصل الحضارة، لكنهم كانوا مجبرين لأسباب تجارية على التعامل مع البدائيين المتخلفين في أوروبا في العصور الفارقة، في القرن السادس ق.م - بموجب تحديده. ومثل سعيد عقل في فخره لانتمائه الجغرافي الفينيقي، يدّعى داود أن معظم التسميات اليونانية لها جذورعربية قديمة (سعيد عقل يقول فينيقية وغيرهما يقول أكادية، أو أوغاريتية، أو آرامية). والسبب في ذلك أن جذور التسميات التي استعارها اليونانيون من العرب - حسب اعتقاده - إنما تعود أساساً إلى أصول الأنشطة والتقاليد التي كان العرب والسوريون يمارسونها قبل تلقفها من اليونانيين، ابتداء من مباريات الرياضة والنحت والموسيقى والجدال بالمنطق، والاحتكام للإجماع إلخ.. كلها، بنظره، عناصر حضارية «استعارها» اليونانيون - والغرب من بعدهم - من الساحل الفينيقي السوري حيث الآثار غزيرة وتشهد على الحضارة العظيمة التي تعود بالعمق إلى الألف الثالث ق.م، أي قبل أن تولد الحضارة الإغريقية الكلاسيكية بمئات السنين.

شوط طويل! ما يهمنا من هذا السرد لسياق الحديث عن النصوص التوراتية، أن داود في كتابه «تاريخ سوريا الحضاري القديم - تأسيس روما»

استطرد في توضيح آرائه عن سرقة الغرب للحضارة المشرقية. ولعل ما يلفت الانتباه إلى نظرته للشرق المتحضر قوله إن السوريين عرب وعموريون وأموريون وكنعانيون وهم كل هذه الأقوام، لأنها مجرد تسميات مختلفة لنفس الإنسان السوري الحضاري العاقل. ناس متحضرون كانوا أول من حدد مواقع عيون الماء وشيّدوا المعابد والموانئ واستوطنوا حوض المتوسط ودُعي البحر باسمهم: «البحر الأموري»، ثم «البحر السوري». وإذا كانت الحضارة الرومانية قد تأسست بخلطة أقوام إثنية وعرقية تراكمت حول روما وانصهرت بشعلتها وصارت لها في العالم هوية رومانية موحدة، فإن الحضارة السورية العربية كانت فيها - قبل ظهور روما بقرون - عشرات منارات العلم والتحضر مثل: إبلا وماري وأوغاريت وبابل ونينوى وغيرها، على اعتبار أن الأكاديين والدلمونيين والبابليين والأشوريين والأموريين والكلدانيين والسوريين والكنعانيين، عرب أقحاح - بنظره. والمنطق عنده أنهم كلهم من أصول واحدة لنفس الجماعات العربية التي تدحرجت عبر الزمن ضمن الهجرات التاريخية من اليمن وبكل الاتجاهات!

من هذا الاعتزاز الشديد والفخر الصارخ، فإن كل التاريخ البشري عند داود عربي منذ الفيضان، وأن تعدد الأقوام في المنطقة مجرد تعدد اصطلاحات ولهجات ولسانيات. لكن كلامه غير واقعي لأننا نعرف أن أقوام المنطقة بسياق التوراة متناقضة جداً وما يزال الخلاف مع بعضها قائماً إلى اليوم رغم مرور ٣٥٠٠ سنة! ومع أن الكثيرين يتفهمون حماس داود للعرب والحضارة السورية من واقع كثرة الأدلة وتنوعها، لكن بعضاً آخر يفهم مبالغاته على أنها تضخيمات ثقافية وشوط بعيد. إذ إنه ذهب إلى حد التصريح العلني الصريح أن قصيدة «الأنيادة» اللاتينية الشهيرة سورية بامتياز، وهي تحاكي «إلياذة» هوميروس لتصوّر نتفاً عن طروادة وتأسيس روما. ويزعم أن مؤلفها «فيرجيل» (فرج الله)[1] شاعر أيطالي من أصل سوري، أو أنه سوري نشأ في إيطاليا

(١) ليس هناك أدلة دامغة على أن فيرجيل شخص اسمه فرج الله.

وكتب بالوجدان والتورية من خلال ملحمته عما وصفه (داود) بمعاناة السوريين المتحضرين مع متوحشي الكهوف سكان أوروبا البدائيين.

اختصار المسألة عند داود - أنه أبرز أربعة عناصر لم يقدم أحد عليها مباشرة أو وضوحاً مثله. أولاً: مصر لم تحتل سوريا يوماً ولم تحاربها. ثانياً: رسائل «تل العمارنة» لا علاقة لها ببلاد كنعان. ثالثاً: الحضارة الإغريقية أصلها سوري. رابعاً: كل الأقوام عربية تعود أصولها إلى خزان البشر في اليمن باختلاط الهجرات وتعددها بكل الاتجاهات. يبقى أن هناك من النقاد من قدّر أن داود تعمّد ربط العرب بكل الأقوام وسوريا كأصل واحد متين لغرض تأليق حضارة الشرق عموماً من جهة، وكي لا يتهم بأكثر من تعصبه للحضارة السورية من جهة أخرى. لكن هذا تقدير يبقى في حدود المجهول والنوايا.

١٨ - مصطفى وزيري - «موسى جاء مع الهكسوس - ١»

على الرغم من أن وزيري لا يدخل ضمن جملة الكتّاب التوراتيين المتخصصين، إلّا أن فرضيته من التميّز والاختلاف مع معظم البحّاث ما جعلني أضمّه إلى لائحة رُماة الحجارة والغطاسين في مياه التوراة. وإذا كان هناك ما يؤهله للغوص عميقاً والرمي بعيداً، وهو أصلاً ليس باحثاً أو لسانياً تقليدياً، أنه نذر عمراً في المقاربات الأثرية من خلال عمله الحكومي كمفتش عن الآثار ومديراً عاماً لشؤونها والتصريح عنها.. أما فرضيته المثيرة للجدل والاستهجان معاً، فهي أن اليهود جزء صغير من الجماعة التي تكّون الهكسوس من خليطها. كان خروجهم (الهكسوس) من مصر دراميا بعد مطاردتهم من قِبل الملك المصري العظيم أحموس عام ١٥٧٠ ق.م. ويذهب وزيري في فرضيته هذه إلى ما أجمع عليه غيره قبله عن لقب «فرعون»، ويقول إن بحثه الميداني عبر سنوات عمله أثبت أن كلمة «فرعون» نفسها لم تكن معروفة أساساً في مصر قبل قدوم الهكسوس إليها. و«الفرعون» - برأيه - مجرد اسم علم لرجل منهم. ثم يسترسل ليزعم أيضاً أن موسى كان معارضاً سياسياً وطالب بالتحرر، لكن ليس من قبضة المصريين، بل من سيطرة «الحكام الهكسوس الهمج» أثناء

هروبهم من وجه أحمس، وكان يرأس الهكسوس يومها قائد اسمه «فرعون». وإذا كان المراقب قد تعوّد على نظرية التباين بين الاسم واللقب في كلمة «فرعون»، فقد يحتاج وقتاً طويلاً ليألف أن خروج موسى التقليدي كان خروجاً للهكسوس أنفسهم، ناهيكم أن موسى كان مشاركاً معهم أو معارضاً لهم، أو في زمن فرعون آخر!

اسم أم لقب؟ في التوسّع بآفاق فرضيته، يوضّح وزيري ويستشهد بعالم الآثار الفرنسي الشهير، مؤسس المتحف المصري (أوغيست مارييت)، أن جماعة الهكسوس كانوا من جذور قوقازية وكنعانية وعربية. كان فيهم من تعبّد لعشتار وبعل، وعبد إيل الكنعاني. أما كيف تحوّل «فرعون» من اسم حاكم واحد إلى لقب لكل حكام مصر بعد خروج الهكسوس، فالمسألة - برأيه - بسيطة وتشبه تحوّل اسم «قيصر»، حاكم الروم، إلى لقب «القياصرة» من بعده، وكسرى حاكم الفرس إلى «الأكاسرة». ثم إنه يستهجن كيف أن مصر على حجمها الكبير وتاريخها العظيم ليس فيها مكان مهم واحد أو أثر يحمل اسم «فرعون» إن بالصفة الإسمية أو بالصفة اللقبية، باستثناء موقع «حمام فرعون» اليتيم فى سيناء. وهو للمفارقة - برأي وزيري - يقع بالقرب من الموقع الذي قيل إن القائد فرعون (الاسم) عاش فيه مع قومه الهكسوس. ومع أن وزيري لم يقلها صراحة، فقد يكون مغزى كلامه هذا أن مصطلح «فرعون» بعد حقبة الهكسوس أصبح مجرد لقب روتيني تلقائي عند غير المصريين الذين أقاموا في مصر وكتبوا عن حكامها اختصاراً عن ألقابهم المعقدة كالحورية أو النبتية أو النسبوتية.

ومع أنه أرجع أصول الهكسوس إلى أواسط آسيا، فقد أوحى - بالنظر إلى الخلطة العرقية لجماعاتهم - وكأن اسم «فرعون» مشتق إما من اسم البلدة الحجازية التى كان قد جاء منها وهى «فاران» حسب اعتقاده، (ربما قصد صحراء فاران، أو برية فاران، الواردة في العهد القديم حيث ورد أن هاجر لجأت إليها مع ابنها إسماعيل)، أو أن الاسم مشتق من اسم قبيلة «فرعا»

الواقعة فى وادى عسير فى غرب شبه الجزيرة العربية. وفي الحالتين نلحظ من وزيري أنه أدخل الجزيرة العربية على المشهد التوراتي لكن من زاوية الهكسوس. وفي هذا الصدد قام الباحث عزت أشرف مرة بإجراء مقابلة مع وزيري وأصرّ عليه توضيح المسألة من زاوية أنه لو كان الهكسوس فعلاً همجاً متخلفين كما يدّعي، لما كانوا على دراية حضارية وأدخلوا إلى مصر تقنية القوس المركب وتركيبة البلطة وصناعة الخزف والفؤوس وآلات موسيقية، فضلاً عن العربة نفسها والحصان. فكانت وجهة نظر وزيري أن استعمال الأدوات العصرية بذاته ليس دليلاً على التحضر.

ومع أنه لم يضرب لعزت أمثلة على وجهة نظره، لكن إجابته جديرة بالملاحظة الثقافية ومهمة. إذ إننا رأينا في العصر الحديث كيف أن داعش، مثلاً، استعملوا تقنيات كثيرة منها الإنترنت وتطبيقاتها الإلكترونية بطرق ابتكارية مبهرة. كما رأينا معارك رقمية «سيبيرية» أطلقها كثيرون ممن ليسوا أمثلة نموذجية عن التحضر ضد أنظمة إلكترونية عند الغرب المتحضّر!

يبقى أن نلفت الانتباه إلى أن مصطفى وزيري استعار الكثير لنظريته هذه من باحث مصري آخر اسمه عاطف عزت (راجع أدناه) - حسب تصريحات عاطف نفسه. وقد كتب كتاباً بعنوان «فرعون موسى» شرح فيه وجهة نظره من الالتباس مع وجهة نظر وزيري وتصوره لعلاقة الهكسوس ببني إسرائيل واليهود، لكن لم يحالف كتابه الحظ كثيراً خارج الإنترنت.

١٩ - عاطف عزت - «موسى لحق بالهكسوس - ٢»

تقول نظرية عاطف عزت «إن (فرعون) مصر المعني من قصة موسى كان واحداً من نفس قوم موسى، وإن المعركة بينهما بكل ما فيها من تعذيب وقتل وسحر وهروب وخروج، كانت «أهلية بمحلية» بين أفراد من نفس القوم. ولم يكن لمصر الدولة التقليدية، ولا لملكها، ولا للمصريين أنفسهم، أي دخل في تلك الأحداث - لا ناقة ولا جمل! ويستطرد عزت بقوله إن «مصر» نفسها دولة عظيمة، وقد أثارت غيرة اليهود وحقدهم، فحشروها في القصص التوراتية،

للصق كل فرية بها وبالمصريين؛ فيسهل تكفيرها بتهمة الشرك ومحاربتها الأنبياء. ويمكن - على حد تعبيره - تلخيص كل تاريخ مصر من وجهة نظر التجني اليهودي بعبارة واحدة: (فرعون طغى وتكّبر وقال أنا ربكم الأعلى، فكان مصيره الموت غرقاً، وهلاك قومه من المصريين المجرمين). وأضاف أن «اليهود الحاقدين والمتآمرين الغربيين عملوا على أن لا يقف الأمر على الماضي، بل لا بد أن ينسحب على الحاضر أيضاً ويمتد للمستقبل بحيث لا يبقى للمصريين تاريخ يفتخرون به، بل يصبح واجباً عليهم رمي التراب على تراثهم المدنس وسبّ أجدادهم والانتساب لغيرهم». إنها - برأيه - خدعة يهودية صهيونية كبرى وقع العالم فيها وفضحتها آيات القرآن الكريم - حسب قناعته.

إسرائيليو هكسوس: لدعم نظريته هذه، استشهد عاطف بكثيرين كتبوا عن حملة الهكسوس على مصر. فعن الأميركي عالم المصريات جايمس هنري بريستد نقل قوله «إن أبناء يعقوب (إسرائيل) كانوا على أصح الاحتمالات عرباً تابعين لإمبراطورية الهكسوس». وهو بذلك (بريستد) يؤيد ما كان المؤرخ يوسفوس قد قاله أيضاً «إن بنى إسرائيل قوم كان فيه من الهكسوس. ولا يُستبعد أن يكون وجود هؤلاء الأغراب بمصر سبباً فى تلقيب تلك الإمبراطورية (الهكسوسية) بدولة الرعاة». نقل أيضاً عن المؤرخ زينون كاسيدوفسكى قوله: «الأرجح أن تكون عشيرة يعقوب قد جاءت إلى مصر مع زحف الهكسوس أو بعد أن أقاموا سيطرتهم فيها. وقد أستُقبل يعقوب ومَن معه استقبالاً طيباً فى مصر لأنهم كانوا أقرباء المحتلين، ومن جهة أخرى، ليس من الصعب أن نتوقع أن الفراعنة الهكسوس لم يثقوا بالمصريين، وكانوا يثقون بأنسابهم الآسيويين الذين يجمعهم معاً المنشأ واللغة». الواقع أن البعد الهكسوني في الرواية التوراتية حظي باهتمام بالغ من كبار المفكرين لكن لم يطلع واحد منهم بشيء يقبله الجميع، وذلك لانعدام الأدلة ومط التواريخ بين يوسف وموسى من جهة، وبين أحمس وأخناتون من جهة أخرى. لكن هناك من زعم أن الهكسوس

كانوا قد هربوا من مصر قبل ولادة موسى بقرنين تقريباً، فيما زعم غيرهم - كما رأينا أعلاه - أن موسى كان واحداً من الهاربين معهم. وكما سنرى مع رالف إليس (أدناه)، هناك المزيد من المفاجآت - وكلها كالعادة بلا أدلة دامغة.

٢٠ - رالف إليس - «من أجل عيون المسيح»

تقوم نظرية رالف أليس في كتابه «المسيح آخر الفراعنة» - وهي تستحوذ على أكبر حيز في الكتاب لغرابتها - على أن الهِكسوس هم أنفسهم قبيلة أجداد إبراهيم وكانت قد نزحت إلى مصر من سومر منذ الزمن الأول بعد الطوفان، وقبل أن يتألقوا ويتميزوا بترجمة اسمهم الأغريقي لاحقاً (هكسوس). ويدّعي أن هنالك أدلّة مبرمة (؟) على أن إبراهيم كان أصلاً من سلالات الفراعنة ونزل الوحي عليه في مصر وحكم على شمالها عندما كانت البلاد مقسومة بين الدلتا والصعيد. ويرمي إليس إلى أن البطارِكة التوراتيين كان لهم نزاع عظيم مع حاكم الجنوب تمثل في الصراع على إرث مصر بذرائع فلكية ولأسباب سلطوية. إذ إن إبراهيم يومها كان أكبر قائد في التاريخ القديم مُلِماً بالتحليلات الفلكية الدقيقة التي كانت تصله بانتظام من المعابد في «لونو» (هليوبولس). هناك كان الكهنة يراقبون الأجرام والظواهر الفلكية ويعبدون الإله آتوم، وهو غير «أدون». وعلى ضوء البيانات الفلكية، تنبّأ إبراهيم بحُدوث الانتقال الدهري من برج الثور إلى برج الحمل، ما استدعى ضرورة انتقاله متخفياً، ليس من أور إلى حاران، بل من مصر الشمالية إلى الصعيد الجنوبي للتحرّي عن قرائن التغيير الكوكبي المرتقب. لكن يبدو أنه فشل في مهمته، بدليل أنه هرب قبل افتضاح أمره غانماً جارية اسمها هاجر (؟). يزعم إليس أن «خروج» إبراهيم *(وليس نزوح موسى)* من مصر، هو الهروب الحقيقي الذي قصده «سفر الخروج». ولاستشهاداته الشغوفة على واقعية طرحه هذا، قلّب إليس أسماءً هيروغليفية وخراطيش نوبية على طريقة الصليبي تقريباً، واستبدل ألقاب الفراعنة الهكسوس وقارن اعتقاداتهم بقدسية الحَمَل الوديع مع آلهة مصر *(آمون وأبقار وأفاع)*، مستنداً *في ذلك كله إلى إيحاءات من التوراة هنا، ومن*

الجغرافيا لشمال مِصر هناك، بما فيها من ترّع منتشرة حول بقاع الدلتا. وخلص إلى أن التوراة مغلوطة، لأن كُتّابها خلطوا بين نزوح إبراهيم ونزوح موسى لاحقاً. وقدّر الفرق الزمني بينهما بنحو ٣٠٠ سنة، ما يعني أنه دحرج إبراهيم من ١٩٠٠ ق.م (تقريباً) إلى ١٦٨٠ ق.م بحيث أبقى على زمن موسى الافتراضي، وقلّص الفترة بينه وبين فترة يوسف. كل ذلك ليخلص في كتابه إلى أن المسيح كان ينتمي إلى سلالات الفراعنة وكان هو آخرهم. ورغم الخيال الواسع عنده، فقد جاء بأشياء تستحق التوقف عندها والتدقق فيها.

أوقاف مقدسة: هكذا يستنتج إليس أن «بقايا» أتباع إبراهيم مكثوا في مِصر بعد نفيه عنها ونزوحه منها إلى أن وآتتهم ظروف سياسية مستجدّة، وتمكّنوا خلالها من توصيل يوسف إلى دائرة الحكم في أعظم دولة في العالم آنذاك. وممّا ساعد «العزيز» يوسف على الوصول إلى إدارة مصر أن «بقايا» أتباع جدّه إبراهيم كانوا عبر السنين متمكنين من معبد «هليوبوليس» ومحافظين على أسراره، تماماً كما هو الحال اليوم في الفاتيكان مع رعيل القساوسة الذين يتوارثون الوظيفة «المقدّسة» أباً عن جد، كما أيضاً مع جماعات الأوقاف في مكة والمدينة وكانتي ودمشق والأزهر وإسطنبول - على سبيل الاستشهاد.

عصابة أخناتون وهارون وموسى: عند هذا المنعطف الجدلي من الرواية، يقارب إليس الاعتقاد بأن الفرعون أخناتون، عابد سرّ الشمس، ربما كان هو نفسه هارون شقيق موسى، بينما كان موسى له قائداً عظيماً بمثابة يده اليمني (قارب مع دور يوسف لفرعون قبله ومع تشبيه الكثيرين لأخانتون على انه هارون). وكان أخناتون قد اعتمد على موسى لتغيير واجهة مصر ومعتقداتها الأزلية ونزعها عن الإله آمون لمنحها إلى الإله الكامن خلف سّر الشمس، الإله الجديد - آتون - أو آدون «أدوناي»! وهذا هو الإله الأوّحد الذي ظهر لإبراهيم وأخبره بظهوره أيضاً لنوح من قبله، كما ظهر ليعقوب من بعدهما. وهو نفسه الإله الذي طلب من إبراهيم أن يُضحّي بولده (إسحاق) يوم أراد إمتحان عزيمته وصِدق إيمانه وقوة ولائه.

إلّا أن مقولة إليس عند هذا المفترق تستنتج أن موسى وهارون (أخناتون) نزحا بقومهما عبر الصحراء في سيناء إلى فلسطين، ولم يعدا يريدان وأتباعهما شيئاً من مِصر لمرارة التجّربة والمعارضة من كهنة آمون. وقد صمما على بناء مدينة أخرى أعظم من تلك التي كانا بنياها في «تلّ العمارنة» وعلى تشييد قِبلة أكبر من معبدها. وهذا ما يُفسّر - حسب كلامه - ضراوة الهجوم والإصرار على اقتحام فلسطين والاستماتة للاستيلاء عليها بأبشع وسائل القتال المُستميت وبناء هيكل المعبد في القدس، وذلك لانعدام البديل المصري ولإحياء المجد الضائع(١).

العوائل الهابسبرغية: بوضع نواة الهيكل في أورشليم بعد ترتيب الحكم واستتباب الأمور، أصبح لأتباع موسى وهارون (أخناتون) أمل الاستمرار لضمان النسل المقدّس من دمّ إلى دمّ، ومن قبيلة إلى أخرى، ومن يشوع بن نون إلى داود، وإلى سليمَان وهيرودس، ثم إلى المسيح آخر الفراعنة! ومنه، استمر الأمل والتوارث خِفية إلى العوائل الهابسبرغية الحاكمة في أنحاء أوروبا اليوم رغم ما تتحمّله في سبيل ذلك من لوم ومشقة.

وإذ نتحدث هنا بإقتضاب شديد عن سياق النظرية، فلا بد من التنويه إلى أن إليس في مقولته هذه يُقارن بالتواريخ ويُقارع بالأحداث. بل على طريقة الصليبي والربيعي أيضاً نراه يُبدّل الخراطيش ويقلّب الصوّر والرموز ويُمطط بالوقائع، أو يُقلّصها، عند كل منعطف كبير في مسيرة عشيرة إبراهيم. كل ذلك يقوم به ليحشرها بما يُداعب العقل والمنطق حيناً، أو السخرية والامتعاض في أحيان أخرى. وهو يقدم لنا هذا السياق ليوافق استنتاجه حول انتقال سلالة اليهود من إبراهيم في العام ١٦٨٠ ق.م في حقبة الهكسوس إلى أجيال لاحقة كما في العهد القديم، ومن ثم سحبها إلى المسيح نفسه في العهد الجديد.

(١) وقد يكون في هذه المرارة من تجربة العيش في مصر ما يُفسر (برأي البعض) عدم ذكر اليهود لرموز البهاء عند المصريين، كالنيل والأهرامات والملكات و«أبو» الهول؟

ولعل هذا التوارث المستمر ما يُفسّر - برأيه - هروب مريم بالمسيح إلى مِصر، ذلك الوطن الغالي وأرض المعبد الأصلي ومنارة الدين في هليوبوليس. وهي المنارة التي أسسها أجداده الهكسوس كأعرق معبد على وجه الأرض للتنبُّؤ من خلاله بمصير العالم والبشر، ولضمان الجلوس بمباركته على عرش الكون بأسره.

نقاء الدم ومتانة الإرث: في هذا المضمون، وضمن هذا الخيال، يسعى إليس إلى بلورة أهمية المحافظة على وَرَثة العرش وعلى نقاء دم السلالة المقدّسة وقبيلة إبراهيم متنقلاً بين الحارات والحروب والأزمان وغيرها من المحطات، وهي مسؤولية أممية تنقلت بحذر شديد من سادة الأرض إبراهيم وسارة وعيسى ومريم، وتسرّبت بحرص أشد إلى ريتشارد قلب الأسد، وفيليب، واليزابيث! وقد لاحظ إليس - وهو يبحث في خبايا التاريخ - تلك «المؤامرات» التي حاكها إبراهيم ضد الكنعانيين، و«الدسائس» التي ساقها إسحاق ضد إسماعيل، والاحتيال الذي صاغه يعقوب بحق عيسو، والتنمّر الذي مارسته سارة على هاجر! كذلك لاحظ «تلاعب» زوجتي يعقوب، ليا وزلفة على راحيل، فضلاً عن تحامل أولاد الأولى (رؤبين وشمعون ولاوي ويودا وزبولون) على أخيهم من الثانية، يوسف. وهكذا مضت المؤامرات، ومنها انقلاب سليمان على أخيه أدونيا... وغيرها إلى ما بعد عصر الملوك والأنبياء في الأسفار حتى عهد الملك هيرودس العظيم ويوحنا المعمدان.

رعاة، مبشرون أم حكام؟ عود على بدء، فإن إليس استنتج أن اليهود لم يأتوا إلى مصر من خارجها، وإنما كانوا فيها أصلاً بنواحي الشمال الشرقي منها. وقد دام حكم إبراهيم وأولاده حتى يعقوب نحو **٩٠** عاماً. من الشواهد التي ساقها على ذلك، أن إبراهيم عندما وصل إلى فلسطين قادماً (هارباً) من مصر، كان غنياً جداً ومعه مقاتلون كثر ومواشٍ وعبيد ومُمْتلكات. وللمقاربة، كان صيت إبراهيم في محيطه آنذاك كما كان للأمير المؤسس سعود الأول، بصبغته الإيمانية، على مدّ الجغرافيا، سواء في نجد والحجاز أو المحيط

الجزيري الأبعد خلال القرن الثامن عشر ميلادي. بل كان مثله متنقلاً أيضاً بين المسافات الشاسعة والجبال والوديان كما كان الحال مع «بن لادن» في التسعينيات من القرن الماضي. بنى إبراهيم بيت عبادة للإله إيل، وكان هو نفسه مقاتلاً قائداً مفاوضاً عنيداً «كميلياً» ورجل أعمال. اكتنز الجاه وحقق العزّ من تحالفات قبلية عريضة وعبر شراء الأراضي والمزارع والآبار، ومنها موقع «المكفيلة» أو (المقفلة) حيث دَفَنَ زوجته سارة (الحرم الإبراهيمي). وقد أصبح المرقد فيما بعد مزار القبيلة والمؤمنين، وسنداً «شرعياً» على مُلكية بلاد كنعان كلها، لا سيما أن إبراهيم نفسه دُفن فيه، فضلاً عن إسحاق وزوجتيه ويعقوب. أما عظام يوسف، فقيل إنها نقلت من مصر لترقد في نابلس - حسب النصوص.

من الأشياء الملفتة على مكانة إبراهيم روايته مع (أبي مالك) في جنوب وسط إسرائيل بصحراء النقب القريبة من «بئر سبع». فعلاقته بملك جرار دليل آخر على أنه لم يكن شخصاً عادياً أو راعياً لبقر وماعز، سيما أن إبيمالك ورد اسمه على لوائح مصرية فرعونية - حسب زعم إليس. ورجّح إليس أن يكون إبراهيم وقومه - أتباع «عابر» - قد عبدوا الكبش (جداي)، أو كان هو نفسه الفِرْعَون «نهسي» العظيم! إذ من الصعب جداً، بل من المستحيل، أن يتمكن راع، مهما نبش في شجرة سلالته، أن يعود إلى أكثر من بضع سنوات يجدها لرُعاة مثله في خيم متناثرة، اللهم إلّا إذا كان الراعي المقصود هنا راعي أمّة من أعظم أمم الأرض، والخيمة هنا خيمة حكم طويل يتكاثر تحتها الأحفاد. أو أن يكون الراعي صيّاد فرص، مثلاً، أو مهندساً لشؤون ومصائر القوم وصاحب طريقة إيمانية وطموح على مدّ الجغرافيا إلخ..

فرعون وافتخر: إيجاز رواية إليس أن إبراهيم كان فرعوناً ابن فرعون حفيداً لفرعون. تعود سلالته إلى العائلة ١٤ أو ١٥ من الِهكسُوس. وهو لم يأتِ من فلسطين، وإنما كان وأجداده في شمال مصر وعاصمتهم فيها «آفاريس»، وأنه ذهب متخفياً جاسوساً إلى مصر الجنوبية لجسّ نبض حكامها حول موضوع

الانتقال البرجي الفلكي الذي كان قد تسبب في انقسام مصر أساساً. وهذا ما قد يُفسر فرضية سارة، لا سيما أنه لا يُعقل لفرعون الجنوب أن يأخذ زوجةً مُسنّة عمرها **٩٠** عاماً. ثم إن إبراهيم لم يَنجُ من نزاعه مع الجنوب، فنزح مع بعض قومه (الخروج الأول) لتحَيّن فرص العودة، بينما ترك وراءه مناصرين كثيرين ظلوا في مصر بانتظار ساعة الصفر ضمن مخطط التريث والانتقام.

لقاء الأجيال: ولاستكمال منطق الرواية، يزعم رالف أن مناصري إبراهيم صاروا مع الأجيال أتباعاً لهارون، (أي الفرعون الموحّد أخناتون). ولما تركوا مصر ووصلوا إلى حدود فلسطين مع موسى، اعتبر رالف ذلك أنه (الخروج الثاني)، على اعتبار أن خروج إبراهيم كان النزوح الأول. هناك في أرض الميعاد التقى رعيل الخروج الأول بالرعيل الثاني من أحفاد إبراهيم وسلالته، وخلدا معاً إلى فترة نقاهة وهدوء نسبي، استرجعا فيها ذكريات الماضي وآلام التهجّير والترحال والبُعد عن المعبد في هليوبوليس وصارت لهم في معبد أورشليم سكينة بديلة جامعة. وقد كُتبت لهم تحت سلطة الملك داود، ومن بعده ابنه سليمان الحكيم، معاودة ترتيب نواميسهم وتنقيح أعرافهم بما كان يلائم البُنية الجديدة وبناء المعبد.

على ضفاف الفرات: بعد استرخاء الحكم بأحضانه، كان على سليمان ترتيب علاقات قومه مع الخارج، وأهمها تلك التي ذكرتها التوراة مع حِيرام، ملك صور (اللبنانية)[(١)]. وهكذا، استتبت الأمور نهائياً لقبيلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وتأسست لهم مملكة إسرائيل عاش اليهود فيها رغم المحيط المعكّر من حولهم ورغم «صراع الحضارات» المجاورة (المصرية، والحثية والأشورية). ظل الوضع هادئاً نسبياً إلى أن تمكّن البابليون ونبوخذ نصر الثاني في العام **٥٨٦** ق.م من احتلال إسرائيل وتهديم معبد أورشليم على رؤوسهم

(١) بعض الشاغلين بتقليب الأحرف يقول إن حيرام ترجمت مغلوطة. وهي، حسب هذا البعض قد تكون اسماً لـ«أحرم» الشائع ملك أحرم لقبيلة الحرميين من موقع قريب جداً من مدينة صور اليمنية.

جميعاً. ساقهم عبيداً إلى منفاهم الجديد على ضفاف الفرات في سَبي قيل إنه لم يحصل مثيل له من قبل. هناك، على مدى ثلاثة أجيال قبل سقوط بابل على أيدي الفرس، بَكوا وغنّوا واسترجعوا ذكرياتهم عن عبورهم في سيناء مرتين وعن مملكتهم وعن أورشليم. كان ملك الفرس المنتصر كورش (قوروش) العظيم مجنون عظمة وطموحاً متعطشاً إلى توسيع إمبراطوريته إلى حدود جديدة وبعيدة. فرأى في الأسرى غاية منشودة لترميم المعمورة وضرب بهم المثل عن احترامه للأقوام المستعبَدة من خلال إبقائه على ممارستها الدينية والتراثية. فأطلق سراح المنفيين وحفزّ اليهود منهم على إعادة بناء الهيكل والاستنهاض بمواقعهم في فلسطين بعد أن كانت قد خُرّبت وتُركت مهجورة فترة طويلة. وبوصول العديد منهم إلى فلسطين كانوا قد حَمَلوا معهم وحُمِّلوا ثقافة بلاد ما بين النهرين التي اكتسبوا الكثير من شعائرها ورموزها وطقوسها.

غربلة وتنقيح: بعد رجوعهم من السبي، عمل رجال «المؤسسة» اليهودية على تجميع ما كانوا قد دوّنوه في بابل، فحاكوه على صدى مجمل الأحداث التي مرّوا بها منذ فترة نزوح إبراهيم حتى عودتهم إلى الوطن. وهكذا اختلطت على كُتابهم نار المجوس بشمس أخناتون، وبَعْل الكنعانيين بـ«شمش» البابليين، وغيرها من التقاليد الوثنية والفولكلور وأدبيات التنظيم وسواها. وما كاد لهذا الخلط أن يتظّهر في أدبياتهم بعد عودتهم حتى أثار غضب القلة اليهودية التي لم يَسقها نبوخذ نصّر إلى السَبي أصلاً، فرفضت هذه الفئة الانخراط ببدع الراجعين من المنفى، وحصرت التزامها فقط بالتعاليم التي كانت قد حفظتها وحافظت عليها، أي «شريعة موسى»! تلك كانت حقبة فكرية عصيبة بين القادمين وبين المقيمن في فترة مخاض استمرت نحو قرنين من الزمن - حسب قول إليس.

هنا لا بد من كلمة عن الزمن الفاصل بين السبي وما قبله. معظم البحاث والعلماء والنقدة يعطون الانطباع وكأن الكتابات اليهودية المقدسة والثقافة العبرية الشاملة تشكلت بعد السبي. الصحيح، كما سبق وبينت، أن «تجميع

القصاصات» ولملمة الخِرَق وتركيب النتف والرقوق بدأ بشكل منتظم (وليس منهجياً) في بعض الدوائر اليهودية بعد السبي. الأمر الذي يعطي الأنطباع بدوره أنه لم تكن هناك توارة بالمرة قبل النفي إلى بابل؟ طبعاً هذا انطباع خاطئ لأن اليهود كانت لديهم كتاباتهم وأسفارهم ومزاميرهم وحكاياتهم وكتبهم وأدبياتهم على الأقل منذ دخلوا أرض المعياد حتى النفي. لكن لم تكن هذه ممارسات منظمة ولا شاملة ولا موحدة بلغة واحدة، سيما أن اللغة العبرية لم تكن قد تشكلت للاستعمال التسجيلي المفيد إلّا قبل عصر السبي بقليل. بيد أن بعض العلماء يرى أن شكلاً من أشكال الكتابة العبرية البدائية كان متاحاً في زمن موسى، لكن هذا أيضاً كلام مُرسل لأن «الألف باء» الأوغاريتية وابنة عمها الفينيقية لم تكونا قد ظهرتا أصلاً في عصر موسى، فكيف تكون العبرية المتفرعة قد ظهرت قبلهما - كما سبق وأوضحنا؟ ثم كيف يكون موسى قد كتب الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) بالعبرية بخط يده قبل ظهورها بقرنين ونصف القرن على أقل تقدير؟

لذا، فالأغلب أن نصوصاً عبرية بدائية من التوراة لم تكن متوفرة في زمن داود وسليمان، بل ربما ظهرت نتفاً وتدرجاً عند الكهنة وبعض الأحبار ودوائر اللاهوت. وحتى عندما ظهرت تلك العبرية المبعثرة في مراحل كتابة نثريات للتوراة، قبل تسميتها بالتوراة أو التناخ، كانت تفتقد إلى صياغة مفيدة، بمعنى أنه لم يكن فيها ما يشير إلى قصص إبراهيم والأولين والبدء إلخ. ومع ذلك، ورد ما لا يمكن تأكيده أن الملك يوشيا اكتشف فيما بعد نصوصاً توراتية عبرية في هيكل سليمان، أي ما قدره ثلاثة قرون ممتدة بين الملكين. وما زال البحث جارياً عن سليمان نفسه!!

وكما يزعم بعض العرب أن حياة أسلافهم قبل الإسلام كانت جاهلية همجية لا علم فيها ولا عليم، كذلك يعتقد بعض العلماء التوراتيين أن حياة اليهود قبل السبي كانت بدائية خالية من الكتابات المقدسة الحاسمة بالنظر إلى أن التوراة كمشروع محدد وقانون ثابت ظهر كاملاً بعد السبي، وإن كانت الحياة اليهودية

قبل السبي مليئة بالأنشطة الدينية والفكرية والتجارية إلخ.. جلّ ما كان مدوناً عن النواحي الدينية ونصوص الشريعة اليهودية قبل السبي كان يفتقد إلى الطبيعة الدقيقة لهذه الكتابات ومداها، ناهيكم انه ليست كلها كانت موثقة ولا منتشرة ولا بحالة جيدة. صحيح أن العودة من المنفى كانت انعطافة نهضوية فارقة وبداية ترتيب الأوضاع اليهودية والأحوال الإسرائيلية، لكن هذا لا يعني اطلاقاً أن الشؤون اليهودية قبل السبي كانت عشوائية وعبثاً، بل لم تكن كلها مكتوبة أو معاصرة، وكانت بأغلبها شفوية بين الإسرائيليين الأوائل. واستمرت على تلك الحال حتى فترة تأسيس مركزية الممارسة الدينية والتخلّي عن العادات الوثنية في أورشليم تحت إصلاحات الملك يوشيا (٦١٨ ق.م) في مملكة يهوذا. (أي حتى عقود قليلة قبل المنفى)!

السلفية والتحديث: على خميرة الحرص على بناء الذات والنهوض من جديد، أخذ التوتر الديني بين اليهود أنفسهم يتراكم في بيئة فلسطين بعد السبي. وإذا كانت هذه الحِقبة قد تميزّت بشيء ما، فإنها خلقت «بكتيريا» الشقاق السلالي وأولدت نطفة التنافس وفضحت الخلاف الفلسفي لبني إسرائيل. هناك من الشعب المقيم في السامرة (عاصمة مملكة إسرائيل بعد انقسامها ودحرها) مَن رأى نفسه حامياً أصيلاً لأطلال المعبد ومن أصحاب الحق الشرعي في الحفاظ على الشريعة الموسوية لأنه بقي صافياً من الاختلاط امتداداً لسلالة إبراهيم. أي إنه لم يُسَق إلى السَبْي الأشوري والبابلي ويختلط كغيره من الأقران مع الغرباء، وبالتالي، فإن معتقداته السلفية الأصلية بقيت نقيّة من أي تُلوث. والمقصود هنا تلوثها بأوبئة الثقافة المصرية والأشورية والبابلية والفارسية وغيرها، ما يؤهل السامري أكثر من غيره على تمثيل الهوية العبرّية اليهودية الصافية. فالسامري في ذهنه هو وحده أميناً على وصايا موسى ويمجد الله، إله إبراهيم، على الجبل المقدس في غاريزيم. بالمقابل، هنالك مَن اليهود مَن يخالف هذه النظرة السامرية للوقائع. ويقول إن مسألة الخلاف مع السامريين تعود إلى أيام سرجون الأشوري (٧٢١ ق.م) عندما دخل إلى

إسرائيل وسبى قبائلها قبل السبي البابلي الثاني الشهير بنحو قرنين من الزمن. يومها استبدل سرجون لإسرائيل القبائل اليهودية المسبية بأقوام أشورية أحضرها من بلاد أشور وتحديداً من منطقة تسمى «الكوت» ما يفسر للبعض تسمية التلمود السامريين بالكوتيين. لكن باستثناء قبيلة يهوذا التي عادت من الأسر البابلي على أيدي الفرس، «ضاعت» بقية القبائل بضياع السلطة الأشورية أولاً ثم بانتقال السلطة من بابل إلى فارس، ما ترك انطباعات عجيبة عن مصير القبائل العشر الضائعة وعن حقيقة السامريين. وقد ورد من بعض المصادر التلمودية أن بعضاً من السامريين كان قد نزح من المنفى إلى بلاد فارس، ثم رجع مع الراجعين على أمل المشاركة في إعادة بناء المعبد. بيد أن زعماء قبيلة يهوذا رفضوا حسن النية السامرية لتبدأ قطيعة معهم لم تنته إلى اليوم. ضف إلى ذلك أن من عائدي السبي الثاني (البابلي) اليهوذيين مَن رأى أن الشريعة الموسوية الأصلية لم تعد تواكب أمور العصر أو تؤدي إلى الغرض المطلوب منها لرفع شأن اليهود وتجنيبهم ويلات أخرى. بل منهم مَن رأى ضرورة الموازنة بين القديم والجديد، وبين الأصل والاجتهاد، وبين العقل والإيمان، وما إلى ذلك من نقاط الخلاف وعناصر الاختلاف[1]. كان ذلك المخاض والخلاف العقائدي يدور في فلسطين على خلفية فتوحات الإغريق وانتصارات الإسكندر وانفتاح اليونانيين على علوم المنطق والتحاور والإبداع.

وبتوالي الخلافات اليهودية الداخلية مع المزيد من ممارسة الاضطهادات الرومانية عليهم، صارت لليهود مذاهب متعدّدة من الأسنسيين، والسدوسيين، والفريسيين، والنِقّاء (الأنقياء) وسواهم. لكل منه طقوسه وعاداته وتفسيراته؛ فجماعة الأسنسيين، على سبيل الاستشهاد، كانت أقلية محافظة جداً لم

(١) كما رأينا، مثلاً، في الصراع بين الوهابية السلفية والباب العالي بما مثل من حداثة قبل الحرب العالمية الأولى - على سبيل المقاربة. والملفت أن السامريين وبقية اليهود ينحدرون من نفس السلالة: أربعة أجيال تعاقبت من إبراهيم إلى يوسف قبل التكاثر والتخالط في مصر والانتقال بالخليط العجيب إلى فلسطين بقيادة موسى.

تعترف بغير السلف. كان من عاداتها الطهارة الزائدة والتعبّد المنعزل والعيش في الضواحي والاختباء في المغاور. وربما تكون «لفائف قمران» المكتشفة في كهوف جوار البحر الميت قد نُسبت إليها! ثم إن التصارع المذهبي كان أشدّه عند انتقال الحكم من اليونانيين إلى الرومان، خاصة بعد نكوص العصر الهيليني وانخفات شعلة الإسكندرية، التي كانت في حينه أقصى مراكز العلم والفلسفة والإيمان والترجمة، مثلما كانت أيضاً مرتعاً للفتن والفتاوى والسكر والدعارة والتجسس.

المسيح وريث الفرعون: وعلى هذه الخلفية من النزاع بين أبناء الطائفة الواحدة من جهة، وبينهم وبين عُبّاد الآلهات الأخرى من زنادقة يونانيين وملحدين ووثنيين رومان وحيارى وبدو وغرباء، صارت فلسطين أرضاً خصبة للفتن تغلي الدسائس بها لخطب ودّ المحتل. وقد أسفرت الأوضاع، فيما أسفرت، إلى تولي حكام واسطة (انتداب) وإلى نشوء نظرية المسيح المنتظر في عزّ حكم الملك هيرودس الكبير. كان الملك قد بدأ حكمه بتولي السلطة في الجليل استطراداً لحكم والده أنتيبار. ويقول رالف إن هيرود هذا كان مهووساً عقلياً يعاني من صرع العظمة ومتزلفاً لإمبراطور روما ومسايراً لوهمه بعشقه لكليوباترا. وهو، حسب رواية إليس، كان ينحدر من سلالة موسى بالمداورة عن طريق ورثة حُراس المعبد (جماعة الأوقاف) والزيجات المختلطة عبر الأجيال. والملفت أنه نفسه كان مزواجاً أدّى تعدّد زوجاته في نهاية المطاف إلى ولادة المسيح من صلبه! إذ إن المسيح عند إليس - كما تقدم - كان آخر أحفاد إبراهيم وسليلته المُقدسة. وبعد صلبه انتقل الإرث المقدس إلى أوروبا عبر العصور بواسطة «المدرسة» التي أسسها المعلم بولس (شاؤول) من خلال رسائله الشهيرة، التي كان يكتبها لإذكاء التبعية لتعاليم المسيح نصرة لدعوته، فيما أصبحت تعرف لاحقاً بـ«المسيحية». هذا الدين (المسيحي) ما كان له أن يستمر وينمو - حسب رأي رالف - لولا تودد بولس إلى الأباطرة الرومان والتبشير بينهم على مستوى القمة في روما، إلى أن تبنته الإمبراطورية

كواحدٍ من الأديان القانونية. ولعَلّ تبنّي المسيحية عند القيادة الرومانية كان من الدواعي العسكرية المُلحّة لإدخال المؤمنين المسيحيين في الجيش الروماني. بيد أن التنافس بين الأباطرة على إدارة المسيحية نفسها أدّت لاحقاً إلى انقسام الإمبراطورية إلى جناحي روما والقسطنطينية، وإن تم الاتفاق فيما بعد على ضبط الخلاف بينهما.

تمخّض الثلج فولد ماءً: هذا كله ليس ضرباً من الخيال العلمي لدى مكتشف الأسرّار رالف، وإنما نتيجة بحث دقيق وطويل تداخلت فيه الأسماء بالتواريخ، والمواقع بالصفات، أو الرموز بالقصائد. أدّت كلها في نهاية المطاف إلى أن حُماة العرش المقدّس مازالوا ممسكين بزمام الأمور عبر عوائل الحكم العريقة في أوروبا. وهم مستمرون لبقائهم في الحكم من خلال اعتمادهم مرّة على الكنيسة (شرقية وغربية)، ومرّة على الماسونيّة، ومرة على قوى الحرب المقدسة. بل، وتارّة على الصهيونية، وطوراً على العلمانية المادية، بحيث أنك لا تلمس زراً واحداً إلّا ويكون متصلاً بلوحة البقاء الأزلي لصالح هؤلاء الصفوة الأممية. بمعنى أن كل الأزرار تعود بالضرورة إلى آدم ونوح وإلى إبراهيم وقومه. وهم، بالنتيجة التراكمية، أحفاد الإرث المُقدّس. عليهم فقط تقع مسؤولية الاستمرار وعبء البقاء في عالم يسيطرون فيه على جناحيه المادي والرُوحي من أوسع الأبواب. أي إنهم (المؤسسة) يسيطرون على كل شيء منذ الانفجار العظيم والثقب الأسود، مروراً بالصحون الطائرة وشبكات العولمة والتآمر والأوبئة الحيوانية والمخبرية والإنترنت والذكاء الاصطناعي. ونحن مع «توراة رالف إليس» لا نتحدث فقط عن «حقيقة» نزوح موسى أو هجرة إبراهيم أو عن «حقائق» تاريخية تسندها الآثار وتقام لها الشواهد. وإنما نحن أمام «حقيقة» أكبر تتمثل بـ (إرث المسيح)، «حقيقة» لم تتوفر للبشر عناصرها من قبل حسب مفهوم الحقيقة عند إليس. وذلك لإنعدام الجرأة والمعرفة في التعبير من جهة، وعدم الإجماع بين العلماء على عناصر الرواية من لغة، ودين، وتاريخ، وطبيعة، وفلسفة.

لكن كما هناك اليوم قبائل في الأمازون لا تعرف الكثير عن محيطها وتستهجن رؤية الثلج رغم أن الأصل فيه ماء تعرفه، سيبقى علماؤنا يستهجنون التوراة ويسألون من أين أتت زوجة هابيل أو ما إذا كانت هي أخته من الأساس؟ سواء كانت امرأته أو أخته، أو سواء كان تارح والداً لإبراهيم أو ناحور، فالأمر - عند إليس - لا يعدو كونه مؤامرة لإخفاء حقيقة النسل المقدس والمحافظة على استمرار حكم قبيلة آدم.

٢١ - يورس زارنيس - «جنة دلمون»

يورس (أوريس) زارينس، عالم آثار أميركي بارز معروف بأبحاثه في بلاد ما بين النهرين وحضارات الشرق الأدنى القديمة. يشتهر بشكل خاص باستكشاف المجتمعات الحضرية المبكرة وتوضيح طرق التجارة القديمة والتبادلات الثقافية في الشرق الأدنى. ومع أن عمله يركز في المقام الأول على علم الآثار بدلاً من الجيولوجيا، إلّا أن أبحاثه تناولت البيئة الإبراهيمية العامة من زاوية «أور» السومرية ووفّرت تصورات قيّمة حول التاريخ والجغرافيا القديمة للمنطقة في عصره. يزعم زارنيس أن الاكتشافات العلمية الأخيرة لآثار حضارة ما بين النهرين أدّت إلى تحديد ملتقى دِجلة والفرات كما كان عليه منذ ٤٠٠٠ سنة، (أي في عصر إبراهيم)، وكان الملتقى يومها على مسافة ٢٢٠ كلم شمالاً من لسان الخليج بالقرب من مدينة «أور» التاريخية. وهذا بالتحديد ما يجعل «الجنّة» - حسب قناعته - إلى الجنوب من البصرة، أيّ حيث مياه الخليج اليوم تغمر المكان. ويبدو أن الاكتشافات الأثرية المقارنة في جنوب العراق وشمال شرق السعودية قد حَفزته على المضي قدماً في إعادة المقاربات اللغوية حيناً والجينية الحسّية حيناً آخر مُستعيناً، مثل ديفيد رول ولويس ليكي، بصور الأقمار الاصطناعية ومقارناتها على أرض الواقع. لكنه بعكس أقرانه العلماء والأركيولوجيين رجع ببحثه في القصة التوراتية والجنّة إلى ٣٠ ألف سنة، أيّ إلى حيث لم يجرؤ رول والصليبي أو غيرهما على الاقتراب. في ذلك الوقت تحديداً كانت تقلّبات الطقس هي السِمة الطاغية على المنطقة وهي أساس

بداية الخلق والرواية نفسها انطلاقاً من موقع الجنة! الملفت حقاً أن كثيرين من المؤرخين البريطانيين زاروا موقعاً من مواقع الجنة «المزوية» عند نقطة التقاء دِجلة والفرات في حقبة الاحتلال البريطاني للعراق، وحققوا فيه وبشجرة آدم، وزعم بعضهم أن الشجرة تقع في ذات الموقع الذي كانت تقوم عليه جنة أجدادنا!. زعم - طبعاً - كغيره من المزاعم لا دليل عليه سوى الأماني.

مناخ وطبيعة: يقول زارنيس إن إنسان ما بعد العصر الثلجي كان متقدماً في بدائيته الأولى وأطلق على زمنه حقبة العُبيدية. وفي مراحل تطوّرها أدّت بالعُبيديين إلى بناء نواة المدن، ومنها انتقلت إلى السومريين الأوائل وإلى الإدراك الجماعي الكافي لنقل الذكريات والأساطير والخرافات. وورد من الذكريات الفجّة لأول مرّة قصة الخلق والجنّة. وهنا وقف زارنيس في بحثه عند محطتين تاريخيتين: الأولى انتقال الإنسان البدائي إلى إنسان يقظ منذ ٣٠ ألف سنة. والثانية، فترة ما بين ٣٠ إلى ١٦ ألف سنة قبل الميلاد. وفي الأثناء بينهما، كان هناك تطوّر تدريجي يحدث في جغرافية شرق البحر المتوسط وبحر إيجه، فيما كانت أوروبا ما تزال تقبع تحت الثلوج. وهكذا، فإن عوامل الطبيعة قد حملت «بني آدم» إلى التوّجه لاتقائها والاحتماء من عواقبها، بينما ارتفعت مستويات المياه حسب تقديره بنحو ١٥٠ متراً غطتّ قعر وادي الخليج الفاصل مع إيران وحوّلته إلى بحر هادئ. كان البحر قبل ذلك أرضاً يابسة منبسطة تمتد إلى مضيق هرمز وتجري فيها الأنهار الأربعة التي ذكرتها التوراة بما يُلامس حدود السعودية مع إيران قبل نشوء أرض «الجنّة». وعندما تغيّرت الأحوال الجوّية وتبدّل الطقس إلى حدّ الجفاف في الشرق الأدنى، نزح بعض أهل الخليج شمالاً باتجاه ما أصبح يعرف لاحقاً بالهلال الخصيب. أقوام أخرى رأت ضرورة الارتحال غرباً نحو شواطئ المتوسط، وشرقاً باتجاه نهر الأندوس، وجنوباً إلى بحر عمان، ومنه إلى نهر النِيل عبر سواحل اليمن والبحر الأحمر صعوداً. (هذه الطرق عند زارنيس تقارب رحلات قبيلة آدم كما وردت تقريباً في نظرية ديفيد رول).

فردوس السعودية: ومع حلول فترة ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، (وهنا يلتقي زارنيس مع رول تماماً)، عاود المطر سقوطه على الخليج جاذباً معه هجرة جديدة على امتلاء الأنهار الأربعة كلها. وهناك من الأدلّة والآثارات والعظام التي اكتشفت مؤخراً في شرق المملكة ما يؤكد صحّة الاستنتاج بأن المنطقة برمتها كانت فعلاً مؤهلة بالناس ومأهولة بالحيوان والأشجار على أنواعها حتى حدود الربُع الخالي. ومهما يكن من أمر، فإن مضمون قصّة الجنّة، حسب نظرية زارنيس، استُنبط بعد اكتشاف الكتابة التي دَوّن بها العُبيديون القدامى ذكرياتهم. والمضمون هنا أن آدم وحواء كانا قِدوة مجازية لها الموقع الموجّه للبشر، لكنهما عصيا الربّ وتكابرا على النعمة بعد أن خُيّل لهما دوامها في جنة لا تنضب ولا تجف. وكانا بفعلتهما هذه (المَعصية) يمثلان جمع الفلاحين القادرين على تطويع الأرض من خلال معرفتهما بالزراعة بدلاً من الاعتماد على خالق المعرفة نفسه. وعلى الرغم أنه لم يكن هناك مَنْ استطاع تسجيل تلك العِبر ونقشها آنذاك، إلّا أن ذاكرة الإنسان وانتقال القصص من كاهن إلى آخر، أدّيا إلى جنة مُشوّهة وصلتنا غامضةً بصيغة التوراة النهائية. بيد أن الجنة الحقيقية تقع فعلياً في قعر البحر مباشرة بين الخُبر والدمام - حسب تقديرات زارنيس. ولربما صدر عنه عناداً ما كان قد صدر عن الصليبي لنقاده: «إذا لم تصدقوا، فاذهبوا واغطسوا بأنفسكم»!

نعيم طلّمْون: يعتقد زارنيس أن «جنة عدن» كانت قد اختفت تحت مياه الخليج بعد حصول الطوفان، وقدّر زمنه بنحو ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ سنة ق.م. فارتفعت مياه الخليج ليس فقط إلى حدوده الطبيعية المعروفة اليوم، بل تعدّتها وتسببت بتكوين الأهواز التي كانت لسنوات قليلة ماضية تعجّ بأنواع الحياة والتعايش. ولطالما ادّعى السومريون القدامي في نقوشاتهم أن أسلافهم جاءوا إلى العراق عن طريق البحر، أي جاءوا منه مع ارتفاع المياه وامتداده إلى الداخل (العراقي). هكذا غرقت «الجنّة» الأصلية وحلّت مكانها «جنة جديدة» على ذكراها سُميت «طلّمْون» (دلمون)، وأقيمت على أرض أعلى نسبياً باتجاه

الساحل الشرقي للجزيرة العربية. وقد ذكرتها بالتناقل البعيد فيما بعد مَلحَمة جلجامش، لا سيما أن «دَلمْون» هذه كانت بعزّها وتألقها (**٢٥٠٠ - ١٩٠٠ ق.م**) مَحطّ أرجل ومركزاً اقتصادياً عظيماً وميناءً حيوياً. وإذا كان إبراهيم فعلاً «ابن المنطقة» في تلك الحقبة، فلا بد أنه كان قد سمع بها أو زارها وقايض فيها. الطريف في أمرها أن المناذرة عندما ظهروا بعد قرون طويلة في جنوب العراق، تشبهوا فيها وتغنوا بها. وهم عرب مسيحيون قيل إنهم جاءوا من نواحي عدن قبل اعتناقهم المسيحية بثلاثة قرون وقبل حكمهم على كل المناطق الممتدة من العراق حتى عُمان (**٦٣ -٢٦٨م**). كانوا يَسمون عاصمتهم في جنوب العراق «الحيرة» بسبب تحيّر شعرائهم الشديد في وصف جمالها وتشبيهها بالجنّة القريبة منهم، أي على أمجاد جنة دلمون في البحرين، وهي على مرمى حجر من حدود الدولة المسيحية**!** هناك من يزعم أنهم استعاروا جمال جنة «عدن» من ذكرياتهم عن أصولهم اليمنية، فأطلقوه على دلمون القريبة. وإذ استحوذت جنة زارينس على اهتمام معظم الحيارى في أمرها ونالت احترامهم على رصانة البحث ودقة المعالجة وتماسك منطق التحليل فيها، لا سيما من الناحية المناخية وأثرها على هجرة البَشر، فلأنه لم يتدخل كثيراً في شؤون آدم ونَسله كما لم يَحشر نفسه بقبيلة إبراهيم وخصوصياتها.

حتى أنت يا إسكندر!: أما لماذا تبنّى اليهود في «العهد القديم» كلمة «عَدن» اسماً للجنّة بدل «دلمون»، والتي منه تسربت لاحقاً إلى الأناجيل، فلربما لأنه لم يكن بالإمكان قبل تجميع أسفار التوراة فكّ الكثير من الرموز المسمارية واستبدالها باليونانية، ومنها مصطلح جنة دلمون. وبوصول الإسكندر إلى بابل وانتقال السلطة من الشرق إلى الغرب، نُقلت القصص القديمة والأساطير من السومرية والأكادية والبابلية إلى اللغات الجديدة ولكن بلسان المنتصر الإغريقي، فيما تلاشت الأسماء الرافدية بتلاشي المُنهزمين. وباكتشاف لوائح نينوى، كانت اللغة الأشورية الأصلية قد اندثرت إلى الأبد وضاع معها الكثير من الذكريات العتيقة التي كانت «دَلمْون» و«الدمام» من أهم

مَلامحها بلا مُنازع. وعليه، فإن مَضمون «الجنّة» واسمها (كما كان في الأصل) لم يُترجما من السومرية، لغة الدَلْمون نفسها، وإنما من خلال ترجمات يونانية جَاءت كلمة «عَدن» بالخطأ عن طريقها وتسربت إلى العبرية - حسب تحليل زارنيس.

وما دام الخطأ قد حدث لأسباب منطقية واضحة، فلا بد أن مثله قد حدث أيضاً في مواقع أخرى من التوراة بحيث لم تأت كل الأسماء سليمة أو أصيلة. الأمر الذي يبرّر للكثيرين من البحّاث والعلماء الظنّ في تفاصيل الأسفار ومواصلة أبحاثهم حولها. ولعل زارنيس تعمّد إظهار الالتباس بين جنة اليمن (عدن) وجنة البحرين (دلمون) ليبيّن مدى أثر الخطأ على قناعات المؤمنين وعلى مدى تسرّب الانطباعات من ثقافة إلى أخرى ومن اقتباس لآخر، بحيث يصبح التصحيح إن توفر، إثماً عظيماً وإلحاداً. هذا من الناحية الحرفية الجغرافية لاسم الجنة، لكن من الناحية الفلسفية الاعتبارية، فالكل لديه جنته. ولا بد من القول البديهي إن هناك «جنات» عديدة أخرى لم يعرها الكثيرون الاهتمام الجدّي رغم ما كُتب عنها من روايات، ومنها على سبيل المثال: جَنة المسيحيين المُتهودين الجُدد أصحاب دين «المُورمن» في الولايات المتحدة. وهم من «البديهي» أن يروا موقعها الافتراضي في أميركا امتداداً من بلاد النهرين حيث الأشياء الجميلة والأخلاق الحميدة والروحانيات. وهم - بعكس جنات الكثيرين - لا يرون فيها أنهاراً تجري من تحت أقدامهم ولا عسلاً وماءً ولا فاكهة ولا بساتين ولا حوريات؛ فهذه كلها موجودة اليوم تحت نظرهم في حياتهم على ضفاف الأنهر وتحت الأشجار وبين البوادي. كلٌ يصوّر الجنة على أشياء ليست عنده، يشتهيها، ويتمناها في أحلامه ويسعى إلى تحقيقها في أمانيه من تراكم حسناته في الدنيا. ومَن يدري، فقد تكون الجنة عند الإسكندنافيين بمثابة صحراء دافئة لا تغيب الشمس عنها (؟).

يبقى أن أنوّه أن زارنيس لم يكن وحده في تخمينه عن موقع الجنة في الدلمون، ولا كان وحده في ربط أواخر العصر الجليدي بتوصيل قبيلة آدم إلى

مياه الخليج؛ فهناك على الأقل ثلاثة من علماء الآثار والمؤرخين الأمريكيين من وزنه وعلى قدره ورصانته كتبوا عن أهمية العصر الجليدي في وجودنا الواعي وربطوه بموقع عدن الدافئ بعد أول انحسار. فالأول، لويس ليكي، ومع أنه متخصص في حقل الأنثروبولوجيا القديمة، غير أنه ساهم أيضاً في فهم الهجرات البشرية المبكرة وبيئات ما قبل التاريخ وربطها ببلاد ما بين النهرين. ثم هناك بروس باور، مفكر وأديب علمي، غطّى العديد من الموضوعات المتعلقة بعلم الآثار للإنسان الأول، بما في ذلك الأبحاث حول العصر الجليدي والهجرات البشرية القديمة، سيما عبر باب المندب إلى اليمن. أما الثالث، ريتشارد فايرستون، فهو معروف بأبحاثه حول فرضية هبوط مذنب عظيم تسبب في تغيّر المناخ المفاجئ خلال العصر الجليدي الأخير وأثّر على المواقع القديمة، ومنها عدن.

٢٢ - أحمد سعد الدين - «عماليق وهكسوس»

يحتار المراقب حقاً ماذا يكتب عن إسهامات سعد الدين في الموضوع. فرغم تحديده الدفاع عن القومية العربية والإسلام هدفاً، إلّا أنه أكثر الكتّاب وضوحاً في محاولته كشف الكذب والبهتان في الرواية التوراتية. ويتمثل ذلك من خلال انحيازه الصارخ لهوية يوسف العروبية وإخلاص المصريين للسياق التوراتي «الحقيقي». ذلك أن التوراة التقليدية التي بين يدينا - والكلام لسعد الدين - إنما وثيقة أُعِدت أساساً لتزوير تاريخ مصر وشيطنة مواقف المصريين من اليهود وبني إسرائيل وجعل ملوكهم فراعنة طغاة. وهو يعتبر أن فرعون مصر مع حادثة خروج اليهود منها بمثابة جرعة سمّ دُسّت في التوراة للتدليل على سوء مصر ومساوئ المصريين. إذ لم يكن سهلاً إجراء التزوير وتركيب أحجار النفاق والكذب بدون هكذا تلفيق - حسب تعبيره. بل الأدق، لم يكن لأي تلفيق آخر في التوراة أن يُقبرك بدون خروج موسى عن طريق سيناء. وقد اُخترع موسى فقط للوصول إلى أرض موعودة لليهود وتخليصها من أيادي المغتصبين العرب والمتخلفين «الفلستيين» عبدة «بعل» والأوثان. وكعادة المفكرين والكتبة

بهذا الموضوع، مشى سعد الدين في كتابه الضخم «فرعون ذو الأوتاد» (٩٨٠ صفحة من الحرف الصغير) ضمن حقول ملغومة ليفضح غرض اليهود تصوير أنفسهم على أنهم شعب متحضّر مؤمن منذ القدم يعود الفضل إليهم في بناء أعظم حضارات الشرق القديم. ولو بقيت هذه الحضارات بأيديهم حسب تمنياتهم، لكان العالم الآن في حضارة إنسانية عظيمة؟ ومن سرده المتعرّج المفصّل، يُبدي سعد الدين بدلوه في التاريخ العريض منذ الطوفان ونشأة قبيلة إسرائيل ليستنتج براءة حكام مصر من تهم التجنّي والإجرام. ثم يجرّ قراءه إلى ملعبه عن هوية الهكسوس العمالقية وعروبة فلسطين. ولئن اعتمد على الكثير من المصادر الأجنبية والمصرية من وزارة الثقافة والآثار المصرية، ومنهم مصادر زاهي حواس، إلّا أن أسلحته البرهانية الفتّاكة اعتمد فيها أساساً على آيات القرآن وعلى الأحاديث والتراث الإسلامي وأعمال المفسرين الكبار أمثال الطبري وابن كثير وابن الأثير.

«**عماليكوس**»؟ يقع كلام سعد الدين في دائرة التصويب العريض، بمعنى أنه لم يشكك في قصة «الخروج» نفسها كمفترق توراتي حدث فعلاً، وإنما «الخروج» الحقيقي - برأيه - كان قد حصل في وقت مختلف، ومع ناس مختلفين، ولأسباب مختلفة، وبظروف لوجستية مختلفة. وإذ يبيّن في سياق شرحه أن المصريين أنفسهم لم يختلفوا مع الغزاة الهكسوس، (وهم قوم العماليق باعتقاده)، يرى أنهم خضعوا لهم بأدب وحصافة وانزوا عن طريقهم إلى الجنوب باتجاه إقليم «طيبة». والسبب في ذلك أن المصريين لم يعادوا الهكسوس بالنظر إلى حكمة يوسف في الإدارة العادلة للبلاد أثناء فترة «المجاعة». ومع أن سعد الدين لا يبيّن منطقياً لماذا اضطر الهكسوس للخروج من مصر بزعامة فرعونهم «الريان»، لكنه يستدرك ليقول إن السبب ربّاني لأنهم تحدّوا إرادة الله، فقضى عليهم بحادثة الخروج وشق البحر إلخ.

وتبعاً لقناعته، لا يمكن لليهود أن يكونوا قد خرجوا من مصر في عصر أخناتون (عصر الخروج الافتراضي)، لأن المواقع الأخرى خارج مصر كانت

يومها تابعة أساساً للسلطة المصرية؛ فالهروب من مصر في هذه الحالة لا معنى له إلى موقع آخر تحت سلطتها. الأمر الذي يوحي أن الخروج كان سابقاً لعصر أخناتون وللحقبة الموسوية التقليدية - حسب تفسير سعد الدين. وهذا ما يغيّر بالضرورة كل التواريخ التوراتية بالاتجاهين رجوعاً إلى حقبة يوسف أو تقدماً لحقبة سليمان! (يشبه نظرية «التاريخ الجديد» لديفيد رول)...

أسئلة إلى يوم القيامة: الواقع أن حماسة سعد الدين للتراث الإسلامي والمصري دفعه عن التركيز على عنصر معين من عناصر التوراة. فذهب بغضبه من تحريف اليهود للتوارة إلى طرح أسئلة تمتد إلى يوم القيامة، ما برّر ضخامة كتابه. لكن غزارة استشهاداته بأقوال المؤرخين العرب القدامى وأعلام التراث العربي والإسلامي ونقله تفاصيل مصرية فرعونية عن ابن عباس والمسعودي والطبري وابن خلدون وابن إياس - وهي نفسها تفاصيل منقولة مرات ومكررة مرات - ربما هذه الغزارة تكون قد بخست من قيمة المراجع والشواهد والآثار القيّمة التي تضمّنها كتابه. لكن من حيث الهدف النهائي، فإن فكرته جاءت صارخة ضد الادّعاءات الصهيونية، وإن لم يشكك بالرواية التوارتية من باب التزامه الكلي بالآيات القرانية كبوصلة نهائية.

٢٣ - أحمد سوسة - تراث «العرب والإسلام»

يعتبر احمد سوسة مرجعاً غزيراً في موضوع اليهود بالعموم ومسهباً استثنائياً عن جغرافية الجزيرة العربية واليمن. كتابه «مفصل العرب واليهود في التارخ» جاء بمثابة موسوعة تقليدية بمعظم جوانبه بأمارة ضخامته (٩٤٠ صفحة من القطع الكبير). لا ريب أن لسوسة الفضل الكبير في جمع العناصر اليهودية التاريخية وغربلتها جيداً. لقد وضعها في سياق أعطى للقصة التوراتية معناها المقدس ولفلسطين عروبتها بدون تعارض، ولا سيما بعدما نزع عناصر التشويه على توضيحات السور القرآنية والتفاسير والحديث. صحيح أنه لم يختلف كثيراً في نقده للنصوص عن معظم النقاد الغربيين والعرب، لكن خالفهم ببضعة تفاصيل لم ينتبهوا كثيراً إليها أو لم يتوسعوا بها. ومنها، على سبيل المثال،

إشارته إلى زخم العلاقة بين اليمنيين والسومريين والأكاديين والبابليين، فضلاً عن بلاد الشام ومصر، لدرجة يخيّل للقارئ من حديثه أن اليمن كان واسطة العقد بين كل الحضارات البائدة. ولعل أبرز ما يؤكد سوسة عليه أن إبراهيم عربي يعود آباؤه وترجع أصوله إلى الجزيرة العربية وإلى البيت العتيق (مكة) قبل أن كانوا قد هاجروا منها إلى بلاد الرافدين. وبتسليطه الضوء المكثف على العلاقة اليمنية - الرافدية تخطر على البال آراء أحمد داود (أعلاه)!

بقايا الهكسوس: كغيره من المفكرين والنقاد، قال سوسة إن اليهود في مصر هم بقايا الهكسوس الموحدين، وكانوا قد علقوا في مصر بعد طرد القسم الأعم منهم عقب فلول أيام يوسف بقليل. وعليه فعندما جاءت موجة النهوض التوحيدي مع حركة أخناتون، هرب موسى بايعاز من أخناتون، ومعه مصريون آمنوا بالتوحيد مثلهما، ما يُفسّر ضخامة العدد النازح إلى أرض الميعاد.

موسى ليس منهم: وهنا نرى سوسة يعطي حيزاً لنظريات البعض أن موسى شخصية ملتبسة نَسَبتها التوراة إلى بني إسرائيل فقط لربطها بالبطاركة الأوائل. وقد أعادت أصله إلى كهنة سلالة لاوي بن يعقوب. بينما يرى فرويد أنه كان قائداً مصرياً في بلاط أخناتون وكان مؤمناً بدينه التوحيدي ومن أشد المتحمسين له والمتحدثين عنه. واستطراداً، لا علاقة لبني إسرائيل بموسى لا بالثقافة ولا باللغة ولا في النسب، اللهم إلّا من خلال «الولادة القيصرية» التي «أجرتها» التوراة لبني لاوي.

التوحيد قبل وحدتهم: بعد عناء طويل وتيه صعب في زمن لم يكن الحَمام الزاجل قد طُوّر بعد، وجد موسى وأتباعه عند دخولهم فلسطين قبيلة كنعانية موحِّدة يرأسها شيخ وقور يُدعى «بلعام». وفي التفاصيل أنها كانت رصينة عتيدة ذات سمعة طيبة في المحيط والجوار. وإن صَدق أمرها ودلّ على شيء، فعلى أن الموسويين لم يُدخلوا التوحيد إلى فلسطين ولم يبشروا به، سيما وأن تبشيرات «بلعام» كانت أساساً منتشرة في الجوار، وكانت بذور التوحيد فيها قد

التقطت من شيوخ موآب وعشائر مديان. وكيفما تصفحت «مفصل» سوسة، فإنك تجد خيطاً رفيعاً يربط آراءه التوراتية بنظريات كبار العلماء (على تناقضاتها أحياناً). ولا عجب أن غلب على ترجيحاته عموماً ميله الواضح لتصحيح المسار التوراتي، ولتعويم فرضيات العماليق «الهكسوس الموحدين»، والتركيز على تبنّي هوية يوسف الهكسوسي، وفصل موسى وأتباعه عن بني إسرائيل.

٢٤ - سهيل ديب - «وثنية توحيدية»

كغيره من البحاث التوراتين العرب، أثارت تناقضات التوراة فضوله وحيّرته، لكن - بلسانه - فإن أكثر ما أثاره هو تعصب اليهود لدينهم وتمسكهم به؛ فأراد البحث عن سِرّهم ليكتشف أنهم هم أنفسهم أكثر نقاد التوراة شراسة. وإذا كان خير الكلام ما قلّ ودلّ، فعبّر عنه في كتابه «التوراة بين الوثنية والتوحيد»: (إن الدين اليهودي حزب سياسي أسسه أناس معروفون ومحددون وليس ديناً مُنزلاً). ومن هذا الاقتضاب الشديد نفهم تحفظات ديب على النصوص المشاكسة التي ترفض الصلح مع العقل والمنطق وتأبى الخضوع للتاريخ الفعلي والجغرافيا الحقيقية. وبالنظر إلى واقعية ديب ونظرته الشاملة إلى فطرة الإنسان الوحدانية، فهو لا يكترث إلّا للآثارات الصارخة كبراهين قاطعة عن الأشخاص والأحداث التي وردت في نصوص أسفار التوراة. ولما اعتبر التوراة كلها موضوعة من كتبة مجهولين ومادة تخمينية تفتقر إلى التوثيق الأكيد والنهائي، فإنه ركّز على بعض المعالم المجاورة التي تدعمها الآثارات الحقيقية مثل أوغاريت وأخناتون ولفائف البحر الميت. إلّا أن تركيزه على شخصية «مليكصادق» بالذات كان ملفتاً جداً من دون العناصر الكثيرة، خاصة أن هذا الملك التوراتي البارز لم يكن هو الوحيد بلا دليل على حقيقة وجوده، اللهم إلّا إذا كان «مليكصادق» قد لفت نظره بسبب غياب أصله وفصله ونسبه إسوة بغيره من الشخصيات الكبرى في التوراة؟

٢٥ - غلين فريتز - «خروج من العقبة؟»

الدكتور غلين فريتز، عالم جيولوجي وباحث أميركي أحد أبرز المدافعين عن نظرية خروج موسى عن طريق خليج العقبة. هو ليس صاحبها ولم يخترعها وإنما يعتبر أشرس المدافعين عنها ومتبنّيها. وحتى الآن لا أحد يستطيع تحديد عمر هذه النظرية اليتيمة أو الزمن الذي ظهرت فيه من بين عديد النظريات. فريتز كتب على نطاق واسع حول هذا الموضوع وجادل بشراسة حول تطابق السِمات الجغرافية والجيولوجية لخليج العقبة مع نصوص التوراة. بل أكد حسب قناعته أن طبغرافية العقبة تتماشى بشكل أدق وأوفى مع الرواية التوراتية لعبور موسى. وقد ساهمت نظريته هذه بتجديد النقاش الأكاديمي وتسخين المناقشة المحيطة بهذه النظرية وأعطتها زخماً رصيناً. واختصار نظرية فريتز أن عبور موسى للبحر ربما حدث في خليج العقبة بدلاً من الموقع التقليدي المرتبط بالبحر الأحمر. وحجة أنصار هذه النظرية بيئية بامتياز قِوامها أن جغرافية المنطقة وتضاريس خليج العقبة تتناسب بشكل مذهل مع الوصف التوراتي للعبور وتزيح الكثير من الغموض المُحاط بالرواية الكلاسيكية. كما يشيرون (الأنصار) إلى ظهور اكتشافات أثرية جديدة وسِمات جيولوجية واحدة في المنطقة تدعم فرضيتهم. ومع ذلك، لا يزال الموضوع، مثل النظريات الأخرى، يثير نقاشاً حاداً وجدلاً بيزنطينياً بين العلماء والباحثين. ومن الأمثلة العديدة التي استعملها غلين على صحة رهانه أن المنطقة البحرية هناك تشمل «جسوراً برية» تحت الماء، وأعماقاً ضحلة، وتيارات مائية تتقلب مؤقتاً بسرعة وتميل لحظياً بحدة تبعاً لأهواء الرياح الفجائية. وإذا صحّت هذه الفرضية المثيرة يكون موسى قد عبر إلى السعودية وليس إلى فلسطين في لحظة تقنية مناخية مثالية مناسبة. ويستطرد فريتز ليصرّ أن موسى والإسرائيليين تمكنوا بعد العبور من التحسّس السليم وتوجّهوا شمالاً من جنوب سيناء عند العقبة (وليس من غرب سيناء)، ولم يتابعوا شرقاً باتجاه الجزيرة العربية، ووصلوا إلى فلسطين عن طريق نهر الأردن. بيد أن هذا الجانب من الفرضية يثير المزيد من الأسئلة والتعقيدات في تفسير الجوانب التاريخية والجغرافية لقصة الخروج.

خليج برمودا: من الناحية التقليدية، ترك موسى والإسرائيليون مصر عن طريق البحر الأحمر من خلال قطع مياه الدلتا باتجاه جبل سيناء حيث تسلم الوصايا العشر. ثم بعد تيه طويل قارب ٤٠ عاماً عبروا إلى فلسطين عن طريق نهر الأردن؟ لكن خلال دراسته للخرائط التاريخية لمنطقة سيناء والنقب والعقبة، لاحظ فريتز أن الخرائط القديمة المتوفرة لم تعطِ أهمية أو تظهر تضاريس شرق شبه جزيرة سيناء، ما يعني أن خليج العقبة المنعزل لم ينل بالاستطراد حصته من التقييم الصحيح ولا الكافي لعدم ظهوره على الخرائط. لكن رغم ذلك ثار جدل عقيم بين العلماء حول تسمية التوراة لمياه البحر المقصود بالعبور بـ«يام سوف». فمن مُفسر أن «يام سوف» تعني «الكتلة المائية» التقليدية أي البحر الأحمر، إلى مُفسر آخر، ومنهم فريتز، أن التوراة قصدت بالتسمية العقبة تحديداً على أنه «بحر الخروج»[(١)]. ولو كانت خريطة خليج العقبة قد رسمت بشكل ظاهري صحيح وكامل قبل اكتشاف الخطأ فيها أثناء القرن الثامن عشر ميلادي، وقبل ادراك نقص الموانئ والمياه العذبة وظروف الإبحار الخطرة، لكان الكثير من العلماء قد توصلوا إلى الاستنتاج نفسه وادركوا أن خليج العقبة كان مخفياً عن أعين رسامي الخرائط. وأشارت أوجه القصور في الخريطة التاريخية إلى أن الجغرافيين والكهنة في تلك الأوقات (أوقات النزوح) كانوا يجهلون حجم وشكل هذه الفجوات الرسمية في الخرائط، وهي نقطة أكدتها فيما بعد الكتابات اليونانية والرومانية القديمة. وعليه، عندما فكّر اليهود بتضاريس خروجهم منذ أكثر من ٣٣٠٠ عام، كانت الخيارات المنطقية الوحيدة المتاحة أمامهم عبور «بحر الخروج» التقليدي

---

(١) خليج العقبة يُذكر دوماً في التاريخ بصفته ممراً للتجارة ومعبراً للجيوش. والتوراة نفسها تعرفه جيداً من خلال ذكرها الروايات اليهودية عن أن الملك داود استولى قبل ٣٠٠٠ سنة على «عصيون جابر» وهي منطقة يعتبرها البعض أنها «تل خليفة» الواقعة بين العقبة وإيلات، وأصبح ميناءً بحرياً للملك سليمان حيث كانت ترسو فيه سفنه الكثيرة. وتمكن بذلك من السيطرة على التجارة مع شبه الجزيرة العربية.

بالقرب من مصر وجبل سيناء في شبه جزيرة سيناء بالنظر إلى أنها الطريق الوحيدة. لكن للطريق إلى فلسطين بدائل لم تلحظها خرائط الماضي ولا حواجز المصريين بسبب الجهل الجغرافي آنذاك. من جهة أخرى، لو صحت الترجمة المعتمدة باعتبار أن «عيصون جابر» كان مرفأ لداود وسليمان بالقرب من العقبة بعد قرون من الخروج، فلا يمكن عندها الادعاء أن خليج العقبة كان غائباً عن الادراك أو عن أعين بحارة الزمن أو مشموساً غامضاً كمثلث برمودا، وبالتالي تسقط فرضية خروج موسى من العقبة. (اللهم إلّا إذا كان داود وسليمان شخصيتين وهميتين من خيال الكتبة إلخ)!

الحجاز مرة أخرى: صحيح أن فيرتز وأنصاره لم يحشروا الحجاز مباشرة في فرضية العقبة، لكن تكفي الإشارة لإمكانية عبور موسى إلى الطرف الآخر من العقبة إلى الحجاز، فضلاً عن الإشارة إلى قاعدة بحرية لسليمان اتخذها ميناءً لأسطوله والسيطرة منه على التجارة مع شبه الجزيرة العربية. هذه مزاعم إن صحت تثبت العلاقة الوثيقة بين موسى وشعبه بالحجاز ولو من بوابة فلسطين. وإذا أخذنا بالاعتبار نقاش فريتز عن أن الأوصاف التوراتية لأرض الميعاد يمكن أن تشمل مناطق خارج فلسطين الحديثة، بما في ذلك أجزاء من المملكة العربية السعودية الحالية، فقد تتضح معالم العلاقة المنطقية بين اليهود والجزيرة العربية. ومع ذلك، لا تزال هذه التفسيرات خاضعة للنقاش ووجهات نظر مختلفة بين العلماء.

ركوب الموج: هذه الفرضية عن بحر العقبة دفعت بعض المشبوهين والمتحمسين إلى ركوب موجة الإثارة والترويج. فحتى إسرائيل التي غالباً ما تتجنب مسائل الربط بين أصل اليهود والجزيرة العربية، أشار موقع إلكتروني فيها إلى ما وصفه بدراسة مُسهبة جديدة بينت أن بني إسرائيل عبروا البحر الأحمر من مدينة نويبع المصرية عن طريق خليج العقبة، ومنه إلى ما يعرف بجبل اللوز في المملكة العربية السعودية. وهو نفس الجبل الذي سبق لمطبوعات ووسائل تواصل عديدة أن روّجت له على أنه جبل سيناء بموقعه

المنطقي من مسافة العبور. ولربما بتأثير من حيثيات فريتز زعم أصحاب فرضية جبل اللوز هؤلاء أن موسى وبني إسرائيل عبروا البحر عن طريق جسر مُموّه على تربة ضحلة لا يتجاوز طوله عشرات الأمتار وبممر لا يتجاوز عرضه بضعة كيلومترات. وتستطرد فرضية اللوز هذه أن بني إسرائيل تعثروا في نقطة العبور بين أمواجِ البحر الأحمر أمامهم، وجيش فرعون خلفهم، ليجدوا بقدرة قادر نفقاً آمناً تحت البحر من مصر إلى السعودية، مكّن عرضه المُريح هروب نحو ٣ ملايين نسمة. ويزعم الباحثون المعنيون أن المسافات من جبل اللوز إلى البحر مثالية وتتطابق مع نصوص التوراة، فضلاً عن وجود نقوش لعجول وجدت في مغاور المنطقة القريبة ما يوحي بارتباط وثيق بقصة العجل الذهبي الواردة في التوراة.

هذه كلها فرضيات جدّية هلك أصحابها في إعدادها والتفكّر بها. نحن هنا لا نتكلم عن عمال مناجم فحم - مع احترامنا لهم، ولا عن سماسرة ذهب وماس في أنهار الشرق الأقصى أو أميركا، ولا عن غطاسي لؤلؤ، إننا نتحدث عن علماءٍ ثقاة ومنقّبي تاريخ وأصحاب عقول راقية وخيال واسع وصبر طويل. كيف هذا؟

الفصل الحادي عشر: واسطة العقد

ليست مكة ولا بكة

من الواضح مما تقدم أن مكة فرضت مكانها ومكانتها على معظم الشاغلين بالشؤون التوراتية. ليس فقط بسبب تقاطع اسمها في فرضياتهم، كأورشليم أو القدس أو كبيت المقدس أو كموقع يهودي أو إسرائيلي محتمل، بل أيضاً لأن التوراة لم تذكرها لا صراحة ولا مداورة! من الباحثين كما رأينا مَن قارب مكة تحديداً من ناحية عقائدية في سياق عبادات الجزيرة منذ القرون الأولى، حتى قبل ظهور الحنيفية والصابئة واليهودية والإسلام. لكن ما يهمنا من سيرتها لموضوعنا هو أهميتها وموقعها في سياق النقد التوراتي، كما رأينا، مثلاً، مع محمد منصور. ولعله العربي الأول - الذي أعلنها صراحة أن ضواحي مكة هي مواقع محتملة لمملكة سليمان. أما من الناحية التوثيقية البحتة، فقد سبقه إليها في العقود القليلة الماضية غربيون كثر- بل حتى قبل ظهور نظرية الصليبي بزمن طويل. وعليه، من الصعب تحديد الباحث الأول الذي اقترح هذه النظرية، والتي من المحتمل جداً أن تكون قد تطورت من خلال التدقيق العلمي والبحث المستمر عن مملكة سليمان. لكن بالإمكان القول إن بعض المؤيدين الأوائل لهذه النظرية شملوا باتريشيا كرون، مؤرخة متخصصة في التاريخ الإسلامي المبكر. والأرجح أنها هي التي اقترحت النظرية في كتابها «التجارة المكية وصعود الإسلام» (١٩٨٧م). فيه، استكشفت العناصر الاقتصادية والسياسية لموقع مكة قبل الإسلام وأهميته في السياق الأوسع لشبكات القوافل والتجارة العربية. ثم جاء بعدها مباشرة عالم مؤثر في التاريخ الإسلامي المبكر جون

وانسبرو، وناقش أيضاً إمكانية ربط مكة بالروايات الكتابية في أعماله، بما في ذلك «تكوين تاريخ الخلاص الإسلامي». كما ساهم علماء آخرون في مجالات الدراسات التوراتية وعلم الآثار والتاريخ الإسلامي في المناقشة حول الروابط المحتملة بين مملكة سليمان وشبه الجزيرة العربية. وقد اقترح هؤلاء العلماء نظريات وتفسيرات مختلفة تستند إلى التحليل النصّي والأدلة الأثرية والاعتبارات الجغرافية. لكن من المهم هنا أن نلاحظ أن النظرية التي تضع مملكة سليمان بالقرب من مكة المكرمة أو في ضواحيها الأبعد نسبياً لا تزال مجرد وجهة نظر داخل المجتمع الأكاديمي الغربي، وتخضع للنقاش والتدقيق المستمرين. إلّا أنها نظرية «سوية» تجد قبولاً من بعض البحّاث والنقدة التوراتيين العرب والأجانب على حد سواء لأنها تسهّل عليهم عناء المزيد من البحث عن سليمان....

ومن العناصر الملفتة لدى البعض في طَرق مسألة مكة على ضوء نصوص التوراة ما ورد في قول المزامير (٨٤-٦): «عَابِرِينَ فِي وَادِي الْبُكَاءِ يُصَيِّرُونَهُ يَنْبُوعاً» على أساس أن بعض الترجمات الإنجليزية ترجمت كلمة «البكاء» هنا إلى «*Baca*» باعتبارها تشير إلى اسم علم اسمه «بكا». وقد اعتبرت بعض التفسيرات الفقهية أن الاسم يمكن أن يكون مرتبطاً بمكة المكرمة. ومع ذلك، فإن العلاقة الدقيقة بين «بكا» و«مكة» غير مقبولة عالمياً بين العلماء، وهي ما تزال موضوع نقاش حاد. ففي حين أن البعض يرسم أوجه تشابه لفظي أكيد بين الإسمين، لكن النصّ التوراتي لا يستفاد منه يقيناً أن «بكة» هي مكة. لذلك، فإن أي ارتباط بين الإثنين هو مضاربة بين الفقهاء والمؤرخين والعلماء وتنافس على أولوية إثبات أو دحض.

لكن بصرف النظر عن مدى مصداقية هذه المقاربة بين مكة وبكة، السؤال هنا: على أي أساس انطلق البعض ببذور الفرضية أصلاً؟ الواضح من كتاباتهم أنها تستند إلى تفسيراتهم للنصوص التوراتية من منظار أدلة بيئية وثقافية عريضة، فضلاً عن الأدلة الجغرافية أو التاريخية. هم - على سبيل الاستشهاد -

يجادلون بأن بعض الأوصاف في العهد القديم، مثل الإشارات إلى «أوفير» و«سبأ»، إنما تتماشى بشكل أقرب وأدق مع معالم شبه الجزيرة، بما في ذلك المنطقة المحيطة بمكة، منها إلى المواقع التقليدية المرتبطة بمملكة سليمان في بلاد الشام[١]. ثم إن هناك عدة عوامل جوهرية ساهمت في ظهور مكة كمدينة مهمة ومركز حجّ ديني سبقت ظهور الإسلام. فوفقاً للتقاليد الإسلامية نفسها، فقد تم بناء الكعبة من قِبل إبراهيم وإسماعيل كمكان مركزي مقدس للعبادة التوحيدية. وبذلك أصبحت الكعبة نقطة محورية للحجّ والإخلاص الديني لمختلف القبائل والشعوب في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بمئات السنين. ومن الأسباب أيضاً وفرة المياه بالنظر إلى أن موقع مكة قريب من جبال منطقة الحجاز بحيث يمكن الوصول إلى الآبار والواحات المجاورة بسهولة. ولعل توفر الماء وحده جعل مكة مستوطنة ومركزاً تجارياً قابلاً للحياة رغم وحشة المكان وانعزاله.

ثم إن الطرق التجارية نفسها كانت في أساسها ضمن شبه الجزيرة العربية، وكانت تجانب مكة نظراً لموقعها المحمي. فقد وفّر الأمن أثناء الاستراحات وسهّل الأمان في المكان تبادل السلع والأفكار والثقافات، مما ساهم في الازدهار الاقتصادي للمدينة والتنوع الثقافي كموقع استراتيجي على طرق التجارة التي ربطتها بالبحر الأبيض المتوسط وأفريقيا وآسيا. ثم إن ثروة سليمان ونفوذه - حسب هذا البعض - ربما تم ربطهما بالسيطرة على الطرق التجارية التي مرّت بالقرب من مملكته عبر شبه الجزيرة العربية. كما أن وجود مملكة سليمان في جوار مكة يثبت - فيما لو صحّ - أن نقل خشب الأرز من جبال لبنان (عبر البحر الأحمر) لبناء المعبد كان أمراً مستحيلاً. لكن الأمر يبدو

(١) أوفير لا تزال مبهمة. البعض يقول إنها تعود إلى جنوب أفريقيا وبعض آخر ينسبها إلى بلاد الهند. لكن هناك إجماعاً أكبر أن أوفير اسم قديم لبلاد ظفار القديمة (في عُمان اليوم)، وكانت لها أسماء متعددة، منها: بونت وأوبار وعفار وأدومة وريدان و«فرحانة» (وتعني السعيدة كما في تسمية اليونانيين لليمن على أنه اليمن السعيد؟)

أقل استحالة لو افترضنا جرّ نوعٍ آخر من الخشب المُعمّر إلى مكة كشجر العرعر، مثلاً، المتوفر بكثرة فيٍ عسير. أما بالنسبة للأدلة الأثرية المرتبطة بسليمان مكة مباشرة، فرغم محدوديتها (انعدامها)، يشير هذا البعض من العلماء إلى اكتشافات أثرية أخيرة في المنطقة مشجعة تنبئ بحضارات متقدمة وشبكات تجارية في العصور القديمة. لكن نحن نعرف سلفاً أن تفسير هذه الاكتشافات يخضع حالياً لجدال عقيم، ولا يوجد دليل قاطع مقبول على وجود سليمان في المنطقة. لكن في جميع الأحوال علينا أن نقدّر أن هذه النظرية التي تضع مملكة سليمان بالقرب من مكة المكرمة هي مجرد وجهة نظر أقلية وغير مقبولة بعد على نطاق واسع داخل المجتمع التأريخي التوراتي والأكاديمي.

الواضح أن هناك العديد من النظريات والفرضيات حول ثنائية بكة ومكة من جهة، وحول موقع مملكة سليمان فيها من جهة أخرى، بَدْءاً من المعقول إلى الخيال. وفي حين أن الآراء تختلف كثيراً حول ما يشكل النظرية «الأغرب» عن مكة، فإن إحدى الأفكار غير التقليدية بشكل خاص هي الاقتراح بأن مملكة سليمان امتدت من فلسطين حتى أمريكا. وتفترض هذه النظرية، التي يشار إليها أحيانا باسم نظرية «القبائل اليهودية المفقودة» أو نظرية «الاتصال ما قبل كولومبوس»، أن الإسرائيليين القدماء، بما في ذلك أعضاء قبيلة يهوذا بقيادة سليمان، وصلوا إلى أمريكا من خلال رحلات عبر المحيطات بسفن سليمان. لا بل يجادل أنصار هذه النظرية أن هناك أوجه تشابه لغوية وثقافية وأثرية بين بعض الحضارات الأمريكية الأصلية والثقافة الإسرائيلية القديمة، والتي يفسرونها على أنها دليل على الاتصال القديم بين المجموعتين. والأغرب أن بعض مؤيدي هذه النظرية يشير إلى نقوش عبرية مزعومة وُجدت في مواقع مثل وادي نهر أوهايو في الولايات المتحدة كدليل على الوجود الإسرائيلي القديم هناك. بيد أن هذه الفذلكة الثقافية رُفضت على نطاق واسع من قِبل كبار العلماء في مجالات الدراسات التوراتية وعلم الآثار، لا بل اعتبرت خداعاً لأنها غير مدعومة بأدلة تاريخية حسّية أو أثرية موثوقة.

وما دام بعض العلماء العرب قد أوحى بوجود أكثر من «بيت مقدس» واحد من خلال ربط مملكة سليمان الافتراضية بمكة بعيداً عن «أورشليم»، فقد تشجع مفكرون غربيون ومؤرخون آخرون وطرحوا نظريات جديدة معاكسة بنقل المعالم الدينية الكبرى من أمكنتها التقليدية لوضعها في أماكن أخرى. بمعنى أنه ما دمتم يا عرب قد نقلتم «قدسنا» إلى اليمن وإلى عسير وإلى مكة وإلى الحبشة عن طريق اللغة والتحليل والفذلكة، فإنه باستطاعتنا نحن أيضاً (اليهود) أن ننقل «مكتكم» إلى موقع آخر عن طريق العلم والتكنولوجيا (!). هذه نظرية جديدة انطلق الترويج لها في الآونة الأخيرة على صعيد واسع؛ مفادها أن البتراء، وليست مكة، هي موقع الكعبة الحقيقي (؟). وقد استشهد عالم الآثار الهاوي الكندي دان غيبسون، أنشط أصحاب هذه الفرضية، بتقنيات الأقمار الاِصطناعية وعلم الهندسة والزوايا واتجاهات محاريب المساجد الأولى. واستنتج أنه حتى اِختبارات الكربون والحمض النووي المستخرجة من تربة مكة نفسها (؟) لم تشر إلى وجود أية عناصر معيشية حياتية كما وردت في الأحاديث الإسلامية، أي على أنها كانت موجودة فعلاً في مكة أيام الرسول. فمكة ليس فيها زرع ولا شجر ولا آثار. أما معالم البتراء وتضاريسها وما جُمع من تدوينات سكانها حسب سجلات الرومان، فتؤكد - حسب رأيه - وجود الخضار والفاكهة والماء وعناصر العيش وحيثيات الأبعاد والمسافات تماماً كما جاء وصفها في التفاسير الإسلامية والحديث. ويُدلل غيبسون على زعمه هذا بقوله إن مكة لم تظهر على خرائط قوى المنطقة (الفرس والبيزنطيين) قبل ظهور الإسلام، ولم تكن أصلاً على طريق قوافل الجمال والتجارة آنذاك، لا في رحلة صيف ولا في رحلة شتاء. ما يعني - بقناعته - أن موقع الكعبة الحقيقي شُبّه على المسلمين واِختُلط أمره عليهم. وأغلب الظن - في تحليله الشيق - أن انقلاب عبدالله بن الزبير على الأمويين هو الذي خلق الالتباس، لا سيما بعد هدمه الكعبة المفترضة في البتراء عام ٦٤ هـ. يومها قيل إن الحجر

الأسود هُرّب إلى الداخل الصحراوي، أي إلى مكة الحالية. هناك بقي محمياً فيها من قِبل معارضي الأمويين إلى أن تمكن العباسيون من الحكم. عندها اعتمدوها كعبةً موحدّة بعد القضاء على الحكم الأموي ودثر رموزه الأصلية، ومنها البتراء - وذلك كله حسب رواية غيبسون وفريق عمله.

وربما من الحيثيات المستخدمة أن تلك الفترة كانت انتقالية بين الأمويين والعباسيين ومن أكثر المراحل غموضاً وريبة في التاريخ الإسلامي، خاصة أن الأمويين أنفسهم لم يسجلوا وقائعهم بسبب انشغالاتهم بالفتوحات. ومَن يدري، فقد يكون المنتصر العباسي قد صوّر أحداثاً وهميّة أو صاغ نصوصاً سياسية أو خلق زمناً اِفتراضياً لم يكن موجوداً من أساسه - على حد تعبير بعض المصادر الغربية. هناك مَن يستشهد على ذاك الغموض المرحلي بندرة الآثار العباسية ومحدوديتها في العراق مقارنة بآثار الأولين والأقدمين الوفيرة والمنتشرة فيه. وحتى لو تذرعوا بهمجية «هولاكو» في حرقه بغداد ومحتوياتها، لا سيما أنها لم تكن محمية بأسوار مانعة ولا محاطة ببوابات دفاعية بسبب هيبتها السياسية آنذاك، فإن تخريبه لبغداد لا يُبرر اختفاء كل المعالم واللقى والآثارات الفارقة في جزء منها أو على الأقل بجوارها وضواحيها. ولطالما استهجن المستشرقون والآثاريون الغربيون ندرة الأطلال العباسية، حتى وإن كان التخريب ذريعة الاعتذاريين، سيما أن هناك آثارات عظيمة وكثيرة عثروا عليها في مناطق أقدم وأكثر تخريباً على مد الشرق الأدنى...

وفي هذه القصة «المكية - البترائية» ما يطلق العنان للبعض أن يقارب عواقبها إلى عواقب ما تعرضت التوراة له. فكما يثير نقل موقع مكة إلى البتراء رفض الكثيرين من العلماء وغضب المؤمنين المسلمين، كذلك يثير نقل شعب بكامله من فلسطين إلى الجزيرة العربية غضب اليهود ورفض الكثير من علمائهم. إلّا أن خورزميات العلم والمختبرات والتكنولوجيا لا تخضع (حتى الآن) للعواطف والوجدنيات والأماني....

هبطوا عليها من السماء!

بعد كل هذه المتاهات عن تاريخ التوّراة وأصل اليهود، لعل السؤال المحوري في أذهان البعض يبقى حول أساس وجودهم في الجزيرة العربية. فإذا كانت فلسطين - حسب السياق المألوف - هي التُربة الموعودة التي وطأوا أرضها بعد تيه طويل في سيناء، فكيف وُجد الكثيرون منهم أيضاً في الجزيرة العربية دون غيرها من بلاد الشرق الأدنى ومتى كان ذلك؟

من الناحية التاريخية العلمية البحتة لا أحد من العلماء والتوراتيين يملك الإجابة القاطعة على تاريخ وجود اليهود في الجزيرة وظروفهم باستثناء ما نُقل عن أخبارهم في الزمن البيزنطي (٣٩٥م)، وهو زمن متأخر كان يهود الجزيرة فيه مستقرين فيها من قبل ذلك بقرون طويلة.

هناك ست فرضيات رئيسية تتناول أساس وجودهم في شبه الجزيرة، وهي بالترتيب التاريخي:

١ - الاحتمال الأول يعود ببذور وجودهم إلى ما قبل موسى والعبور، وتحديداً إلى أحفاد إبراهيم من إحدى زوجتيه، هاجر أو قنطورة، وإنْ اعتبر البعض أن الإثنتين امراة واحدة. لكن بالاعتماد على نصوص التوراة، فإن قنطورة «الحبشيّة» أنجبت لإبراهيم ستة أولاد هم - كما سبق ذكرهم: زمران، يقشان، مَدْين، مَدان، يشباق وشو. وهؤلاء - حسب بعض المفسّرين - هم أجداد القبائل العربية التي استوطنت أطراف اليمن الغربي وشمال غرب الجزيرة بين تيماء والأردن والنقب وبعض جنوب كنعان. وقد عُرف عنهم تقليدياً أنهم كانوا أيضاً إخوة للعماليق وأشقاءً لهم؟. وفي هذا السياق، نعيد التذكير بما قاله الطبري وأمثاله إن جماعة «المديانيين» الذين عاشوا على الحدود بين الجزيرة وبلاد الشام هم سلالة «مدين» نفسها. وقد كانت لديهم ثقافة جدّهم إبراهيم التوسعية ومعتقداته ومعرفته الوثيقة بمصر وأحوالها. وكان مدين من دون اخوته الأقرب جغرافياً إلى مصر من جهة سيناء. وعليه، فهذا

الاحتمال الأول يُرجع بذور يهود الجزيرة نحو ٤٠٠٠ سنة، أي إلى حدود الفترة الممتدة بين ١٩٠٠- ١٨٠٠ ق.م.

٢ - الاحتمال الثاني يعود بأصول وجودهم في شبه الجزيرة إلى أحفاد موسى من زوجته العربية المديانية صفّورة، بعد عصر إبراهيم بنحو خمسة قرون وقبل دخول أرض الميعاد. أي قبل ٣٥٠٠ سنة بحدود الفترة ١٤٠٠- ١٣٠٠ ق.م.

٣ - الفرضية الثالثة تُرجع يهود شبه الجزيرة تحديداً إلى عصر الملك سليمان، سواء من نسل ابنه منليك من بلقيس، أو من خلال اعتناق وفودها الدين اليهودي وإدخاله إلى سبأ! ذلك أن سفراء ملكة سبأ وأتباع ابنها كانت لهم مصالح جمّة على طرق القوافل في الجزيرة العربية والحبشة. أما عن تاريخ اليهود في الجزيرة بموجب هذه الفرضية، فيضعهم في عز زمن مملكة سليمان، ٩٤٥ ق.م، أي منذ قرابة ٣٠٠٠ سنة!!

٤ - الفرضية الرابعة تقول إن وجودهم في الجزيرة يعود إلى فترة انقسام مملكة إسرائيل عام ٩٢٣ ق.م، ما أدّى لنزوح البعض إلى مناطق مأهولة في شمال الحجاز (بانتظار ظروف العودة)، ومنها انتقل البعض جنوباً إلى مناطق جديدة في عسير.

٥ - الفرضية الخامسة تقوم على أن السبي الأشوري - (الأول قبل السبي البابلي) لحكام ونخب المملكة الشمالية (إسرائيل)، عام ٧٢٢ ق.م والذي تم على مراحل - هو الذي أرغم العديد من اليهود للهرب من درب الأشوريين والنزوح إلى شمال الجزيرة وغربها، لا سيما عقب تدمير السامرة عاصمة إسرائيل. ومع أن المملكة الجنوبية (يهوذا) وعاصمتها «أورشليم، لم تتعرض لقرارات الاضطهاد والنفي على نفس مقدار الشمال، إلّا أن جزءً من سكانها نزح أيضاً احترازاً وتحسباً وانضم للنازحين الإسرائيليين متوجهين إلى شمال الجزيرة. ومع أن هناك ثمة أدلة على تدخلات أشورية في شبه الجزيرة وبعض طرق القوافل، إلّا أن حملاتهم العسكرية لم تكن دائمة، ولا طويلة، بسب تركيزهم على مناطق اقتصادية مُجْدية ضمن الحدود مع بلاد الفرس والأناضول

والهلال الخصيب. الأمر الذي جعل بلاد الحجاز آمنة لليهود من أولوية الأشوريين، سيما أنه كان لهم في بعض الواحات أقرباء وعشائر من زمن الأولين. وإذا صحّت هذه الفرضية، فهي تُقدّر ابتداء وجود اليهود في الجزيرة منذ **٢٧** قرناً....

٦ - أما الفرضية الأخيرة، فهي تقوم على بعضٍ من آثارات عضوية تعود بحيثياتها إلى عصر آخر ملوك بابل في القرن السادس ق.م. واختصار الرواية التاريخية أن الملك «نيبونيد» هذا غزا جزءً من جزيرة العرب واختار تيماء لحكم الإمبراطورية منها حتى تاريخ انكساره لملك الفرس كورش حوالي العام **٥٤٣** ق.م. ومع أن أسباب اختياره العيش فيها ليست مفهومة تماماً، هناك من المؤرخين مَن قال إن النزاعات بينه وبين كهنة بابل آنذاك كانت السبب الرئيسي لعزوفه عن بابل والبقاء بجزيرة العرب. لكن نظرية أخرى اقترحها مؤرخون آخرون تدفع - لغرضنا هنا - وجود اليهود في تيماء، وانتشارهم منها إلى مناطق الجزيرة. واختصار القصة أن «نيبونيد» كان مصاباً بمسّ أو قرحة أو صرع أو عِلة مزمنة، فأشير إليه عن طبيب يهودي روحاني كان منفياً في بابل. ولما جيء إليه به مع أعضاء فريقه الروحانيين وعوائلهم، شخّصوا حالة الملك من خلال ممارسات وأدعية للرب يهوه، فطردوا الشياطين من جسده وخفّفوا عنه عذابه، إلى درجة يقال إنه خلّد التجربة الأليمة ونقشها على الصخر، سيما أنه نفسه كان منقباً وشغوفاً بتاريخ وآثارات مَن سبقوه، وخاصة مراثي قِدوته ومِثاله الأعلى أشوربنيبال، وإنْ لم يكن الأخير بابلياً. وعليه، فقد أرجع البعض وجود اليهود في الجزيرة إلى تلك الفترة تحديداً وإلى تلك الجماعات اليهودية التي اعتنت بالملك وبقيت في تيماء وتكاثرت منها بكل الاتجاهات بعد انتصار الفرس. ومما ساعد على بقائهم في الجزيرة أن الملك «نيبونيد» كان قد استحضر من بابل بناء على توصية طبيبه بعضاً آخر من العمال اليهود المهرة لتحديث مدن هدبان ويثرب وخيبر وغيرها من بلدات الجوار... وقد رأينا في كتاب دانيال بالـ«العهد القديم» خلطاً واضحاً بين «نيبونيد» و«نبوخذ نصر» مع التأكيد على رواية مرض الأخير بالصرع (دانيال ٤ : **٣٣**).

من الواضح أمام هذه المعطيات انه ليس من السهل ترجيح فرضية على أخرى، لكن جميعها يُرجع وجود اليهود في شبه الجزيرة إلى أكثرمن **٢٥٠٠** سنة على أقل تقدير. وإذا كان لا بد من اختيار فرضية واحدة نحتمي بمنطقها وظروفها، فالأخيرة، (رقم ٦)، تبدو أكثر بريقاً وتماسكاً من غيرها، أقله لأن اللغة العبرية في عصر «نيبونيد» كانت قد بدأت تكتمل كلغة مكتوبة ومَحْكية خارج دوائر الكهنة إلى جانب الآرامية، ما يعني أن الهوية اليهودية أخذت تبرز في الجزيرة العربية بشكل أوضح من أزمان الأولين ابتداءً من عصر كورش، الملك الفارسي المنتصر....

انتهى

ملحق:
كل الاصطلاحات - «خير وبركة»

لغز لا حلّ له!

لا ريب كما رأينا أن التوراة لغز قديم وعويص! إنها تشبه لعبة تركيب الصوّر الكرتونية المشهورة (*jigsaw puzzle*). يستطيع أي لاعب بعدد من المحاولات والملاحظات ربط كل القِطع بعضها ببعض ليشكّل الصورة المطلوبة بشكل نهائي صحيح. وحتى لو كانت الصورة تجريدية أو خيالية، يبقى اللاعب قادراً على وصل قِطعها بسلاسة منطقية حسب شكل أطرافها واختلاف ألوانها وتنوع عناصرها.. لكن ماذا لو كانت الصورة نفسها عبثية لا تعني شيئاً ولا ترمز إلى شيء؟ ماذا لو كانت تشبه منظر بقعة طلاء «مدلوق» عشوائياً على الأرض بلون واحد لا يحكمها منطق ولا يميزها حدّ أو يرسمها إطار؟ كيف في هذه الحالة لفيلسوف أو عبقري أو لاهوتي أن يركّب قِطعها ويكمّل جمعها سليماً؟

هكذا هي الصعوبة في تركيب قِطع (التوراة) المبعثرة! والتحدّي هنا واضح وكبير لأن قِطع التوراة لا تحمل مؤشرات جازمة مميزة يستفاد منها للتركيب السليم، ولا تتضمن ألواناً مختلفة تساعد على تصنيفها منطقياً. أي إن بقعة الطلاء التجريدية المُراد تركيب قِطعها - في سياق هذه المقاربة - صارت وكأنها قطعة واحدة لا مرجعية فيها لأي من أجزائها تساعد على ربط بعضها ببعض. ونتيجة لذلك، فإن حلّ مثل هذا التحدّي يتطلب قدراً هائلاً من الإعادات والتكرار على طريقة «التجربة والخطأ»، كما يتطلب اختباراً دقيقاً لملاءمة كل

قطعة على حدة ثم مقاربتها مع كل القطع الأخرى، بما يستهلك الكثير من العناء الفكري والصبر والوقت. هذا من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية، فسيكون من شبه المستحيل إكمال مثل هذا العمل الدقيق استناداً فقط إلى قِطعٍ أشكالها عشوائية لا تحمل علامات وليس فيها أنماط بصرية تميّز القطعة عن غيرها في سياق وترتيب الصورة.

إنما الخبر اليقين حتى الآن، ورغم هذا التعثر في تحديد جغرافية التوراة، هو أن العلماء والمؤرخين ومعظم المهتمين والمتابعين أجمعوا (تقريباً) على تركيب التعريفات الثقافية والفروقات التراثية فيما يخص المصطلحات «اليهودية» و«العبرية» و«الإسرائيلية» و«الصهيونية».

وقد اختصروها عالمياً على أنها تعني «اليهود» إجماعاً، وتشير جملةً أو مفرداً إلى الأفراد المرتبطين «عرقياً» أو ثقافياً أو دينياً بالشعب اليهودي ككل. أي إن «اليهودية» و«العبرية» و«الإسرائيلية» و«الصهيونية» بالنسبة لليهود هوية دينية وثقافية وعرقية على حد سواء.

أما «العبرية» تحديداً، فهي أساساً مصطلح يشير إلى اللغة القديمة للعهد القديم العبري، أو اللغة العبرية الحديثة المستخدمة في دولة إسرائيل، أو إلى الأشياء المتعلقة بالثقافة أو التراث العبري. بينما النعت «الإسرائيلي» وحده، فيشير إلى الأشخاص أو الأشياء أو السِمات المتعلقة بدولة إسرائيل القومية الحديثة، بغض النظر عن الخلفية العرقية أو الدينية للفرد فيها. في حين أن لفظة «الصهيونية» تشير إلى الأيديولوجية والحركة السياسية التي دعت إلى إنشاء ودعم دولة يهودية في أرض فلسطين. إنها حركة سياسية خبيثة مُتجذّرة في الرغبة في تأمين دولة يهودية خالصة.

ما تقدم مجرد تعريف سريع للفروقات بين هذه المصطلاحات، لكن ما يلي هو تفنيدها بمزيد من الدقة والتفاصيل لمن يهمه أمرها، على النحو التالي:

من الفروقات ما قتل!

لا يوجد في العالم مصطلح ثقافي واحد يحمل أربعة تعابير واضحة مرّة واحدة، كالبوصلة، مثل توليفة أسماء «العبرانيين» و«اليهود» و«الإسرائيليين» و«الصهاينة»! المسألة لأهل الاختصاص بسيطة وسهلة، لكنها محيرّة وملتبسة لمن تشاكسه المعرفة بالشؤون التوراتية. فـ«التوراتيون» عموماً مجموعات بشرية متنوعة شهدت مراحل متدرجة في تاريخها، وقد ربطها فيما بعد قاسم مشترك متين هو «العهد القديم». كل من هذه الجماعات يعكس جانباً مختلفاً من تاريخ نفس الناس وهويتهم. ولعل في نشأة الغجر بشمال الهند ثم هجرتهم غرباً إلى أجزاء مختلفة من أوروبا ومناطق أخرى على مرّ القرون ما يشبه مسيرة بني إسرائيل عبر الزمن من حيث التنقل والترحال والشتات. الغجر شهدوا تحولات ثقافية وتراثية متنوعة، وتكيفوا مع مختلف المجتمعات والعادات في المناطق التي استقروا فيها. وقد تبنوا طوال تاريخهم عناصر ثقافية دخيلة واجهوها في تقاليدهم الخاصة مع الحفاظ على هوية ثقافية متميزة بهم. ثم إنهم حافظوا - رغم تجولاتهم - على لغة فريدة من نوعها استنبطوها من لهجات ولكَنات لغات المناطق التي سكنوها، وهي اليوم اللغة الرومانية على سبيل التأكيد. يمكن القول إن هويتهم الثقافية تتميز بمزيج من تأثيرات المجتمعات التي عاشروها، مع احتفاظهم بالجوانب الأساسية لتراثهم، تماماً على غرار التجربة اليهودية في مراحلها المتنوعة. ولعل الشعب الروماني في رومانيا اليوم أوضح الأمثلة على توحّد هؤلاء الغجر في وطن لهم - وهم طبعاً غير الشعب الروماني في إيطاليا - فهولاء ينتمون إلى مجموعتين رومانية وإيطالية منفصلتين كلياً؛ كلاهما مختلفان بأصولهما وتراثهما الثقافي ولغتهما وهوياتهما المجتمعية، باستثناء أن الغجر عِرق بشري محدد ذات أصول هندية. وهم تقريباً - وليس تماماً - مثل اليهود من حيث تعرضهم للقهر والعذاب ومواجهتهم موجات من الإقصاء والتمييز العنصري في العديد من الأماكن التي راموا فيها وعبروا فوقها أو سكنوها..

ومع أن موضوع الفروقات بين «العبرانيين» و«اليهود» و«الإسرائيليين» و«الصهاينة» يبدو محسوماً عند أهل الاختصاص كما ذكرت آنفاً، لكن - ككل شيء آخر في هذا الموضوع - ليس هناك إجماع بينهم على دقائق الإصطلاحات، ولا حتى على تاريخ التدرج الزمني بين العبرانيين واليهود والإسرائيليين. لا بد هنا من التنويه أنه رغم تنوّع التسميات واختلاف المصطلحات، فإن التسمية الإجماعية كلها تعني الشيء نفسه ليهود اليوم وتصب في بحر وجدانهم. وهي بجملتها تعني لهم هوية ثقافية ودينية و«عرقية» واحدة، تقريباً كما هو الأمر بالنسبة لـ (السعودي، المسلم، الجزيري، والعربي). ثم إن التسميات اليهودية المتنوعة لا تخص فئة دون غيرها، وإنما تشمل كل مَن يعتنق اليهودية، بغض النظر عن أصله وجنسيته أو مكان سكنه. وفي جميع الحالات، فإن الفروقات الثقافية بين اليهود أنفسهم لا تعني فروقات مذهبية كما بين السنّة والشيعة، مثلاً، ولا فروقات فقهية كما بين الحنفية والشافعية أو المالكية والحنبلية، ولا حتى اجتهادية كما بين الشيعة الاثني عشرية وبين العلوية أو الإباضية إلخ، (اللهم إلّا في المسألة السامرية)! وفيما يلي بعض الضوء نسلطه على جوانب الاختلاف بين هذه المصطلحات من منظار شعبي على مستوى الكوكب:

١ - «العبرانيون»:

أ) بمعنى العبور إلى دين إبراهيم: بالرغم أن كثيراً من المفكرين واللاهوت والعلمانيين يجمعون على أن هذا المصطلح («العبرانيون») سابق لعصر اليهود، فهم يختلفون حول مصدر التسمية وتاريخها. البعض يزعم أنها أُطلقت على الجماعة التي عُرفت لاحقاً بأنها آمنت بعقيدة إبراهيم التوحيدية. وكانت قد واكبته أو انضمت إليه من خارج عائلته خلال رحلته في البوادي والصحاري من «أور» إلى «حاران» قبل ولادة إسحاق ويعقوب، سيما أن مصطلح «العبريين» (العبرانيين) نفسه نشأ أصلاً من الكلمة الأكادية «هابيرو» أو «أبيرو». ومن الدلالات الأخرى أن هذا المصطلح أيضاً من كلمات بوادي الجزيرة القديمة ك

«خابيرو» أو «أبري» أو «الهبري»، أنه كان مستخدماً في الألسن الفراتية السورية والسبئية والمصرية كناية عن جماعات هائمة كانت لهجاتها تعكس نمطاً لسانياً مميزاً عن منطقتها. وكانت هذه التسمية، بدايةً، محصورة بهذه المجموعة الهائمة من الناس، وغالباً ما كان ينظر إليهم بسبب لهجتهم المختلفة على أنهم غرباء، أشبه بالغجر، أو النوَر، يسيرون مجموعات متفرقة مهمشة اجتماعياً تروم في بلدات الشرق الأدنى القديم. وهم يختلفون كلياً عن جماعات البدو. وبمرور الوقت، وظهور رواية خروج موسى، أصبح مصطلح «العبريين» مرتبطاً ميتافيزيقياً بأوائل المنتسبين إلى الديانة الإبراهيمية، لا سيما في السياق التوراتي كأجداد لموسى.

ب) لكن من التفسيرات التي أطربتني أن كلمة «عبري» تحوير واضح لكلمة «عربي»، تماماً كما كانت «بيروت» تنطق «بريوت» أيام الإغريق. فلطالما كانت أزاميل الزمن حاضرة لتوضيب الكلام ونحت المصطلاحات في غفلة من انتباه الناس أثناء فوضى الاختلاط والاحتلال وضجيج التعارف بين الراحلين والواصلين. وما يعطي بعض الجاذبية للأصل العربي لمصطلح «عبري» أن العرب - وبعكس الانطباع الخاطئ العام أنهم جاءوا من اليمن - هم أصلاً (حسب إحدى النظريات) سكان شمال الجزيرة، وتحديداً مناطق سيناء والنقب وجنوب فلسطين والأردن وتبوك وتيماء والعُلا وحائل وجنوب العراق مع السعودية نحو عرعر والرفحاء إلى أطراف الخفشجي عند الكويت.... أما باقي الجزيرة (وسطها وجنوبها)، كنجد والحجاز، فكان ناسها - حسب هذه النظرية - غير عرب ولهم لغتهم الثمودية الخاصة وعاداتهم المختلفة وتراثهم الجزيري المميز. واستطراداً لهذه النظرية، كان العبري نفسه عربياً يوم كان العرب قوماً وعرقاً فرضوا جنسهم على المكان، أي إن شبه الجزيرة العربية سُمّيت بإسمهم ولم يُسمّوا هم بها، وكان ذلك بحدود فترة ٨٥٠ ق.م وقبل أن يسيطروا على كل الجزيرة. وهناك سجلات تاريخية تشير فعلاً إلى إخضاع الأشوريين مملكة تيماء العربية وضواحيها (٧٨٠ ق.م)، أي إن اللغة العربية كانت سائدة قبل

سبي اليهود وقبل عبورهم من غرب الفرات إلى شرقه باتجاه بابل، أو من شرق الفرات إلى غربه في طريق العودة.... ومن الأمثلة الطريفة الأخرى التي يستشهد اللسانيون بها عن التباس المعاني والمصطلحات، ما ذُكر في قصة النبي إيليا (مار الياس). ومفاد القصة أن الغربان أطعمت إيليا وأنقذته من قيظ الصحراء. وقد ترجمت كلمة «*RAVENS*» على أنها «غربان» بينما الأصل العبري أوردها «ر.ب.م». وارتأى مترجمو التوراة، لأسبابهم الخاصة، أو لجهلهم، أن يضعوا حرف «و» في بداية الكلمة بدل حرف «ع» الصحيح، فصارت الكلمة تعني «غربان» بدل «عربان» أو «غراب» بدل غرباء. ويتهكم البعض بالقول: «الأرجح انه لم يَرق للمترجمين اليهود أن يكون للعرب دور مع إيليا، ففضّلوا للغراب حمل شرف إنقاذه من أن يتحملوا هم مِنة العرب على طول الزمن، ناهيك أن العربان والغربان أصلاً كائنات بوادي وأدرى بأساليب العيش من غيرها في الصحاري. المهم أن المعجزة بقيت متينة في قلوب المؤمنين.

ت) العبور عبر اللهجة: هناك من يعتقد أن المصطلح «العبراني» مجرد تعبير التصق بجماعة استخدمت اللكنة «العبرية» لوصف علاقة أجدادها بإبراهيم، للتعبير عن عبورهم معه من بلاد النهرين إلى بلاد كنعان، أي أطلقوا على أنفسهم لقب «عبرانيين» بأثر رجعي قبل أن يصبحوا يهوداً...

ث) العبور عبر الأعراق: أما «العبرانيون» كتعبير شامي، فهناك طائفة من المفكرين تعتبر أن كلمة «عبري» أو «عبراني» كانت أصلاً مستعملة منذ الألفية الثانية قبل الميلاد، لكن ليس في بلاد سومر أو أكاد، إنما في شمال فلسطين وبادية الشام وشرق الأردن وصحراء النقب وشمال الجزيرة. كانت التسمية تطلق حصرياً على جماعات أمورية كانت لهجتهم تسمى «عبرية»، وكانت سائدة كلغة أحفاد كنعان. وبهذا المعنى ورد الاصطلاح في السجلات المصرية على أنهم «خبيرو» أو «خفيرو» أو «هبيرو» أو «عبيرو». وهذا - برأي هذه الطائفة - ما يؤكد أن التسمية لا تخصّ اليهود وحدهم لأنه لم يكن لهم وجود إيماني أو جغرافي آنذاك. ولما ظهرت اليهودية ولحقوا بدعوة موسى صاروا

يستعملون الكلمة بمعنى العبور اللهجي من بلاد الغربة إلى بلاد الانتماء الأصلي. أي قبل أن تتحلل اللهجة العبرية فيما بعد وتذوب باللهجة الآرامية الفضفاضة التي كانت على شفاه معظم الأقوام في الجزيرة.

ج) **العبور مع الهكسوس**: من عجائب البحث أيضاً أن تجد مفكرين يربطون بين ظهور المصطلح بعبور الهكسوس من بلاد الجوار إلى مصر في القرن السابع عشر ق.م. بمعنى أن اسمهم لا يرتبط بلكنة معينة، بل بمعنى العبور باللغة العبرية من كنعان إلى مصر. ورغم أن هذه الفكرة من أضعف الفرضيات، لكن أكثرها تبريراً لوجود إشارات واضحة عن قوم «العابيرو» في سجلات مصر. الملفت أيضاً أن هناك من ربط بين الهكسوس/العماليق ومدينة خيبر الحجازية بالنظر إلى أن خيبر - حسب بعض المواقع الإلكترونية - سُمّيت باسم أحد كبار «العمالقة» أثناء نزوله بها، وهو «خيبر» بن قانية بن عبيل بن مهلائل بن أرم؟ وهذا - برأي الموقع - أول من نزلها، وهو أخو عاد بن عوض بن أرم بن سام بن نوح. ولربما صار المسافرون عبر الحجاز فيما بعد «خيبريين» قبل تحوير الكلمة إلى «خابيرو»؟ ومع أني أسمع قهقهة من الخلف على هذه الأشواط البعيدة من المط اللغوي أو ما يعتبره البعض فبركات ثقافية، بيد أنها ليست فبركات مستقلة ولا منعزلة، بل تطغى على كثير من الكتابات لإعطائها مضامين يُبنى عليها!

ح) **العبور من نسل عابر**: هناك مَن يقطع الشك باليقين ويقول إن مصطلح العبرانيين جاء ببساطة نسبة إلى عابر. ما يعني أن إبراهيم كان عبرانياً بالنسب إليه. ويستشهد هؤلاء بسفر التكوين (١٠: ٢١) حيث ورد فيه: «وسام هو أبو كل بني عابر»، فصار السليل إبراهيم عبرانياً بتبعيته لأجداده. وعلى أفتراض أن عابر وهود اسمان لشخص واحد، فلماذا لم ينسبوا إبراهيم فقط لأبيه «تارح»، مثلاً، فيكون «تارحياً» بدل «عابرياً» أو «عبرانياً» «او يهودياً،» أو لماذا لم يبقوه «سامياً» بتبعيته لجده الأعلى سام بدون كل هذه التعقيدات؟ - كلما وجدنا ثقباً نعبر منه إلى منطق ما، طلت علينا ثقوب من كل الجهات!

خ) العبور إلى هود: استطراداً إلى امتداد إبراهيم الافتراضي من سلالة عابر، وهو نفسه هود كما ورد آنفاً، فلا يعود هناك تناقض في تسمية أحفاده نسبة لعابر أو لهود. إذ إن عابر (هود) - حسب مصادر إسلامية - أُرسل إلى قوم «عاد» الوثني في جبال في اليمن، وكانوا يبنون مساكنهم ببراعة عمرانية مدهشة. هذا، ويقال في دوائر علماء المسلمين أيضاً إن مدينة «عاد» هذه، كانت تقع في الجنوب الغربي من الربع الخالي ضمن منطقة هضبية اسمها الأحقاف. وإن من تبع هود فيها وآمن به من القلة القليلة من قوم «عاد» سُمّيوا لاحقاً باليهود نسبة له وسُمّيوا أيضاً «عابريين» نسبة لاسمه الآخر عابر، أشبه باسمي بولس وشاؤول عند المسيحيين، أو قورش وسايروس عند الفرس. ويقول بعض المفسرين العرب إن التوراة تعمّدت عدم ذكر هود بهدف إبعاد اليهود عنه، وإخفاء العلاقة به، وطمس هويته العربية. وعليه، فسكوت التوراة عن ذكره، يثير الريبة عند بعض البحّاث المسلمين ليس فقط لتطابق التشابه بين اسم هود واليهود، بل لأن جغرافية هود وتاريخه حسب إجماع المصادر يعودان إلى منطقة الأحقاف اليمنية أعلاه، وتاريخه يقع في حقبة فارقة جداً بين نوح وإبراهيم.

د) العبور عبر المذاهب: هناك مَن يجعل الفرق بين اليهود والعبرانيين والإسرائيليين كفروق الشيعة بين الأثني عشرية والإسماعلية والزيدية على سبيل المقاربة. أي أن كل اليهود يعتبرون أنفسهم امتداداً «لأهل البيت» اليعقوبي. وعليه، فهم جماعات إيمانية ثقافية من طينة واحدة. هذا مع العلم أن بعض التوراتين يعتبر أن «بني إسرائيل» يعودون حصراً إلى سبط محدد من يعقوب الذي تحوّل اسمه إلى إسرائيل. تماماً كما يعتبر بعض العلماء المسلمين أن «أهل البيت» يعودون حصراً إلى سبط الإمام علي من زوجته فاطمة بنت الرسول.

رغم كل هذه التفسيرات والاجتهادات، فإن كلمتي «العبرانيين» و«الخابيرو» ومشتقاتهما لم تردا في القرآن بتاتاً رغم ورودهما في الكثير من التفاسير

الإسلامية والحديث، كما لم تردا أيضاً في العهد القديم. ورغم وجود رسالة للـ«عبرانيين» في الأناجيل المسيحية، فلا إجماع على قبولها من قبل مُفسري الكتاب المقدس لأسباب متنوعة.

٢ - اليهود:

أ) نسبة لإبن يعقوب: قيل إن أول تعريف لهذا الاصطلاح جاء نسبة لأولاد «يهوذا». ويهوذا بالترتيب هو الابن الرابع ليعقوب (إسرائيل) من زوجته ليئة، وواحد من أبنائه الاثني عشر (يوسف، وبنيامين، ولاوي، ويهودا (يهوذا)، ويساكر، وشمعون، ونفتالي، وجاد، ودان، ورؤبين، وزبولون، وأشير). وما يُلفت إليه في سياق تسمية الديانة اليهودية على اسمه، انه وُلد بعد عبور جده إبراهيم من الرافدين إلى كنعان، وبعد تحوّل اسم أبيه من يعقوب إلى إسرائيل، ما يعني أن التسميات الثلاث، العبرانية والإسرائيلية واليهودية معاً، تنطبق على ذريته. ومع أن التوراة لم تذكره كثيراً، لكن يبدو أن تأثيره كان واضحاً على قومه وكانت له أخلاق حميدة وسمعة طيبة ورفعة. ويقول البعض إن الفضل يعود إليه في عدم إقدام إخوته على قتل شقيقهم يوسف، فباعوه للإسماعيليين.

ب) نسبة لمملكة يهوذا: كما ورد أعلاه تحت تعريف العبرانيين، هناك مَن قال إن اليهود هم مَن تبع النبي «هود» وآمن به من القلة القليلة من قوم «عاد»، وهم تحديداً مَن سُمّي اليهود على اسمه. وعلى منوال المفكرين والبحّاث، كل في عالمه، يقول بعضهم إن اليهود لم يُعرفوا بهذه التسمية (اليهود) إلّا لتمييز أنفسهم عن الوثنيين والكفار في عصر «هود» نظراً لأنهم شعب الله المختار. وقد بقيت التسمية تلازمهم إلى أن ظهر إبراهيم منهم، بالإضافة إلى التسميات الأخرى التى اكتسبوها لاحقاً. لكن رغم التناغم بين كلمتي هود واليهود، فالرابط بينهما ليس قريباً ولا واضحاً ويبقى عرضة لجدال عنيف.

بيد أن الاحتمال الأقوى حسب العديد من العلماء أن اليهود لم يُسموا كذلك إلّا متأخراً جداً، وتحديداً بعد أن أسسوا مملكة «يهوذا» في العصر الحديدي، وإن كان أصل الاسم معروفاً ويعود إلى قبل ذلك بكثير، أي نسبة

ليهوذا بن يعقوب. ومن قرائن العصر الحديث على ذلك، أن «السعوديين»، مثلاً، صاروا يُعرفون باسمهم هذا فقط بعد تأسيس الدولة السعودية نسبة للمؤسس عبد العزيزآل سعود، ولم يكونوا يُعرفون بإسمه قبلها، بل ربما كانوا يعرفون باسم «الدرعيين» نسبة للدرعية أو «الموانع» نسبة إلى مانع بن ربيعة المريدي جدّ آل سعود، أو ربما باسم «الوهابيين» نسبة لدعوة محمد بن عبد الوهاب قبل اتحاده مع ابن سعود!! ومهما كان مصدر التسمية، فالواضح أن تعصبهم ليهوديتهم زاد غلواً بعد رجوعهم من السبي لتمييز أنفسهم حتى عن اليهود السامريين أيضاً. فهولاء (السامريين) - حسب زعم البعض - هم أبناء الجماعات التي كان نبوخذ نصّر قد جمّعها من كل مكان لتحل في فلسطين محل اليهود الذين نفاهم. وهي جماعات تشكلت - برأيهم - من أقوام هجينة سورية وقيدارية وعيلامية وبابلية. (هنا يلمس المراقب وكأن اليهود العائدين من بابل مارسوا نوعاً من الاحتقار العنصري والتعالي الثقافي تجاه اليهود المواطنين في فلسطين بسبب الخلطة الاجتماعية).

واستناداً إلى (ب) أعلاه، فإن إبراهيم ليس يهودياً لأنه سابق لليهود، سواء نسبة لتسمية «يهوذا» الذي جاء بعده بنحو قرنين ونصف تقريباً، أو نسبة إلى «مملكة يهوذا» التي ظهرت بعد عصر إبراهيم بنحو **٩٥٠** سنة!

٣ - إسرائيل:

أ) إسرائيل نسبة ليعقوب: كلمة إسرائيل لم تظهر إلى الواقع ولم يكن لها وجود قبل «المصارعة» التي قام بها يعقوب في حلمه مع ملاك الرب. وقتها فقط وردت التسمية لأول مرة وبالمفهوم الإيماني العقائدي. فقد جاء في سفر التكوين الأصحاح **٣٢: ٢٤** أن يعقوب نال لقب «إسرائيل» بعد مصارعة طويلة دامت حتى طلوع الفجر. ولما انتصر يعقوب على خصمه، سمّاه الربّ إسرائيل كونها تسمية معبّرة مركبة تعني «العراك مع الإله». وهكذا، نرى أن مصطلح أتباع إسرائيل (يعقوب) ورد قبل كلمة مصطلح «اليهود» بالنظر إلى أن يهوذا هو

ابن يعقوب وجاء بعده. والملفت أن القرآن ذكر «بني إسرائيل» فقط مع الأنبياء الذين أعقبوا إسرائيل (يعقوب) وصولاً إلى المسيح. وهكذا يُستنتج أيضاً أن يعقوب لم يكن يهودياً بالمفهوم الاقتباسي المحضّ بالنظر إلى ظهور مصطلح اليهود لاحقاً نسبة لولده يهوذا أو بظهور المملكة بعد موت يعقوب بأكثر من أربعة أجيال. هذا على أفتراض أن توراة موسى التي جاءت فيما بعد هي المعنية من شريعة اليهود، أي لا يعقوب ولا ابنه يهوذا عاصراها.

ب) نسبة لمملكة إسرائيل: هناك مَن يعزي التسمية «الإسرائيلية» إلى مملكة إسرائيل في العصر الحديدي. وهي المملكة التي قيل تقليدياً إن شاول بدأ تأسيسها وحكم عليها كأول ملك لشعب إسرائيل. ووفقاً للرواية التوراتية، فقد مُسح شاول ملكاً عليها من قبل النبي صموئيل في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ثم قام بتوحيد القبائل المبعثرة المنحدرة من يعقوب (إسرائيل) وقادها في معارك ضد الفلستيين والكنعانيين والأقوام المجاورة الأخرى. وقد أعقب شاول الملك داود، فقام بتوسيع المملكة وأنشأ عاصمة لها ما زال المنقبون يبحثون عنها إلى اليوم. وهكذا استمر سليمان، ولد داود من بعده، في رعاية مملكة إسرائيل وزاد من تعزيز بنيتها التحتية ونُسب إليه الفضل في بناء ما يسمى «الهيكل الأول». وبعد وفاة سليمان، واجهت المملكة صراعاً داخلياً أدّى لتقسيمها إلى «مملكة شمالية» اسمها إسرائيل وعاصمتها السامرة ومملكة جنوبية تدعى «يهوذا» وعاصمتها أورشليم. وغالباً ما كان مصطلح «إسرائيل» يومئذ يستخدم للإشارة فقط إلى المملكة الشمالية، في حين أن مصطلح «يهوذا» يشير إلى المملكة الجنوبية. وبينما كانت مملكة إسرائيل تحتضن، بالإضافة إلى بني إسرائيل، تشكيلة من الكنعانيين والفلستيين والمؤابيين والأدمويين، كانت مملكة يهوذا تقتصر على اليهود فقط (تقريباً). وقد استمر اسم «إسرائيل» في مختلف النصوص التاريخية والنقوش والكتب المقدسة الدينية في التعبير عن الشعب المنحدر سواء من سلالة يعقوب أو من المملكة الشمالية نفسها حتى سقوطها على أيدي الأشوريين في عام **٧٢٢** ق.م.

ت) نسبة للكيان الإسرائيلي منذ ١٩٤٨: أما في الوقت الحالي، فمصطلح «إسرائيل» يستعمل بالمعنى الإقليمي والسياسي كدولة قومية لليهود أسسها لهم الغرب في عام ١٩٤٨م، وأصبح اسم إسرائيل معتمداً كعضو فاعل في الأمم المتحدة ما شكل خروجاً عن الاستخدام التاريخي والديني للمصطلح. ومع أن معظم المنتسبين إلى دولة إسرائيل اليوم هم يهود من كل العالم، بيد أن المواطنة الإسرائيلية ليست مقتصرة عليهم، بل تشمل خليطاً من الأعراق والديانات تضم مسلمين ومسيحيين ودروزاً وأقليات أخرى. أي أن ليس كل الإسرائيليين اليوم من اليهود، وليس كل اليهود من الإسرائيليين.

وباختصار، فإن مصطلح «الإسرائيليون» اليوم يشير على وجه التحديد إلى مواطني دولة إسرائيل الحديثة، والتي تضم مجموعة متنوعة من ذوي الخلفيات العرقية والدينية والثقافية المختلفة وإن كان اليهود هم الأغلبية. في حين أن كلمة «اليهود» تسمية أوسع تشمل الهوية الثقافية والطقوسية والدينية على حد سواء. والواقع أن التمييز بين اليهود وغير اليهود (الأغيار) ينطوي على إشكالية عنصرية. إذ إنه يضع اليهودي فوق التاريخ وخارج الزمان، وهذا ما يجعله يتوهم كل شيء على أنه مؤامرة موجهة ضده كشعب مميز مختار. ومع ذلك، فاليهودي بفكره الفرويدي الباطني ينظر إلى الأغيار كما كان النازي ينظر إلى اليهودي في ذهنه، أو كما ينظر الأبيض إلى الزنجي في الأدبيات العنصرية. وعلى هذا الأساس يصبح كل البشر أنصاف بشر بنظر اليهود وأشراراً مدنَسين يستحيل الدخول معهم في علاقة حميمة أو صادقة. بل تصبح من الضروري إقامة أسوار عالية تفصلهم عن باقي البشر إلّا في المصالح المادية.

٤ - الصهيونية:

باختصار شديد، هي حركة سياسية عالمية ناشطة وأيديولوجية لئيمة. قامت أساساً على الدعوة المرّة إلى إنشاء «وطن يهودي» عاصمته القدس، وتطويره وحمايتة في فلسطين على أساس أنها أرض إسرائيل التاريخية. وقد ظهرت الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي على أيدي ناشط يهودي

فطن اسمه هرتزل احتواءً لمعاداة السامية ونزولاً عند الرغبة في «تقرير المصير اليهودي». ومن دوافعه الرئيسية أن اليهود أينما حلّوا سيبقون عرضة للاضطهاد حتى في الدول الأوروبية المتحضرة. وعليه، لا بد من إيجاد الآلة والآلية (أي الصهيونية ومناهجها) لخلق دولة لليهود يعلون شأنهم فيها ويحتمون بظلها من الإجحاف. من هنا، لعل أهم أدوار الصهيونية، فضلاً عن احتضان إسرائيل، التسويق الذكي لما يساعدها دائماً وباستمرار على التغلغل إلى حيث تُطبخ القرارات الدولية الفارقة وتُقر المعايير والمواصفات العالمية، ناهيكم عن اختراق دوائر المال والسلاح والتكنولوجيا.

وفي حين أن مؤيديها وأتباعها ينظرون إليها على أنها وسيلة أممية لضمان السلامة اليهودية والحفاظ على هوية اليهود الثقافية وتأمين أسباب الأمل والارتقاء لهم، يقول نقادها إنها ماكنة تهشيم وآلة تدمير أدت إلى تشريد معظم الفلسطينيين من ديارهم وقمعهم باشكال وحشية لا تنم إلى عصر التحضّر. ومن أبرز جرائم الصهيونية بحق الفلسطينيين، على سبيل التذكير، مجازر نكبة ٤٨ وإبادة ٧ أكتوبر، فضلاً عن نكسة العرب في ٦٧. لكن رغم أدواتها الكثيرة ونفوذها في الولايات المتحدة وأذرعها في المحافل الدولية، لم تستطع الصهيونية، ولأول مرة منذ تأسيسها، أن تتصدّى لدعوى جنوب أفريقيا ضد إسرائيل بتهمة الإبادة الجماعية لشعب غزة أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي عام ٢٠٢٤. والواقع أن الباحث يستطيع أن يتوسع في الكلام عن الصهيونية بحدود الكلام عن اليهود لأن الارتباط بينهما كارتباط العرب بالإسلام (مجازاً) لا ينتهي. لكن كما أن هناك مسلمين لا ينتمون إلى العروبة ولا يحبونها (وهم كثر)، هناك يهود يخجلون من الصهيونية ويُعَيِّرُون الصهاينة، لا بل يتهمونها بالمتاجرة بالدين اليهودي وبالإسرائيليين لأهداف «ميكافيلية» على مستوى الكوكب. بيد أن الموضوع بآفاقه خارج السياق عن التوراة، فنكتفي بهذا القدر الوجيز.

هل التوراة محرّفة؟

ببساطة شديدة وثقة عالية يقول مؤرخون ومنقبون عالميون كثيرون إن التوراة تعرّضت للتحريف في كثير من مواضعها، لكن من المستحيل تحديد «تضاريس» التحريف أو تواريخه ودواعيه. هذه القناعة ليس مصدرها بؤرة عدائية معينة ولا جهة علمية محددة، إنها نتاج إجماع أكاديمي من دوائر البحث التوراتي في بقاع الأرض. فكما أن الاختلاف كبير بين العلماء على جغرافية التوراة نفسها، كذلك هو الاتفاق قوي بينهم على مسألة التحريف. فمن أوضح أسبابه أن نصوص التوراة - على الأقل منذ تاريخ العودة من السبي - لطالما كانت تنسخ باليد نقلاً من مخطوطات قديمة إلى مخطوطات أجدد، فتتعرض رغم الدقة في النقل والاحتراف في التدقيق، إلى هفوات السهو وشذرات القفز وخداع البصر. وما كان يزيد الطين بلة على مصداقية النقل حتى في معظم حالات البراءة والخطأ العفوي أنه بمجرد الانتهاء من النقل والمراجعة والتدقيق كان الأصل القديم يُتلف بغرض الإبقاء على نضرة المنقول ووحدته إلى أن تنضج ظروف التجديد مرة أخرى في نسخة جديدة. هذا من جانب، أما من جانب آخر، فكانت المواد المستعملة في النسخ نفسها سبباً أحياناً في فساد بعض مقاطع النقل أو تشويهه. إذ كان النسخ قبل ظهور الطباعة يتم عادة على أنواع مختلفة من أوراق البردي والعظام وجلود الحيوانات والأخشاب حسب طبيعة البيئات والأزمان. كانت هناك جلود خراف وماعز وعجول وغزلان. وغالباً ما كان الكتبة والنسَّاخ يستخدمون ورق البردى والرقوق في العقود الأولى بعد السبي، لكن قيل إن هاتين المادتين عرّضتا العهد القديم من بداية نسخه للبلي والهريان والبهتان في كل الأمكنة.

علماء آثار وقورون نُقل عنهم ما مفاده أن ورق البردى بمرور الوقت يتفتت كالتربة الجامدة إذا تعرض لكثير من حرارة الشمس، ويصبح بمثابة ألياف ترابية مجزأة تسقط الكتابة عنه بمجرد لمسه بطريقة مؤذية. وإذا حُفظت لفائف البردى في أمكنة مناخية رطبة أو بخارية صارت مكاناً خصباً للعفن أو العطن. أما إذا

طُمرت تحت عتمة الأرض، باتت مأكلاً شهياً وحقل تجارب للزيزيات والزواحف وحشرات الأرض. وما ينطبق على ورق البردى ينسحب أيضاً على الرقوق وإن كانت أجود منه وأقوى. والواضح أن هذه التحديات هي التي كانت تفرض تكرار النسخ وإعادته مرات ومرات، ولا سيما عند كل تغيير في الحكم أو مع كل وهن أو بداية عطن وعفن. لكن مع كل تجديد كانت إمكانيات هفوات النقل تتجدد بعدد النسّاخ، ناهيك أن كل نسخة مجددة لم تشمل كل النصوص كاملة ولم تنسخ نفس المقاطع. فبينما نرى ناسخاً في أورشليم يجدّد وينسخ سفر «التكوين»، يكون غيره في الجليل قد نسخ سفر «الملوك» على سبيل المقاربة. ثم إن نسخات الأماكن المتباعدة بين شمال فلسطين وجنوبها أو ضواحيها وجيرانها، مثلاً، لم تُقارن بعضها ببعض لأسباب إهمالية أو لوجستية أو فيديرالية. وبالفعل ظهرت حتى القرن الهيليتي نسخ متباينة كثيرة من الأسفار المقدسة غير كاملة في كل أنحاء إسرائيل وبعض خارجها من مصادر نسّاخ يهود مهرة، لكن مختلفي الأنتساب والولاء، ولم يخضعوا لإدارة رقابية مركزية أو إشراف موحّد متواصل.

ولعل هذا السبب هو الذي يعطي أهمية قصوى ومرجعية شرعية للنسخة السبعوية اليونانية التي تمت بالإجماع في الإسكندرية في القرن الثالث ق.م. وهي الشريعة التي أقفل باب الاجتهاد بعدها، رغم توالي عمليات الترجمات والنسخ باليد حتى ظهور النسخة الورقية المطبوعة باللاتينية في عصر الطباعة على أيدي الألماني يوهانس غويتنبيرغ عام ١٤٥٥م. ومع أنها الطبعة الأولى، إلّا أن النسخة الورقية المعتمدة هي النسخة التي أمر باصدارها ملك انجلترا جيمس الأول في القرن السابع عشر (١٦١١م) وترجمت للغرض اعتماداً على النتف العبرية الأصلية والنسخة السبعوية اليونانية.

وباستمرار عمليات التجديد والنسخ والتلف للقديم استمرت النصوص التوراتية محافظة على معظم مصداقيتها، وليس عل كل مصداقيتها، وأورد فيما

يلي ما تم الإجماع على وجوده من النسخ بين العلماء والمؤرخين حتى الآن بالتدرج الزمني لكتابتها :

١ - **المسودات الأولى**: بعد العودة من المنفى البابلي (حوالي **٥٣٨** ق.م) بدأ الكتبة اليهود في تجميع النصوص المقدسة والحفاظ عليها ونسخها بالعبرية على برديات وجلود ومبعثرات مواد متنوعة. وقد أطلق على هذه المبعثرات «النصّوص الماصورية».

٢ - **المخطوطات الأولى**: بحدود القرن الرابع قبل الميلاد تم نسخ أجزاء عبرية من «العهد القديم» من خلال المسودات اليدوية التي كانت مكتوبة على رقوق وورق البردى. وأبقت هذه المخطوطات على نفس الاسم الماصوري للمسودات.

٣ - «**السبعينية**»: خلال الفترة الانتقالية بين القرن الثالث والثاني قبل الميلاد صدرت النسخة السبعينية في الإسكندرية، وهي الترجمة الأولى باليونانية للعهد القديم. وباستثناء بعض النصوص القليلة المترجمة من اللغة الآرامية، اعتمد الحاخامات اليهود على اللغة العِبْرية من معظم المخطوطات المنسوخة من المسودات والنتف الأصلية..

٤ - «**لفائف البحر الميت**»: في منتصف القرن العشرين، (**١٩٤٩م**) تم اكتشاف هذه المخطوطات القديمة، وهي بحالة جيدة نسبياً، وتشمل بعض أقدم النسخ المعروفة من النصوص الجزئية الآرامية والأغلبية العبرية. وقد وُجدت اللفائف في سلسلة مغاور في وادي قمران في الأردن بظروف مشبوهة بالقرب من البحر الميت (قريباً من الضفة الغربية). ولعل ظهورها المريب أبقاها قرابة نصف قرن من الزمن قيد الدراسة والتحقق لدى جهات إسرائيلية، هي الأخرى، ليست شفافة أو موثقة بإجماع، وتمتد كتابتها من القرن الثاني إلى القرن الأول قبل الميلاد.

٥ - «**مخطوطة سيناء**» (**الدستور السينيائي**): وُجدت في القرن الرابع الميلادي وهي بمثابة واحدة من أقدم مخطوطات الأناجيل المسيحية على شكل

كتاب عصري. وقد كتب باللغة اليونانية على جلود الرق والبرشمان. وحمل في طياته أجزاءً معتبرة من «العهد القديم» بما فيها (سفر التكوين وإشعيا وجيرميا وبعض الأنبياء الصغار)، فضلاً عن كامل «العهد الجديد» وبعض الكتابات الممنوعة. وقد تم العثور عليه في دير «القديسة كاترين» عند سفح جبل سيناء في مصر. اكتشفه العالم التوراتي القدير الألماني كونستانتين فون تيشندورف خلال زيارة له في منتصف القرن التاسع عشر.

٦ - «**الدستور الفاتيكاني**: وهو أيضاً يعود إلى القرن الرابع الميلادي، وتحتوي هذه المخطوطة على الكتاب المقدس باللغة اليونانية بأكمله تقريباً بما فيها «العهد القديم» بالسياق السبعوي. وهو مكتوب على رقّ عجل ومعروض في مكتبة الفاتيكان منذ القرن الخامس عشر على الأقل. وأغلب الظن أن رهباناً مسيحيين مصريين ويونانيين هم من جمعوا هذه النسخة من الكتاب المقدس وبدأوا بها تدريجياً وعلى سنوات منذ الأيام الأولى لتفاعل المسيحيين بدون خوف أو حرج.

٧ - «**الدستور الإسكندري**»: وهي مخطوطة بمثابة الكتاب المقدس كاملاً، تعود إلى القرن الخامس ميلادي. وهي واحدة من أهم المخطوطات عن التوراة اليونانية وكانت قد حفظت في الأصل في المكتبة البطريركية في الإسكندرية في مصر. وقد تم تقديم هذه المخطوطة لاحقاً كهدية للملك تشارلز الأول، ملك إنجلترا، في القرن السابع عشر. وهي تعرض حالياً في المكتبة البريطانية في لندن.

٨ - **الوثيقة الورقية المطبوعة**: وهي النسخة اللاتينية الأولى في عصر الطباعة (١٤٥٥م). وقد أحدثت مطبعة يوهانس غويتنبيرغ ثورة علمية ثقافية هائلة في إصدار المعرفة وإنتاج الكتب، بما في ذلك التوراة وأخواتها والقواميس والأطلاس.

٩ - **العهد الجديد لـ «تيندال»**: ترجمة ويليام «تيندال» في العام **١٥٢٥**م للعهد الجديد كانت أقدم الترجمات المقدسة المطبوعة إلى اللغة الإنجليزية.

ومع أنه باشر بعدها بترجمة التوراة من اليونانية، إلّا انه لم ينجز إلّا القليل منها قبل وفاته ١٥٣٦م.

١٠ - **نسخة الملك جيمس (١٦١١م)**: هي أشهر الكتب المقدسة الموجودة اليوم وأكثرها انتشاراً واعتماداً. وقد ظهرت بأمر من الملك جيمس الأول ملك إنجلترا، وسرعان ما أصبحت واحدة من أكثر الإصدارات الإنجليزية تأثيراً، سيما أن أغلبية فنادق العالم الواقعة تحت التأثير «الأنجلو - ساكسون»، وذات العلامات التجارية العالمية والخمس نجوم، تتبنى طبعة جيمس هذه في غرفها. وكما ذكرت أعلاه، فإن نصوص جيمس ترجمت من مزيج النتف العبرية الأصلية الماصورية واليونانية السبعوية.

١١ - «**مخطوطة لينينغراد**»: وهي تمثل أقدم كتاب لليهود كامل لدينا عمره قرابة ١٠٠٠ عام. إنها مخطوطة يدوية كاملة من «العهد القديم» (التناخ) باللغة العبرية يعود تاريخها تحديداً إلى عام ١٠٠٨م. وهي معروضة حالياً في المكتبة الوطنية الروسية في مدينة «القديس بطرس»، وكانت المدينة تعرف سابقاً باسم لينينغراد، ومنها أخذت المخطوطة كنايتها. وبإجماع العلماء، فالمخطوطة واحدة من أقدم الوثائق الكاملة للعهد القديم وتحظى بتقدير كبير لدقتها وأمانتها النصيّة بالنظر إلى أنها وُضعت في فلسطين في القرن الحادي عشر ميلادي من قِبل رجال دين يهود ثقاة. وهؤلاء المؤتمنون أخذوا على عاتقهم إصدار الوثيقة لوضع حدّ للغط والخلافات حول الثغرات والأخطاء، وسُمّي مجمعهم بالماسورا، وتعني اصطلاحاً النقل بـ«التقليد» أي بـ (التواتر). والعجيب أنهم بعد أن خلصوا من توضيب المخطوطة اعترفوا بتلف ما قبلها من وثائق يهودية للمحافظة على وحدة الصف وقطع الطريق على شرارة أي اختلاف في المستقبل بحيث تكون الوثيقة الماسورية (وتبقى) المرجع الوحيد.

هذه الوثائق والمخطوطات، وإن ظهر بعضها بظروف غامضة أو مشبوهة، فهي توفر رؤى ثمينة وقيمة أدبية مهمة عن النقل والنسخ المبكر والتاريخ النصي للعهد القديم. وعلى الرغم من أنها قد لا تكون في شكلها «الأصلي» كما هو

الحال في الكتابات الدقيقة التي ينتجها أصحابها المؤلفون أنفسهم، إلّا أن عمرها كأقدم، النسخ الموجودة من النصوص التوراتية، يمثل عنصراً حاسماً للدراسة العلمية وفهم النسخ المبكر للكتاب المقدس.

نظرة موجزة عن الثقافة اليهودية

كتب اليهود

١ - «**التوراة**»: هي أساس شريعة اليهود بأسفارها (كتبها) الخمسة: التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية. وهذه الكتب هي الأقدم على الرفّ الأول في نملية الوثائق المقدسة كما وصفتها في بداية الكتاب. وللتوارة أسماء متعددة منها، الناموس والشريعة وكتاب موسى وسفر العهد، وعند اليونانيين تسمى «بنتاتوك» (أي حرفياً الكتب الخمسة). والاعتقاد السائد عند أهل الاختصاص ودوائر اللاهوت أن هذه الكتب أوحيت مباشرة من ربّ العالمين إلى موسى في موقع على جبل الطور في سيناء. أي إنها تشبه آيات القرآن عند المسلمين من باًب التنزيل والمقاربة. هناك في سيناء كلّم الله موسى، وتلقّاها الأخير منه، وكتبها برعب وسرعة وإجلال، وسلّمها بدوره إلى جماعته مكتوبةً كما نصّت عليه.

وإذا كان من ملاحظة رئيسية تتردد دوماً عن التوراة، فهي السؤال المحوري: كيف يكون موسى قد كتب موته فيها بيده؟

٢ - **التلمود**: وهو مصطلحٌ لكتاب يشبه صورياً كتاب شرح وتفسير لأسفار موسى. وتطلق هذه التسمية دائماً على شروحات الأسفار والحواشي. وللتلمود قسمان، يتعاطى الأول فيه بشؤون التوراة الخطية ويسمى «المشناة». ويتعامل الثاني بالتفاسير الشفهية المتناقلة بالتواتر ويسمى «الجمارة». والأثنان وجهان لكتاب واحد بحيث يطلق البعض اسم «التلمود» على «الجمارة» أحياناً. وهنا نستعير وصفاً دقيقاً عن المسألة من أحد المراجع: «تعتبر التوراة متناً والمشناة شرحاً لها والجمارة حاشية عليه». وكقاعدة عامة، لا يؤخذ قسم من التوراة

دون القسم الآخر، لا بل مَن يقرأ التوراة بدون المشناة والجمارة معاً، فكأنه بدون إله - على حد تعبير الكثير من حاخاماتهم. وهناك طبعتان من التلمود: التلمود البابلي، والتلمود القدسي.

وإذا كان من ملاحظة رئيسية تتردد دوماً عن «التلمود» بقسميه، فهي أنه أُعِد من قبل طائفة يهودية سلفية متعصبة وعنصرية تسمى «الفريسية» - وهي كلمة آرامية تعني الانعزال أو الانشقاق. وأساس ظهورهم أنه عندما رجع اليهود من السبي البابلي كانوا قد فقدوا الكثير من المراجع والأصول، بل لم يعد لديهم شيء يُذكر من ذلك، فتشكلت الطائفة وأخذت تؤسس منهجاً للرجوع باليهودية إلى أول عهدها. حصلوا على التقدير المنشود، وسرعان ما صاروا قادة اليهود في الأمور الدينية تحديداً، لا سيما إبان حكم السلالة الحشمونية اليهودية التي حكمت في يهودا والمناطق المحيطة بها بين عامي **١٤٠-٣٧** قبل الميلاد!

٣ - السنهدرين: وهو كتاب المرجعيات العدلية القديمة لأحكام وتداولات المجلس القضائي اليهودي، أي بمثابة محكمة نقض عُليا، لعبت دورها الحاسم في حكم المجتمع اليهودي وإدارته ابتداء من فترة «المعبد الثاني». وقد توالى على تأليف السنهدرين مفكرون وقضاة ومتدينون (رابيون) وحكماء، فضلاً عن مساهمات من شرائح المجتمع اليهودي الأوسع. ولعل أهم مسؤولية للسنهدرين أنه ينطوي على مرجعية الإشراف على صحة تطبيق التعاليم اليهودية، والفصل بين النزاعات القانونية الشرعية، سواء في الحقوق المدنية أو الدينية. ومع أن السنهدرين كان له عزّه في تلك الأيام الخوالي منذ **٢٤٠٠** سنة، وكان أعضاؤه هيئة معتبرة مؤلفة من سبعين شخصية، إلّا أن دوره اضمحل مع مرور الوقت، خاصة مع التغيرات العصرية وتطوّر القضاء المدني. صار الاعتماد عليه ممارسة رمزية أكثر منها حتمية حاسمة بالنسبة إلى الجزاءات أو العقوبات والتعويضات.

٤ - التناخ: وهو يمثل اسماً آخر للكتاب المقدس اليهودي (العهد القديم)، ومن أكثر أسماء الكتب العبرية انتشاراً في الأوساط اليهودية العلمية. وما يميز

التناخ أن معظم نصوصه مكتوبة بالعبرية، باستثناء سفري دانيال وعزرا وجملة فريدة في سفر إرميا وبضع كلمات في سفر التكوين مكتوبة بالآرامية.

مصطلحات عامة يستعملها اليهود

١ - «**يهوه**»: إله اليهود كما ورد في التوراة والعهد القديم. وهو الربّ الذي يعود إليه الفضل باختيار اليهود كـ«شعب الله المختار» صفوة على شعوب العالم وقِدوة لهم. وهو الإله العظيم الذي كلّم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى - حسب التقليد. كما أنه كلّم أيضاً داود أكثر من مرة بواسطة أحد أنبياء عصره (ناثان) (صموئيل: ٧)، بالإضافة إلى كلامه مع سليمان، وإن كان كلاماً خاصاً عن شؤون مملكته السليمانية وأمور الحكمة والعدل (الملوك: ٣: ١).

٢ - «**الدياسبورا**»: هو مصطلح، ليس حكراً على اليهود وحدهم، لكنه لاصيق بهم. يُعبّر عن مواطن البعثرة في الشتات والتفرق في المنفى. وغالباً ما يقصد به أماكن سكن شعوب أرغمت على ترك أوطانها، فصار أفراد هذه الشعوب، بالصفة الاجتماعية المضعضة وانعدام الثقة بروح التساوي والعدالة، مشتتين في الأرض متفرقين ومتباعدين ومأزومين.

٣ - «**الغيتو**»: ربما يعني موقع الانعزال في الغربة أو منطقة تجمع أقليات الشتات فيها. لكن على نقيض مصطلح الدياسبورا، فـ «الغيتو» مصطلح من زمن كان يخصّ اليهود حصراً، أشبه بمصطلح «مخيمات الفلسطينيين» اليوم في المدن العربية على سبيل المقاربة. وغالباً ما كان «الغيتو» محشوراً في أزقة وأحياء عاش اليهود فيها ضمن لندن وروما والبندقية وباريس ووارسو.

٤ - «**الغويم**»: الكلمة العبرية عن معنى الغرباء أو الأغيار. وهو المصطلح الديني الذي يطلقه اليهود على غير اليهود من أهل الكتاب - ويسميهم اليهود أيضاً «الأميون»، بمعنى انتسابهم إلى الأمم الأخرى غير اليهود.

٥ - «**الإشكنازيم**»: هم بمعظمهم يهود شتات الإمبراطورية الرومانية، الغربيون الذين قدموا إلى فلسطين من بقاع أوروبا، بما فيهم يهود الخزر

وروسيا. لغتهم يديشية (يهودية مركبة من جرمانية وعبرية وآرامية) وهم يملكون نظرة متعالية على غيرهم من يهود العالم.

٦ - «**السفارديم**»: اليهود العرب الذين أختاروا العيش في فلسطين وهم منحدرون من أصول غير فلسطينية، كالدول العربية و«الأندلس» سابقاً وبعض الدول الآسيوية. كثير منهم كانوا من رعايا الدولة العثمانية في المناطق التي خضعت لسيطرتها من المغرب حتى عُمان.

٧ - «**الفلاشا**»: هم يعتقدون أنهم يهود من «أهل بيت إسرائيل» نفسه (ومعظمهم من أصول حبشة). مصادرهم تقول إن فيهم من تحوّل إلى المسيحية في النصف الثاني من القرن التاسع ومعظهم استقر بإسرائيل بموجب ترتيبات سياسية. ويقال إن أصل الفلاشا يعود إلى قنطورة، الزوجة الثالثة لإبراهيم بعد سارة وهاجر. هذا مع العلم أن هناك رواية عميقة وعتيقة تُرجع الفلاشا إلى زوجة موسى الكوشية (الحبشية) ما بعد عصر إبراهيم بخمسة قرون ونيف. والملفت أن بعضاً ثالثاً يرجع الفلاشا تحديداً إلى صلب الملك سليمان من ابنه منليك ولد بلقيس؟ (راجع مقطع «أهل البيت»)[١].

٨ - «**الشبت**»: (السبت اليهودي)، هو مساء الجمعة إلى مساء السبت، ويحتفل به كيوم راحة وتجديد روحي.

٩ - «**كوشر**»: مصطلح يعني الأكل أو الممارسة الحلال الموافق للشريعة اليهودية. ويشير إلى مبادئ توجيهية محددة بشأن الحيوانات المسموح استهلاكها، وكيفية ذبحها، والقيود المفروضة على خلط اللحوم ومنتجات الألبان، وغيرها من المسائل المماثلة.

---

(١) وسواء جاء الفلاشا من صلب إبراهيم أو موسى أو سليمان، فهم بالمفهوم الوراثي الفلسفي، ليسوا عبرانيين لأنهم بقوا مع أمهم في الحبشة أو إريتريا ولم يعبروا إلى مكان آخر. وهم ليسوا إسرائيليين نسبة ليعقوب ولا يهوداً نسبة لإبنه يهوذا، بل هم ببساطة إبراهيميين أو موسويين أو سليمانيين!

١٠ - «**كنيس**»: مكان عبادة وتجمع لليهود. فيه تقام الصلوات وقراءات من التوراة والاحتفالات الدينية الأخرى.

١١ - «**ميتزفاه**»: أو الأكثر قبولاً (**ميصوه**)، وتعني حرفياً «الوصية» أو «العمل بموجبها». وتشير إلى كل الوصايا الدينية في اليهودية - وهي تتجاوز ٦٠٠ وصية - كما هو موضح في التوراة، فضلاً عن حثها على ضرورة العمل بالفضائل وأعمال اللطف والأدب والإحسان.

١٢ - «**القِبالا**»، (**الكبالاة**): تقليد باطني داخل اليهودية. تركز على دراسة الجوانب الإلهية والروحية للكون من وجهة نظر يهودية بحتة - ويزعم البعض أن تكرار الأخذ بها يساعد على تقوية الإيمان وعمل المعجزات! (انظر الزوهار).

١٣ - «**الزوهار**»: مدونة تأسيسية في الكتابات اليهودية الغامضة كتعليق مستتر باطني وجزء من القِبالاة. ويوصف أحياناً على أنه كتاب للروائع الإيمانية، بمعنى أنه يبحث في الأسفار الخمسة عن مضامين سرية تشير إلى طبيعة الكون بين النور والظلمات. يقال إنه كُتب في الحقبة الإسلامية الأندلسية الغرناطية (القرن الثالث عشر) على أيدي مفكر يهودي اسمه موسى دي ليون، وكان قد استلهمه أساساً من حاخام صوفي يهودي عتيد من القرن الثاني ميلادي، يدعى شمعون بار يوشاي. ورغم الغموض المُسَاوَر حول مؤلفيه وظروف تأليفه، فلا يزال للزوهار تأثير في اليهودية رغم اعتراض رجال الدين اليهود التقليديين.

١٤ - «**يوم الغفران**» - (**يوم كيبور**): أشهر من نار على علم. إنه يوم التكفير اليهودي. يحتفل به بالصيام والصلاة، ويعتبر أقدس يوم في التقويم اليهودي. ويوم «كيبور» هو اليوم المتمم لأيام التوبة العشرة، والتي تبدأ برأس السنة اليهودية، ويطلق عليه بالعبرية «روش هاشناه». ولأن السنة العبرية قمرية متغيرة، فيوم كيبور يقع تقديراً في الشهر السابع من الروزنامة اليهودية، أي عصرياً بين أواخر أيلول وأوائل تشرين. وحسب التراث اليهودي، فإن هذا اليوم هو الفرصة الأخيرة للمسارعة نحو السنة الجديدة بنية تغيير المصير الشخصي أو التغيير في مصير العالم!

١٥ - «**بار ميتزفا**»: اسم حفل بلوغ سن الرشد في اليهودية. يقام عادة عندما يبلغ الصبي اليهودي (بار ميتزفا) **١٣** عاماً، والفتاة (بات ميتزفا) **١٢** عاماً. الأمر الذي يمثل مرحلة البلوغ والرشد من خلال انتقال الأولاد إلى مرحلة النضج ومسؤولية الالتزام بالوصايا اليهودية.

١٦ - «**الشوفار**»: وهو قرن الكبش ويستعمل مثل البوق لاصدار أصوات ضخيمة خلال الاحتفالات الدينية اليهودية، خاصة في مناسبات «روش هاشناه» (السنة اليهودية الجديدة ويوم الغفران).

١٧ - «**غوليم**»: مخلوق فولكلوري يهودي، (غول)، يُصوّر عادة على شكل إنسان مصنوع من الطين أو الفخار، ويُعاد إلى الحياة لخدمة المجتمع اليهودي عن طريق الكاهن أو الراباي بواسطة طقوس معينة ووسائل صوفية.

١٨ - «**تشولنت**»: إنها يخنة طبخ يهودية تقليدية (تشبه الطاجن). تتكون عموماً من البطاطا والفاصولياء والشعير. وتطهى عادة ببطء طوال الليل (١٢ ساعة) على حرارة خفيفة، وتؤكل في غذاء يوم السبت. وربما للطبق طبعات ونسخ مشابهة من حيث المكونات وطريقة الإعداد، وقد يكون هو نفسه ما يسمى أيضاً «الحمين» أو «الدفينة» في المغرب. ويؤكل «التشولنت» في المطابخ اليهودية عند الأشكناز والسفارديم والمزراحيين على السواء.

١٩ - «**شليب**»: مصطلح «يديشي» يعني «تعتيل» أو سحب شيء ما بصعوبة، وغالباً ما يستخدم بالعامية لوصف القيام بمهمة شاقة.

٢٠ - «**الرابيّون**»: تقدير جمع راباي، وهو الكاهن اليهودي، رجل الدين اللاهوتي الذي يمنح اليهود إرشاداً روحياً ويقود احتفالاتهم الدينية ويؤدي نصائح فردية وعائلية للمجتمع اليهودي. وما يمتاز الرابيون به في كثير من الأحيان هو شغفهم في دراسة نصوص العهد القديم والتعمق بالتفاسير وتلقين التعاليم وشرح القوانين اليهودية، فضلاً عن تقديم رسميات الزواج وشعائر الموت واجراءات الطلاق. وهم أنفسهم أيضاً يُسمّون بـ«الحاخامات» عند غير اليهود تجنباً للالتباس بتعابير ربّانية.

ملخص فرضيات أبرز بحّاث التوراة

الرقم	إسم الباحث	شهرة بحثه الرئيسية	مواقع التوراة عنده	تواريخ التوراة عنده	شخصيات التوراة عنده	"الخروج" في مكانه وزمانه	حقيقة إبراهيم عنده	أدوات بحثه واجتهاداته	موقع القدس عنده
1	كمال الصليبي (لبناني)	"التوراة جاءت من الجزيرة"	الحجاز وعسير اليمن	تبنى تواريخ التوراة بالعموم	مقتبسة ومركبة ومتعددة لكن لها أصول واقعية	لا يوافق على خروج موسى من مصر	زعيم حجازي وليس من "اور"	أكاديميا اللسانيات واللغات	في مكان ما في الحجاز
2	فاضل ربيعي (عراقي)	"التوراة جاءت من اليمن"	اليمن والمحيط حضرموت	تبنى تواريخ التوراة	مركبة قبائلية وتحمل أسماء جغرافية يمنية	لا يوافق على خروج موسى من مصر	زعيم لمنطقة في اليمن	اللسانيات واللغة ومتاحف	من نواحي صنعاء
3	محمد منصور (لبناني)	حجازية بنكهة حبشية	أحداثها بين سبأ وأكسوم	لم يهتم كثيراً بالتواريخ	حقيقية كما في التوراة	لا يوافق على الخروج	نبي من مكة، وهو الذي بناها	اهتمام وشغف ولغة وإسلام	ضاحية مكة الحالية
4	فراس السواح (سوري)	تاريخ ميثولوجيا فلسفة	فلسطين والحجاز	تواريخ مقاربة للتوراة	شخصيات حقيقية باستثناء هاجر	لا يوافق على الخروج	حقيقي لكن من الحجاز	نشوء أديان، فلسفات وترجمات	الهيكل الأول في اليمن
5	خزعل الماجدي (عراقي)	التوراة سومرية المنشأ	مستوحاة من سومر ليس لها أصول	اخترعت أثناء السبي	كناية عن آخر 10 ملوك سومريين قبل الطوفان	لا يوافق على الخروج	كناية عن ملك سابق لزمانه	لغات سومريات الترجمات	مكان افتراضي كناية عن السلطة

الرقم	إسم الباحث	شهرة بحثه الرئيسية	مواقع التوراة عنده	تواريخ التوراة عنده	شخصيات التوراة عنده	"الخروج" في مكانه وزمانه	حقيقة إبراهيم عنده	أدوات بحثه واجتهاداته	موقع القدس عنده
6	ديفيد رول (بريطاني)	وضع "التاريخ الجديد"	حقيقية لكن بتواريخ مختلفة	تواريخ مختلفة لتلائم قصته	حقيقية ولها مزارات حقيقية	نعم لكن بتاريخ آخر	حقيقي من بلاد أكاد	مصريات، آثار، أقمار، متاحف، توراة	كما هو اليوم في فلسطين
7	أشرف عزت (مصري)	"التوراة السبعوية" الاسكندرية	حقيقية باستثناء تفاصيل الخروج	فبركت في عهد بطليموس الثاني	لم تهمه باستثناء شخصيات الخروج	لا يوافق على الخروج	شخصية مركبة	شغف واهتمام وتعصب لمصر	بين اليمن وعمان طريق القوافل
8	جورج كوسى (سوري)	رصانة اختصاصه	تركها لنفسه	تركها لنفسه	تركها لنفسه	تركه لنفسه	تركها لنفسه	لغات وترجمات مقارنة	لنفسه
9	موريس بوكاي (فرنسي)	علمية القرآن	حسب القرآن	حسب تواريخها	كما وردت في القرآن	نعم يؤيد الخروج	شخصية حقيقية	لغات وطب وعلاقات	كما هو في فلسطين
10	زياد منى (فلسطيني)	التركيز على شرق المملكة	توارة "دلمونية"	لا يعارض تواريخ التوراة	اعتبارية ومركبة	لم يوافق	شخصية حقيقية	أكاديميا فلسفة أديان توراة وبلقيس	في الجزيرة وهي كنز مهمل برأيه
11	فرج الله ديب (لبناني)	اليمن أصل التوراة	في اليمن	مقاربة للتوراة	حقيقية مسرحها اليمن	لم يوافق	شخصية حقيقية	تأريخ بحث أديان	في الجزيرة واليمن
12	عيد صلاح (مصري)	الترجمة مدخل البحث	يؤيد مواقعها	لا يعترض عليها	حقيقية بالمضون	نعم موسى خرج من مصر	حقيقية	لاهوت وتاريخ وترجمة	في فلسطين

الرقم	إسم الباحث	شهرة بحثه الرئيسية	مواقع التوراة عنده	تواريخ التوراة عنده	شخصيات التوراة عنده	"الخروج" في مكانه وزمانه	حقيقة إبراهيم عنده	أدوات بحثه واجتهاداته	موقع القدس عنده
13	جان أستروك (فرنسي)	استقصائية كشف تنوع كتّابها	مختلطة وليست واضحة	متشابكة ومحبوكة	بعضها مركب ومتنوع - من كل واد عصا	لا يوافق على الخروج	شخصية مجهولة	باحث لغوي أديب ومؤرخ	لم يتناوله بل شكك به
14	طه باقر (عراقي)	مرجع للسومريات	لم يقربها مباشرة	لم يقربها	قدح خيال تلامذته عنها والمستشرقين	ركز على الحضارة السومرية	ركز على ملوك بلاد الرافدين	أكاديمي سومري رافدي	لم يتعرض للقدس
15	فاضل عبد الواحد (عراقي)	سومريات و"أوريات"	لم يقربها مباشرة	ألمح الى تواريخ "أور"	قدح خيال تلامذته عنها ولم يقربها	ركز على بلاد النهرين	ركز على ملوك بلاد الرافدين	أكاديمي سومري رافدي	لم يتعرض للقدس
16	اسرائيل فنكلشتاين (إسرائيلي)	التشكيك بوجود آثارات في فلسطين	غير موجودة بأماكنها	غير مؤكدة ولا صحيحة	صامت وخجول بانتظار المزيد	يشك وينتظر المزيد	صامت وخجول	تنقيب واكاديميا ومقاربات أنثروبولوجيا	لا أساس لها في فلسطين
17	احمد داود (سوري)	جزيرية عربية يمنية	في اليمن والجزيرة	كما عند الصليبي	حقيقية عربية بامتياز	لا يوافق على الخروج	حقيقي عربي بامتياز	أكاديميا سوريات وتاريخ مناخ	في الجزيرة العربية
18	مصطفى وزيري (مصري)	موسى هكسوسي بامتياز	كما في التورارة	مقاربة للتوراة	حقيقية	نعم لكن هكسوسية	حقيقي اتبع الهكسوس	وظيفته بهيئة الآثار واللقى	كما هو اليوم في فلسطين
19	عاطف عزت (مصري)	موسى هكسوسي بامتياز	كما في التوراة	مقاربة للتوراة	حقيقية بالمضمون	خروجان: هكسوس وموسى	حقيقي اتبع الهكسوس	عمله بالهيئة والآثار والإسلام	كما هو اليوم في فلسطين

الرقم	إسم الباحث	شهرة بحثه الرئيسية	مواقع التوراة عنده	تواريخ التوراة عنده	شخصيات التوراة عنده	"الخروج" في مكانه وزمانه	حقيقة إبراهيم عنده	أدوات بحثه واجتهاداته	موقع القدس عنده
20	رالف إليس (بريطاني)	التوراة سيرة قبيلة نافذة	كما هي في التوراة	مقاربة للتوراة	حقيقية بالمضمون	خروجان: إبراهيم وموسى	رئيس عائلة التورارة وتاجر	باحث مصريات المسيح عنه آخر الفراعنة	في فلسطين كما هي اليوم
21	يورس زارنس (أميركي)	التركيز على الخليج وشرق المملكة	التوراة مخيالية جنة دلمون	تواريخ أبعد من التوراة	اعتبارية ومركبة	أسطورية بامتياز	أسطورية	مؤرخ مجتمعات حضرية مبكرة	صمت عن أورشليم
22	أحمد سعد الدين (مصري)	التوراة يوسف الهكسوسي	كما هي تقريباً	يعارض تواريخ التوراة	حقيقية كما في الإسلام	في مكانه لكن ليس في زمانه	شخصية حقيقية	روائي استقصائي	كما عند المسلمين
23	أحمد سوسة (عراقي)	التوراة محرفة	ليست كلها صحيحة	لم يعطها اهتماماً مركزاً	حقيقية كما في الإسلام	نعم	أبو الأنبياء كما عند المسلمين	أكاديمي باحث مؤرخ النهرين	كما عند المسلمين
24	سهيل ديب (لبناني)	التوراة مشوهة ومرتبكة	غير مفهومة	يعارض تواريخها بالمرة	اعتبارية ومبفركة	شكك في تاريخ الخروج	صامت عنه	مجاله الترجمة	لم يحدد
25	غلين فريتز (أميركي)	عبور موسى من العقبة	كلها صحيحة باستثناء العبور	لم يقرب التواريخ فقط الجغرافيا	حقيقية بالمضمون	شكك في موقع العبور التقليدي	لم يقرب البطاركة وركز على موسى	جيولوجي باحث	لم يقرب القدس ولم يشكك

تواريخ رمزية (تقديرية)
لمقاربة بعض أحداث الكتاب

- ق.م:

٨٠٠٠ إنحسار العصر الجليدي
٧٥٠٠ التوجه لدفء بلاد النهرين وضفاف الأنهر
٦٥٠٠ الحقبة العُبيدية
٦٠٠٠ قبيلة آدم (ديفيد رول)
٥٠٠٠ الفيضان العظيم (لكن **٢٣٤٨** ق.م حسب التوراة)
٤٩٩٩ قبيلة نوح
٣٨٠٠ اِختراع الكتابة - والبدء بتدوين ذكريات الأجداد
٣٥٠٠ بداية تطوير النحاس والابحار من أجله
٢٦٠٠ حضارة الدلمون
٢٥٠٠ أثريات أرشيف إبلا - ألواح فخارية بدائية مسطحة
٢٣٣٤ سرجون العظيم في بلاد النهرين
٢١٠٠ تدوير الفخار وزخرفته
١٩٤٠ اندثار العصر السومري وبداية العصر الأكادي
١٩٠٠ تجميع شريعة حمورابي من عصور أجداده ونقشها
١٩٠٠ عصر إبراهيم الافتراضي (؟)
١٦٥٠ الهكسوس يدخلون مصر ويحكمونها
١٦٠٠ يوسف في بلد إسمه مصر
١٥٩٠ ثورة بركان ثيرا وخراب الحضارة المينوسية في كريت

١٤٥٧ معركة الخلود بين الخير والشر (مجيدو)
١٤٠٠ الألف باء الأوغاريتية
١٣٧٠ بداية عصر أخناتون في مصر وظهور إله جديد إسمه «رع»
١٣٥٠ خروج موسى من مصر إلى مدن أريحا وأشدود وآي الخ
١٢٧٤ معركة قادش بسوريا بين رمسيس الثاني والحثيين
١٢٠٠ دمار أوغاريت واختفاء الحثيين وخراب المعمورة
١٠٥٠ هيمنة الفينيقيين على المتوسط (تجارياً)
١٠٠٠ بداية حكم داود
٩٦٥ الملك سليمان الافتراضي يتسلم الحكم من أبيه داود
٦١٢ سقوط نينوى من الأشوريين بأيدي البابليين
٥٩٧ نبوخذ نصر يسيطر على أورشليم ويسبي حكامها وكهنتها
٥٣٩ سقوط بابل بأيدي كورش (قوروش) الفارسي العظيم
٤٨٤ المؤرخ الاغريقي هيرودوتس
٣٣٤ بداية حملة الإسكندر وهزيمة الفرس
٣١٠ المؤرخ المصري اليوناني مانيتون
٢٨٣ بطليموس الثاني وأوج العصر الهيليني
٢٤٧ هنيبعل في قرطاجة
١٢٠ وضع مخطوطات البحر الميت
٢٧ بداية الإمبراطورية الرومانية
٦ ولادة المسيح

- ب.م:

٦٦ المؤرخ يوسفوس
١٨٩٧ تأسيس الصهيونية العالمية
١٩٤٣ مخطوطات البحر الميت
١٩٤٥ تقنية (الإشعاع الكربوني) *C14*
١٩٤٨ النكبة
١٩٦٧ النكسة

١٩٨٠ اكتمال خا رطة (*DNA*)
٢٠٠٩ العثور على جيش الفرس بمصر
٢٠٠٤ العثور على قصر مارك انطوني وكليوباترا
٢٠٠٤ ظهور النماذج الأولى للذكاء الاصطناعي
٢٠٢٤ حكم لاهاي ضد إسرائيل حول إبادة الفلسطينيين في غزة

مَصادر الكتاب

إن مَصادر الكتاب غزيرة ومتنوّعة. وإذ أسرد بعضها بلا ترتيب محدد أو تصنيف معين، فلأنني أتحاشى تعزيز مقولاتها أو الترويج لها. إنما أستعرضها دلالة فقط على مرجعية البحث لموضوعات هذا الكتاب من جهة، وعشوائية الاِنتقاء منها لما تتضمنه من تناقضات فكرية بالغة في الأهواء والتبنّى أو الاِستنتاج.

على الراغب بالمزيد من الاِطلاع على تفاصيل المزاعم والاِدعات والاجتهادات الواردة في الكتاب، العودة إلى المراجع الرسمية المعتمدة لدى جهات الاختصاص ودور العبادة. وعلى الرغم من أن المصادر المستعملة هنا هي تقريباً من أبرز المُتاح أو أكثرها شهرة في دوائر الدراسات التوراتية، فقد اعتمدت على الاِجتزاء منها ضمن حيز ضيق لسياق الموضوع بما يُلامس الاستنتاج المقصود. والاستنتاج الذي قصدته بلا مواربة أو مداورة هو: «بالرغم من أن معظم الشاغلين بالبحث في شؤون التوراة لهم فيها منطق وسياق وتفسير وتحليل وحجة وأثر وقرينة، لا يوجد إجماع بينهم (خارج الكتب السماوية) على شيء واحد يُستفاد منه، كسيرة إبراهيم، مثلاً، ووزارة يوسف، وحكم أخناتون، وخروج موسى، وعرش سليمان، ناهيكم عن تواريخ فارقة ووقائع مناخية وأعمار وجغرافيا إلخ». ورغم إشكالية الانتقاء من المراجع والتحيز في الاختيار من المصادر، فقد حَرصتُ أن يأتي المختار من المصادر متنوعاً بتنوع جنسيات الكتّاب وتعدد حقول اختصاصاتهم واختلاف أزمانهم ومناطقهم والميول العريضة التي نضحت من كتاباتهم.

هناك حقبات معينة في التاريخ نعرف يقيناً ما جرى خلالها من وقائع ظاهرية

بإفادات شهود عيان ومراجع دامغة وآثارات، خاصة عقب حقبة الإسكندر. لكن ما جاء قبلها من «وقائع» و«أحداث تاريخية»، مثل وقائع التوراة، فإن الخبراء والعلماء والبحّاث واللاهوت لا يعرفونه إلّا بالتقدير العام والتخّمين والتفّسير والاستنباط، وغيرها من أدوات التدقيق والبحث. لكن مصيبتنا الكبرى مع هذه الأدوات أن توظيفها لا يخضع لقواعد علمية أو حتى ثابتة، وإنما تستعمل حسب الأهواء والأهداف والمرامي. من هنا، فإن اختياري للمصادر يبقى اجتزاءً عشوائياً حسب المتاح، ومبتوراً لأغراض البحث العلمي الدقيق أو لموضوعات المُقارنة الأكاديمية المنهجية.

١ ـ التوراة - (العهد القديم) - الإنجيل (المطبوعات الكلاسيكية).
٢ ـ التوراة جاءت من شبه الجزيرة (كمال الصليبي).
٣ ـ خفايا التوراة (كمال الصليبي).
٤ ـ المسيح آخر الفراعنة (رالف إليس).
٥ ـ الأطلس التاريخي (ميلنيوم هاوس).
٦ ـ تاريخ آخر ١٠٠٠ سنة (فريفندوز آرمستو).
٧ ـ تاريخ اليهود (بول جونسون).
٨ ـ مُحمَّد (ص) (كارن ارمسترونغ).
٩ ـ التوراة السليمة (فيليب غويلم).
١٠ ـ العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل (أحمد داود).
١١ ـ أطلس تاريخ التوراة (دار نشر كولن).
١٢ ـ القرآن (طبعة المدينة).
١٣ ـ مصر لم تعرف فرعون ولا موسى (أشرف عزت).
١٤ ـ رأس شمرا والعهد القديم (جورج كوسى).
١٥ ـ الترجمة العربية المسجعة (القس عيد صلاح).
١٦ ـ وهم الله (ريتشارد دوكينز).
١٧ ـ اليهود (د. كامل سعفان).
١٨ ـ مذاهب وملل (الثنائي جاك ونيكول كاليبو).
١٩ ـ صراع الحضارات (صموئيل هانتنغتون).

٢٠ ـ الف باء اللغة (جون مان).
٢١ ـ التوراة اليهودية (إسرائيل فنكلشتاين وفيل أشر سيلبرمان).
٢٢ ـ إليكم الاستنارة (صاغور فاسودف).
٢٣ ـ الأديان الحَّية (د. اديب صعب).
٢٤ ـ تاريخ أورشليم والبحث عن يهوذا (فراس السواح).
٢٥ ـ التلمُود (أ. كوهن - جاك مارتي).
٢٦ ـ الفرضية الوثائقية (جان استروك).
٢٧ ـ الحضارة السومرية (د. خزعل الماجدي).
٢٨ ـ العهد المفقود (ديفيد رول).
٢٩ ـ تاريخ اليهود (يوسف بن ميتتياهو - يوسفوس).
٣٠ ـ الحضارة السومرية (صموئيل نوح كريمير وديان ولكشتاين).
٣١ ـ أساطير الشرق الأدنى (د. عمر محمد صبحي وعبد الحي جسوس).
٣٢ ـ طروادة (روجير ابيرت).
٣٣ ـ جمهورية أفلاطون (ويكيبيديا).
٣٤ ـ زاردشت (لويس صليبا).
٣٥ ـ التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير (زياد منى).
٣٦ ـ توما إكوينوس (ديبستر).
٣٧ ـ الجَّنة (ناشونال جيغرافيك).
٣٨ ـ جلجامش (موسوعة الأساطير - بلاك كينغهام).
٣٩ ـ آلهة ورموز الحضارات القديمة (جيرمي بلاك وانتوني غرين).
٤٠ ـ الاعتذاريون التوراتيون (قاموس الكنيسة - اوكسفورد).
٤١ ـ بلقيس إن حكت (هشام العاملي).
٤٢ ـ شريعة حمورابي (سالم الألوسي).
٤٣ ـ إختراقات ومعجزات (إيين ووكار).
٤٤ ـ التوراة والأناجيل والقرآن (موريس بوكاي).
٤٥ ـ المنطق والإلحاد (غوردون سوبل).
٤٦ ـ تاريخ صحراء النقب (غولاغ نيسلون).
٤٧ ـ رحلة إلى بابل (د. إيفلين كلنيكل - براندت).

٤٨ ـ اليمن وأبناء التوراة (فرج الله ديب).
٤٩ ـ مفصل العرب واليهود في التاريخ (أحمد سوسة).
٥٠ ـ زوال إسرائيل (بسَّام جرار).
٥١ ـ التوراة بين الوثنية والتوحيد (سهيل ديب).
٥٢ ـ الخليقة (سليم حيدر).
٥٣ ـ «إختراع» شعب اليهود (شلومو ساند).
٥٤ ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (طه باقر).
٥٥ ـ من سومر إلى التوراة (فاضل عبد الواحد).
٥٦ ـ كيف لم أعد يهودياً (شلومو ساند).
٥٧ ـ كلام ممنوع (هشام العاملي - دار الإنسان).
٥٨ ـ الأديان والمذاهب بالعراق (رشيد الخيون).
٥٩ ـ لغة الله (الحمض النووي) (فرانسيس س. كولينز).
٦٠ ـ تاريخ توت عنخ آمون (ق.ي - مكتبة مدبولي).
٦١ ـ فرعون ذو الأوتاد (أحمد سعد الدين - دار الكتاب العربي).
٦٢ ـ بابل والتوراة (الأب سهيل قاشا -الفرات للنشر والتوزيع).

- **تنويه: ولما استعملت نصوص التوراة مداورة باللغتين العربية والإنكليزية، فقد تكون أرقام الأسفار والآيات قد انقلبت من اليمين إلى اليسار حسب تبدل اللغة المستعملة ونوع الحرف والبنط أثناء الإعداد والإخراج والتنفيذ. وللتأكد من صحة المرجعية في حالة الظن، يرجى قلب الرقم على الشكل التالي: من (تك: ٥:١٤) إلى (تك:١٤:٥) على سبيل التوضيح.**

نبذة عن المؤلف

هشام العاملي مهني قديم عمل مسؤولاً لدى واحدة من أكبر شركات الاتصالات في العالم. أمضى معظم حياته الناضجة في بريطانيا حيث تلقي دراساته الجامعية في إدارة الأعمال، ثم في التاريخ القديم والعلاقات الدولية. عمل في لندن لأكثر من ثلاثين عاماً قبل انتقاله إلى دبي في العام **٢٠٠٣** م ثم تفرغه للكتابة منذ **٢٠١٣**م. يستهوي كل جديد في حقول التكنولوجيا وعلوم السياسة، لكن فكره أبداً يسبقه إلى ميادين المنطق والفلسفة فيما قلبه يشده إلى فطرة الإنسان وروح الأديان.

للكاتب أبحاث متنوعة أعدها للعديد من الدوريات الثقافية والسياسية في بريطانيا والولايات المتحدة والشرق الأوسط. ساعده عليها - بالإضافة إلى إلمامه التخصصي بها - تكرار السفر وتنوع الاختلاط والانخراط على مدى نصف قرن. وقد نذر لأبحاثه المتنوعة عمراً من الملاحظات الدقيقة والمطالعات الدؤوبة والمشاركات المضنية، جاءت باكوراتها تدريجياً في كتبه المتنوعة. ومما صدر له حتى الآن الكتب الآتية:

❊ **«الحياة دون الصفر» (إنجليزي).**

❊ **«كلام ممنوع».**

❊ **«كلام حريم».**

❊ **«كلام عجيب».**

❊ **«بلقيس إن حكت».**

❊ **«وداعاً ايتها الأرض».**

❊ **«مرقد عنزة - لبنان على حقيقته».**

❊ **«خدعونا»**.

❊ **«الفضيحة المستورة - لبنان»**.

❊ **«بيت مسك - ولادة تاريخ وحياكة تراث»**.

❊ **«عجائب التوراة: حكواتيون وبُحَّاث... ومتخيلون؟»**.

العاملي يعمل على الآن على إعداد مقولته الجديدة: «غزة - رحم طاهر وقبر موحش». تقوم على تحليل الصدمة الوجودية التي اعترت الأحرار من خلال مشاهد الذبح والإبادة في غزة عقب ٧ أكتوبر. إنها رؤية تفنيدية لفلسفة المعايير المزدوجة والتفوق الصهيوني الغربي العنصري على خلفية حرب روسيا وأوكرانيا ودخول اليمن على أزمة البحر الأحمر وصراع الجبابرة بين الصين والولايات المتحدة.

هذا الكتاب

رغم ملايين الكتب والدراسات الرصينة، فإن التنقيب عن آثار يوسف في مصر، وموسى في سيناء، وسليمان في أورشليم، أصعب من البحث عن الشمال في القطب الشمالي! أما التنقيب عن إبراهيم، فأعقد هو الآخر من البحث عن أصل الوجود في خربشات اللغة المسمارية. مئات المحاولات المضنية قامت لخلع إبراهيم عن مسقط رأسه في سومر ووضعه في الجزيرة العربية، ومثلها لجرّ يوسف ووضعه في إريتريا، ومثلها لنقل سيناء وموسى ووضعهما على حدود الحبشة، ناهيكم عن سحب سليمان من أورشليم ورميه في أحضان بلقيس في اليمن.

الكتاب لا يتعمّد البحث عن أحد، أو عن شيء، ولا يسعى لتأكيد أمر أو نفي آخر. جلّ ما يهدف إليه تسليط الضوء على اكتشافات الجيل الجديد من مؤيدي نصوص التوراة ومعارضيها. فقد وضعوا فرضيات جريئة في تفسير "التناقضات" وإزاحة الغموض انطلاقاً من توضيح شخصية إبراهيم وعبور موسى واختفاء سليمان. وفي التفاصيل سيندهش القارئ كيف ستمطّه الفرضيات المعاصرة إلى حدود الوهم واللامعقول من جهة، وتلاعبه النظريات العجيبة عبر خطوط المنطق والعقل من الجهة المقابلة. ومنذ أن أطلق كمال الصليبي العنان لمخيلات العرب عن أصل اليهود حتى تطايرت شعلة نظريته بكل الاتجاهات وزادت الغموض غموضاً إلى درجة أن أحدهم وجد قصر سليمان في اليونان، في حين خُيّل لآخر أن اليهود لم يتيهوا في سيناء وحسب، وإنما في صحاري الحجاز ونوبية والسودان وإثيوبيا واليمن والشام والعراق مرة واحدة!

ISBN 978-9953-0-6228-0

9 789953 062280